تفسير القرآن

للإمام العلامة شيخ الإسلام حجة أهل السنة والجماعة

أبي المظفر السمعاني

منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي

(٤٢٦-٤٨٩)

المجلد الثاني

من المائدة إلى هود

تحقيق

أبي تميم ياسر بن إبراهيم

دار الوطن

الرياض - شارع المعذر - ص.ب: ٣٣١٠

☎ ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس: ٤٧٦٤٦٥٩


بسم الله الرحمن الرحيم


تفسير القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

دار الوطن للنشر - الرياض

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس : ٤٧٦٤٦٥٩ - ص.ب : ٣٣١٠ الرمز البريدي : ١١٤٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ

تفسير سورة المائدة

القول فى تفسير سورة المائدة قال الشيخ الإمام - رضى الله عنه - سورة المائدة مدنية كلها إلا قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(١) فإنه نزل بعرفات على ما سنبين، وقال الحسن البصرى: كلها محكمة لم ينسخ منها شىء وقال الشعبى: لم ينسخ منها شىء. إلا قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله﴾(٢) على ما سنبين.

وروى عن أبى ميسرة أنه قال: أنزل الله - تعالى - فى هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها فى سائر القرآن.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ قد ذكرنا أن كل ما فى القرآن من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنما نزل بالمدينة، وكل ما نزل من قوله: ﴿يا أيها الناس﴾ فإنما أنزل بمكة، وعن ابن مسعود أنه قال: إذا سمعت الله - تعالى - يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فارعه سمعك، فإنه خير تؤمر به أو سوء تنهى عنه.

وقوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾ يقال: «أوفى» و «وفىّ» بمعنى واحد، وأما العقود: قال على بن أبى طلحة الوالبى، عن ابن عباس أنه قال: أراد بالعقود: ما أحل الله وحرم، وفرض وحدّ(٣).

وقال مجاهد :أراد بالعقود: العهود، وقيل الفرق بين العقد والعهد: أن العهد: هو الأمر بالشىء، يقال: عهدت إلى فلان كذا، أى: أمرته به، والعقد: هو الأمر مع الإستيثاق، ويدخل فى العقود النذور، وسائر العقود اللازمة يجب الوفاء بكل إلا

(١) المائدة: ٣.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) فى «ك» وحده.

مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا

اليمين على شيء مباح، لايجب الوفاء به؛ للسنة، وهى ماروى عن رسوله الله ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها؛ فليكفر عن يمينه، وليأت الذى هو خير»(١).

قوله - تعالى -: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ قال الحسن: أراد به الإبل، والبقر والغنم، وحكى قطرب عن يونس: هى الإبل، والبقر، والغنم، والخيل والبراذين، وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال: بهيمة الأنعام وهى: بقر الوحش، وحمر الوحش، وظباء الوحش، وسميت البهيمة بهيمة لاستبهام فيها، حيث لانطق لها يفهم، وبذلك سميت عجماء أيضا.

والمراد: ببهيمة الأنعام: هى الأنعام، لكن أضافه إلى نفسه، كما يقال: نفس الإنسان، وحق اليقين، ونحو ذلك، وروى قابوس بن أبى ظبيان عن ابن عباس أنه قال: بهيمة الأنعام: هى الأجنة ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ يعنى ما ذكر فى قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾(٢) ﴿غير محلى الصيد﴾ قيل هو نصب على الاستثناء، وقيل على الحال ويعنى «لامحلى الصيد» كما قال - تعالى -: ﴿غير ناظرين إناه﴾(٣) أى: لاناظرين إناه، ﴿وأنتم حرم﴾ فيه تحريم الصيد فى حال الإحرام ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله﴾ قال أبو عبيدة: الشعائر الهدايا المشعرة، وهى المعلمة بالإشعار، وكانوا (ينخسون)(٤) شيئا فى سنام البعير حتى يتلطخ بالدم، فذلك إشعار الهدى، وهو سنة، وقال مجاهد: أراد بالشعائر

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١١/١٦٤ - ١٦٦/ رقم ١٦٥١) وأحمد (٤/٢٥٧)، والنسائى (٧/١١/رقم ٣٧٨٥ - ٣٧٨٧) وابن ماجة (١/٦٨١/ رقم ٢١٠٨) من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه. وروى من حديث أبى هريرة كما عند مسلم (١١/١٦٣ - ١٦٤/ رقم ١٦٥٠). وغيره.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الأحزاب: ٥٣

(٤) فى «ك» يتجنبون.

شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ

مشاعر الحرم من الصفا والمروة وغيرهما، والمراد به النهى عن القتل فى الحرم.

﴿ولا الشهر الحرام﴾ قال عكرمة: أراد به: ذا القعدة، وقال غيره: رجب، وقيل: هو عبارة عن جميع الأشهر الحرم، وقوله: ﴿ولا الهدى ولا القلائد﴾ فالهدى: جمع الهدية، والمراد به: إبل الهدى، وأما القلائد: هى الإبل المقلدة، وكانوا يقلدون إبل الهدى، وقال عطاء: أراد به: أصحاب القلائد، وكانت عادة أهل الحرم أن يقلدوا أنفسهم، وإبلهم بشىء من لحاء شجر الحرم إذا أرادوا الخروج؛ لكيلا يتعرض لهم؛ فنهى الشرع عن التعرض لهذه الأشياء.

﴿ولا آمّين البيت الحرام﴾ أى: ولاتتعرضوا للقاصدين إلى البيت الحرام، وسبب نزول هذا: ماروى: «أن الحطم بن ضبيعة جاء فى نفر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوا وتعللوا وانصرفوا؛ حتى قال ـ عليه السلام ـ فيه: لقد أقبل بوجه كافر وأدبر بقفا غادر.

فذهب واستاق سرح المدينة؛ فتبعوه فلم يدركوه وهو يستاق الإبل، ويرتجز ويقول:

قد لفها الليل بسواق حطم ليس براعى إبل و لا غنم

ولابجزار على ظهر وضم

فلما كان بعد فتح مكة، لقيه المسلمون فى الموسم حاجا، ومعه إبل مشعرة وقلائد؛ فقصدوه، ولقيه النبى ﷺ فأشار إلى أصحابه، وقال: دونكم الرجل؛ ليأخذوه؛ فنزلت الآية»[1] منعًا للتعرض له ولشعائره وقلائده، قال الشعبى: كان هذا

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص١٣٩ - ١٤٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.
وأخرجه الطبرى فى التفسير (٦/٣٨-٣٩) عن السدى، و (٦/٣٩) عن عكرمة.
وعزاه السيوطى فى الدر (٢/٢٧٩) لابن المنذر عن عكرمة أيضاً.

فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا

كذلك، ثم نسخ بقوله: ﴿ اقتلوا المشركين ﴾[1].

وقوله: ﴿ يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ﴾ قال ابن عمر: أراد به فضل التجارة، وقيل: هو الأجر ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ وهذا أمر إباحة؛ أباح للحالّ الاصطياد.

﴿ ولايجرمنكم شنآن قوم ﴾ قال أبو عبيدة: جرم أى: كسب، ويقال: فلان جارم أهله، أى: كاسب أهله، و(أنشد)[2]

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جَرَمَتْ فَزَارةَ بعدها أن يغضبوا

أى: كسبت، وقرأ الأعمش: ﴿ ولايُجرمنكم ﴾ بضم الياء، وهو صحيح فى العربية، يقال: جرّم وأجرم، بمعنى واحد، وقيل: معناه: ولايحملنكم شنآن قوم، أى: عداوة قوم.

﴿ أن صدوكم ﴾ أى: لأن صدوكم، وقرأ أبو عمرو: «إن صدوكم» على الشرط ومعنى الآية: لايحملنكم عداوة قوم صدوكم ﴿ عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾ عليهم.

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ البر: الصدق، وقيل البر: الاجتناب عن كل منهى. وفيه قول آخر: أن البر الإسلام، والتقوى: السنة.

﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ الإثم: الكفر، والعدوان: البدعة، وقيل: الإثم الكفر، والعدوان: الظلم ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ فالميتة: هى الحيوان الميت، والدم: دم الحيوان يراق ويسفح فهو حرام، وكان أهل الجاهلية يجعلون الدم فى

(١) التوبة: ٥

(٢) فى «ك» وأنشدوا.

عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا

المباعر، ويسوونها ثم يأكلون؛ فجاء الشرع بتحريمه، وسئل ابن عباس عن الطحال، فقال: كلوه، فقيل: أليس بدم؟ قال: إن الله – تعالى – إنما حرم الدم المسفوح.

﴿ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ يعنى: سمى على ذبحه غير الله، وقيل: هو ما يذبح على الأصنام؛ فهذه الأربعة حرام، وقيل: إنها ما أُبيحت فى شرع ما، حتى قيل: إن آدم – صلوات الله عليه – نزل إلى الأرض ومعه تحريم هذه الأربعة.

﴿والمنخنقة﴾ هى الشاة التى تُخنق بحبل فتموت ﴿والموقوذة﴾ هى التى كانت يضربونها عند الصنم، حتى إذا ماتت أكلوها ﴿والمتردية﴾ التى تتردى من موضع عال فتموت.

﴿والنطيحة﴾ هى التى تنطحها أخرى فتموت ﴿وما أكل السبع﴾ ويقرأ بجزم الباء على التخفيف، ومعناه وما بقى مما أكل السبع ﴿إلا ما ذكيتم﴾ حرم هذه الأنواع، واستثنى المذكاة، وأصل التذكية: الإتمام، يقال: ذكيت النار، إذا أتممت إيقادها، ويقال: فلان ذَكِيٌّ، إذا كان تام الفهم، والزكاة فى الشرع معروفة.

﴿وما ذبح على النصب﴾ يعنى: على الأصنام، والنُصُب: نوع من الأصنام، والفرق بينها وبين الأصنام: أن الأصنام: هى المصورة المنقوشة، والنُصُب: لاتكون منقوشة، ولا مصورة، وقيل: كانت لهم أحجار منصوبة حول الكعبة، كانوا يعبدونها، ويتقربون إليها بالذبائح، ويلطخونها بالدماء؛ فحرمه الشرع.

﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ الاستقسام: طلب النصيب والأزلام: الأقداح واحدها: «زَلَم» وقيل: «زُلَم» أيضا وهى سهام كانت عند سدنة الكعبة، وكان مكتوبا على واحد اخرج، وعلى آخر: لاتخرج، وعلى واحد: أمرنى ربى وعلى آخر: نهانى ربى، وكان فيها واحد غفل، ويسمى منتحا، ليس عليه شيء مكتوب،

بالأَزْلام ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ

وكان الرجل منهم إذا أراد سفرا يأتى سادن البيت حتى يجيل الأقداح؛ فإن خرج الغفل يجيله ثانيا، حتى يخرج آخر، فإن خرج الذى عليه: «اخرج» خرج إلى السفر، وإن خرج: «لاتخرج» لم يخرج؛ فنهى الشرع عنه، ومن ذلك الحكم بالنجوم وضرب الحصا والطيرة والكهانة، وكل ذلك منهى عنه، قال ﷺ: «من تطير أو تكهن أو تعرف؛ لم ينظر إلى الجنة يوم القيامة»[١] وقال الشعبى، وغيره: الأزلام للعرب، والكعاب للعجم.

وقوله: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون﴾ وذلك أن الكفار كانوا يطمعون فى عود المسلمين إلى دينهم، حتى فتحت مكة، وأظهر الله الإسلام؛ أيسوا من ذلك؛ فهذا معنى قوله: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أن يذهب، وترجعوا إلى دينهم.

قوله - تعالى -: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ نزل هذا بعرفات، ورسول الله ﷺ على ناقته العضباء؛ فبركت من ثقل الوحى[٢]، وروى «أن رجلا من اليهود قال لعمر رضى الله عنه: إنكم تقرءون آية لو علينا أنزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، يعنى اليوم الذى أنزلت فيه، فقال عمر: أنا أعلم أنها أى يوم أنزلت، أنزلت يوم الجمعة عشية عرفة، وأشار به إلى أن ذلك اليوم لنا عيد»[٣].

---

(١) رواه تمام فى فوائده (٢/ ١٦٨/ رقم ١٤٤٤) وابن عساكر فى تاريخه (١٨/ ٩٨) واللفظ له، من حديث أبى الدرداء مرفوعاً.

ورواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١/ ٥٤٥/ رقم ٩٠٣) وابن عساكر فى تاريخه (١٨/ ٩٨)، عن أبى الدرداء موقوفاً، وقال الدارقطنى فى العلل (٦/ ٢١٩): وهو المحفوظ.

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (٦/ ٥١) من طريق السدى عن أسماء بنت عميس.

(٣) متفق عليه من حديث طارق بن شهاب رواه البخارى فى صحيحه (٨/ ١١٩/رقم ٤٦٠٦)، ومسلم (١٨/ ٢٠٢ - ٢٠٣ رقم ٣٠١٧).

ومعنى قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أى: فى الشرائع والأحكام؛ لأنها نزلت بعد استقرار الشرائع والأحكام، وقيل: لم ينزل بعد هذه الآية شىء من الأحكام حتى قيل: إن قوله: ﴿يستفتونك﴾(١) فى آية الكلالة، إنما نزل قبل هذه الآية، وقيل: بعدها.

واعلم أن الشرائع لم تنزل جملة، وإنما نزلت شيئا فشيئا، فإن فى الابتداء حين كان بمكة كان الواجب الإتيان بالشهادتين، والإيمان بالبعث، والجنة والنار، وركعتين غدوة، وركعتين عشية، وأن يكفو أيديهم عن القتال، ويصبروا على أذى المشركين، فلما كان ليلة المعراج – وهى قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا – فرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة، ثم ردت إلى خمس صلوات، كما عرف فى القصة، ثم لما هاجر إلى المدينة، فرض الله عليه الجهاد، والزكاة، ثم الصوم سنة الثالث من الهجرة، وفرض الحج سنة السابع من الهجرة، ثم فتح مكة، فلما حج حجة الوداع؛ أنزلت هذه الآية سنة عشر من الهجرة، ولم ينزل بعدها شىء من الأحكام كما بينا، وعاش بعد ذلك رسول الله ﷺ إحدى وثمانين ليلة، وتوفى فى اليوم الثانى من ربيع الأول، وقيل: توفى فى الثانى عشر من ربيع الأول، وهذا أصح.

وكانت هجرته فى الثانى عشر من ربيع الأول أيضا، واستكمل عشر سنين، وخرج من الدنيا ﷺ.

وفيه قول آخر: أن معنى قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أى: أمنتكم من العدو، وأظهرت دينكم، وأتممت عليكم نعتمى، ورضيت لكم الإسلام دينا، روت عائشة عن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله – تعالى – : إنى نظرت فى الأديان فارتضيت لكم الإسلام دينا؛ فأكرموه بالسخاء، وحسن الخلق ما صحبتموه، فإن

(١) النساء: ١٧٦.

اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا

البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار»(١).

﴿فمن اضطر فى مخمصة﴾: المخمصة: خلاء الجوف عن الغذاء، وفى المثل: «البطنة بعدها الخمصة» ﴿غير متجانف لإثم﴾ أى: غير مائل إلى إثم، وهو مجاوزة الشبع فى أكل الميتة، أو يأكلها تلذذا ﴿فإن الله غفور رحيم﴾.

قوله – تعالى –: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ سبب نزول الآية: أن زيد بن الخيل الطائى، وعدى بن حاتم الطائى سألا رسول الله ﷺ وقالا: إنا نصطاد بالكلاب، فماذا يحل (منه)(٢) وما يحرم منه؟ فنزلت الآية(٣)، وقيل: سبب نزول الآية: أن النبى ﷺ

(١) لم نجده من حديث عائشة بهذا اللفظ، وإنما روى عن عائشة من أول قوله: والبخيل بعيد من الجنة...» الحديث. رواه ابن أبى حاتم فى العلل (٢/٢٨٣/رقم ٢٣٥٢)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢/١٨٠ – ١٨١) من طريقين عنها، وقال ابو حاتم: هذا حديث باطل، وسعيد ضعيف الحديث، أخاف أن يكون أدخل له، وعزاه السيوطى فى الدر (٦/٢١٨) للبيهقى، وضعفه.

وقد روى من حديث أبى هريرة، رواه الترمذى فى جامعه (٥/٣٠٢/رقم ١٩٦١) وقال: هذا حديث غريب لانعرفه من حديث يحيى بن سعيد عن الأعرج عن أ بى هريرة إلا من حديث سعيد بن محمد، وقد خولف سعيد بن محمد فى رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، إنما يروى عن يحيى بن سعيد، عن عائشة شىء مرسل.

ورواه ابن أبى حاتم فى العلل أيضاً (٢/٢٨٣ – ٢٨٤) رقم ٢٣٥٣)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢/١٨٠) وقال أبو حاتم هذا حديث منكر.

وأما الشطر الأول من الحديث فقد روى من حديث أبى سعيد الخدرى كما فى تاريخ أصبهان لأبى نعيم (١/١٤٨)، ومن حديث عمران بن حصين، كما عند الطبرانى فى الكبير (١٨/١٥٩/رقم ٣٤٧) والأوسط كما فى مجمع البحرين – (٣/٥٢ – ٥٣/ رقم ١٤١٥).

وقال الهيثمى فى المجمع (٣/١٣٠) وفيه عمرو بن حصين العقيلى، وهو متروك، ومن طريق الطبرانى رواه أبو نعيم فى الحلية (٢/١٦٠).

وروى من حديث جابر أيضاً كما فى الدر المنثور (٦/٢١٨) وعزاه للبيهقى وضعفه.

(٢) فى «ك»: منها.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر (٢/٢٨٥) لابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، وذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص١٤٢) عن سعيد ورواه غير واحد عن عدى بن حاتم فقط انظر الدر المنثور.

لما أمر بقتل الكلاب، وقالوا يارسول الله: ماذا يحل لنا من هذه الأمة[١] التى أمرت بقتلها؟ فنزلت الآية[٢]، والأول أصح.

﴿ قل أحل لكم الطيبات ﴾ فالطيبات: كل ما تستطيبه العرب، وتستلذه من غير أن يرد بتحريمه كتاب أو سنة ﴿ وما علمتم من الجوارح ﴾ أى: الكواسب، يقال: جرح، واجترح، إذا كسب، ومنه سميت اليد جارحة؛ لأنها كاسبة، قال الشاعر:

ذات حل حسن ميسمها ... يذكر الجارح وما كان جرح

أى: ما كان كسب ﴿ مكلبين ﴾ وقرئ فى الشواذ «مكلبين» يقال: كلبه فهو مكلب، وأكلب فهو مكلب: إذا كثر كلابه، وهو مثل قولهم: أَمْشَى إذا كثرت ماشيته، قال الشاعر:

وكل فتى وإن أمشى وأَثْرى ... [سيخلجه][٣] عن الدنيا المنون

قال الأزهرى: ومعنى الكلام: وأحل لكم ما علمتم من الجوارح فى حال تكليبكم وتَضْرِيَتِكُم إياها على الصيد، واعلم أن حل الصيد لايختص بصيد الكلب على قول جمهور العلماء.

وقال طاووس: يختص به؛ تمسكا بقوله: ﴿ مكلبين ﴾ وهذا خلاف شاذ، ومعنى قوله: ﴿ مكلبين ﴾ أى: محرشين، ومغرين على الصيد، ويستوى فى ذلك كل الجوارح ﴿ تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ تؤدبونهن مما أدبكم الله.

---

(١) فى «الأصل، وك»: الآية.

(٢) رواه الطبرى فى التفسير (٦/٥٧)، والحاكم فى مستدركه (٢/٣١١) وصحح إسناده، والبيهقى فى الكبرى (٩/٢٤٥) من حديث أبى رافع، وعزاه الهيثمى فى المجمع (٤/٤٥-٤٦) للطبرانى فى الكبير، وقال: فيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف. وعزاه السيوطى فى الدر (٢/٢٨٥) للفريابى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) فى «الأصل، وك»: سيخجله. وهو خطأ.

سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ أباح صيد الجوارح إذا أمسكن على المالك، ولاخلاف فيه، فأما إذا أكل[1] من الصيد، هل يكون ممسكا على المالك، وهو يحل؟ فيه اختلاف بين الصحابة، قال سعد بن أبى وقاص، وسلمان الفارسى: إنه يحل، حتى قال سعد: كل ما أخذ كلبك، وإن بقيت منه جدية أى: قطعة، وهذا أحد قولى الشافعى - رضى الله عنه - وقال ابن عباس، وعدى بن حاتم: إنه لايحل، وهو القول الثانى للشافعى، وبه قال أكثر المفسرين، وأما الكلام فى التسمية سيأتى فى الأنعام ﴿ واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ ذكر اليوم هاهنا صلة، وقد بينا معنى الطيبات، وفيه قول آخر: أن الطيبات هن طاهرات، وكل طاهر حلال.

﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ قال مجاهد، وإبراهيم النخعى: أراد به: ذبائح أهل الكتاب ﴿ وطعامكم حل لهم ﴾ فإن قال قائل: كيف أحل لهم طعامنا وشرع لهم ذلك وهم كفار، وليسوا من أهل الشرع؟ أجاب الزجاج فقال: معناه: حلال لكم أن تطعموهم؛ فيكون خطاب الحل مع المسلمين، قال غيره: وإنما قال ذلك لأنه ذكر عقيبه (حكم)[2] النساء، ولم يذكر حل المسلمات لهم فكأنه قال: حلال لكم أن تطعموهم، حرام لكم أن تزوجوهم.

﴿ والمحصنات من المؤمنات ﴾ هذا راجع إلى النسق الأول، ومنقطع عن قوله: ﴿ وطعامكم حل لهم ﴾ ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ قال الحسن: أراد به: العفائف، وقال مجاهد: أراد به: الحرائر، وفيه إباحة الحرة الكتابية للمسلم وقضية تحريم الأمة الكتابية، وعليه أكثر العلماء، وهو قول علماء الكوفة مثل الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير وجماعة. وهذا فى الكتابية الذمية؛ فأما الحرة الكتابية

(١) فى «ك»: أكلن.

(٢) فى «ك»: حل.

الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ يَا

الحربية، فعلى قول أكثر العلماء تحل للمسلم، وقال ابن عباس: لاتحل، وقرئ ﴿ المحصنات ﴾ بكسر الصاد، وإحصان الكتابية أن تستعفف عن الزنا، وتغتسل [من][1] الجنابة ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أى: مهورهن. ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان﴾.

﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ قال مجاهد: أراد به: من يكفر بالله الذى يؤمَن به، وقال الكلبى: أراد به: ومن يكفر بكلمة الشهادة، وقال الربيع بن أنس: أراد به ومن يكفر بالقرآن، قال الزجاج: معنى قوله: ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾ يعنى: بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، أى: ومن يستحل الحرام، أو يحرم الحلال ﴿ فقد حبط عمله ﴾ وهذا أقرب إلى نظم الآية فى الإباحات، وتحليل المحرمات، وقوله ﴿ فقد حبط عمله ﴾ أى: بطل عمله ﴿ وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ يعنى: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وذلك مثل قوله: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾[2] أى: فإذا أردتَ القراءة. تقول: إذا اتَّجَرْتَ فاتَّجِر فى البُر، وإذا جالست، فجالس فلانا، أى: إذا أردت المجالسة.

وظاهر الآية يقتضى أنه يجب الوضوء عند كل قيام إلى الصلاة، ولكن بالسنة عرفنا جواز الجمع بين الصلوات بوضوء واحد، فإن رسول الله ﷺ جمع بين أربع صلوات يوم الخندق بوضوء واحد[3] وجمع ﷺ بين خمس صلوات يوم فتح مكة

(١) في الأصل: عن.

(٢) النحل: ٩٨.

(٣) روى هذا من حيث أبي سعيد الخدري، رواه الشافعي في الأم (١/٨٦)، وأحمد في المسند ٣ (٦٧ - ٦٨)، وأبو يعلى في مسنده (٢/٤٧١/ رقم ١٢٩٦)، والبيهقي في الكبرى (١/٤٠٢).
وروى من حديث ابن مسعود، رواه الترمذي في جامعه (١/٣٣٧ رقم ١٧٩) ورواه النسائي (٢/١٧ - ١٨/ رقم ٦٦٢)، وأحمد (١/٣٧٥، ٤٢٢).
وروى من حديث جابر بن عبد الله أيضاً، انظر نصب الراية (٢/١٦٦).

بوضوء واحد[1]، وحكى عن على - رضى الله عنه - أنه قال: الوضوء لكل صلاة مكتوبة. وقيل: هو على الاستحباب. وقال زيد بن أسلم: تقدير الآية: إذا قمتم إلى الصلاة من المضاجع - يعنى: من النوم - فيكون إيجاب الوضوء بالحدث؛ لأن النوم حدث.

﴿ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ﴾ يعنى: مع المرافق، قال المبرد: إذا مُدَّ الشيء إلى جنسه تدخل فيه الغاية، وإذا مُدَّ إلى خلاف جنسه، لاتدخل فيه الغاية، فقوله: ﴿ إلى المرافق ﴾ مُد إلى جنسه، فتدخل فيه الغاية. وأما قوله: ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾[2] مُدّ إلى خلاف جنسه، فلا تدخل فيه الغاية. والمرفق سمى بذلك؛ لارتفاق الإنسان به بالاتكاء عليه.

﴿ وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، والكسائى، وحفص: بالنصب؛ فيكون تقديره: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم، وقرأ الباقون ﴿ وأرجلِكم ﴾ بالكسر[3].

واختلف العلماء فى وجوب غسل الرجل، فأكثر العلماء - وعليه الإجماع اليوم - أن غسل الرجل و اجب، ويحكى عن على أنه قال: يجوز المسح على الرجل، وهو الواجب، وحكى خلاف عنه، قال الشعبى: نزل القرآن بغسلين ومسحين، وقال محمد بن جرير الطبرى: يتخير بين المسح والغسل؛ لاختلاف القراءة.

والأصح أنه يجب الغسل، وقد دلّت السنة عليه، فروى عن النبىﷺ أنه قال:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/٢٢٧/ رقم٢٧٧)، وأبو داود (١/٤٤/ رقم١٧٢)، والترمذي (١/٨٩/رقم ٦١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (١/٨٦/ رقم١٣٣) وابن ماجة (١/٧٠/ رقم ٥١٠) من حديث بريدة. رضي الله عنه.

(٢) البقرة: ١٨٧.

(٣) وقرأ يعقوب بالنصب أيضًا. انظر النشر (٢/٢٥٤).

وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم

«ويل للأعقاب من النار»[1] وروى مرفوعا: «لايقبل الله - تعالى - صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه؛ فيغسل وجهه، ثم يديه، ثم يمسح برأسه، ثم يغسل رجليه»[2].

وقال ﷺ: «ما من رجل يتوضأ فيغسل وجهه إلا (خرجت)[3] خطاياه التى نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطرة من الماء - إلى أن قال -: وإذا غسل رجليه، خرجت خطاياه التى مشت بها قدمه مع الماء، أو مع آخر قطرة من الماء»[4]، وروى: «أنه ﷺ رأى رجلا توضأ، وبقى من رجله قدر ظفرة لم يصبه الماء؛ فقال: ارجع فأحسن الوضوء»[5] وأمره بالرجوع دليل وجوب.

فأما قوله: ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ من قرأ بالنصب فهو ظاهر فى وجوب الغسل، وأما من قرأ بالخفض فتقديره: فامسحوا برءوسكم، واغسلوا أرجلكم. ويجوز أن يعطف الشيء على الشيء وإن كان يخالفه فى الفعل، قال الشاعر:

ورأيت زوجك فى الوغى متقلـدا سيفـا ورمحـا

أى: متقلدا سيفا، ومتنكبا رمحا، وقال آخر:

علفتها تبنا وماء باردا

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو، رواه البخاري (١/٣١٩/ رقم ١٦٣) ومسلم (٣/١٦٤ - ١٦٦/ رقم ٢٤١).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (١/٩٧): لم أجده بهذا اللفظ، وقد سبق الرافعي إلى ذكره هكذا ابن السمعاني في «الاصطلام»، وقال النووي: إنه ضعيف غير معروف، وقال الدارمي في جمع الجوامع: ليس بمعروف ولا يصح.

(٣) في «ك»: خرت.

(٤) رواه مسلم (٣/١٦٧ - ١٦٩/ رقم ٢٤٤)، والترمذي (١/ ٦-٧/ رقم٢)، وأحمد في مسنده (٢/٣٠٣) وابن خزيمة في صحيحه (١/٥ رقم ٥)، وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (٣/٣١٥/رقم ١٠٤٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٣/١٦٧/ رقم ٢٤٣)، وأحمد في مسنده (١/٢١) وابن ماجه (١/٢١٨/ رقم ٦٦٦) من حديث عمر - رضي الله عنه -.

وروى أيضاً من حديث أبي بكر، وأنس بن مالك وغيرهما، انظر نصب الراية (١/٣٥ - ٣٦).

مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

أى: وسقيتها ماءً بارداً؛ فكذلك قوله - تعالى -: ﴿ وامسحوا برءوسكم وأرجلكم ﴾ أى: واغسلوا أرجلكم؛ إلا أنه خفض على الاتباع والمجاورة كما قالت العرب: «جحر ضب خرب»، ونحو ذلك.

وقال أبو زيد الأنصارى - وهو إمام اللغة - العرب قد تسمى الغسل الخفيف: مسحا، تقول العرب: تمسح ياهذا، يريدون به: اغتسل، فعطفه على المسح لاينفى الغسل؛ فيجوز أن يكون المراد بهذا المسح فى الرأس حقيقة المسح، وفى الرجل الغسل؛ ولأن غسل الرجل على الأغلب لايخلو عن مسح؛ [ولذلك](١) فساغ أن يسمى غسلها: مسحا، وقوله: ﴿إلى الكعبين﴾ يعنى: مع الكعبين، كما بينا فى المرافق، والكعبان: هما العظمان الناتئان على جانبى القدم.

﴿ وإن كنتم جنبا فاطهروا ﴾ أى: فاغتسلوا ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ﴾ وقد بينا الكلام فيه. ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ وقوله: منه. دليل على أن الصعيد هو التراب؛ لتحقق المسح منه ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ أى: ضيق ﴿ ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ قال محمد ابن كعب القرظى: أراد بإتمام النعمة: تكفير الخطايا بالوضوء على ما روينا، وهذا مثل قوله: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ﴾(٢) يعنى: بغفران الذنب، وفى الوضوء تكفير الخطايا التى ارتكبها فى الدنيا، ونور يوم القيامة قال ﷺ: «أمتى غرّ محجّلون من آثار الوضوء يوم القيامة؛ فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»(٣).

---

(١) في «الأصل» و«ك»: وذلك.

(٢) الفتح: ٢.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة، فرواه البخاري (١/ ٢٨٣/ رقم ١٣٦)، ومسلم (٣/ ١٧٠ - ١٧١/ رقم ٢٤٦).

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا

قوله – تعالى –: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به﴾ قال مجاهد: أراد به: الميثاق الذى أخذه الله – تعالى – على ذرية آدم قبل كون الخلق. وقال ابن عباس: أراد به: الميثاق الذى أخذه رسول الله ﷺ على كل من أسلم بالسمع والطاعة فى اليسر والعسر، والمنشط والمكره ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾ أى: [بما][1] فى الصدور.

قوله – تعالى –: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ أى: كونوا قوّامين بالعدل، قوّالين للصدق ﴿ولايجرمنكم﴾ أى: ولايحملنكم ﴿شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ قيل هذا فى موضع النصب، وفعل الوعد واقع عليه، ومثله قول الشاعر:

رأيت الصالحين لهم جزاء وجنات وعينا سلسبيلا

ومنهم من قال: ﴿لهم مغفرة﴾: ابتداء كلام، أى: لهم مغفرة موعودة، وموضع الرفع ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

قوله – تعالى –: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ الهم: حديث النفس بالفعل، ويقال: أهم بالشىء واهتم به، إذا عنى به.

وفى سبب نزول الآية قولان: قال جابر: سببه «أن رسول الله ﷺ كان فى بعض الأسفار[2]، فتفرق أصحابه فى العضاة فى منزل؛ فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة

(١) في «الأصل» و«ك»» كما.

(٢) في «ك»: أسفاره.

اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ

منها، وعلق سيفه بها، فجاء أعرابى، وسل سيفه، وقام على رأسه، وقال: من يمنعك منى؟ فقال: الله تعالى؛ فسقط سيفه وذهب، فنزلت الآية»[1].

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وجماعة: نزلت الآية على سبب آخر، وذلك: «أن النبى ﷺ كان بينه وبين بنى قريظة عهد على أن يستعينوا به، وهو يستعين بهم على المشركين؛ فجاء يوما إليهم ليستعين بهم فى دية العامريين (ونزل)[2] تحت حائط؛ فهموا أن يفتكوا به، فقال واحد منهم - يقال له عمرو بن حجاش -: أنا ألقى عليه حجرا؛ لتستريحوا منه؛ فنزل جبريل وأخبره بذلك»[3] فهذا معنى قوله: ﴿إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا﴾ النقيب للقوم مثل الرئيس، وقال أبو عبيدة: النقيب: الكفيل، وقال غيره: هو الأمين، والنقيب فوق العريف، والمنكب عون العريف، وسمى نقيبا؛ للبحث والاستخراج الذى يكون منه.

(١) هذا الحديث ثابت في الصحيحين دون قوله: فنزلت الآية، فقد رواه البخاري (٦/١١٣/ رقم ٢٩١٠) ومسلم (١٥/٦٤/ رقم ٨٤٣).

وقد رواه الطبري في تفسيره (٦/٩٤) وزاد: وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبي ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي. وتأول: ﴿**اذكروا نعمة الله...**﴾ الآية.

وعزاه السيوطي في الدر (٢/٢٩٢) لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل.

(٢) في «ك»: وجلس.

(٣) رواه الطبري في التفسير (٦/ ٩٤) وأبو نعيم في الدلائل - كما في الدر المنثور (٢/٢٩٢) عن ابن عباس بنحوه.

ورواه الطبري (٦/٩٣) عن مجاهد.

وفي كل الروايات: بنو النضير، وليس بني قريظة.

أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ

والقصة فى ذلك: أن موسى – صلوات الله عليه – جعل على قومه اثنى عشر نقيبا على كل سبط نقيبا، فروى أنه بعثهم إلى مدينة الجبارين ليتعرفوا ويستخبروا عن حالهم، فلما رجعوا، خوّفوا بنى إسرائيل من قتالهم، وقالوا: أنتم لا تقاومونهم، وخالفوا أمر موسى إلا (رجلان)[1] منهم، أحدهما: يوشع بن نون، والآخر: كالب بن يوقنا، وستأتى قصتهم مشروحة.

﴿ وقال الله ﴾ تعالى ﴿ إنى معكم ﴾ يعنى: بالنصر ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: عظمتوهم، وقال غيره: نصرتموهم، والتعزير: التأديب فى اللغة، وأصل التعزير: المنع؛ ولذلك سمى التأديب. تعزيرا؛ لأنه يمنع المؤدّب عن فعل ما أدب عليه وعن سعد بن أبى وقاص: أصبحت بنو أسد تعزرنى على الإسلام. أى: تؤدبنى.

﴿ وأقرضتم الله قرضا حسنا ﴾ وهو إخراج الزكاة، وقال زيد بن أسلم: معناه النفقة على الأهل، وعن بعض السلف أنه سمع رجلا يقول: ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾[2] فقال: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر.

﴿ لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك[منكم][3] فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى: أخطأ طريق الحق.

قوله – تعالى –: ﴿ فبما نقضهم ﴾ «ما» صلة، أى: فبنقضهم ﴿ ميثاقهم لعناهم ﴾ أبعدناهم عن الرحمة ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ أى: جافة غير لينة لاتدخلها الرحمة، وتقرأ: «قسية»[4] قيل: معناه: قاسية، فعيل بمعنى فاعل، وقيل: معناه: أن قلوبهم ليست بخالصة الإيمان؛ عاشوا بها بين الكفر والنفاق، ومنه «الدراهم القسيّة» وهى المغشوشة، قال الشاعر:

(١) في «ك»: رجلاً، وهو خطأ. (٢) البقرة: ٢٤٥.

(٣) ليست في «الأصل». (٤) وهى قراءة حمزة، والكسائى، انظر النشر (٢ / ٢٥٤).

ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

لها صواهل فى صم الخيل كما صاح القسية فى كف الصارف(١)

شبه صواهل الخيل فى صم الحجارة بصوت الدراهم فى كف الصيرفى ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ تحريفهم الكلم: هو تبديلهم نعت الرسول، وقيل المراد به: تحريفهم بسوء التأويل ﴿ونسوا حظا مما ذكروا به﴾ أى: ونسوا نصيبا مما ذكروا به، والحظ: النصيب.

﴿و لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ قيل الخائنة: الخيانة، فاعل بمعنى المصدر، مثل القائلة بمعنى القيلولة، هذا قول قتادة، وقال مجاهد: معناه: فرقة خائنة؛ لأن الآية فى اليهود؛ فيستقيم هذا التقدير ﴿ولا تزال تطلع﴾ على قوله: ﴿خائنة منهم﴾ ﴿إلا قليلا منهم﴾ يعنى: الذين أسلموا مثل: عبد الله بن سلام، وجماعة.

﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أى: أعرض عنهم، ولاتتعرض لهم، وقيل: صار هذا منسوخا أيضا بقوله: ﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله﴾(٢) فى سورة التوبة ﴿إن الله يحب المحسنين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ ومن اليهود، والصحيح أن الآية فى النصارى خاصة؛ لأنه قد تقدم ذكر اليهود، وقال الحسن البصرى - رحمه الله -: فى هذا دليل على أنهم نصارى بتسميتهم؛ لا بتسمية الله - تعالى - ﴿أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به﴾ هو كما بينا فى اليهود ﴿فأغرينا﴾ أى: أوقعنا ﴿بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ والإغراء: أصله الإلصاق، ومنه الغراء،

(١) كذا وقع البيت فى «الأصل، وك».

وفى لسان العرب (مادة: قسا):

لها صواهل فى صُمِّ السِّلامِ كما صاح القَسِيَّاتُ فى أيدى الصياريف

وعزا البيت لأبى زبيد.

(٢) التوبة: ٢٩.

﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ

ومعناه: ألصقنا بهم العداوة حتى صاروا فرقا، وأحزابا، منهم اليعقوبية والملْكائية، والنسطورية. ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ .

قوله - تعالى -: ﴿يا أهل الكتاب﴾ والمراد به: أهل الكتابين: التوراة، والإنجيل، لكن ذكر الكتاب، وهو اسم الجنس، فينصرف إلى الفريقين ﴿قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما (كنتم)[1] تخفون من الكتاب﴾ يعنى: اللَّذَيْنِ أخفوا من نعت محمد وآية الرجم، ونحو ذلك ﴿ويعفو عن كثير﴾ يعنى: يعرض عن كثير مما أخفوا، فلا يتعرض له.

﴿قد جاءكم من الله نور﴾ قيل: هو الإسلام، (وسمى نور لأنه يهتدى به كما يهتدى بالنور، وقيل محمد ﷺ)[2] وسمى نورا لأنه يتبين به الأشياء، كما يتبين بالنور. ﴿وكتاب مبين﴾ هو القرآن.

قوله - تعالى -: ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ أى: يهدى به الله سبل السلام من اتبع رضوانه، قال السدى: السلام هو الله - تعالى - وسبل السلام: طريق الله - تعالى - وقال: السلام: هو السلامة، كاللذاذ واللذاذة بمعنى واحد، والمراد به: طرق السلامة.

﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ يعنى: من الكفر إلى (الإسلام)[3]، وسمى الكفر ظلمة؛ لأنه يتحير فى الظلمة، [وسمى][4] الإسلام نورا لما بينا ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ قيل: هو الإسلام، وقيل: [هو][5] القرآن.

قوله - تعالى -: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ قيل: هذا قول اليعقوبية من النصارى، قالوا: إن المسيح إله، وقيل: إنهم لما قالوا: المسيح ابن

---

(١) ليست في «ك».
(٢) سقط من «ك».
(٣) في «ك» الإيمان.
(٤) ليست في «ك».
(٥) ليست في «الأصل».

اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

الله، وابن كل أحد يكون من جنسه، فكأنهم قالوا: المسيح هو الله.

﴿قل فمن يملك من الله شيئا﴾ أى: فمن يقدر أن يدفع أمر الله ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا﴾ ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ فيه إشارة إلى أن المستحق للألوهية من له ملك السموات، ومن له هذه القدرة فإياه فاعبدوا.

قوله - تعالى -: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ يعنى: أن الله كالأب لنا فى الحنو، والعطف، ونحن كالأبناء فى القرب، والمنزلة، وقال إبراهيم النخعى - فى اليهود -: إنهم وجدوا فى التوراة: «يا أبناء أحبارى» فبدلوا، وقرءوا: «يا أبناء أبكارى» ؛ فمن ذلك قالوا: نحن أبناء الله، وأحباؤه، وأما فى النصارى فإنهم حكوا عن عيسى أنه قال: «أذهب إلى أبى و أبيكم»؛ فمن ذلك قالوا: نحن أبناء الله.

﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ يعنى: أن الأب لايعذب ابنه، والحبيب لايعذب حبيبه، أى: فلم يعذبكم الله بذنوبكم، وهو على زعمكم أبوكم وحبيبكم، ثم قال: ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أى: آدميون من جملة الخلق ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل﴾ أى: على انقطاع من الرسل، واختلفوا فى زمان الفترة، قال أبو عثمان النهدى: زمان الفترة: بين عيسى ومحمد، وكان ستمائة سنة، وقيل خمسمائة سنة، وإنما سماه زمان الفترة؛ لأن الرسل كانوا بعد موسى تترى من غير انقطاع، ولم يكن بعد عيسى رسول سوى محمد ﷺ ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ قال الكوفيون: معناه: أن لاتقولوا: وقال البصريون معناه: كراهة أن تقولوا، وهو

قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ

كالقولين فى قوله: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾،[1] ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ أى: منكم أنبياء ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾ قال ابن عباس: يعنى أصحاب خدم وحشم، قال قتادة: لم يكن لمن قبلهم خدم وحشم، فلما كان لهم خدم كانوا ملوكا، قال مجاهد: معناه: لايدخل عليكم[2] إلا بإذنكم، ومن لايدخل عليه إلا بإذنه فهو ملك، وروى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال: «من كان له فى بنى إسرائيل خادم، وامرأة، ودابة، كان ملكا»[3] وروى أن رجلا جاء إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: أنا من فقراء المهاجرين، فقال: ألك مسكن تأوى إليه؟ قال: نعم، فقال: ألك امرأة تسكن إليها؟ قال: نعم، فقال: أنت من الأغنياء. قال الرجل: ولى خادم يخدمنى، فقال: أنت من الملوك.

وقال السدى – فى المتقدمين – معناه: وجعلكم ملوكا تملكون أمر أنفسكم، وخلصكم من استعباد فرعون. وقال المؤرج: أراد به: وجعلكم أخيارا، والملوك: الأخيار بلغة هذيل وكنانة.

﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعنى: من المن والسلوى، وانفجار الحجر وتظليل الغمام، ونحو ذلك.

---

(١) النساء: ١٧٦.

(٢) في «ك» بعد كلمة عليكم: لا يدخل عليه.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في التفسير كما في الدر (٢/٢٩٦).

وله شاهد مرسل عن زيد بن أسلم، رواه الطبري في التفسير (٦/١٠٨ – ١٠٩) وأبو داود في المراسيل (ص ١٨٠ – ١٨١/ رقم ٢٠٤).

وعزاه السيوطي في الدر (٢/ ٢٩٦) للزبير بن بكار في «الموفقيات».

اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ

قوله - تعالى -: ﴿ ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ﴾ قيل: هى دمشق، وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة: هى(٢) جميع الشام، وقيل: هى بيت المقدس، وأرض الطور.

وقوله ﴿ كتب الله لكم ﴾ أى: وهب الله لكم، وقيل: فرض الله لكم أن تدخلوها ﴿ ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ قوله - تعالى -: ﴿ قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين ﴾ الجبار: هو كل عاتٍ يجبر الناس على مراده، والله - تعالى - جبار، يجبر الخلق على مراده، وذلك منه حق وله مدح، وأما الجبروت للخلق ذم، وأصل الجبار: المتعظم الممتنع عن الذل والقهر، ومنه يقال: نخلة جبارة إذا كانت طويلة ممتنعة على وصول الأيدى إليها، وسمى أولئك القوم جبارين؛ لطولهم، وامتناعهم بقوة أجسادهم، والقصة فى ذلك: أن هؤلاء كانوا فى مدينة «أريحا» بالشام، وكان فيها ألف قرية فى كل قرية، ألف بستان، وكان فيها العمالقة، وبقية من قوم عاد وهى مدينة الجبارين.

روى عكرمة عن ابن عباس: أن موسى صلوات الله عليه كان قد بعث أولئك النقباء، وهم اثنا عشر نقيبا إلى تلك المدينة؛ ليتعرفوا أحوالهم، فلما وصلوا إليها لقيهم رجل منهم؛ فأخذهم جملة فى كمه وأتى بهم إلى الملك، ونثرهم بين يديه، وقال هؤلاء الذين جاءوا ليقاتلونا؛ فقال الملك: ارجعوا وأخبروهم بما لقيتم، فرجعوا.

وفى بعض التفاسير: أنهم أخذوا عنقودا من العنب، وجعلوه على عمود بين رجلين حتى قدروا على حمله، وأخذوا رمانتين، وحملوهما على دابة كادت تعجز عن حملهما فلما رجعوا إلى بنى إسرائيل خوفوهم، وقالوا: إنكم لاتقاومونهم إلا رجلين منهم: يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، وذكرهما فى الآية الأخرى، وأما الباقون من بنى إسرائيل خالفوا وامتنعوا من قتالهم، وقالوا: ياموسى إن فيها قوما جبارين ﴿ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾.

وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ

قوله - تعالى -: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما﴾ هما يوشع وكالب (قالا)[1]: ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ وذلك باب كانوا عرفوا أنهم إذا دخلوا من ذلك الباب غلبوا، (ويقرأ)[2] في الشواذ: «قال رجلان من الذين يُخَافون» - بضم الياء - فيكون معناه: رجلان من أولئك العمالقة، قيل: أسلم رجلان منهم، وقالا هذه المقالة ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها﴾ وهذا معلوم ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ قال الحسن: كفروا بهذه المقالة، وقال غيره: بل فسقوا بمخالفة أمره، وتقدير قوله: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا﴾ أى: فاذهب أنت، وليعنك ربك على القتال، وفيه قول آخر: أن معنى قوله: ﴿فاذهب أنت وربك﴾ أى: وكبيرك، وأرادوا أخاه الأكبر هارون، والعرب تسمى الكبير ربا، قال الله -تعالى- فى قصة يوسف: ﴿إنه ربى أحسن مثواى﴾[3] أى: كبيرى وأراد به «عزيز مصر» ويحتمل أنهم قالوا ذلك لموسى؛ جهلا وغباوة، ففسقوا به، وروى ابن مسعود عن النبى ﷺ «أنه لما خرج يوم بدر، قال له المقداد بن عمرو: لا نقول لك ماقالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: سر أنت حيث شئت [فإنا][4] معك سائرون»[5] وروى: «أن الأنصار قالوا يارسول الله: لو ضربت بأكبادها إلى برك الغماد سرنا معك»[6] يعنى: بأكباد الإبل إلى برك الغماد، وهو موضع.

قوله - تعالى -: ﴿قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى﴾ معناه: لا أملك إلا

---

(١) ليست في «ك».

(٢) في «ك»: ويقال.

(٣) يوسف: ٢٣.

(٤) في «ك»: فإنك، وهو خطأ.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٢/ رقم ٤٦٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٣٣/ رقم ١١١٤٠) والحاكم في المستدرك (٣/ ٢١).

(٦) أخرجه مسلم (١٢/ ١٧٤/رقم ١٧٧٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٢١٩ - ٢٢٠)، وابن حبان - الإحسان - (١١/ ٢٤ - ٢٥/ رقم ٤٧٢٢) كلهم من حديث أنس.

وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾

نفسى، وأخى لايملك إلا نفسه، وقيل معناه: لاتطيعنى إلا نفسى، ولايطيعنى إلا أخى ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أى: فافصل بيننا، و(قيل)[1] معناه: فاقض بيننا وبين القوم الفاسقين.

قوله - تعالى -: ﴿قال فإنها محرمة عليهم﴾ قيل ها هنا تم الكلام، ومعناه: أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أبدا، ولم يُرِدْ به: تحريم تعبد، وإنما أراد به: تحريم منع، فإنهم منعوا عنها، فلم يدخلوها أبداً، وإنما دخلها أولادهم، وقيل الآية متصلة بعضها بالبعض.

وإنما حرّمت عليهم أربعين سنة كما قال: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة﴾

﴿يتيهون فى الأرض﴾ وقد أوقفهم الله - تعالى - فى التيه؛ عقوبة لهم على ما خالفوا، وقيل: إن أرض التيه التى تاه فيها بنو إسرائيل كانت: ستة فراسخ فى طول اثنى عشر فرسخا، وكان عدد التائهين فيها: ستمائة ألف، قاموا فيها، وكانوا كلما أمسوا من موضع للمسير، فإذا أصبحوا (أصبحوا)[2] على ذلك الموضع، وكلما أصبحوا من موضع للمسير، فإذا أمسوا أمسوا على ذلك الموضع، وهكذا كل يوم إلى أن ماتوا فيها، وقيل: كان موسى وهارون فيهم، وإنما توفيا فى التيه، وقيل: لم يكونا فيهم، وإنما كان ذلك عقوبة عليهم، فلما ماتوا فى التيه ونشأ أولادهم، أقبل يوشع بن نون بأولادهم إلى الأرض المقدسة، وحارب العمالقة ونصره الله تعالى عليهم حتى فتح تلك المدينة، وكان يوم الجمعة وضاق النهار بهم فحبس الله - تعالى - الشمس ساعة حتى فتح المدينة ثم غربت الشمس من ليلة السبت، إذ ماكان يجوز لهم عمل فى السبت؛ فَفَزَّعَ الله قلوبهم يوم الجمعة؛ فهذا جملة الكلام فى قوله: ﴿أربعين سنة يتيهون فى الأرض﴾ ﴿فلا تأس﴾ أى فلا تحزن ﴿على القوم الفاسقين﴾.

(١) ليست في «ك».

(٢) تكررت فى «الأصل» مرتين، ولم تتكرر فى «ك».

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ

قوله - تعالى - : ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا ﴾ قال ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد : أراد به ابنى آدم من صلبه هابيل، وقابيل، وقال الحسن : أراد به رجلين من بنى إسرائيل، والأصح هو الأول.

والقصة فى ذلك : قيل : إن حواء كانت تلد كل بطن غلاما وجارية، فولدت بطنا هابيل وأخته، وولدت بطنا قابيل وأخته، فأمر الله - تعالى - آدم أن يزوج أخت هابيل من قابيل، وأخت قابيل من هابيل، ولم يرض قابيل، (وقال)[1] : أنا أحق بأختى، وكانت أحسن من أخت هابيل، وفى بعض التفاسير : أن قابيل قال : أنا أحق بأختى؛ لأنى من نسل الجنة، وهابيل من نسل الأرض، وقيل : إن حواء علقت به فى الجنة؛ فمن ذلك قال : إنى من نسل الجنة، فأمرهما آدم أن يقربا قربانا، فكل من يقبل قربانه فهو أولى بتلك الأخت.

وكان هابيل صاحب غنم، وقابيل صاحب زرع، فعمد هابيل إلى كبش من أحسن غنمه، وعمد قابيل إلى أخبث زرعه، ووضعاه موضعا، فجاءت النار، وأكلت قربان هابيل، وكان ذلك علامة القبول يومئذ، ولم تأكل قربان قابيل؛ (فهذا)[2] معنى قوله : ﴿ إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ﴾ يعنى هابيل ﴿ ولم يتقبل من الآخر ﴾ يعنى : قابيل ﴿ قال لأقتلنك ﴾ حسده قابيل، وقصده ليقتله؛ فأجاب هابيل، وقال : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ عن المعاصى، وعن أبى الدرداء أنه [قال][3] : « لأن أعلم [أن][4] الله - تعالى - قَبِل صلاةً من صلاتى أحبُّ إلىّ من الدنيا وما فيها؛ لأنَّ الله - تعالى - يقول : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ قال قتادة : المتقون : أهل لا إله إلا الله.

---

(١) ليست فى « ك ».

(٢) ليست فى « ك ».

(٣) ليست فى « الأصل » ولا فى « ك ».

(٤) من « ك ».

الآخر قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي

قوله - تعالى -: ﴿لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين﴾ قال الحسن، ومجاهد: كان [من شرع آدم أن](1): مَن قُصِدَ بالقتل؛ فواجب عليه الكفُّ عن الدفع، والصبرُ على الأذى، وكذا كان فى شرع نبينا ﷺ فى الابتداء، فأما قوله: ﴿ما أنا بباسط يدى إليك﴾ يعنى: بالدفع. وقيل: لم يكن ذلك شرعا، وإنما قال ذلك؛ استسلاما للقتل؛ وطلبا للأجر، وهذا جائز لكل من يقصد قتله، أن يستسلم وينقاد، وكذا فعل عثمان - رضى الله عنه - وهو أحد قولى الشافعى، وفيه قول ثالث: أن المراد به: لئن ابتدأت بقتلى ما أنا بمتدئ بقتلك، والصحيح [آخر](2) القولين.

قوله - تعالى -: ﴿إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ قال ابن عباس، وابن مسعود: معناه: أن ترجع بإثم قتلى وإثم معاصيك التى سبقت، فإن قابيل كان رجل سوء، وقيل: كان كافرا، وقيل: هو أحد اللذين ذكرهما الله - تعالى - فى «حم السجدة»: ﴿وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس﴾(3) فالذى من الجن إبليس، والذى من الإنس قابيل، وقال مجاهد: معنى قوله: ﴿أن تبوء بإثمى وإثمك﴾: أن ترجع بإثم قتلى، وإثم معصيتك التى لم يُتَقَبَّل لأجلها قربانك، أو إثم حسدك إياى، وهذا اختيار الزجاج، وقال ابن كيسان: إنما قال ذلك؛ على طريق التمثيل، يعنى: لو قتلت أنا كان علىّ الإثم، ولو قتلت أنت كان عليك الإثم، فأنا لا أقتل حتى تقتل أنت؛ فتبوء بالإثمين، فيكون كلا الإثمين عليك، فإن قال قائل: كيف قال: أريدأن تبوء بإثمى وإثمك، وإرادة القتل والمعصية لاتجوز؟ أجابوا عنه من وجوه: أحدها: قالوا: ليس ذلك بحقيقة إرادة، ولكنه لما علم أنه يقتله لامحالة، ووطن نفسه على الاستسلام؛ طلبا للثواب،

(1) تكررت فى «الأصل، وك».
(2) فى «الأصل»، و«ك»: أَحَدْ، وهو خطأ.
(3) فصلت: ٢٩.

وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ

فكأنه مريد لقتله مجازا وإن لم يكن مريدا حقيقة، وقيل معناه: إنى أريد أن تبوء بعقاب قتلى، وعقاب قتلك؛ فتكون إرادة على موافقة حكم الله – تعالى – فيه، ولاتكون إرادة للقتل بل لموجب القتل من الإثم والعقاب، وفيه قول ثالث: أن معناه: إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك؛ فكأنه كان يمنعه عن القتل، وأراد ترك القتل؛ كيلا يبوء بالإثم.

قوله – تعالى –: ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ قال مجاهد: فشجعت له نفسه، وقال قتادة: زينت له نفسه، وقيل: سهّلت، وانقادت له نفسه، ومنه يقال: ظبية أطاعت لها أصول الشجرة، أى: انقادت لأكلها.

﴿فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ أى: خسر بقتله الدنيا والآخرة، أما الدنيا: لأنه أسخط والديه، وبقى بلا أخ، وأما الآخرة: لأنه أسخط ربه، واستوجب النار.

والقصة فى قتله إياه: أنه لما أراد قتله لم يعرف كيف يقتله، فجاء إبليس بحجر، وقال: اشدخ به رأسه، ففى رواية أنه رماه بذلك الحجر، وهو مستسلم له؛ فشدخ رأسه، وفى رواية أخرى: اغتاله فى النوم، وشدخ رأسه؛ فقتله، وشربت الأرض دمه فلما جاء إلى آدم، قال له: أين هابيل؟ فقال: أجعلتنى رقيبا عليه، ما أدرى! قال له آدم: إن الأرض تصرخ بدمه إلىّ، ثم لعن الأرض التى شربت دمه، فلا تشرب الأرض بعد ذلك دما إلى يوم القيامة، وبكى آدم عليه كثيرا، وأنشأ يقول:

تغيرت البلاد ومن عليها ... ووجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذى لون وطعم ... وقلّ بشاشة الوجه المليح

وهذا أول قتل جرى فى بنى آدم، وفى الخبر «مَا من رجل يُقْتَلُ إلى يوم القيامة؛ إلا وعلى ابن آدم كفل منه؛ فإنه أول من سن القتل»(١).

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود، فرواه البخارى (٦ / ٤١٩ رقم ٣٣٣٥ وطرفاه فى ٦٨٦٧، ومسلم (١٦٧٧).

يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ

قوله - تعالى -: ﴿فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض﴾ فى القصص: أن قابيل لما (قتله رجع إليه)[1]، وأخذه، وجعله فى جراب وحمله على عاتقه أربعين يوما، وقال ابن عباس، سنة كاملة، قال مجاهد: مائة سنة حتى أنتن على عاتقه، وما كان يعرف مواراته: فبعث الله غرابين فاقتتلا، [فقتل][2] أحدهما الآخر، ثم إن القاتل منهما بحث فى الأرض ليوارى الثانى، وقيل: كان مَلَكًا على صورة غراب ﴿يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه﴾ أى: جيفة أخيه، وقيل: عورة أخيه؛ لأنه كان قد سلبه ثيابه.

﴿قال ياويلتى﴾ وهذه كلمة دعاء الهلاك ﴿أعجزت أن أكون﴾ أضعفت أن أكون ﴿مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين﴾ فإن قال قائل: هل كان ندمه على القتل توبة منه؟

قيل: لم يكن ندم على القتل، وإنما معناه: أنه أصبح من النادمين على حمله على عاتقه، (والتطو اف)[3] به؛ لما (لحقه)[4] من التعب فيه، وقيل: إنما ندم لقلة النفع بقتله؛ فإنه أسخط والديه، وما نفع بقتله شيئا؛ فندم لذلك، لا أنه ندم على القتل، وفى القصة أنه لما قتله استوحش من الناس، وكان كلما لقى إنسانا ظن أنه يأتى ليقتله فهرب منه، وكان هكذا أبدا حتى قتله بعض أولاده.

قوله - تعالى -: ﴿من أجل ذلك﴾ أى: من خيانة ذلك ﴿كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض﴾ قرأ الحسن: «أو فسادا فى الأرض» تقديره بغير نفس، وبغير أن عمل فسادا فى الأرض، والمعروف: أو فسادٍ فى الأرض، وتقديره: بغير نفس، وبغير فساد فى الأرض: من كفر، أو زنا، ونحوه،

(١) فى «ك»: قدم إليه رجع.

(٢) فى «الأصل» و«ك»: قتل.

(٣) فى «ك»: والتطوف.

(٤) فى «ك»: تحفه، وهو خطأ.

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ

يوجب إباحة قتله على ما قال ﷺ: «لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس»[1].

﴿فكأنما قتل الناس جميعا﴾ قال ابن عباس: معناه: من قتل نفسا بغير نفس فقد أوبق نفسه كما إذا قتل الناس جميعا؛ (فقد أوبق نفسه)[2] ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ أى: ومن امتنع عن قتل واحد من الناس؛ فيكون كأنه أحيا الناس جميعا، وقال قتادة: معناه من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا فى الإثم، ومن أحياها، أى: تعفف وامتنع عن قتلها، فكأنما أحيا الناس جميعا فى الثواب، وقيل: معناه: من قتل نفسا، فكأنما قتل الناس جميعا على معنى أن جميع الناس خصماؤه فيه، ومن أحياها، فكأنما أحيا الناس جميعا، على معنى أنهم يشكرونه، ويحمدونه على العفو، أو ترك القتل.

﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾.

قال ابن عباس: الآية فى قوم من المشركين، كان بينهم وبين النبى ﷺ عهد، فنقضوا العهد، وسعوا فى الأرض بالفساد، وقال أنس: «الآية فى رهط من عرينة، أتوا النبى ﷺ ووجوههم مصفرة، وبطونهم منتفخة؛ فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة؛ ليشربوا من أبوالها، وألبانها، ففعلوا فلما صَحُّوا، قتلوا الراعى، واستاقوا الذود؛ فبعث رسول الله ﷺ فى طلبهم، فأدركوهم، فأُتى بهم إلى النبى ﷺ، فقتل بعضهم (وقطع)[3] بعضهم من خلاف وسمل أعين بعضهم، وتركهم فى الحرة حتى

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود، فرواه البخارى (١٢/ ٢٠٩/ رقم ٦٨٧٨) ومسلم (١١/ ٢٢٦ – ٢٢٨/ رقم ١٦٧٦).

(٢) كذا فى «الأصل» و«ك»، ولعلها مكررة.

(٣) فى «ك»: وقتل، وهو خطأ.

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

ماتوا»[١] وفيهم نزلت الآية ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾.

قيل: معناه يحاربون أولياء الله، وقيل: هو صحيح فى العربية، فإن من عصى غيره فقد حاربه، فهؤلاء إذا عصوا الله ورسوله، فكأنهم حاربوا الله ورسوله، ويدخل فى جملتهم كل العاصين، وقطاع الطريق، وغيرهم.

وقوله: ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم﴾ اختلفوا فيه، أنه على الترتيب، أم على التخيير؟ قال ابن عباس – فى رواية، وهو قول الحسن، وقتادة، وإبراهيم النخعى، ومجاهد –: إنها على التخيير، فيخير الإمام فى فعل هذه الأشياء.

القول الثانى: – وهو الرواية الثانية عن ابن عباس، وبه قال أبو مجلز لاحق بن حميد –: إنه على الترتيب، فإن قَتَلوا: قُتِّلوا وصلبوا، وإن أخذوا المال: قطعوا من خلاف، وإن جمعوا بين الأخذ والقتل: قطعوا، وقتلوا، إن أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال ولم يقتلوا: ينفوا من الأرض.

ثم اختلفوا فى النفى، قال الزهرى: إن الإمام يطلبه فى كل بلد يؤخذ، وينفى عنه، وهكذا فى كل بلد يذكر به، يطلب؛ فينفى عنه، وهذا قول الشافعى.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنه ينفى من جميع بلاد الإسلام، وقال أهل الكوفة: النفى من الأرض هو الحبس، والحبس نفى من الأرض، قال الشاعر يصف قوما محبوسين:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا جاءنا السجان يوما لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

﴿ذلك لهم خزى فى الدنيا﴾ أى: فضيحة، ونكال ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ قال ابن عباس: معناه: إلا

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه فرواه البخارى (١/٤٠٠/ رقم ٢٣٣) ومسلم (١١/٢١٩ – ٢٢١/ رقم ١٦٧١).

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا

الذين أسلموا؛ لأنه حمل الآية الأولى على المشركين، وقيل: هو على حقيقة التوبة، فإذا تاب قطاع الطريق قبل الظفر بهم؛ أمّنهم الإمام، وهذا محكى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فإنه أمّن [حارثة][1] بن بدر لما قطع الطريق، ثم تاب قبل قدرته عليه، وقيل: إنما تنفعه التوبة من حقوق الله - تعالى - فأما حق الآدمى: من القود، والمال فلا يسقط بالتوبة، وهذا قول الشافعى.

وقوله: ﴿من قبل أن تقدروا عليهم﴾ خطاب للأئمة، أى: من قبل الظفر بهم ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ الوسيلة: القربة، وقيل: هو معنى ما ورد فى الخبر «الوسيلة: درجة فى الجنة ليس فوقها درجة»[2] وقال زيد بن أسلم: أراد به تحببوا إلى الله - تعالى - فالوسيلة بمعنى المحبة. ﴿وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به﴾ أى: لو كانوا مفتدين به من عذاب يوم القيامة ﴿ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ وفى الخبر: «يقول الله - تعالى - للكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء[3] الأرض ذهبا أكنت مفتديا به اليوم؟ فيقول بلى[4] يارب، فيقول الله - تعالى - سُئِلْتَ أهون من هذا»[5].

(١) فى «الأصل» و«ك»: حارث، وهو خطأ.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٨٣)، والطبرانى فى الأوسط - كما فى مجمع البحرين - (٢/٢٠ - ٢١ رقم ٦٤٠، ٦٤١) كلاهما من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وقال الهيثمى فى المجمع (١/٣٣٤): وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف.

قلت: وإسنادى: الطبرانى ليس فيهما، وهما ضعيفان أيضا.

(٣) فى «ك»: مثل.

(٤) كذا فى «الأصل» و«ك». ولعل الصواب: نعم.

(٥) متفق عليه من حديث أنس، فرواه البخارى (١١/٤٠٨/ رقم ٦٥٣٨) ومسلم (١٧/٢١٥-٢١٦/ رقم ٢٨٠٥)

بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ

قوله – تعالى –: ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ فإن قيل: إذا لم يكونوا خارجين منها، كيف يريدون الخروج؟ قيل: يريدون ذلك جهلاً؛ ظنا أنهم يخرجون.

وقيل: يتمنون ذلك، فهي إرادة بمعنى التمني، وليس بحقيقة الإرادة.

قوله – تعالى –: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ وفى مصحف ابن مسعود: فاقطعوا أيمانهما، وهو معنى القراءة المعروفة، فإن قال قائل: كيف قال ﴿ أيديهما ﴾ والمذكور اثنان، ولم يقل: يديهما؟ قيل: لم يرد به سارقا واحدا، أو سارقة واحدة، وإنما ذكر الجنس؛ فلذلك ذكر الأيدى. قال الفراء، والزجاج: كل ما يوحد فى الإنسان، فإذا ذكر منه اثنان يجمع؛ يقول الله – تعالى – ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾(1) وتقول العرب : مُلأَت ظهورهما وبطونهما ضربا، ولكل واحد ظهر وبطن واحد، فكذلك اليمين للإنسان واحدة؛ فيجمع عند التثنية، فإن قيل: قد أمر هنا بقطع آلة السرقة، ولم يأمر فى الزنا بقطع آلة الزنا، فما الحكمة فيه؟ قيل: كلاهما ثبت شرعا، غير معقول المعنى. وقيل: الحكمة فيه: أن من قطع الذكر قطع النسل، وليس ذلك فى قطع اليد؛ أو لأن اليد إذا قطعت، وانزجر عن السرقة، تبقى له اليسار؛ عوضا عن اليمين، وأما الذكر إذا قطع، وحصل الانزجار، لايبقى له عوض عن الذكر [فلذلك](2) افترقا ﴿ جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ النكال: كل عقوبة تمنع الإنسان عن فعل ما عوقب عليه ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ ومعناه: مقتدر على معاقبة الخلق، ﴿ حكيم ﴾ فيما أوجب من العقوبة، وحكى عن الأصمعى أنه [قال](3): قد كنت أقرأ هذه الآية وبجنبى أعرابى، فقرأت: نكالا من الله والله غفور رحيم؛ فقال الأعرابى: هذا كلام من؟ فقلت: كلام الله، فقال الأعرابى: ليس هذا من كلام الله.

(1) التحريم:٤ (2) فى «الأصل» و«ك»: فكذلك. (3) ليست فى «الأصل» و«ك».

فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن

فتنبهت وقرأت ﴿ نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ فقال الأعرابى: هذا كلام الله، ثم سألته عن ذلك، فقال: إن الله لايذكر العقوبة على العبد ثم يقول: «والله غفور رحيم»، وإنما يليق بذكر العقوبة: العزيز الحكيم.

قوله – تعالى –: ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ قال مجاهد: قطع السارق توبته، فإذا قطع، فقد حصلت التوبة، والصحيح: أن القطع للجزاء على الجناية، كما قال: ﴿ جزاء بما كسبا ﴾ فلابد من التوبة بعده، وتوبته: الندم على ما مضى، والعزم على تركه فى المستقبل.

قوله – تعالى –: ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ الخطاب مع الرسول ،والمراد به الجميع، وقيل (معناه)[1]: ألم تعلم أيها الإنسان؛ فيكون خطابا لكل واحد من الناس. ﴿ يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ﴾ قال ابن عباس: يعذب من يشاء على الصغيرة، ويغفر لمن يشاء الكبيرة، وقال غيره: يعذب من يشاء: من مات مصرا، ويغفر لمن يشاء: من مات تائبا ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ أى: لايحزنك مسارعتهم فى الكفر؛ فإن قيل: كيف لايحزنه كفرهم، والإنسان يحزن على كفر الغير ومعصيته؛ شفقة على الدين؟ قيل: معناه: لايحزنك فعل الذين يسارعون فى الكفر، على (معنى: أن)[2] فعلهم لايضرك.

﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ يعنى: المنافقين.

﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب ﴾ يعنى: اليهود ﴿ سماعون للكذب ﴾ أى: وهم سماعون للكذب، أى: قائلون للكذب، كقول المصلى: سمع الله لمن حمده. أى: قبل الله لمن حمده. وقال الزجاج: معناه: سماعون لأجل الكذب؛ فإنهم كانوا

---

(١) فى «ك»: المراد به.

(٢) فى «ك»: أن معنى.

قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ

يسمعون من الرسول، ويخرجون، ويكذبون ﴿ سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ أى: جواسيس لقوم آخرين لم يأتوك، وهم أهل خيبر، يصف المنافقين واليهود، وأما المنافقون: كانوا جواسيس اليهود، وأما اليهود: كانوا جواسيس لأهل خيبر، وسئل سفيان: هل فى القرآن للجاسوس ذكر؟

فقال: (بلى)[1] وقرأ هذه الآية.

﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ أى: من بعد ما وضعه الله مواضعه، وتحريفهم الكلم: هو كتمان آية الرجم.

﴿ ويقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾.

سبب نزول الآية [هذه][2]: أن يهوديين زنيا من أشراف اليهود، فكرهوا رجمهما؛ فقالوا: نبعث إلى محمد نسأله، فإن أفتى بالجلد وتحميم الوجه، نأخذ به، وإن أفتى بغيره، لا نأخذ به، فهذا معنى قوله: ﴿إن أوتيتم هذا﴾ يعنى: ما توافقوا عليه من الجلد والتحميم ﴿ فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ أى: إن أفتى بالرجم فلا تأخذوا به، وقيل: «إن هذا كان فى يهود خيبر، فبعثوا إلى يهود المدينة حتى يسألوه، فسألوا رسول الله، فأفتى بالرجم» وتمام القصة: «أنه – عليه السلام – دعا ابن صوريا الأعور، وقال: أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى، ما حد الزنا فى كتابكم؟ فقال: أما إنك إذا أنشدتنى بالله، فحد الزنا فى كتابنا: الرجم، لكن كثر الزنا فى أشرافنا؛ فكنا إذا زنى الشريف منا تركناه، وإذا زنا الوضيع رجمناه، ثم اتفقنا على أمر يستوى فيه الشريف والوضيع، وهو الجلد والتحميم، فقال ﷺ: أنا أحق بإحياء سنة أماتوها، ودعا باليهوديين اللذين زنيا وأمر برجمهما»[3] والحديث فى

(١) كذا «بالأصل، وك». ولعل الصواب: نعم.

(٢) فى «الأصل» و«ك»: هذا.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١١/٢٩٨ – ٢٩٩/ رقم ١٧٠٠)، والنسائى فى الكبرى (٦/٣٣٤ – ٣٣٥/ رقم ١١١٤٤) وابن ماجة (٢/٨٥٥/ رقم ٢٥٥٨)، وأحمد فى المسند (٤/٢٨٦) كلهم من حديث البراء بن عازب.

اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ

صحيح مسلم.

وفى الآية قول آخر: أنها فى القتل، والقصة فى ذلك: أن بنى النضير كان لهم قتل على بنى قريظة، وكان القرظى إذا قتل يسأل محمدا؛ فإن أفتى بالدية يأخذ به، وإن أفتى بغيرها يحذره، فسألوه. فأفتى بالقود. فهذا معنى قوله: ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ والأول أصح ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ قال السدى: ضلالته، وقال الحسن: عذابه، وقال الزجاج: فضيحته ﴿فلن تملك له من الله شيئا﴾ أى: فلن تقدر على دفع أمر الله فيه.

﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ وفيه دليل على من ينكر القدر ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ ويرجع هذا إلى المنافقين، واليهود، أما خزى المنافقين: أنه أظهر نفاقهم فى الدنيا، وأما خزى اليهود: أنه بيّن تحريفهم ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾.

قوله - تعالى -: ﴿سماعون للكذب﴾ (ذكره)[1] ثانيا مبالغة وتأكيدا ﴿أكالون للسحت﴾ قال ابن مسعود: هو الرشوة، والسحت: الحرام، قال ﷺ: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»[2] وأصل السحت: الاستئصال؛ فالحرام سحت؛ لأنه يستأصل البركة، قال الشاعر:

(١) فى «ك»: ذكرها.

(٢) رواه الترمذى (٢/٥١٢ - ٥١٤/ رقم ٦١٤ - ٦١٥) والطبرانى فى الكبير (١٩/١٤٥/ رقم ٣١٧)، وابن حبان - الإحسان - (١٢/٣٧٨ - ٣٧٩/ رقم ٥٥٦٧) من حديث كعب بن عجرة.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى، وأيوب بن عائذ الطائى يضعف، ويقال: كان يرى رأى الأرجاء، وسألت محمداً عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى واستغربه جداً.

وروى من حديث جابر، رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٢١)، والدارمى (٢/٤٠٩ رقم ٢٧٢٦) وابن حبان - الإحسان - (٥/١٠٩/ رقم ١٧٢٣)، والحاكم فى مستدركه (٤/٤٢٢) وصحح إسناده.

وعزاه الهيثمى فى المجمع (٥/٢٥٠) لأحمد، والبزار، وقال: ورجالهما رجال الصحيح. و انظر تخريج الزيلعى للكشاف (١/٣٩٧ - ٤٠١/ رقم ٤١٥).

فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا

وعَضُّ زمانٍ يابن مروانَ لم يَدَعْ ... مــن المال إلا مسحتٌ أو مُجلّفُ

يعنى: إلا مال لابركة فيه، وأشياء قلائل ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ قال ابن عباس: هو منسوخ بقوله: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾[(١)] وبه قال مجاهد، وعكرمة. وقال الشعبى: والنخعى - وهو قول الحسن -: إنها ليست بمنسوخة. قال الحسن: ليس فى المائدة آية منسوخة، وقالوا: معنى قوله: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾[(١)] يعنى إن حكمت واخترت الحكم، وليس بأمر حتم هذا التخيير بين الحكم والإعراض فيما إذا تحاكم ذميان، فأما إذا تحاكم مسلم وذمى يجب الحكم.

وقيل: هذا التخيير فى الحكم بحقوق الله - تعالى - وأما فى حقوق الآدميين فلابد من الحكم.

﴿ وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ أى: بالعدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ هذا تعجيب للرسول، يعنى: كيف يتحاكمون إليك، وفى زعمهم أن عندهم التوراة وهى الحق، وأنك كاذب؟.

﴿ ثم يتولون من بعد ذلك ﴾ أى: لايرضون بحكمك ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ أى: بمصدقين لك.

قوله - تعالى -: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ أى: أسلموا لأمر الله، كما قال لإبراهيم: ﴿ أسلم قال أسلمت لرب

(١) المائدة: ٤٩.

أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ

العالمين ﴾[١] أى: سلمت لأمر رب العالمين، وأراد به: النبيين الذين بعثوا بعد موسى؛ ليحكموا على حكم التوراة، وقوله: ﴿ للذين هادوا ﴾ فيه تقديم وتأخير، وتقديره: فيها هدى، ونور للذين هادوا، ثم قال: ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا والربانيون ﴾ وقيل: هو على موضعه، ومعناه: يحكم بها النبيون الذين أسلموا على الذين هادوا، وهو مثل قوله: ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾[٢] أى: عليهم اللعنة، وقال ﷺ لعائشة: «اشترطى لهم الولاء»[٣] أى: عليهم الولاء، كذا قال النحاس[٤]، وقيل: فيه حذف، كأنه قال: للذين هادوا على الذين هادوا؛ فحذف أحدهما؛ اختصارا ﴿ والربانيون ﴾ قال أبو رزين: هم العلماء الحكماء، وأصل الربانى: رب العلم، فزيد فيه الألف والنون؛ للمبالغة، وقيل: الربانيون من النصارى، والأحبار من اليهود، وقيل: كلاهما من اليهود، والربانيون فوق الأحبار. قال المبّرد: والأحبار: مأخوذ من التحبير، وهو التحسين، ومنه الحديث: «يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره»[٥] أى حسنه وجماله، وقيل: هو من التحبير بمعنى التأثير، ومنه الحِبْر، فسمى العالم: حبرا؛ لتأثير علمه فيه وفى غيره، كأنه العالم العامل، والحَبْرُ والحِبْرُ واحد، وجمعه الأحبار، قال الفراء: وأكثر ما سمعت: الحِبر - بكسر الحاء - وجمعه أحبار.

﴿ بما استحفظوا ﴾ أى: بما استودعوا ﴿ من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾.

(١) البقرة: ١٣١.

(٢) الرعد: ٢٥

(٣) متفق عليه، فرواه البخارى (٥/٢٢٥/رقم ٢٥٦٣، ومسلم (١٠/١٩٨/ رقم ١٥٠٤).

(٤) واعترض الحافظ ابن حجر فى الفتح (٥/٢٢٦) على هذا التأويل وقال: وسياق الحديث يأبى ذلك، ونقل عن المزنى أنه قال: لايصح، وعن النووى أنه قال: تأويل اللام بمعنى على هنا ضعيف.

(٥) ذكره أبو عبيد فى الغريب (١/٢٢٠) وقال: وفى الحديث اختلاف، وبعضهم يرفعه، وبعضهم لايرفعه وكذلك ذكره ابن الأثير فى غريب الحديث (١/٣٢٧)، وأعاده فى (٢/٣٣٣).

وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال البراء بن عازب – وهو قول الحسن –: الآية فى المشركين. قال ابن عباس: الآية فى المسلمين، وأراد به كفر دون كفر، واعلم أن الخوارج يستدلون بهذه الآية، ويقولون: من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، وأهل السنة قالوا: لايكفر بترك الحكم، وللآية تأويلان: أحدهما معناه: ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً وجحداً فأولئك هم الكافرون. والثانى معناه: ومن لم يحكم بكل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والكافر هو الذى يترك الحكم بكل ما أنزل الله دون المسلم.

قوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾ ويقرأ بقراءتين من قوله: ﴿والعين بالعين﴾ فيقرأ بالنصب إلى آخره، ويقرأ بالرفع[1].

شرع القصاص فى النفس والأطراف فى هذه الآية، وأشار إلى أنه كان حكم التوراة ﴿فمن تصدق به﴾ يعنى: بالعفو عن القصاص ﴿فهو كفارة له﴾ اختلفوا فى أن كناية الهاء راجعة إلى من؟ قال ابن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص: هو راجع إلى المجروح، يعنى: العفو، وقال ابن عباس: هو راجع إلى الجارح، كأنه جعل العفو كالاستيفاء منه؛ فيكون كفارة له كما لو اقتص منه ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وقفينا على آثارهم﴾ يعنى: أتبعنا على آثارهم، وأراد به: النبيين الذين أسلموا ﴿بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة﴾ يعنى: عيسى مصدقا بالتوراة.

---

(١) قرأ الكسائى بالرفع فى الخمسة، ووافقه فى «الجروح» خاصة ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وابن عامر. وقرأ الباقون بالنصب. انظر النشر (٢/٢٥٤).

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم

﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا ﴾ يعنى: الإنجيل ﴿ لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وليحكم أهل الإنجيل ﴾ يعنى: وقلنا: وليحكم أهل الإنجيل ﴿ بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ يعنى: القرآن ﴿ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ﴾ يعنى: سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ ومهيمنا عليه ﴾ قال ابن عباس: أى: أمينا عليه. قال (المبرد)[1]: أصله: مؤيمنا، فقلبت الهمزة هاء، كما يقال: أرقت الماء وهرقته. ومعناه: الأمين، وقيل: معناه: شاهدا عليه، وقال أبو عبيدة: أى: رقيبا وحافظا، والمعانى متقاربة، ومعنى الكل أن كل [كتاب][2] يصدقه القرآن، ويشهد بصدقه، فهو كتاب الله، وما لا فلا. وقرأ مجاهد «ومُهَيمَنًا» بفتح الميم، يعنى: محمد مؤيمنا عليه، وفى الأثر أن عمر – رضى الله عنه – قال: إذا دعوت الله فهيمنوا أى أمِّنُوا»، قال الشاعر:

ألا إن خير الناس بعد محمد ... مهيمنه تاليه فى العرف والنكر

أراد أبا بكر أمينه وحافظه، يتلوه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ أى: لاتعرض عما جاءك من الحق وتتبع أهواءهم.

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ فالشرعة: الطريق الواضح، وكذلك المنهاج. قال المبرد: الشرعة: ابتداء الطريق، والمنهاج: الطريق المستمر. واعلم أن الشرائع مختلفة، ولكل قوم شريعة، فلأهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل الإسلام شريعة، وأما الدين فى الكل واحد، وهو التوحيد.

(١) فى «ك»: ابن عباس، وهو خطأ. (٢) فى «الأصل وك»: الكتاب.

بمَا أَنزلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم ﴾ أى: ليختبركم. ﴿ فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ﴾ فبادروا إلى الخيرات ﴿ إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ قيل: سبب نزول الآية: «أن قوما من رؤساء اليهود جاءوا إلى النبى ﷺ وقالوا: يامحمد، لو آمنا بك آمن بك غيرنا، ولنا خصومات بين الناس؛ فاقض لنا عليهم؛ نؤمن بك، ويتبعنا غيرنا»[1]، ولم يكن قصدهم الإيمان به، وإنما قصدوا التلبيس، ودعوته إلى الحكم بالميل؛ فنزلت الآية.

﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا ﴾ فإن أعرضوا ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ وقيل: معناه: بكل ذنوبهم، فعبّر بالبعض عن الكل، وقيل: معناه: يصيبهم ببعض ذنوبهم فى الدنيا ﴿ وإن كثيرا من الناس لفاسقون ﴾.

وقوله: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ يقرأ بالياء والتاء[2] ومعناهما واحد يعنى أنهم إذا لم يرضوا بحكم الله، وأرادوا خلاف حكم الله، فقد طلبوا حكم الجاهلية، وقرأ الحسن، وقتادة والأعمش، والأعرج: أَفَحَكَمُ الجاهلية بمعنى: الحاكم. يبغون: يطلبون ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾

قوله – تعالى –: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ قيل: نزلت فى عبادة بن الصامت، وعبد الله بن أبى بن سلول

(١) رواه الطبرى فى التفسير (٦/١٧٧)، وعزاه السيوطى فى «الدر» (٢/٣١٩) لكل من ابن إسحاق، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الدلائل.

(٢) قرأ ابن عامر بالتاء الفوقية، وقرأ الباقون بالياء التحتية. انظر النشر (٢/٢٥٤).

يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ

اختصما، فقال عبادة: أنا أتبرأ من اليهود ولا أتولاهم، وقال عبد الله بن أبى: أنا أتولاهم ولا أتبرأ منهم؛ فإنى أخشى الدوائر، فنزلت الآية وقيل: نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر بعثه النبى إلى بنى قريظة حين حاصرهم، فاستشاروا فى النزول، وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فأشار إليهم بالقتل، وجعل أصبعه على حلقه يعنى: يقتلكم؛ متنصحا لهم، وقيل: نزلت فى يوم أحد، فإنه لما انقضى حرب أحد، وأصاب المسلمين ما أصابهم، قال بعض أهل المدينة: نحن نتولى اليهود، وقال بعضهم: نتولى النصارى؛ فإنا نخشى أن لايتم أمر محمد، وأن يدور الأمر علينا؛ فنزلت الآية: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض﴾ أى: نفاق ﴿يسارعون فيهم﴾ يعنى: فى معونتهم وموالاتهم، وفيه حذف، كما قال الله – تعالى –: ﴿وَاسْأَلِ القرية﴾[1] أى: أهل القرية ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ قال ابن عباس: معناه: نخشى أن لايتم أمر محمد؛ فيدور الأمر علينا، وقال غيره: معناه: نخشى أن يكون قحط؛ فلا يتفضلوا علينا بالثمار؛ [إذ][2] كانت اليهود أصحاب النخيل والثمار، والأول أصح.

﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده﴾ قيل: أراد به فتح مكة. وقيل (هو فتح)[3] قُرَى اليهود مثل خيبر، وفدك، وتيمًا ووادى القرى. ﴿أو أمر من عنده﴾ قيل: هو إتمام أمر محمد، وقيل: هو إجلاء بنى النضير، وقيل: قتل بنى قريظة، وقيل:

(١) يوسف: ٨٢

(٢) فى «الأصل»: إذا، وفى «ك»: وإذا.

(٣) فى «ك»: أراد به.

اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

هو الإخبار بأسماء المنافقين؛ ليفتضحوا. ﴿فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ويقول الذين آمنوا﴾ يعنى: [لليهود][1] حين انكشف حال المنافقين: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ وقرأ أهل المدينة والشام: «من يرتدد»[2] والمعنى واحد ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال على، والحسن: نزل هذا فى أبى بكر وأصحابه. وكان الحسن يحلف على هذا، أنه نزل فى أبى بكر وأصحابه، وذلك أن النبى ﷺ لما خرج إلى رحمة الله ارتدت العرب، ولم يبق الإسلام إلا فى ثلاثة مساجد: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد البحرين؛ فهمّ أبو بكر بالقتال، وكره الصحابة ذلك، وقالوا: إن بعضهم منع الزكاة، ولم يتركوا الصلاة، وقال أبو بكر: والله (لأقاتلن من)[3] فرّق بين الصلاة والزكاة، وقيل: إنه سلّ سيفه، وخرج وحده، وقال: أقاتل وحدى، ثم وافقه الصحابة، قال ابن مسعود: كرهنا ذلك فى الابتداء، ثم حمدناه عليه فى الانتهاء، قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد مولود بعد النبيين أفضل من أبى بكر، لقد قام مقام نبى من الأنبياء، يعنى: فى قتال أهل الردة، ورَدَّهم إلى الإسلام.

وروى عياض الأشعرى: «أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فسوف يأتى الله بقوم﴾ وأشار إلى أبى موسى الأشعرى، وقال: هذا وأصحابه»[4] وكانوا من أهل اليمن،

(١) فى «الأصل»: اليهود. (٢) انظر النشر (٢/٢٥٥). (٣) فى «ك»: لاقاتلن بين من. وهو خطأ.

(٤) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه (١٢/١٢٣/ رقم ١٢٣١١)، والطبرى فى التفسير (٦/١٨٣)، والطبرانى فى الكبير (١٧/٣٧١/ رقم ١٠١٦)، والحاكم فى المستدرك (٢/٣١٢) وصححه على شرط مسلم.

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٩): رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح.

وزاد السيوطى فى عزوه فى الدر (٢/٣٢١): لكل من عبد بن حميد، وابن سعد، وابن المنذر، والحكيم الترمذى، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل.

أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

ولأهل اليمن أمر عظيم فى الفتوح التى وقعت فى الإسلام، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «الإيمان يمان، والحكمة يمانية»(١) وقيل: أراد بالآية: قوما كان أكثرهم من أهل اليمن؛ فتحوا القادسية فى زمان عمر. والأول أصح ﴿أذلة على المؤمنين﴾ ليس من الذل، وإنما هو من الذلة، وهى اللين.

وقوله: ﴿أعزة على الكافرين﴾ ليس من العز وإنما هو من العزة؛ وهى: الشدة، يعنى: أن جانبهم ليّن على المؤمنين، شديد على الكافرين، وقرأ ابن مسعود: «أذلة على المؤمنين غلظاء على الكافرين» وهى معنى القراءة المعروفة.

﴿يجاهدون فى سبيل الله لايخافون لومة لائم﴾ يعنى: لايخافون فى الله لوم الناس، وروى ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: «من أراد الجنة لاشك، فلا يخاف فى الله لومة لائم»(٢) ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾.

قوله - تعالى -: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾ هذا راجع إلى قوله: ﴿لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ لَمَّا منعهم من موالاة اليهود والنصارى، دعاهم إلى موالاة الله ورسوله.

﴿والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ يعنى: مصلون؛ إلا أنه خص الركوع تشريفا، وقيل: معناه: خاضعون، وقال السدى: - وهو رواية عن مجاهد - إن هذا أُنْزِلَ فى على بن أبى طالب، كان فى الركوع، ومسكين

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٧/٧٠١ رقم ٤٣٨٨)، ومسلم (٢/٣٩ - ٤٢ رقم ٥٢).

(٢) هو جزء من حديث أخرجه الدارقطنى فى الأفراد، ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/٨١٦)، وأوله: «انتهى الإيمان إلى الورع، من قنع بما رزقه الله دخل الجنة، ومن أراد الجنة بلاشك..».
ونقل ابن الجوزى قول الدارقطنى: تفرد به عنبسة عن المعلى، وتفرد به المعلى عن شقيق.
وقال ابن الجوزى: عنبسة والمعلى متروكان، وكذلك قال النسائى وغيره، وقال ابن حبان: كلاهما يروى الموضوعات، لاتجوز الاحتجاج بهما.

الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ

يطوف فى المسجد فنزع خاتمه، ودفع إليه، فهذا معنى قوله: ﴿ ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ وعن أبى جعفر محمد بن على الباقر أنه قال: نزلت الآية فى المؤمنين، فقيل له: إن قوما يقولون: إن الآية نزلت فى على بن أبى طالب، فقال أبو جعفر: على من المؤمنين.

وقوله: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله ﴾ أراد به: الولاية فى الدين، لا ولاية الإمارة والسلطنة، وهم فوق كل ولاية، قال أبو عبيدة: وكذلك معنى قوله ﷺ: «من كنت مولاه فعلى مولاه»[(١)] يعنى: من كنت وليا له، أعينه وأنصره، فعلى يعينه وينصره فى الدين.

قوله: ﴿ ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ أى: جند الله هم الغالبون، قوله – تعالى –: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا ﴾ هذا فى اليهود، كانوا إذا سمعوا المؤذن ضحكوا، وتغامزوا بينهم ﴿ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ يعنى: اليهود ﴿ والكفار ﴾: سائر الكفرة ﴿ أولياء ﴾ أى: لاتتخذوا هؤلاء أولياء. وقرأ الكسائى، وأبو عمرو: «والكفارِ» بكسر الراء،[(٢)] يعنى: ومن الكفار، وكذا فى حرف أبى بن كعب «ومن الكفار أولياء» ﴿ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾.

﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ﴾ هذا بيان لاتخاذهم الدين هزوا فى الآية الأولى ﴿ ذلك بأنهم قوم لايعقلون ﴾.

(١) هذا الحديث روى عن أكثر من عشرين صحابيا، وانظر تخريج الحافظ الزيلعى لأحاديث الكشاف (٢ / ٢٣٤ – ٢٤٤ / رقم ٦٨١).

(٢) وهى قراءة أبى عمرو، ويعقوب، انظر النشر (٢ / ٢٥٥).

هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ

و(فى)(١) الحكايات: أن واحدا من المنافقين يقال له: ضمرة، سمع المؤذن يؤذن، فقال: حرق الله الكاذب؛ فجاءه خادمه بسراج فى بعض تلك الليالى، فوقعت شرارة من السراج، ولم (يشعر)(٢) به، فاحترق هو وما فى البيت.

قوله - تعالى -: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ أى: هل تكرهون منا ﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ أى: هل تنقمون منا إلا بإيماننا وفسقكم، قال الشاعر:

ما نقموا من بنى أمية إلا ... أنهم (يحلمون)(٣) إن غضبوا

وأنهم سادة الملوك ... ولايصلح إلا عليهم العرب

أى: كرهوا من بنى أمية.

قوله - تعالى -: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾ أى: قل: [هل](٤) أخبركم بشر من ذلك ثوابا وعاقبة عند الله؟ ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ يعنى: اليهود ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ قيل: جعل القردة من اليهود، والخنازير من النصارى، فالذين جعلهم قردة من اليهود: أصحاب السبت، والذين جعلهم خنازير من النصارى: أصحاب المائدة، وقيل: كلاهما من اليهود، فجعل شبانهم قردة وشيوخهم خنازير ﴿وَعَبد الطاغوت﴾(٥) أى: ومن عبد الطاغوت، يعنى من لعنه الله ومن عبد الطاغوت وقرأ حمزة: «وعُبد الطاغوتِ» بضم الباء فى عبد، وكسر التاء فى الطاغوت، والمعنى واحد، قال الشاعر:

أبَنِى لُبَينى إن أمكم ... أمَةٌ وإنَّ وإنى أباكم عبُد

(١) ليست فى «ك». (٢) فى «ك»: يعلم. (٣) فى «ك»: يحكمون. وهو خطأ.

(٤) ليست فى «الأصل» ولا «ك».

(٥) انظر النشر (٢/٢٥٥).

فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ

أى: كأعبد، وقيل: هذا خطأ من حمزة، والأول أصح، ويقرأ فى الشواذ: «وعبّاد الطاغوت» ويقرأ: «وعبدة الطاغوت» وتقديره: وجعل منهم عباد الطاغوت، والكل فى المعنى سواء.

﴿أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل﴾ أى: عن طريق الحق.

قوله - تعالى -: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا﴾ قيل: نزلت الآية فى قوم من اليهود، دخلوا على النبى ﷺ، وقالوا: إنا آمنا بك، وصدقناك فيما قلت، وهم يسرون الكفر؛ فنزلت الآية ﴿وإذا جاؤكم﴾ يعنى: أولئك قالوا: آمنا ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ يعنى: دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان﴾ قيل: الإثم: المعاصى، والعدوان: الظلم، وقيل: الإثم: كتمان أمر محمد ﷺ وما كتموا من التوراة، والعدوان ما زادوا فى التوراة. ﴿وأكلهم السحت﴾ قد بينا معنى السحت، والسحت لغتان، وقيل: أراد به أكلهم الربا ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾.

قوله: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ يعنى: هلاّ ينهاهم الربانيون، وقد ذكرنا معنى الربانيين، وقيل: هو منسوب إلى الرب، كالبحرانى منسوب إلى البحرين، والنجرانى منسوب إلى نجران ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ وفى حرف ابن مسعود: «يعملون» وكلاهما واحد.

قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ سبب هذا: أن اليهود كانوا فى خصب وسعة رزق قبل هجرة النبى ﷺ، فلما هاجر إلى المدينة، ضيق الله الرزق عليهم فقالت اليهود: يد الله، مغلولة: أى ممسكة لاينفق، كأنهم نسبوه إلى البخل،

وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ

وقال الحسن: أرادوا به: يد الله مغلولة لايعذبنا [بها](1) ﴿غلت أيديهم﴾ يجيبهم الله تعالى؛ فيقول: أنا الجواد، وهم البخلاء، وأيديهم هى المغلولة الممسكة، قاله الزجاج، وقيل: معناه: أنهم يعذبون يوم القيامة.

﴿ولعنوا بما قالوا﴾ فمن لَعْنِهِم أنهم: مسخوا قردة وخنازير، ومن لعنهم: أنهم ضربت عليهم الذلة والجزية.

﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ يعنى: [يدا](2) الله مبسوطتان، يرزق وينفق على مشيئته كيف يشاء، قال أهل العلم: ليس فى هذا رد على اليهود فى إثباتهم اليد لله – تعالى – وإنما الرد عليهم فى نسبته إلى البخل، وأما اليد: صفة لله – تعالى – بلا كيف، وله يدان، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «كلتا يديه يمين».(3) والله أعلم بكيفية المراد.

﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ على معنى أنه كلما نزلت آية كفروا بها، وازدادوا طغيانا وكفرا ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء﴾ قيل: بين فرق اليهود، وقيل: (بين)(4) اليهود والنصارى، وقوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ دليل على أن اليهودية والنصرانية تبقى إلى قريب من قيام الساعة ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله﴾ معنى هذا: كلما اجتمعوا ليفسدوا أمر محمد، شتت الله

---

(1) من «ك».

(2) فى «الأصل» و «ك»: يد.

(3) رواه مسلم (١٢ / ٢٩١ / رقم ١٨٢٧)، والنسائى (٨ / ٢٢١ /رقم ٥٣٧٩)، وأحمد (٢ / ١٦٠)، كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. ولفظه: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين..» الحديث.

(4) فى «ك»: بين فرق.

أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

جمعهم، وبدد شملهم. ﴿ويسعون فى الأرض فسادا والله لايحب المفسدين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ بمحمد ﴿واتقوا﴾ يعنى: عن المعاصى ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربهم﴾ يعنى: ولو أنهم قاموا وعملوا بما فى التوراة، وما فى الإنجيل وما فى القرآن ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ قيل: من فوقهم من مطر السماء، ومن تحت أرجلهم من نبات الأرض. وقيل: من فوقهم ومن تحت أرجلهم معناه: أنه يوسع عليهم الرزق، قال الزجاج، وهو نظير قول القائل: فلان فى الخير من الفَرْقِ إلى القدم، أى: وسع عليه الخير، وقيل: يحتمل أن يكون المراد بقوله (﴿من فوقهم﴾ من الأشجار ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ من النبات، ويحتمل أن يكون المراد به)[1] ﴿من فوقهم﴾ من كسب آبائهم ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ من كسب أبنائهم، وهذا نظير قوله - تعالى -: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[2] ونظير قوله - تعالى -: ﴿وألَّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾[3] ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ أى: عادلة ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ قالت عائشة: «من قال: إن محمدا كتم شيئا من الوحى؛ فقد أعظم الفرية، ومن قال: إن محمدا رأى ربه ليلة المعراج؛ فقد أعظم الفرية؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿لاتدركه الأبصار﴾[4]» والخبر فى الصحيح[5].

(١) سقط من «ك».
(٢) الأعراف: ٩٦.
(٣) الجن: ١٦
(٤) الأنعام: ١٠٣.
(٥) متفق عليه، رواه البخارى (٨/١٢٤/ رقم ٤٦١٢)، ومسلم (٣/١١ - ١٤/ رقم ١٧٧).

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ

﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ فيه معنيان: أحدهما: معناه: إن لم تبلغ الجميع، وتركت واحدا، فما بلغت شيئا، يعنى: جرمك فى ترك التبليغ فى واحد كجرمك فى ترك الكل، وقيل: معناه: بلغ ما أنزل إليك أى: أظهر تبليغه، وهذا مثل قوله – تعالى –: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾(١).

﴿ وإن لم تفعل ﴾ يعنى: وإن لم تظهر تبليغه ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾. قالت عائشة – رضى الله عنها –: «كان النبى ﷺ قبل نزول هذه الآية يأتيه قوم فيحرسونه؛ فلما نزلت هذه الآية؛ أخرج رأسه، وقال: انصرفوا، فإن الله يعصمنى»(٢). قال محمد بن كعب القرظى: نزلت الآية فى كافر سلّ سيفه، وهم (بقتل النبى ﷺ)(٣)،فسقط السيف من يده، وجعل يضرب رأسه على شجرة حتى [انتثر](٤) دماغه ﴿ إن الله لايهدى القوم الكافرين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أى: تعملوا بالكل ﴿ وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ﴾ هو ما ذكرنا ﴿ فلا تأس ﴾ أى فلا تحزن ﴿ على القوم الكافرين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى ﴾ قال

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) رواه الترمذى فى جامعه (٥/ ٢٣٤/ رقم ٣٠٤٦)، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣١٣) وصحح إسناده، والبيهقى فى الكبرى (٩/ ٨)، والطبرى فى التفسير (٦/ ١٩٩) والبغوى فى تفسيره (٢/ ٥٢). وقال الترمذى: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن الجريرى، عن عبد الله بن شقيق، قال: «كان النبى ﷺ يحرس» ولم يذكروا فيه عائشة.

(٣) فى «ك»: بقتله.

(٤) كذا فى «ك» وتفسير الطبرى (٦/ ١٩٩)، وفى الأصل: انتسر – بالسين المهملة –.

وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي

الكسائى، ونحاة الكوفة: تقديره: هم والصابئون. وقال سيبويه: فى الآية تقديم وتأخير، وتقديره: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم والآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك.

وقوله: ﴿ من آمن بالله ﴾ يعنى: الذين آمنوا باللسان، من آمن منهم بالقلب، وقيل: إن الذين آمنوا على حقيقة الإيمان.

وقوله: ﴿ من آمن بالله ﴾ أى: من ثبت على الإيمان بالله، وأما فى حق اليهود والنصارى والصابئين، فهو محمول على حقيقة الإيمان.

قوله - تعالى -: ﴿لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل﴾ قد ذكرنا الميثاق ﴿وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقا كذبوا﴾ يعنى: عيسى ومحمد ﴿ وفريقا يقتلون ﴾ يعنى: زكريا ويحيى، وقوله: ﴿ وحسبوا ألا تكون فتنة ﴾ أى: عذاب ﴿ فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ﴾ يعنى: عموا وصموا بعد موسى، ثم تاب الله عليهم؛ ببعث عيسى، ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾ بالكفر بمحمد ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ قد ذكرنا معنى المسيح، قال النخعى: سمى مسيحا؛ لأنه كان يمسح الأرض، (وأما)(١) الدجال: يسمى مسيحا، وقد ورد الخبر بكونه مسيحا مطلقا؛ فإنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «[يقبل](٢) المسيح من قبل المشرق وهمه المدينة». وورد فى الخبر: المسيح الدجال. وقال - عليه الصلاة والسلام -: «لايدخل رعب المسيح الدجال المدينة أبدا»(٣).

(١) فى «ك»: وإنما. (٢) فى «ك»: يقتل. وهو تصحيف.
(٣) رواه البخارى (٤/ ١١٣/ رقم ١٨٧٩)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٤٣، ٤٧) من حديث أبى بكرة.

وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

﴿ وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ روى أبو سفيان طلحة بن نافع عن جابر: «أن النبى ﷺ سئل ما الموجبتان؟ فقال: من وحد الله؛ لايشرك به شيئا؛ وجبت له الجنة، ومن أشرك بالله؛ وجبت له النار»[١] ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ فيه حذف، أى: ثالث ثلاثة آلهة، ولابد من هذا التقدير؛ لأنه يجوز أن يقال: هو ثالث ثلاثة، كما قال: ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾[٢]، وقوله: ﴿ ثالث ثلاثة ﴾ هو قولهم: أب، وابن، وروح القدس، وهذا قول اليعقوبية منهم، وقالوا: روح القدس لا هو ولا غيره، وكذلك الابن، والله مجموع الكل ﴿ وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا ﴾ أى: ليصيبن الذين ﴿ كفروا منهم عذاب أليم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ﴾ أرشدهم إلى التوبة والإسلام ﴿ والله غفور رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله ﴾ أى: مضت، وسميت الأيام الماضية خالية؛ لخلوها، ومعنى هذا: أنا أرسلنا عيسى كما أرسلنا غيره [وأعطيناه][٣] من المعجزات ما أعطينا غيره من الرسل ﴿ وأمه صديقة ﴾ والصديق: كثير الصدق، وهو للمبالغة، ومنه سمى أبو بكر [الصديق][٤] - رضى الله عنه -: صديقا، وقيل: سمى صديقا؛ لأنه قيل له: إن صاحبك يقول: أسرى بى إلى السماء. فقال: إن (هو قال)[٥] ذلك فقد صدق.

(١) رواه مسلم (٢/١٢٢ - ١٢٣/ رقم ١٥١)، وأحمد فى المسند (٣/٣٩١ - ٣٩٢).
(٢) المجادلة: ٧
(٣) فى الأصل: وأعطينا.
(٤) من «ك».
(٥) كذا فى «ك»، وفى الأصل: قال هو.

الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أى: يتغذيان بالطعام، ومعناه: أن من يتغذى بالطعام لايكون إلها يعبد، وقال ابن قتيبة: هو كناية عن الحدث، يعنى: أنهما يأكلان، ويشربان، ويبولان، ويتغوطان، ومثل هذا لايكون إلها يعبد ﴿ انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ قال ابن قتيبة: وهذا من ألطف البيان، وقوله: ﴿ يؤفكون ﴾ أى: يصرفون، ومنه سمى الكذب: إفكا؛ لأنه مصروف عن الحق.

قوله - تعالى -: ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لايملك لكم ضرا ولا نفعا ﴾ يعنى: عيسى ومثله. ﴿ والله هو السميع العليم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ قل يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ﴾ الغلو: مجاوزة الحد، وهو مذموم، وكذلك التقصير، ودين الله بين الغلو، والتقصير ﴿ ولاتتبعوا أهواء قوم ﴾ الأهواء: جمع الهوى، وهو مقصور، وأما الهواء الممدود: فهو الجو، والهوى: كل ما تدعو إليه شهوة النفس، لا الحجَّة ﴿ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾. فإن قيل: ما معنى هذا التكرير، قال الزجاج: معنى قوله: ﴿ وضلوا عن سواء السبيل ﴾ يعنى: بالإضلال، والأول من الضلالة، وقيل: ضلوا من قبل الإضلال، وضلوا بعد الإضلال؛ فكأنهم ضلوا مرتين.

قوله - تعالى -: ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴾ فالذين لعنوا على لسان داود: هم أصحاب السبت، والذين لعنوا على لسان عيسى: أصحاب المائدة، وأولئك الذين جعلهم الله قردة، وهؤلاء الذين جعلهم الله خنازير ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ التناهى: تفاعل من النهى، والمنكر: كل ما أنكره الشرع، وفى الخبر قال ﷺ: أول ما

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ

دخل النقص فى بنى إسرائيل: أن الرجل منهم كان إذا نهى صاحبه عن منكر، كان لايمنعه بعد ذلك أن يكون جليسه، وأكيله، وشريبه، فضرب الله - تعالى - قلب بعضهم بالبعض، وعمهم بالعقاب، ثم قال ﷺ: والذى نفسى بيده، حتى تأخذوا على يد الظالم فتأطروه على الحق أطرا»[(١)] أى: تعطفوه.

قوله: ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ﴾ أى: يوالونهم ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ يعنى: الكفار ﴿ ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ فإن قيل: لم سمّاهم فاسقين وهم كافرون؟ قيل: معناه: (خارجون)[(٢)] عن أمر الرب، والكفار خارجون عن كل أمره، وقيل: معناه: متمردون، أى: هم مع كفرهم متمردون.

قوله - تعالى -: ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ يعنى: مشركى مكة، ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ قيل: إن الآية فى قوم من النصارى، (أربعين)[(٣)] نفرا: اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام، جاءوا إلى النبى ﷺ، وأسلموا، وفيهم نزلت الآية لا فى النصارى الكفرة؛ لأنهم فى عداوة المسلمين مثل اليهود، وقيل: إن الذين أسلموا من الحبشة كان فيهم النجاشى؛ فقدم جعفر الطيار الحبشة، فدعاه النجاشى، فقرأ عليه

(١) تقدم تخريجه فى آل عمران.

(٢) كذا فى الأصل، وفى «ك»: خارجين.

(٣) كذا فى الأصل، وفى «ك»: أربعون.

أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ

سورة مريم، وعنده الأساقفة والرهبان؛ فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وأخذ النجاشي قذاة بيده، وقال: لم يَعْدُ عيسى ما قلت، ولا قدر هذا، وأسلموا.

وقيل: نزلت الآية فى قوم من النصارى كانوا متمسكين بدين عيسى، لم يحرفوا، فآمنوا بمحمد.

وقيل: هو فى كل النصارى، ومعناه: أنهم ألين عداوة من اليهود.

﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون ﴾ قال قطرب: القسيس العابد بلغة الروم، وهو التمام فى اللغة، قال الشاعر:

يمسين من قس (الحديث)[1] غوافلا إلا جَعْبَر يات ولا [طهـــاملا][2]

والرهبان جمع الراهب، وروى سلمان: «أن النبى ﷺ قرأ: «ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا»[3] وهذا فى الغرائب.

قوله – تعالى –: ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﴾ يعنى: القرآن، فإن النبى ﷺ كان قد قرأ عليهم القرآن؛ فبكوا وأسلموا، فذلك معنى قوله: ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ يعنى: من أمة محمد؛ فإنهم الشاهدون على سائر الأمم.

قوله – تعالى –: ﴿ وما لنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: لم آمنتم؟ فأجابوا: وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ﴿ ونطمع أن يدخلنا

(١) كذا «بالأصل، وك». وفى لسان العرب (مادة: قسس): الأذى.

(٢) من لسان العرب. وفى «الأصل وك»: هطاملا. والجعبريات: القصار، واحدتها جَعْبَرَة، والطهامل: الضخام القباح الخلقة، واحدتها. طَهْمَلَة. انظر لسان العرب.

(٣) رواه البخارى فى تاريخه (٨/١٦)، والبزار – البحر الزخار (٦/٤٩٩/ رقم ٢٥٣٧) والطبرانى فى الكبير (٦/٢٦٦/ رقم ٦١٧٥).

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٠): وفيه يحيى الحمانى، ونصير بن زياد وكلاهما ضعيف. وزاد السيوطى فى عزوه فى الدر (٢/٣٣٤) لكل من أبى عبيد فى فضائله، وعبد بن حميد، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، وابن الأنبارى فى المصاحف، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه.

أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ

ربنا مع القوم الصالحين ﴾ الطمع: هو تعلق النفس بالشيء مع قوة.

قوله - تعالى -: ﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنات ﴾ أي: أعطاهم الله بما قالوا جنات ﴿ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾.

فإن قيل: هذا أَوَّلَ قوله - تعالى -: ﴿ فأثابهم الله بما قالوا ﴾ على أن الإيمان قول فَرْدٌ.

قيل: قد ذكر فى الآية الأولى ﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ فذكر المعرفة فى تلك الآية، والقول فى هذه الآية، ومجموعهما إيمان ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ قال (ابن عباس)[1]، وعطاء [وسعد][2]، وسعيد بن جبير، والسدى: سبب نزول الآية: «أن عليا، وابن مسعود، وعثمان بن مظعون، تشاوروا فى أن يترهبوا، ويلبسوا المسوح، ويقطعوا المذاكير، ويصوموا الدهر؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما إنى أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، وآكل وأشرب، وأنكح، فمن رغب عن سنتى فليس منى ونزلت الآية ﴿ لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾»[3] وروى: أن عثمان بن مظعون قال: «يارسول الله، ائذن لى فى الرهبانية. فقال: رهبانية أمتى الجلوس فى المساجد. فقال: ائذن لى فى السياحة فى الأرض. فقال سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله. فقال: ائذن لى فى الإخصاء. فقال: إخصاء أمتى الصوم»[4]. وقيل: سبب نزول الآية: «أن رجلا قال: يارسول الله، إنى أصيب اللحم؛ فأنتشر واشتهى النساء فحرمت اللحم على نفسى» فنزل قوله [تعالى][5]: ﴿ لاتحرموا طيبات ما أحل الله

---

(١) ليست فى «ك».
(٢) ليست فى «الأصل».

(٣) رواه الطبرى فى التفسير (٧/ ٩،٨،٧) عن السدى، وابن عباس.

(٤) رواه ابن المبارك فى الزهد (ص٢٩٠/ رقم ٨٤٥) من طريق رشدين بن سعد قال: حدثنى ابن أنعم، وهما ضعيفان.

(٥) من «ك».

الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ

لكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين ﴾ رواه عكرمة عن ابن عباس، والاعتداء: هو مجاوزة ماله إلى ماليس له ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ أكد ذلك النهى بهذا الأمر.

قوله - تعالى -: ﴿ لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ إنما عقب تلك الآية بهذه؛ لأن القوم الذين تشاوروا أن يترهبوا كانوا قد حلفوا؛ فبين حكم الأيمان، واللغو: هو المطرح الذى لايعبأ به، وعن عائشة: أن لغو اليمين: قول الإنسان: لا والله، وبلى والله، واختاره الشافعى، وقال ابن عباس، وأبو هريرة: لغو اليمين: هو أن يحلف على شيء على ظن أنه كذلك فإذا هو على خلافه، واختلف العلماء فى وجوب الكفارة فى يمين اللغو، قال إبراهيم النخعى: تجب فيها الكفارة، وقوله: ﴿ لايؤاخذكم ﴾ يعنى: فى القيامة. وسائر العلماء على أن لاكفارة فى يمين اللغو؛ لظاهر القرآن ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ فيه ثلاث قراءات: ﴿ عَقَدْتُم ﴾ بالتخفيف قراءة الكسائى وحمزة وأبو بكر. و﴿ عَقَّدتم ﴾ بالتشديد قرأه أبو عمرو ومن بقى، غير ابن ذكوان، و ﴿ عاقدتم ﴾ قراءة ابن عامر برواية ابن ذكوان(١).

قال الكسائى: عَقَدتم، أى: أوجبتم، وقال أبو عمرو: عقَّدتم، أى: وكَّدتم، واختلفوا فى هذا التوكيد، قال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿ عقدتم ﴾ أنه ماذا؟ فقال: هو قول القائل: والله الذى لا إله إلا هو؛ كأنه فسر التوكيد به، وروى نافع عن ابن عمر: أن توكيد اليمين بالتكرار، قال نافع: وكان ابن عمر إذا وكّد اليمين أعتق رقبة، وإذا لم يوكّد: أطعم المساكين فى كفارته. ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴾ على قول النخعى يرجع هذا إلى يمين اللغو، وعلى قول الباقين يرجع إلى اليمين المعقودة، وهى المقصودة، وعقد اليمين: هو القصد بالقلب، والذكر باللسان. ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ قال ابن عمر: الأوسط هو الخبز والزيت، أو الخبز

(١) وقرأ خلف كما قرأ الكسائى، وحمزة، وأبو بكر، انظر النشر (٢ / ٢٥٥).

والتمر، وقال عبيدة السلماني: هو الخبز والسمن، وقال أبو رزين: (هو الخبز والخل وأما الأعلى)[1]: هو الخبز واللحم، والأدنى: هو الخبز البحت، والكل مجزئ، والأوسط في القدر، قال زيد بن ثابت، وعائشة، وابن عمر - رضى الله عنهم - هو المُدّ، وبه قال الشافعي - رضى الله عنه - وذلك رطل وثلث، وقال عمر، وعلى - وهو رواية ابن عباس - أنه مُدَّان، نصف صاع، وبه قال العراقيون.

﴿أو كسوتهم﴾ قال عطاء، وطاووس: لكل مسكين ثوب، وقال مجاهد: ما ينطلق عليه اسم الكسوة، وقال إبراهيم: لكل مسكين ثوب جامع يصلح [لليل][2] والنهار مثل الكساء، الملحفة ونحوهما. وقال ابن عمر: ثلاثة أثواب. وقيل: ثوبان، وهو قول الحسن، وابن سيرين، مثل إزار ورداء، أو إزار وعمامة. وقيل: ما يستر العورة، وتجزئ به الصلاة.

والصحيح: أن الواجب لكل مسكين ما يصلح به الكسوة فى العرف ﴿أو تحرير رقبة﴾ هو عتق الرقبة، وفيه كلام فى الفقه.

﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ ظاهره: أنه يجوز متفرقا، وهو الأصح، وقرأ ابن مسعود، وأبى بن كعب: «ثلاثة أيام متتابعات» فعلى هذا يجب التتابع فيه، وبه قال مالك، والأوزاعى، وهوأحد قولى الشافعى ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ قيل: الحنث مضمر فيه، يعنى: إذا حلفتم وحنثتم، ولا تجب الكفارة إلا بعد الحنث، وأما جواز التكفير قبل الحنث عرفنا بالسنة ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ ظاهره للنهى عن الحنث، وقيل: أراد به حفظ اليمين لا أن يحلف، والأول أصح ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ أما الخمر فقد سبق الكلام فيه، وكذلك الميسر، قال الأصمعى: كان ميسرهم على الجزور، فكانوا يشترون جزورا وينحرونه، ويجعلونه على ثمانية وعشرين سهما، وقيل: على عشرة

---

(١) سقط من «ك».

(٢) فى الأصل: الليل.

يجدْ فصيامُ ثلاثَة أيَّامٍ ذَلكَ كفَّارةُ أيْمانكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ واحْفَظُوا أيْمانكُمْ كذَلكَ يُبيّنُ اللَّهُ لكُمْ آياته لعلَّكُمْ تشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يا أيُّها الَّذين آمنُوا إنَّما الْخمْرُ والْميْسرُ والأنصابُ

أسهم، ثم يقامرون عليه، فكل من خرج عليه قُدِّر نصيبه مجانا، ويكون الثمن على الباقين، وهكذا يقامرون على كل سهم منه، إلى أن يبقى واحد، فيكون كل الثمن عليه، ويفوز الآخرون بسهامهم مجانا. وسئل القاسم بن محمد عن النرد والشطرنج: أهو من الميسر؟ قال: كل ماصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، فهو من الميسر، وقوله: ﴿والأنصاب والأزلام رجس﴾ أما الأنصاب والأزلام فقد بينا، وقوله: ﴿رجس﴾ أى: خبيث مستقذر، وفى الخبر: «أعوذ بالله من الرجس النجس»[1] ﴿من عمل الشيطان﴾ أى: من تزيين الشيطان ﴿فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر﴾ أما وقوع العداوة فى الخمر: أن [شاربيه][2] إذا سكروا عربدوا، وتشاجروا، (وتشاحجوا)[3].

وأما العداوة فى الميسر: قال قتادة: هو أنهم كانوا يقامرون على الأهل والمال، ثم إذا لم يبق له شيء، يجلس حزينا، مسلوبا، مغتاظا على قرنائه ﴿ويصدكم عن ذكر الله

(١) روى هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة، فرواه ابن ماجة فى سننه (١ / ١٠٩ / رقم ٢٩٩) والطبرانى فى الدعاء (٢ / ٩٦٥ / رقم ٣٦٦)، وفى الكبير (٨ / ٢١٠ / رقم ٧٨٤٩) من حديث أبى أمامة، وقال الحافظ ابن حجر فى نتائج الأفكار (١ / ٢٠٠): وورد هذا المتن من حديث أبى أمامة بمعنى الأمر، وهو أشهر ما فى الباب. ثم قال بعد أن سرده بإسناده، وعلى بن يزيد الألهانى ضعيف، وفي شيخه والراوى عنه مقال.

وروى من حديث ابن عمر، رواه الطبرانى فى الدعاء (٢ / ٩٦٥ / رقم ٣٦٧)، وقال الحافظ فى نتائج الأفكار (١ / ١٩٨): هذا حديث غريب، وحِبَّان – بكسر المهملة، وتشديد الموحدة – فيه ضعف، وكذا شيخه.

وروى من حديث أنس بن مالك، أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص١٧ / رقم ١٨)، والطبرانى فى الدعاء (٢ / ٩٦٤ / رقم ٣٦٥)، وقال الحافظ فى نتائج الأفكار: غريب من هذا الوجه.

وعن على وبريدة، رواه ابن عدى فى الكامل (٢ / ٣٨٧) وقال: وهذا الحديث قد جمع فيه صحابيين: عليا، وبريدة، وجميعاً غريبان فى هذا الباب، وما أظن رواهما غير حفص بن عمر هذا، وقال الحافظ ابن حجر: هذا حديث غريب.

ورواه أبو داود فى مراسيله (ص٧٢ / رقم٢) عن الحسن مرسلاً.

(٢) فى «الأصل»: شاربين.

(٣) أى: رفعوا أصواتهم، والشحاج: هو صوت البغل، وبعض أصوات الحمار، والغراب إذا أسن. أنظر لسان العرب (مادة: شحج).

وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ

وعن الصلاة ﴾ يعنى: الشيطان يمنعكم بهما عن ذكر الله (وعن الصلاة)[1] ﴿فهل أنتم منتهون﴾ معناه: انتهوا، قال الفراء: سمعت بعض الأعراب يقول لغيره: هل أنت ساكت؟ (هل أنت ساكت)[2] ؟ يريد به: اسكت، وهذا كلام العرب العاربة.

وسبب نزول الآية: «أن عمر - رضى الله عنه - قال: اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا؛ فنزل (قوله)[3] فى سورة البقرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾[4] فدعا عمر، وقرأ عليه، فقال ثانيا: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا؛ فنزل قوله فى سورة النساء: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[5] فقرأ عليه؛ فدعا ثالثا، وقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا؛ فنزلت هذه الآية، فدعا وقرأ عليه؛ فلما بلغ قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ قال: انتهينا يارب»[6]، وقيل: سبب نزول الآية: «أن قدامة بن مظعون اتخذ دعوة، وشوى رأس بعير، ودعا سعد بن أبى وقاص، وجماعة، فأكلوا، وشربوا، فلما سكروا تفاخروا، فقام رجل من الأنصار إلى لحى البعير، وضرب به وجه سعد،

---

(١) ليست فى «ك».

(٢) هكذا تكررت فى «الأصل»، و«ك».

(٣) ليست فى «ك»..

(٤) البقرة: ٢١٩.

(٥) النساء: ٤٣.

(٦) رواه أبو داود فئ سننه (٤/٧٩-٨٠/رقم٣٦٧٠)، والترمذى (٥/٢٣٦-٢٣٧/رقم ٣٠٤٩) وقال: وقد روى عن إسرائيل هذا الحديث مرسل ثم ساقه وقال: وهذا أصح. والنسائى (٨/٢٨٦-٢٨٧/رقم٥٥٤٠)، وأحمد فى مسنده (١/٥٣)، والطبرى فى التفسير (٧/٢٢) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/١٢٩): وصححه على بن المدينى، والترمذى.

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا

فضرب أنفه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ؛ فنزلت هذه الآية»(١) [وقيل: نزلت](٢) فى قبيلتين من الأنصار تخاصمتا فى حال السكر، وقد ورد فى الخمر أخبار منها: قوله ﷺ: «مدمن الخمر كعابد الوثن»(٣) وقال ﷺ: «الخمر أم الخبائث، من شربها لم يقبل الله له صلاة أربعين يوما، من مات وفى بطنه شيء من الخمر؛ حرم الله عليه الجنة»(٤).

قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا﴾ لما حرم الخمر، وأمر بالاجتناب عنها؛ ندبهم إلى طاعة الله والرسول، والتوقى ﴿فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ سبب نزول الآية هذه أن الصحابة قالوا لما ورد تحريم الخمر: يارسول الله كيف حال من مات منا وهو يشرب الخمر؟ فنزلت الآية. وقيل: إنهم قالوا: إن حمزة بن عبد المطلب،

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١٥/ ٢٦٤ – ٢٦٧/ رقم ١٧٤٨) والبخارى فى الأدب المفرد (ص١٦/رقم٢٤)، وأحمد فى المسند (١/ ١٧٨، ١٨١، ١٨٥ – ١٨٦)، وليس فيه تسمية قدامة بن مظعون، وإنما فيه: أن رجلاً من الأنصار... وعزاه السيوطى فى الدر (٢/ ٣٤٥ – ٣٤٦) لكل من ابن جرير الطبرى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والنحاس فى الناسخ.

(٢) ليس فى الأصل، ولا فى «ك» والسياق يقتضيها، وانظر الدر المنثور (٢/ ٣٤٥ – ٣٤٦).

(٣) روى هذا الحديث من حديث ابن عباس، وأبى هريرة، وابن عمرو، وأنس، وجابر وعن غير واحد من الصحابة أيضاً، وانظر تخريج الكشاف للزيلعى (١/ ٤٢٠ – ٤٢١).

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط كما فى المجمع (٧/ ٩٥/ رقم ٤١٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٧٥) رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه شباب بن صالح، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وفى بعضهم كلام لايضر وانظر السلسلة الصحيحة رقم [١٨٥٤].

وله طريق آخر رواه الطبرانى فى الأوسط (١/ ١٥٣/ رقم ١٣٨) وقال: لايروى عن ابن عمر، عن ابن عمرو إلا بهذا الإسناد، تفرد به الدراوردى. والحاكم فى مستدركه (٤/ ١٤٧) وصححه على شرط مسلم. وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٧١): ورجاله رجال الصحيح خلا صالح بن داود التمار، وهو ثقة.

﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ﴾

ومصعب بن عمير استشهدوا يوم أحد، وكانا يشربان الخمر، فكيف حالهما؟ فنزلت الآية وبيّن الله تعالى أنه لاجناح عليهم فيما طعموا فى حال الإباحة ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا﴾ (فى هذا مقدم معنى مؤخر أقوال)[1]: أحدها: أن معنى الأول: إذا ما اتقوا الشرك وآمنوا، أى: صدقوا، وعملوا الصالحات ﴿ثم اتقوا﴾ أى: داموا على ذلك التقوى ﴿وآمنوا﴾ أى ازدادوا إيمانا ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ أى: اتقوا بالإحسان فى كل محسن، وكل مطيع مُتقٍ.

والقول الثانى: أن التقوى الأول: اجتناب الشرك، والتقوى الثانى: اجتناب الكبائر والتقوى الثالث: اجتناب الصغائر، وهذان قولان معروفان فى الآية، وفى الآية قول ثالث: أنه أراد به: إذا ما اتقوا قبل تحريم الخمر، ثم اتقوا بعد تحريم الخمر، وقيل هذا لايصح؛ لأن قوله: ﴿إذا ما اتقوا﴾ إنما يصلح للمستقبل لا للماضى؛ فإن حرف «إذا» للمستقبل.

﴿والله يحب المحسنين﴾، روى أن قدامة بن مظعون شرب الخمر؛ فدعاه عمر ليحده، فقال: أليس يقول الله - تعالى -: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ فقال: أخطأت التأويل، لقد قال: ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا﴾ وأنت لم تتقِ النهى.

وروى: «أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية، ثم قال ابن مسعود: وأَيْنا من هؤلاء؟!»[2]

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد﴾ أى: ليختبرنكم الله بشىء من الصيد، وفائدة البلوى والاختبار: إظهار المطيع من العاصى، وإلا فلا حاجة له إلى البلوى، وسبب هذا: أن رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية مع

(١) كذا «بالأصل، وك».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (١٦/٢٠/رقم ٢٤٥٩)، والترمذى (٥/٢٣٨/رقم ٣٠٥٣)، والنسائى فى الكبرى (٦/٣٣٧/ رقم ١١١٥٣).

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ

أصحابه، وكانوا محرمين، كان يدنوا منهم الصيود والوحوش؛ فهمّوا بالأخذ؛ فنزلت الآية.

﴿ تناله أيديكم ﴾ يعني: في صغار الصيود ﴿ ورماحكم ﴾ يعني: من كبار الوحوش، قال مجاهد ﴿ تناله أيديكم ﴾ يعني: الفرخ والبيض ﴿ ورماحكم ﴾ يعني: الصيود الكبار.

﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ قيل: معناه: ليعلم الله من يخافه بالغيب، فيعامله معاملة من يطلب العلم للعمل؛ إظهارا للعدل، وقيل: معناه: ليرى من يخافه بالغيب، وقوله: ﴿ من يخافه بالغيب ﴾ هو أن يخاف الله وهو لايراه ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ سبب هذا أن رجلا يقال له: أبو اليسر، شدّ على حمار وحش؛ فقتله وهو محرم؛ فنزلت الآية ﴿ لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾، والحُرُمْ: يكون من الإحرام، ويكون من دخول الحرم، يقال: أحرم، إذا عقد الإحرام، وأحرم إذا دخل الحرم، ويقال أيضا لمن أدرك الشهر الحرام: محرم.

﴿ ومن قتله منكم متعمدا ﴾ ذكر حالة العمد لبيان الكفارة، فاختلف العلماء، قال سعيد بن جبير: لاتجب كفارة الصيد في قتل الخطأ، بل تختص بالعمد، وبه قال داود.

وسائر العلماء على أنها تجب في الحالين، قال الزهري: على المتعمد بالكتاب، وعلى المخطيء بالسنة.

﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ قرأ الأعمش «فجزاؤه مثل ما قتل من النعم»، والمعروف فيه قراءتان «فجزاءُ مثلِ» على الإضافة، وقرأ بعضهم «فجزاءٌ مثلُ» بتنوين

الجزاء، ورفع اللام من المثل[1]، ومعنى الكل واحد، والمثلية معتبرة فى الجزاء؛ فيجب فيما قتل مثله من النعم شبها؛ فيجب فى النعامة: بدنة، وفى الأروى: بقرة، وفى الطير والضبع والحمامة: شاة، وفى الأرنب: عناق، وفى اليربوع: جفرة، وكل هذا مروى عن الصحابة.

﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد فى الأحكام ﴿هديا بالغ الكعبة﴾ نصب على التمييز، قوله: ﴿بالغ الكعبة﴾ يقتضى أن يكون إعطاء الهدى فى الحرم، يفرّق على مساكين الحرم، وهو الواجب ﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ وذلك أن يقوّم (المثل)[2] من النعم بالدراهم، ويشترى بالدراهم طعام مساكين، وبه قال الشافعى، وقال أبو حنيفة يُقَوَّم بالصيد المقتول أبدا ﴿أو عدل ذلك صياما﴾ قرأ عاصم الجحدرى، وطلحة بن، مصرف: ﴿أو عدل ذلك﴾ بكسر العين، ثم قال بعضهم: لافرق بينهما، ومعناه: المثل، وفرّق الفراء بينهما، فقال: العدل - بالكسر -: المثل من جنسه، والعَدل: المثل من غير جنسه، وقد قيل: العدل - بالفتح -: هو المثل، والعِدل - بالكسر -: الحمل، والأول أصح، وصوم العدل: أن يصوم بدل كل مُدٍّ يوما، وقيل: يومان، ثم هذا على التخيير أم على الترتيب؟

قال الشعبى، والنخعى - وهو رواية عن مجاهد -: إنه على الترتيب، وقال غيرهم - وبه قال ابن عباس -: إنه على التخيير؛ لأنه قال: ﴿أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما﴾ وكلمة «أو» للتخيير ﴿ليذوق وبال أمره﴾ أى: شدة أمره ﴿عفا الله عما سلف﴾ يعنى: فى الجاهلية ﴿ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾.

واختلف العلماء فى العامد إلى قتل الصيد ثانيا، هل تجب عليه الكفارة ثانيا، أم

---

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وأبو بكر، ويعقوب بالتنوين، ورفع اللام وقرأ الباقون بغير تنوين، وخفض اللام. انظر النشر (٢/٢٥٥).

(٢) فى «ك»: المثلى.

صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا

لا؟ قال ابن عباس: لاتجب، ويقال له. أسأت، وينتقم الله منك. وعامة العلماء على أنه تجب الكفارة ثانيا، وقوله: ﴿فينتقم الله منه﴾ يعنى: فى الآخرة.

قوله - تعالى -: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ قال عمر، وعلى: صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما قذف، وهو رواية عن ابن عباس. وعنه رواية أخرى: أن طعامه ما نضب عنه الماء. وقال مجاهد: صيده: الطرى وطعامه: المالح، وهو مروى عن ابن عباس أيضا. ﴿متاعا لكم﴾ أى: منفعة لكم ﴿وللسيارة﴾ قال ابن عباس: متاعا لكم: خطاب مع أهل القرى، والسيارة أهل الأمصار، وقال مجاهد: السيارة: المسافرون.

﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما﴾ حرم الاصطياد على المحرم، وقد ذكرنا ﴿واتقوا الله الذى إليه تحشرون﴾ واختلف العلماء فى صيد الحلال: هل يحل للمحرم، وأن يأكل منه؟ قال عمر، وعثمان: يحل. وبه أخذ أكثر الفقهاء، وقال على، وابن عباس: إنه لايحل، وبه قال جماعة من التابعين.

قوله - تعالى -: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام﴾ قال ثعلب أبو العباس أحمد ابن يحيى: إنما سميت كعبة؛ لتربيعها ﴿البيت الحرام﴾ وهو الكعبة، وفى الخبر: «إن الله - تعالى - حرم مكة منذ خلق السموات والأرض»[1] ﴿قياما للناس﴾ القيام والقوام واحد، قال الله - تعالى -: ﴿أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾[2] أى: قواما لمعايشكم، وقال الشاعر: يمدح النبى ﷺ.

ونشهد أنك عبد المليك ... أتيت بشرع ودين قيم

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس، رواه البخارى (٤/٥٦/رقم ١٨٣٤)، ومسلم (١٩/١٧٦ - ١٧٨/ رقم ١٣٥٣).

(٢) النساء: ٥

وأراد به: أن البيت الحرام قوام للناس لدينهم ومعايشهم، أما فى الدين؛ لأن به تقوم المناسك والحج، وأما فى المعايش؛ فلأن (أهل الحرم)[1] كانوا يأمنون أهل (الغارة)[2]، حتى كان يغير بعضهم على بعض، ثم لايتعرضون لأهل الحرم، ويقولون: هم أهل الله.

﴿والشهر الحرام﴾ أراد به: جنس الأشهر الحرم، وهى أربعة أشهر: ثلاثة سرد، وواحد فرد كما سبق، والمراد به: أنه جعل الشهر الحرام قواما للناس؛ يأمنون فيه القتال؛ فإنهم كانوا يكفون عن القتل والقتال فى الأشهر الحرم.

﴿والهدى والقلائد﴾ وقد بينا كيف يكون الهدى والقلائد، وكونه قواما للناس: أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدى، وكان أهل الحرم يتعيّشون بالهدى والقلائد.

﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات والأرض وأن الله بكل شىء عليم﴾ فإن قال قائل: أى اتصال لهذا بما سبق من الكلام فى الآية؟ قال المبرد أبو العباس محمد بن يزيد: معناه: أن ألهمتهم ذلك الاحترام، وأن لايتعرضوا لأهل الحرم؛ فكأنه بيّن فى الآية صنعه مع أهل الحرم، قال: ذلك لتعلموا أن كل ذلك بعلمى، وإلهامى إيّاهم.

وقال الزجاج: [قد سبق][3] فى هذه السورة من الله - تعالى - الإخبار عن الغيوب، والكشف عن الأسرار، مثل قوله: ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾[4] ومثل إخباره بتحريفهم الكتب، ونحو ذلك؛ فقوله: ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض﴾ راجع إليه.

---

(١) ليست فى «ك».

(٢) فى «ك»: القادة.

(٣) تكررت فى «ك» مرتين.

(٤) المائدة: ٤١.

فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لاَّ

قوله - تعالى -: ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ وفى الخبر: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العذاب لم يطمع فى جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة لم يقنط من جنته أحد».(١)

وقوله: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ معلوم المعنى.

قوله - تعالى -: ﴿قل لايستوى الخبيث والطيب﴾ قال السدى: يعنى الكافر والمؤمن. وقال غيره: الخبيث: الحرام، والطيب: الحلال، وفى الخبر: «حلوان الكاهن خبيث ومهر البغى خبيث»(٢) أى: حرام ﴿ولو أعجبك﴾ معناه: ولو سرك ﴿كثرة الخبيث﴾.

﴿فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون﴾ وفى المثل: حرام يأتى جزفا (والحلال)(٣) يأتى قوتًا. وعن أبى هريرة أنه قال: «درهم من الحلال خير من مائة ألف [درهم](٤) وقر من الحرام»(٥).

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ سبب نزول الآية: أن الصحابة أكثروا السؤال على النبى ﷺ حتى غضب، وقام

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - فرواه البخارى (١١/٣٠٧/رقم ٦٤٦٩) ومسلم (١٨/١١٠/رقم ٢٧٥٥).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (١٠/٢٣٢/ رقم ١٥٦٨) وأبو داود (٣/٢٦٦/ رقم ٣٤٢١))، والترمذى (٣/٥٧٤/ رقم ١٢٧٥) من حديث رافع بن خديج ولفظه: «كسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث، ومهر البغى خبيث». وأما لفظة وحلوان الكاهن خبيث فقد رويت فى أحاديث أخرى.

(٣) فى ك: وحرام.

(٤) من «ك».

(٥) كذا فى «الأصل»، و «ك»، وقد أخرج ابن أبى حاتم هذا الأثر فى تفسيره عن أبى هريرة أنه قال: «لدرهم حلال أتصدق به أحب إلى من مائة ألف ومائة ألف حرام فإن شئتم فاقرؤا كتاب الله: ﴿قل لايستوى الخبيث والطيب﴾ انظر الدر المنثور (٢/٣٦٦).

يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا

خطيبا، وقال: «إنكم لاتسألونى عن شيء فى مقامى هذا إلا أنبأتكم به، فقال رجل: يارسول الله، من أبى؟ – وكان السائل عبد الله بن حذافة السهمى، وكان يقال فى نسبه شيء، فلما قال: من أبى؟– قال – عليه الصلاة والسلام –: أبوك حذافة، فقام آخر، وقال: من أبى؟ فنسبه إلى غير أبيه – كأنه كان من حرام – وسأله رجل، فقال: أين أكون غدا؟ فقال: فى النار، فقام آخر، وقال أين أكون غداً؟ فقال: فى الجنة؛ فبكوا، وقال عمر: استر علينا يارسول الله؛ فإنا حديث عهد بالجاهلية، وجثا على ركبتيه، وقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا؛ ونزلت الآية»[(١)].

وروى أبو البختری عن علی – رضی الله عنه – أنه قال: «(لما)[(٢)] نزل قوله: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾[(٣)] قام رجل، وقال: أفى كل عام يارسول الله؟ فقال: لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولم تطيقوه، ثم قال ﷺ: ذرونى ما تركتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه، فانتهوا، ونزلت الآية»[(٤)].

﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ معناه: وإن صبرتم حتى ينزل القرآن؛ وجدتم فيه بيان ما تحتاجون إليه ﴿عفا الله عنها والله غفور حليم﴾.

﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ قال بعضهم: أراد به أصحاب

(١) متفق عليه من حديث أنس، رواه البخارى (٨/ ١٣٠/رقم ٤٦٢١)، ومسلم (٥/ ١٦٢ – ١٦٨/ رقم ٢٣٥٩).

(٢) فى «ك»: ما، وهو خطأ.

(٣) آل عمران: ٩٧

(٤) رواه الترمذى فى جامعه (٥/ ٢٣٩/رقم ٣٠٥٥) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ٩٦٣/ رقم ٢٨٨٤)، وأحمد فى مسنده (١/ ١١٣)، والحاكم (٢/ ٢٩٣ – ٢٩٤) والبزار – البحر الزخار – (٣/ ١٢٦ – ١٢٧ رقم ٩١٣) وقال: وهذا حديث لايعلم يروى عن على إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وقد تقدم ذكرنا فى أبى البخترى أنه لم يسمع من على، وأبو يعلى فى مسنده (١/ ٣٩٦ رقم ٥١٧).

عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا

المائدة، وسألوا المائدة ثم كفروا، وقال بعضهم: أراد به: قوم صالح، سألوا الناقة، ثم كفروا بها، وقال بعضهم: أراد به الكفار فى الجاهلية، سألوا رسول الله أن يجعل الصفا ذهبا.

قوله – تعالى –: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾

قال سعيد بن جبير: كان سؤالهم الذى تقدم عن هذه الأوضاع، وهذه الآية لبيان ما سألوا ردا عليهم، وقال ابن عباس فى بيان هذه الأوضاع الأربعة، قال:

أما البحيرة: هى الناقة كانت إذا ولدت خمسة أبطن شقوا أذنها، وتركوها ولم يحملوا عليها، ولم يمنعوها الكلأ؛ وبذلك سميت بحيرة من البحر، وهو الشق، ثم نظروا إلى خامس ولدها، فإن كان ذكرا نحروه، وأكله الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركوها كالأم، وإن كان ميتا، أكله الرجال والنساء؛ فهذا معنى البحيرة.

وأما السائبة: كان الرجل من أهل الجاهلية إذا مرض له مريض، أو غاب له قريب، يقول: إن ردّ الله غائبى، أو إن شفى الله مريضى؛ فناقتى هذه سائبة، ثم يسيبها، تذهب حيث تشاء، (أو)[1] يقول: إن كان كذا؛ فعبدى عتيق سائبة. يعنى: من غير ولاء، ولا ميراث؛ فهذا معنى السائبة.

وأما الوصيلة: فكانت فى الغنم، كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن، نظروا إلى البطن السابع، فإن كان ذكرا ذبحوه وأكله الرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركوها، وإن كان ميتا أكله الرجال والنساء، وإن كان ذكرا وأنثى فى بطن واحد تركوهما، وقالوا: وصلت أخاها، فهذه هى الوصيلة.

وأما الحام: كان بعضهم إذا ولدت ناقته عشرة أبطن؛ تركوها ولم يركبوها، وقالوا: حمى ظهرها، وكذلك إذا ركب ولد ولدها؛ يقولون: حمى ظهرها وتركوها، وربما تركوها لآلهتهم على ما سيأتى فى سورة الأنعام؛ فهذا هو الحام، وهذه أوضاع وضعها أهل الجاهلية على آرائهم، فجاء الشرع برفعها، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال:

---

(١) فى «ك»: ثم.

حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا

« رأيت النار؛ فرأيت فيها عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار »(١) أى: أمعاءه، وكان أول من سيب السوائب ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون ﴾ ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾ يعنى: إذا دعوا إلى الكتاب والسنة ﴿ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ يعنى: كفانا دين آبائنا ﴿ أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون ﴾.

قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ يعنى: تخليصها من النار ﴿ لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ فإن قال قائل: كيف يقول: « عليكم أنفسكم » وقد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قيل: قال مجاهد، وسعيد بن جبير: الآية فى اليهود والنصارى، يعنى: عليكم أنفسكم، لايضركم من ضل من اليهود والنصارى إذا اهتديتم؛ فخذوا منهم الجزية، ولاتتعرضوا لهم، واتركوهم وما يزعمون؛ فإنه لايضركم.

(وعن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه -: « أنه خطب وقال: إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ عليكم أنفسكم لايضركم)(٢) من ضل إذا اهتديتم ﴾، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا رأيتم الظالم فخذوا على يديه، أو يوشك أن [يعمكم](٣) الله (بعقاب)(٤) »(٥) وعن ابن مسعود أنه قال فى هذه الآية: « مروا بالمعروف، وانهوا عن

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (٨ / ١٣٢ - ١٣٣ / رقم ٤٦٢٣) ومسلم (١٧ / ٢٧٤ - ٢٧٥ / رقم ٢٨٥٦) ورواه البخارى من حديث عائشة. (٨ / ١٣٣ / رقم ٤٦٢٤).

(٢) سقط من « ك ». (٣) فى « ك »: يعمه. وهو خطأ. (٤) فى « ك »: بعقابه.

(٥) رواه أبو داود (٤ / ١٢٢ / رقم ٤٣٣٨)، والترمذى (٥ / ٢٣٩ - ٢٤٠ / رقم ٣٠٥٧) وابن ماجة (٢ / ١٣٢٧ / رقم ٤٠٠٥)، وأحمد (١ / ٢، ٥، ٧، ٩)، والطبرى فى التفسير (٧ / ٦٤)، والبيهقى فى الكبرى (١٠ / ٩١) وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (١ / ٥٣٩-٥٤٠ / رقم ٣٠٤ - ٣٠٥).

وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقد رواه غير واحد عن إسماعيل بن أبى خالد نحو هذا الحديث مرفوعاً، وروى بعضهم عن إسماعيل، عن قيس، عن أبى بكر قوله، ولم يرفعه.

وقال الدارقطنى فى العلل (١ / ٢٥٣) بعد أن ذكر الاختلاف فى أسانيده: وجميع رواة هذا الحديث ثقات، ويشبه أن يكون قيس بن أبى حازم كان ينشط فى الرواية مرة فيسنده ومرة يجبن عنه فيقفه على أبى بكر.

يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ

المنكر؛ فإن قبل منكم؛ فذاك وإن ردّ عليكم أنفسكم»، [ويرد][(١)] هذا ما روى عن أبى أمية الشيبانى أنه قال: «سألت أبا ثعلبة الخشنى، فقلت: إن الله - تعالى - يقول: ﴿عليكم أنفسكم﴾ وقد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال: لقد سألت عنها خبيرا، سمعت رسول الله ﷺ - وقد سئل عن هذه الآية - يقول: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر؛ فإذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع أمر العامة»[(٢)] ﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ سبب نزول الآية: «أن تميم الدارى وعدى (بن بداء)[(٣)] ؟ خرجا إلى التجارة، وكانا نصرانيين، ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص، وكان مسلما؛ فمرض، وكتب ما معه من المتاع فى صحيفة، وألقاها بين المتاع، ثم أوصى إلى هذين النصرانيين أن يردا متاعه إلى مولاه إن مات هو، وكان بين المتاع جام [مخوّص][(٤)] بالذهب منقوش به؛ فخانا فى ذلك الجام، وأدّيا سائر المتاع إلى أهله، فوجدوا تلك الصحيفة بين المتاع؛ فطلبوا الجام، فافتقدوه؛ فسألوا عديا، وتميما عن ذلك فأنكرا، وقالا: لا ندرى، وحلفا عليه، ثم إن ذلك الجام وجد عند رجل بالمدينة، فسئل الرجل عنه؛ فقال: إنما أعطانيه عدى وتميم؛ فاختصموا إلى النبى ﷺ؛ فأصرا على الإنكار، وحلفا عليه؛ فحلف عمرو بن العاص والمطلب بن أبى

(١) كذا فى «ك»، ووقع فى الأصل: ويؤيد. وهو خطأ.

(٢) رواه أبو داود (٤/١٢٣/رقم ٤٣٤١)، والترمذى (٥/٢٤٠/رقم ٣٠٥٨) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٢٠/١٣٣٠/رقم ٤٠١٤).

(٣) ليست فى «ك».

(٤) كذا فى «ك» بالخاء، وفى «الأصل» مجوص، بالجيم.

إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ

وداعة على أنهما قد خانا فى الجام، فأخذ الجام ثم إن تميما أسلم بعد ذلك؛ وأقر بتلك الخيانة»[1] فهذه قصة الآية وعليها نزلت الآية.

فقوله: ﴿شهادة بينكم﴾ يقرأ فى الشواذ «شهادةً بينكم» وقرأ الأعرج «شهادةٌ بينكم» بالرفع والتنوين، والمعروف «شهادة بينكم» ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أى: أسباب الموت ﴿حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾ ذكر اثنان على الرفع؛ لأنه خبر الابتداء، ومعنى هذا الكلام: أن الشهادة فيما بينكم على الوصية عند الموت: اثنان ذوا عدل منكم.

﴿أو آخران من غيركم﴾ قال أبو موسى الأشعرى، وابن عباس، وهو قول شريح، والنخعى، وسعيد بن جبير، وجماعة -: إن معناه: من غير أهل ملتكم، يعنى: من أهل الذمة، وقال الحسن، والزهرى: معناه: من غير قبيلتكم.

﴿إن أنتم ضربتم فى الأرض﴾ أى: سافرتم ﴿فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ أكثر العلماء على أنه أراد به: صلاة العصر، (وقال الحسن: بعد صلاة الظهر، والأول أصح؛ وإنما خص به صلاة العصر؛ لأن وقت العصر)[2] مُعَظَّم محترم عند (جميع)[2] أهل الأديان، وكأن الناس بعد العصر يكون أجمع فى الأسواق والمساجد، والمراد به: حبس الحالفين بعد العصر.

---

(١) رواه الترمذى (٥/ ٢٤١/ رقم ٣٠٥٩)، والطبرى فى التفسير (٧/ ٧٥) وقال الترمذى: هذا حديث غريب، وليس إسناده بصحيح، وأبوالنضر الذى روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندى محمد بن السائب الكلبى، يكنى أبا النضر، وقد تركه أهل الحديث، وهو صاحب التفسير، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبى يكنى أبا النضر، ولا نعرف لسالم أبى النضر المدنى رواية عن أبى صالح مولى أم هانئ، وقد روى عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه، وعزاه السيوطى فى الدر (٢/ ٣٧٤) لابن أبى حاتم، والنحاس فى ناسخه، وأبى الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم فى المعرفة.

(٢) سقط من «ك».

بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا

﴿ فيقسمان بالله إن ارتبتم ﴾ يعنى: إن وقعت لكم ريبة فى قول الحالفين أو الشاهدين يحلفان أنا ﴿ لانشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ﴾ أى: لانقول إلا الصدق ولو كان على القريب ﴿ ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين ﴾ وإنما قال: شهادة الله؛ لأن الشهادة تكون بأمر الله ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثما ﴾ يعنى: فإن اطلع، وأظهر خيانتهما ﴿ فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ يقرأ هذا على ثلاثة أوجه: أحدها: «من الذين استُحِقَّ عليهم الأوليان». وقرأ (حفص عن عاصم)[1] «من الذين استَحَق» بنصب التاء والحاء ﴿ عليهم الأوليان ﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة: «من الذين استحق» - بضم التاء وكسر الحاء - عليهم الأولين[2].

فأما معنى القراءة الأولى فقوله: ﴿ استُحِقَّ عليهم ﴾ يعنى: استحق فيهم، أو استحق منهم كقوله: ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾[3] أى: على جذوع النخل، يعنى: الذين وقعت الخيانة فى حقهم، وهم أولياء الميت، و ﴿ الأوليان ﴾ تثنية: الأولى، والأولى: هو الأقرب، ومعناه: إن عثر على خيانة الحالفين؛ يقوم الأوليان من أولياء الميت؛ فيحلفان، وأما قوله: ﴿ من الذين استحق عليهم ﴾ أى حق ووجب فيهم، ومعناه ومعنى القراءة الأولى سواء.

وأما القراءة الثالثة: ﴿ من الذين استحق عليهم الأولين ﴾ فهو بدل عن قوله: ﴿ من الذين ﴾ أو عن الاسم المضمر تحت قوله: ﴿ عليهم ﴾؛ فيكون المراد به أيضا أولياء الميت ويكون المعنى ما بينا.

---

(١) فى «ك»: عاصم عن حفص. وهو خطأ.

(٢) انظر النشر (٢/ ٢٥٦).

(٣) طه: ٧١.

لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا

ثم بين كيفية قسمهما؛ فقال: ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين ﴾ ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ يعنى: ذلك أقرب وأحرى أن تؤدوا الشهادة على وجهها ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ يعنى: وإن يخافوا ردّ اليمين بعد يمينهم على المدعين؛ فلا يحلفوا على الكذب؛ خوفا من أن يرد اليمين عليهم، ويكون يمينهم أولى.

﴿ واتقوا الله واسمعوا والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ قال النخعى، وشريح: الآية منسوخة، وقوله: ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ لقد كانت شهادة أهل الذمة مقبولة على الوصية ثم نسخ، وقد جوز بعضهم شهادة أهل الذمة فى الوصية؛ خاصة من لايرى نسخ الآية منهم، وقال الحسن: الآية محكمة، وقد حمل قوله: «أو آخران من غيركم» على غير قبيلتكم كما بينا.

قوله: ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا ﴾ فإن قال قائل: كيف يقولون: لاعلم لنا، وقد علموا ما أجابوا؟ قيل: إن جهنم تزفر زفرة تذهل (بها)[1] عقولهم؛ فيقولون من شدة الفزع: لاعلم لنا؛ ثم يرد الله - تعالى - عليهم عقولهم، فيخبرون بالجواب، وقيل: معناه: لاعلم لنا إلا العلم الذى أنت أعلم به منا، أو إلا ما علمتنا، وقيل: معناه: لاعلم لنا بوجه الحكمة فى سؤالك إيّانا عن أمر أنت أعلم به منا، وقيل: معناه: لاعلم بعاقبة أمرهم، وبما أحدثوا من بعد، وأن أمرهم على ماذا ختم، وعلى هذا دل شيئان: أحدهما: من الآية قوله ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾، والثانى: ما روى صحيحا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يسلك بطائفة من أصحابى ذات الشمال - يعنى يوم القيامة - فأقول: يارب، أصحابى أصحابى، فيقول الله - تبارك وتعالى-: إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول ما قال العبد الصالح: ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت

(١) فى: «ك» فيها.

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي

فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾[(١)]»[(٢)].

قوله - تعالى -: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك﴾ أمره بشكر النعمة، ثم عد عليه نعمه؛ فقال: ﴿إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ وقد ذكرنا الكلام فيه.

﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى﴾ وقد بينا فيما سبق كيفيته. ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى﴾ هذا الوحى بمعنى الإلهام، أو بمعنى الأمر، أى: ألهمتهم وأمرتهم، قال العجاج:

الحمد لله الذى استقلت به السماء فاطمأنت

(أوحى)[(٣)] لها القرار فاستقرت

أى: أمرها بالقرار

﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ وقد ذكرنا معنى الحواريين.

---

(١) المائدة: ١١٧.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس، فرواه البخارى (٨/ ١٣٥/ رقم ٤٦٢٥)، ومسلم (١٧/ ٢٨١ - ٢٨٢/ رقم ٢٨٦٠).

(٣) فى لسان العرب (مادة: وحى): وحَى. بدون ألف فى أولها.

وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

قوله - تعالىٰ -: ﴿إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك﴾ وقرأ الكسائى: «هل تستطيع» - بالتاء - «ربَّك» بفتح الباء، وهذه قراءة على، ومعاذ وعائشة[1]، وكانت عائشة تحلف أن الحواريين أعرف بالله من أن يقولوا: هل يستطيع ربك.

ولقراءتهم معنيان: أحدهما: أن المراد به هل تسأل ربك، والثانى: هل تستدعى طاعة ربك بإجابته سؤالك إياه؟ وأما القراءة المعروفة ففى معناها أقوال:

أحدها معناه: هل يفعل ربك. وقال الفراء: يقول الرجل لغيره: هل تستطيع أن تفعل كذا، يريد به: هل تفعل كذا؟.

والثانى معناه: هل يطيع ربك استطاع بمعنى أطاع، كقولهم: استجاب، يعنى: أجاب، فيكون معناه: هل يطيعك ربك؛ بإجابة سؤالك، وفى الآثار: «من أطاع الله أطاعه الله» أى: يجيب دعاءه.

وقيل: إن الحواريين قالوا ذلك قبل استحكام المعرفة، وأراد به: القدرة، ولو استحكمت معرفتهم لم يقولوا ذلك، والصحيح أحد القولين الأولين، وهذا لأن الاستطاعة لاتنسب إلى الله غالبا؛ وإنما يوصف بالقدرة، وأما الاستطاعة تكون للعبد.

وقوله: ﴿أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ اعلم أن المائدة: اسم لما يكون عليه طعام؛ فإذا لم يكن عليه طعام لايسمى مائدة، واختلفوا فى اشتقاق المائدة: منهم من قال: هى من الميد، بمعنى الإعطاء، ومنه: قالوا لأمير المؤمنين: الممتاد، يعنى: الذى يُطلب عطاؤه؛ فعلى هذا سميت مائدة؛ لأنها تعطى من عليها الطعام.

وقيل: هو من [المَيَد][2] بمعنى الحركة؛ فعلى هذا سميت مائدة؛ لأنها تتحرك بما

---

(١) انظر النشر (٢/٢٥٦).

(٢) فى «الأصل»، و«ك»: الميل. وهو خطأ.

قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا

عليها من الطعام.

﴿ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ نهاهم عن اقتراح الآيات بعد الإيمان، وقيل: أراد به أى: اكتفوا بطعام الأرض عن طعام السماء.

قوله - تعالى -: ﴿ قالوا نريد أن نأكل منها ﴾ يعنى: أكل تبرك لا أكل حاجة ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ أى: يزداد إيمانها، وهو مثل قوله: ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾[1] ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ أى: نزداد إيمانا بصدقك، وفى بعض التفاسير: أن عيسى - صلوات الله عليه - كان قد أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوما لما سألوه أن يسأل المائدة، قال لهم: صوموا ثلاثين يوما؛ فإذا أفطرتم لاتسألون الله شيئا إلا أعطاكم، ففعلوا ذلك، فلما أعطوا المائدة، عرفوا صدقه؛ فذلك معنى قوله: ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ﴾ قيل: إنه لما أراد سؤال المائدة اغتسل، وصلى ركعتين، فطأطأ رأسه، وغض بصره، وبكى، ثم قال: «اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا» والعيد: المراد به: يوم السرور لهم ﴿ وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ أى: جنس عذاب لم أعذب به أحدا، وقيل: إن ذلك العذاب (أنه)[2] مسخهم خنازير على ما سنبين فى القصة.

ثم اختلفوا، قال الحسن، ومجاهد: إن المائدة لم تنزل أصلا، فإن الله - تعالى -

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) ليست فى «ك».

لما أوعد على كفرهم بعد نزول المائدة؛ خافوا أن يكفر بعضهم؛ فاستعفوا عن إنزال المائدة؛ فعلى هذا تقدير قوله: ﴿إني منزلها عليكم﴾ يعنى: إن سألتم، إلا أنهم استعفوا فلم تنزل، والصحيح - والذى عليه الأكثرون - أنها منزلة؛ لأن الله تعالى لايعد شيئا ثم يخلف، وقد قال: ﴿إني منزلها عليكم﴾.

والقصة فى ذلك: أن عيسى لما سأل المائدة؛ نزلت من السماء سفرة حمراء بين غمامتين كانوا يرونها، بسطت بين أيديهم، وكانت مغطاة، فقام عيسى إليها، ورفع عنها الغطاء، فإذا عليها سبعة أرغفة، وسبعة أحوات، وفى رواية: كان عليها خمسة أرغفة، وسمكة مشوية ليس فيها فلوس ولاشوك كما يكون فى سمك الأرض، وكان حولها من كل بقل إلا الكرات، وكان عند رأسها الملح وعند ذنبها الخل، وكان عليها خمس رمانات وتميرات، وقيل: كانت الأرغفة من خبز الأرز، وقال عطية: كانت عليها سمكة لها طعم جميع الأرض، وقيل: كان عليها ثمر من ثمار الجنة. وفى بعض الروايات أن عيسى سُئل: أهذا من طعام الجنة؟ فقال: لا من طعام الجنة، ولامن طعام الأرض، إنما هو طعام خلقه الله - تعالى - لكم. وفى القصة: أن هذه المائدة لما نزلت؛ دعا عيسى لها الفقراء، والزمنى، والمساكين، حتى يأكلوا، وكانت تنزل عليهم أربعين يوما، يأكل منها كل يوم أربعة آلاف، أو خمسة آلاف نفر، فكانوا يأكلون، ولاينقص منها شيء، ثم تصعد، ثم تنزل، هكذا كل يوم حتى خانوا فيها، فمسخوا قردة وخنازير، ورفعت المائدة. ثم اختلفوا فى تلك الخيانة، فروى عمار بن ياسر عن النبى ﷺ أنه قال: «أنزلت عليهم المائدة، وعليها الخبز واللحم، وأمروا أن لايدخروا منها للغد، فادّخروا وخانوا؛ فأصبحوا قردة وخنازير»[1] وفى رواية: «أصبحوا خنازير». وقيل: كانت خيانتهم أن اليهود قالوا لهم: إن عيسى سحركم بالمائدة، ولم يكن ثَمَّ مائدة؛ فَشَكُّوا فيه؛ فمسخوا خنازير، وقيل: كانت خيانتهم أن فى الابتداء كان يأكل منها الأغنياء والفقراء؛ فأمرهم الله - تعالى - أن يدعوا لها الفقراء دون

---

(١) روى هذا عن عمار مرفوعاً وموقوفاً، فرواه الترمذى (٥/ ٢٤٢ - ٢٤٣/ رقم ٣٠٦١)، والطبرى فى التفسير (٧/ ٨٧) مرفوعاً وعزاه السيوطى فى الدر (٢/ ٣٨١) لابن أبى حاتم، وابن الأنبارى فى كتاب الاضداد، وأبى الشيخ، وابن مردويه. وأخرجه الطبرى (٧/ ٨٧) عن عمار من قوله، وعزاه السيوطى فى الدر (٢/ ٣٨١) لابن أبى حاتم. وقال الترمذى: ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً.

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ

الأغنياء؛ ابتلاهم؛ فأكل الأغنياء وخالفوا، فأصبحوا خنازير.

قوله – تعالى –: ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ اختلفوا فى أن هذا القول متى يكون؟ قال السدى: إنما قال الله – تعالى – ذلك حين رفعه إلى السماء؛ لأن قوله: «إذ للماضى، والصحيح أنه يكون فى القيامة، والقيامة وإن لم تكن بعد، ولكنها فى علم الله، فلما كانت كائنة لامحالة فهى كالكائنة؛ فصحّ قوله: ﴿وإذ قال الله﴾ وقيل: إذا بمعنى إذ ويجوزمثل ذلك قال الشاعر:

لم يجـــزه به الإلـــه إذ جـــزا(١) جنـات عدن فى السموات العلا

يعنى: إذا جزى ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ قيل: هذا سؤال توبيخ والمراد به: قومه، وكانت الحكمة فى سؤاله عنه؛ حتى يسمع قومه إنكاره؛ لأنهم كانوا يدَّعون أن عيسى أمرهم (باتخاذه إلها)(٢)؛ فإن قال قائل: هم لم يتخذوا أمه إلها؛ فما معنى قوله: ﴿اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾؟ قيل: إنه – جلّ وعز – لما أراد ذكر عيسى مع أمه، قال: إلهين، وهذا كما يقال عند ذكر أبى بكر وعمر معا: عمران، وقالوا: هذا سنه عمرين، ويقال للشمس والقمر: قمران، قال الفرزدق:

لنا قمراها والنجوم الطوالع

يعنى: الشمس والقمر، وقيل: إن عيسى كان بعضا لمريم، فلما اتخذوه إلها؛ فكأنهم اتخذوا أمه إلها؛ فقال: ﴿إلهين من دون الله﴾ ﴿قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾ اشتغل أولابالثناء عليه والتنزيه، ونسبه إلى القدس والطهارة ﴿تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك﴾ قال

(١) وقع هذا الشطر من البيت فى تفسير القرطبى (٦ / ٣٧٥) كما يأتى: ثم جزاه الله عنى إذ جزى.

(٢) في «ك»: أن يتخذوه إلها.

مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ

الزجاج: نفس النبى: جملته وحقيقته، فمعناه: تعلم حقيقة أمرى، ولا أعلم حقيقة أمرك، وقيل: معناه: تعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك، وعليه دلّ قوله: ﴿إنك أنت علاّم الغيوب﴾ وهو معنى الأول، ﴿ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى﴾ أى: رفعتنى ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ وقد بينا معنى التوفى فيما سبق ﴿وأنت على كل شىء شهيد﴾.

قوله - تعالى -: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فإن قال قائل: كيف طلب المغفرة لهم، وهم كفار؟! وكيف قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وهذا لايليق بسؤال المغفرة؟! قيل: أما الأول فمعنى قوله: وإن تغفر لهم، يعنى: بعدالإيمان، وهذا إنما يستقيم على قول السدى(١)؛ لأن الإيمان لاينفع فى القيامة، والصحيح آخر القولين، قال بعضهم: هذا فى فريقين منهم فقوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ يعنى: من كفر منهم ﴿وإن تغفر لهم﴾ يعنى: من آمن منهم. وقال أهل المعانى من أرباب النحو: ليس هذا على وجه طلب المغفرة، وإنما هذا على تسليم الأمر إليه، وتفويضه إلى مراده؛ ألا تراه يقول: «فإنك أنت العزيز الحكيم» ولو كان على وجه طلب المغفرة لقال: «فإنك أنت الغفورالرحيم».

وأما السؤال الثانى: اعلم أن فى مصحف ابن مسعود: «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفورالرحيم» وكان ابن شنبوذ يقرأ كذلك زمانا ببغداد؛ فمنع عنه، وفيه قصة، (وقيل)(٢): فيه تقديم وتأخير، وتقديرالآية: إن تغفر لهم فإنهم عبادك، وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم. وقيل: معناه: إن تغفر لهم لايُنْقَص من (عزك)(٣)

---

(١) أى أن هذا السؤال كان عند رفع الله عيسى إلى السماء وليس يوم القيامة كما تقدم.

(١) سقطت من «ك».

(٢) فى «ك»: عندك.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

شىء ولايخرج من حكمتك. ويدخل فى حكمة الله – تعالى – وسعة رحمته أن يغفر للكفار، ولكنه أخبر أن لايغفر، وهو لايخلف خبره ومن قال: إنه على تسليم الأمر لا على وجه طلب المغفرة، استقام النظم على قوله، كما بينا.

قوله – تعالى –: ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ يقرأ: «يومُ» بالرفع على الإبتداء، ويقرأ: «يوم» بالنصب[1]، كأنه أراد فى يوم؛ فحذف فى ونصب يوم.

فإن قال قائل: كيف ينفع الصادقين صدقهم بالقيامة، وليست بدار النفع؟ قيل: معناه: ينفع الصادقين صدقهم فى الدنيا لاصدقهم فى القيامة، وقيل: نفعهم بالصدق فى القيامة: أنهم لو كذبوا؛ نطقت جوارحهم فافتضحوا، فإذا صدقوا لم يفتضحوا ﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾.

﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير﴾ والله أعلم بالصواب.

---

(١) قرأ نافع: بالنصب، وقرأ الباقون: بالرفع. انظر النشر (٢/ ٢٥٦).

تفسير ســورة الأنعــام

قال – رضى الله عنه – : اعلم أن سورة الأنعام مكيّة، روى يوسف بن مهران عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال: سورة الأنعام نزلت جملة بمكة ليلا، معها سبعون ألف ملك يحدونها بالتسبيح. وقد روى هذا مرفوعا إلى النبى ﷺ، وفى تمام الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأها فى ليلةٍ استغفر له السبعون ألف ملك أولئك ليله ونهاره إلى أن يصبح»(١)، وفى بعض الروايات: «أن تلك الملائكة كان لهم زجل بالتسبيح، وكانت الأرض ترتج، والنبى ﷺ يقول: سبحان ربى العظيم حتى نزلت»(٢) وفى رواية الكلبى عن [أبى](٣) صالح عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة الأنعام جملة بمكة إلا آيتين: قوله – تعالى –: ﴿قل تعالوا...﴾ الآية(٤). وقوله: ﴿ما قدروا الله حق قدره...﴾(٥) الآية وفى بعض الروايات: «إلا ثلاث آيات: من قوله: ﴿قل تعالوا﴾(٤) إلى آخر الآيات الثلاث، وعن عمر رضى الله عنه أنه قال: سورة الأنعام من نجائب القرآن، وعن على رضى الله عنه أنه قال: من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى فى رضا ربه.

---

(١) عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٥٠ – ٤٥١) للثعلبي في تفسيره، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب. ولفظه: «أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام، صلى عليه، واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك، بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً، وليلة».

وقال الحافظ ابن حجر في الكافي (١/ ٤٥١): وفيه أبو عصمة، وهو متهم بالكذب.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، كما في مجمع البحرين (٦/ ١٢ رقم ٣٣١٧) والإسماعيلي في معجمه (٢/ ٧١١ – ٧١٢ رقم ١٨٧) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٣): رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس، عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

وعزاه السيوطي في الدر (٣/ ٣) لأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والسلفي في الطيوريات.

(٣) في «الأصل»: ابن. وهو خطأ.

(٤) الأنعام: ١٥١.

(٥) الأنعام: ٩١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

قوله – تعالى –: ﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض﴾ حكى عن كعب الأحبار أنه قال: هذه الآية أول آية فى التوراة، وآخر آية فى التوراة: قوله – تعالى –: ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً﴾[1] الآية.

فقوله: ﴿الحمد لله﴾ معناه: احمدوا الله، ذكر الخبر بمعنى الأمر، وفائدته: الأمر بالحمد وتعليم الحمد؛ فإنه لو قال: احمدوا الله؛ دعت الحاجة إلى بيان كيفية الحمد، وقوله: ﴿الذى خلق السموات والأرض﴾ إنما خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد؛ ولأن فيهما العبر والمنافع للعباد.

﴿وجعل الظلمات والنور﴾ والجعل: بمعنى الخلق، ثم اختلفوا، قال بعضهم: الظلمات: الليل، والنور: النهار، وقال بعضهم: أراد بالظلمات: الكفر، وبالنور: الإيمان، ويدخل فى الظلمات جميع الظلمات، حتى ظلمة القلب، وظلمة الشك، ونحو ذلك.

ويدخل فى النور جميع الأنوار، حتى نور القلب، ونور اليقين، ونحو ذلك، وقيل: أراد بالظلمات: الجهل، وبالنور: العلم، وقيل: أراد بالظلمات: المعصية، وبالنور: الطاعة.

وروى عن قتادة أنه قال: إن الله – تعالى – خلق السماء قبل الأرض، والليل قبل النهار، والجنة قبل النار، وقد قال غيره: خلق الأرض قبل السماء، وسيأتى.

﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ قال الكسائى: عدل الشىء بالشىء: إذا ساواه به، ومنه العدل. ومعناه: يعدلون بالله غير الله، وقال مجاهد: معناه: ثم الذين كفروا بربهم يشركون، والمعنيان متقاربان؛ لأن من ساوى غير الله بالله؛ فقد أشرك. وقيل: قوله: ﴿ثم الذين كفروا﴾ معنى لطيف، وهو مثل قول القائل: أنعمت عليك كذا، وتفضلت عليك بكذا ثم لاتشكرنى، ثم تكفر بنعمتى.

(١) الإسراء: ١١١.

بربّهم يعْدلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مّن طينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتيهِم مّنْ آيَةٍ مّنْ آيَاتِ رَبّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ

قوله – تعالى –: ﴿هو الذى خلقكم من طين﴾ هو ما بينا أن الله – تعالى – أمر ملك الموت حتى قبض قبضة من تراب؛ فخلق منها آدم – صلوات الله عليه – فهذا معنى قوله: ﴿هو الذى خلقكم من طين﴾ ﴿ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده﴾ قال ابن عباس: الأجل الأول: من الولادة إلى الموت، والأجل الثانى: من الموت إلى البعث وقال أيضا: لكل أحد أجلان: أجل إلى الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان بَرًّا وصولا للرحم؛ زيدَ له من أجل البعث فى أجل العمر، وإن كان غير ذلك، نقص من أجل العمر، وزيد ذلك فى أجل البعث.

وقيل: الأجل الأول: أجل الدنيا كما بيّنا، والأجل الثانى من ابتداء الآخرة، وذلك مسمى عند الله لايعلمه غيره ﴿ثم أنتم تمترون﴾ تشكون.

قوله – تعالى –: ﴿وهو الله فى السموات والأرض يعلم سركم وجهركم﴾ قال ابن الأنبارى: معناه: وهو الله المعبود فى السموات وفى الأرض، وقال غيره: تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات والأرض، وهو قول الزجاج ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ الكسب: كل عمل يعمله الإنسان بكده؛ لجلب نفع، أو دفع ضر، ولذلك لايوصف فعل الله بالكسب؛ لأن فعله برىء عن جلب المنافع ودفع المضار.

قوله – تعالى –: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ أراد بهذه الآية: انشقاق القمر؛ فإن الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية؛ فقال عليه [الصلاة و](١) السلام – ماذا تريدون؟ فاقترحوا انشقاق القمر،فأتاهم به، فكفروا وأعرضوا.

قوله – تعالى –: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ يعنى: ما ذكرنا ﴿فسوف

(١) من «ك».

﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم﴾

يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون﴾ معناه: فسوف يؤول إليه وبال ما كانوا به يستهزءون.

قوله - تعالى -: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ قيل: ثمانون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، والقرن عند حفاظ الحديث: مائة سنة؛ فإنه روى عن النبي ﷺ أنه قال لعبد [الله][١] بن (بسر)[٢] المازني: «إنك تعيش قرنا»[٣]، فعاش مائة سنة، فاستدلوا به على أن القرن مائة سنة، وفي الأخبار: كان بين آدم ونوح: عشرة قرون، وبين نوح وإبراهيم: عشرة قرون، والقرن في الحقيقة: هو أهل كل زمان، سواء بعث فيهم نبي أو لم يبعث؛ وعليه دلّ قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٤] يعني: ثم القرن الذين يلونهم.

---

(١) سقط من «الأصل».

(٢) في «ك»: بشر، بالشين المعجمة، وهو تصحيف.

(٣) رواه البخاري في تاريخه الصغير (١/٢١٦)، وأحمد في مسنده (٤/١٨٩)، والحاكم في مستدركه (٤/٥٠٠)، والبيهقي في الدلائل (٦/٥٠٣)، والطبري في تاريخه (١/٤٣٥)، وأبو بكر الخلال في السنة (٢/٤٨٦)، وابن عساكر في تاريخه (٢٧/١٥٥) من طرق عن عبد الله بن بسر بنحوه.

وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٠١ - ٤٠٨): رواه الطبراني والبزار... ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح، غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة.

وقال عن إسنادي أحمد والطبراني: ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب، وهو ثقة، ورجال الطبراني ثقات.

(٤) متفق عليه من حديث عمران بن حصين، وعبد الله بن مسعود.

أخرجه البخاري في صحيحه (٥/٣٠٦/رقم ٢٦٥١ وأطرافه في ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥).

ومسلم في صحيحه (١٦/١٣١ - ١٣٣/ رقم ٢٥٣٥) من حديث عمران.

وأما حديث ابن مسعود فأخرجه البخاري في صحيحه (٥/٣٠٦ رقم ٢٦٥٢) وأطرافه في ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم في صحيحه (١٦/١٢٧ - ١٢٩ رقم ٢٥٣٣).

مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا

وقوله: ﴿ مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ أى: أعطيناهم ما لم نعطكم.

﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ﴾ أى: متتابعا، قال الشاعر:

وسقاك من نوء الثريا مزقة عن الحلب وابلا مدرارا

أى: متتابعا، قال ابن عباس: معناه: وأرسلنا السماء عليهم مدرارا: أى: متتابعا فى أوقات الحاجات، ولم يرد به: التوالى على الدوم ﴿ وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ ولو أنزلنا عليك كتابا فى قرطاس ﴾ سبب هذا: أن عبد الله بن أبى أمية المخزومى أخا أم سلمة، قال لرسول الله ﷺ: لن نؤمن بك حتى تنزل علينا صحيفة من السماء جملة فنزل قوله: ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس ﴾. والقرطاس: ما يكون مكتوبا، فإذا لم يكن مكتوبا سمى: طِرْسًا ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾ فإن قال قائل: لِمَ لم يقل: فرأوه بأعينهم؟ قيل: لأن اللمس أبلغ فى إيقاع العلم من الرؤية؛ لأن السحر يجرى على المرئى[1]، ولايجرى على الملموس؛ لأن الملموس يصير مرئيا، والمرئى لايصير ملموسا؛ فذكر اللمس ليكون أبلغ.

﴿ لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ومعناه: أنه لاينفع معهم شيء فإنا وإن أنزلنا عليهم ما اقترحوا قالوا إن هذا إلا سحر مبين.

قوله - تعالى -: ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ وهذا قول عبد الله بن أبى أمية المخزومى (اقترح)[2] إنزال ملك ﴿ ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ﴾ قال مجاهد: معناه: لقامت القيامة، وقيل: معناه: لاستؤصلوا بالعذاب، وهذه سنة الله فى الكفار؛ أنهم

(١) زاد في «ك»: ولا يجرى على المرئي. ولعله من الناسخ.

(٢) في «ك»: اقتراح. وهو خطأ.

يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ

متى اقترحوا آية، فإذا أعطاهم الله ذلك؛ فكفروا بها، استأصلهم بالعذاب، كدأب قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط، وأمثالهم ﴿[ثم][1] لا ينظرون﴾ أى: ثم لايمهلون.

قوله - تعالى -: ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ أى: فى صورة رجل؛ لأن الرجل أأنس بالرجل، وأفهم منه، وقد جاء جبريل إلى النبى ﷺ فى صورة دحية الكلبى وجاء الملكان إلى داود فى صورة رجلين ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وجماعة: معناه: خلطنا عليهم ما يخلطون، وفى معناه قولان: أحدهما: أنهم شبهوا على ضعفائهم فتشبه عليهم كما شبهوا، وينزل الملك فى صورة رجل (حى)[2] يشتبه عليهم؛ فيقول بعضهم: هو ملك، ويقول بعضهم: ليس بملك، والقول الثانى: أن معناه: أضللناهم بإنزال الملك فى صورة رجل، كما ضلوا من قبل، أى: لو حسبوا أن يهتدوا بإنزال الملك، فإنزال الملك لايعجزنا من إضلالهم به.

قوله - تعالى -: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ سبب هذا: «أن رسول الله ﷺ مرّ على الوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبى جهل، فضحكوا هزواً به؛ فنزلت الآية تسلية له»[3] ﴿فحاق بالذين﴾ أى: فنزل بالذين ﴿سخروا منهم ما كانوا﴾ أى: وَبَالُ ما كانوا ﴿به يستهزءون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿قل سيروا فى الأرض﴾ يحتمل هذا السير بالفكرة والعقول، ويحتمل السير بالأقدام ﴿ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يعنى: ممن سبق من الأمم.

(١) ليست في «الأصل».

(٢) ليست في «ك».

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٦) لابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن محمد بن إسحاق بلاغاً.

وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي

قوله – تعالى –: ﴿قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله﴾ أمر بالجواب عقيب السؤال؛ ليكون أبلغ فى التأثير، وآكد فى الحجة؛ لأن من سأل غيره عن شيء ثم عقبه بالجواب كان ذلك أبلغ تأثيرا ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أى: (قضى)[1]، وقد صح برواية أبى هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب كتابا قبل خلق السموات والأرض، فهو عنده فوق عرشه: سبقت رحمتى غضبى»[2].

﴿ليجمعنكم﴾ اللام لام القسم أى: والله ليجمعنكم. ﴿إلى يوم القيامة لاريب فيه﴾ أى: لاشك فيه ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ غبنوا أنفسهم ﴿فهم لايؤمنون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وله ما سكن فى الليل والنهار﴾ وقيل: فيه حذف، وتقديره: وله ما سكن وما تحرك، وقيل: هو السكون خاصة، وإنما خصّ السكون؛ لأن النعمة فى السكون أكثر منها فى الحركة ﴿وهو السميع العليم﴾.

قوله – تعالى –: ﴿قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض﴾ الفاطر: الخالق، المنشئ للخلق، قال الأصمعى: ما كنت أعرف معنى الفاطر، حتى اختصم إلىّ أعرابيان فى بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرته، وقال الآخر: أنا فطرته؛ فعرفت أنه [إنشاء][3] الخلق ﴿وهو يطعم ولايطعم﴾ قرأ الأعمش: «وهو يُطعم ولا يَطْعَم» بفتح الياء، أى: يُؤكِل ولايَأْكُل، وأما القراءة المعروفة، فمعناه: وهو يَرزق ولايُرزق.

﴿قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ يعنى: من هذه الأُمَّة، والإسلام يعنى الاستسلام لأمر الله – تعالى – ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ وهو وإن كان معصوما

(١) فى «ك»: رضى.

(٢) متفق عليه، رواه البخارى (٦/ ٣٣١/ رقم ٣١٩٤ وأطرافه فى ٧٤٠٤، ٧٤١٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤). ومسلم فى صحيحه (١٧/ ١٠٦/ رقم ٢٧٥١).

(٣) فى «الأصل»: الإنشاء.

أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ

عن الشرك، لكن الأمر (بالثبات)[1] على الإيمان، وترك الإشراك يجوزأن يكون متوجها عليه، وقيل: الخطاب معه، والمراد به: الأمة.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾ أى: عذاب القيامة ﴿من يصرف عنه﴾ يعنى: العذاب، وقرأ حمزة، والكسائى، وأبو بكر عن عاصم: بفتح الياء[2]، يعنى: من يَصْرِفِ اللهُ عنه العذاب ﴿يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ الضر: خلاف النفع ومعناه: إن يصبك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴿وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ وروى عن ابن عباس أنه قال: «كنت رديف النبى ﷺ، فقال: ألا أعلمك كلمات تنتفع بهن فى الدنيا والآخرة؟ قلت: (نعم)[3]؛ (فقال)[4]: احفظ الله يحفظك...» – الخبر إلى أن قال: «فلو اجتمع الخلق على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا على أن يمنعوك شيئا كتبه الله لك لم يقدروا عليه ...»[5] – الخبر.

---

(١) فى «ك»: البيان. وهو خطأ.

(٢) وهى قراءة خلف، ويعقوب أيضًا. انظر النشر (٢/٢٥٧).

(٣) كذا «بالأصل». وسقطت من «ك».

(٤) ليست فى «ك».

(٥) رواه أحمد فى مسنده (١/٢٩٣)، والترمذى فى جامعه (٤/٥٧٥ – ٥٧٦/ رقم ٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح، وأبو يعلى فى مسنده (٤/٤٣٠/رقم ٢٥٥٦) كلهم من طريق حنش الصنعانى عن ابن عباس.
وقد روى من طرق أخرى عن ابن عباس، قال ابن رجب فى جامع العلوم (١/٤٦١): وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعانى التى خرجها الترمذى.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا

قوله – تعالى –: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ القاهر: الغالب الذى لايغلب، وقيل: هو المنفرد بالتدبير، يجبر الخلق على مراده، وقوله: ﴿فوق عباده﴾ هو صفة الاستعلاء الذى لله – تعالى – الذى يعرفه أهل السنة ﴿وهو الحكيم الخبير﴾.

قوله – تعالى –: ﴿قل أى شىء أكبر شهادة﴾ سبب هذا: أن الكفار قالوا: يامحمد، من يشهد لك بالصدق؟ فنزلت الآية: ﴿قل أى شىء أكبر شهادة﴾ يعنى: من الله، واستدلوا بهذا على أن الله شىء. ﴿قل الله شهيد بينى وبينكم﴾ أى: يشهد لى بالحق، وعليكم بالباطل.

﴿وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أى: ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة، وفى الخبر عن النبى ﷺ: «نضر الله وجه امرئ سمع منى مقالة، فوعاها، ثم بلغها؛ فربّ مبلّغ أوعى من سامع»(١) وقيل: معناه: لأنذركم به، يعنى: العرب، ومن بلغ، يعنى: العجم.

﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون﴾ أمره بالجواب عقيب السؤال لما بينا.

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ قيل: أراد به: محمدا، وقيل: أراد به: القرآن يعرفونه ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾.

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه (٥/٣٣/رقم ٢٦٥٧) وقال حسن صحيح وابن ماجه فى سننه (١/٨٥/ رقم ٢٣٢)، أحمد فى مسنده (١/٤٣٧)، وابن حبان فى صحيحه – الإحسان – (١/٢٦٨/ رقم ٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٧/٣٣١)، والبيهقى فى الدلائل (٦/٥٤٠)، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١/٤٥) والخطيب فى الكفاية (ص١٧٣) كلهم من طريق سماك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه به.

أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ

﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون﴾ أى: غبنوا أنفسهم، وغبنهم: أنهم خسروا رأس المال، وفى الخبر: أن الله – تعالى – خلق لكل آدمى منازل فى الجنة، فإن كفر خسر تلك المنازل، وجعلها الله – تعالى – لمؤمن.

قوله – تعالى –: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ أى: قال عليه مالم يقله ﴿أو كذب بآياته﴾ يعنى: آيات القرآن ﴿إنه لايفلح الظالمون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ويوم نحشرهم جميعا﴾ أراد به: حشر القيامة ﴿ثم [نقول][1] للذين أشركوا أين شركاءكم الذين كنتم تزعمون﴾ يعنى أين الشركاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء الله، والزعم قول الكذب، قال ابن عباس: الزعم الكذب فى كل موضع، وفى الآثار: «زعموا مطية الكذب»[2].

قوله – تعالى –: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ قال قتادة: معناه: ثم لم تكن معذرتهم – وقال غيره: ثم لم يكن كلامهم – إلا أن قالوا.

قال الزجاج: فى قوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يفتن (بمحبوب)[3] ثم تصيبه فى ذلك محنة؛ فيتبرأ من محبوبه؛ فيقال: لم تكن فتنته إلا هذا، كذلك الكفار لما فتنوا بمحبة الأصنام، ثم إذا رأوا العذاب يتبرءون منها.

يقول الله – تعالى –: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين

(١) فى «الأصل»: يقول، وهى قراءة يعقوب. انظر النشر (٢/٢٥٧).

(٢) قال الزيلعى فى تخريج الكشاف (٤/٤١/ رقم ١٣٥٥): غريب بهذا اللفظ، والموجود فى الحديث: «بئس مطية الرجل زعموا». وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى (٤/٤١): لم أجده مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٣) ليست فى «ك».

﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ كذبهم على أنفسهم: تبرئهم من الشرك ﴿ وضل ﴾ أى: ذهب ﴿ عنهم ما كانوا يفترون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ هذا فى رؤساء المشركين، مثل: أبى سفيان بن حرب – حين كان مشركا – وأبى جهل بن هشام، وعتبة، وشيبة ابنى ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم، كانوا يستمعون القرآن؛ فقالوا: لأبى سفيان: ما هذا؟ فقال: أرى فيه حقا وباطلا. فقال أبو جهل: حتى تفاخرنا واستوينا فى المجد، واستوت بنا الركب، تزعمون أن منكم نبيا يابنى عبد مناف، والله لانقر بهذا، وفى رواية: [للموت][(1)] أهون علينا من هذا.

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ هى جمع «الكنان» كالأعنة جمع العنان وهى الأغطية ﴿ أن يفقهوه ﴾ قال بعضهم: كراهة أن يفقهوه، وقال آخرون: أن لايفقهوه ﴿ وفى آذانهم وقرا ﴾ أى: وجعلنا فى آذانهم صمما، قال ابن عباس: والوقر: أصله الثقل؛ ومن ثقل الأذن جاء الصمم.

﴿ وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ﴾ هذا فى معجزات النبى، وما أراهم من الآيات.

يقول الله – تعالى –: وإن يروا جميع تلك الآيات لايؤمنوا بها، وقيل: إنهم اقترحوا آية؛ فنزل قوله: ﴿ وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ﴾ وهذا فى قوم مخصوصين، علم الله أنهم لايؤمنون.

﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ مجادلتهم: أنهم قالوا للنضر بن الحارث بن كلدة، وكان قد نظر فى الكتب المنزلة،

(1) فى «الأصل» و«ك»: لا الموت.

﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ

وكان ممن يستمع القرآن؛ فقالوا له: ما تقول فى هذا؟ قال: إن هذا إلا أساطير الأولين، مثل أقاصيص رستم واسفنديار، وصحف الأولين، قال ثعلب: الأساطير: جمع الأسطورة، وهى المكتوبة.

قوله - تعالى -: ﴿وهم ينهون عنه وينئون عنه﴾ أى: ينهون الناس عن اتباع محمد، ويتباعدون عنه بأنفسهم، وقيل: معنى قوله ﴿ينهون عنه﴾ أى: يذبون عنه، ويمنعون الناس عن أذاه ﴿وينئون عنه﴾ أى: يتباعدون عن الإيمان به، وذلك مثل أبى طالب، كان يذب عنه حال حياته، قال ابن عباس: هو فى أبى طالب. حتى روى أنه اجتمع عليه رؤساء قريش، وقالوا له: اختر شابا من أصحابنا وجيها، واتخذه ابنا لك، وادفع إلينا محمدا؛ فقال أبو طالب: ما أنصفتمونى، أدفع إليكم ولدى ليقتل، وأُربِّى ولدكم؟!

وروى أنه قال لرسول الله ﷺ: «لولا أن قريشا تعيرنى لأقررت عينك بالإيمان»(١)، وكان يذب عنه إلى أن توفى، وروى: «أنه ﷺ قرأ عليه قوله - تعالى -: ﴿وهم ينهون عنه وينئون عنه﴾ فقال أبو طالب: أمَّا أن أدخل فى دينك فلا أدخل أبدا، ولكنى أذبّ عنك ما حييت»(٢)، وله فيه أبيات:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وعلمت أنك ناصحى	وصدقتنى ولكنت ثم أمينا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١/٢٩٨/ رقم ٢٥)، والترمذى فى جامعه (٥/٣١٨/ رقم ٣١٨٨)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان.

والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٤٤ - ٣٤٥) كلهم من حديث يزيد بن كيسان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة.

وعزاه السيوطى فى الدر (٥/١٤٥) لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وابن مردويه.

(٢) انظر تفسير البغوى (٢/٩١).

تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم﴾ أي: لايرجع وبال فعلهم إلا إليهم ﴿وما يشعرون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ أي: دخلوا النار، (وقيل: عرضوا على النار)[1]، والوقوف: الاطلاع على حقيقة الشيء ﴿فقالوا ياليتنا نرد﴾ إلى الدنيا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ قال سيبويه: هو ابتداء كلام، يعني: لانكذب أبدا، رددنا أو لم نرد، وقال غيره: هو على نسقه، أي: ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا، أي: لانكفر بعد الرد إلى الدنيا ﴿ونكون من المؤمنين﴾ ويقرأ «ونكونَ» بنصب النون[2]، وتقديره: ولنكون من المؤمنين.

قوله - تعالى -: ﴿بل بدا لهم﴾ قوله: «بل» بحتة، رد لما قالوا، وقوله: ﴿بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي: ظهر لهم ما أخفوا من قبل من تبرئهم عن الشرك بقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين؛ وذلك أنهم إذا قالوا ذلك؛ يختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم بشركهم؛ فيبدو لهم ما كانوا يخفون من قبل.

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ أي: ولو ردّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر، والشرك بالله ﴿وإنهم لكاذبون﴾ يعني: في قولهم ﴿ياليتنا نرد لا نكذب بآيات ربنا﴾ وفي الأخبار: «أن الله تعالى يعتذر إلى آدم يوم القيامة بثلاث معاذير، أحدها هذا بقوله: إني لا أُدْخِل من ذريتك النار إلا من أعلم أني لو رددته إلى الدنيا سبعين

(١) تكررت في «ك».

(٢) هي قراءة حفص، وحمزة، ويعقوب، وابن عامر، وقرأ الباقون بالرفع. انظر النشر (٢/٢٥٧).

لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا

مرة لكفر (بى)[1] »[2].

قوله - تعالى -: ﴿وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ هذا فى إنكارهم البعث والقيامة، قوله - تعالى -: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ أى: عرضوا على ربهم، ﴿قال أليس هذا بالحق﴾ وذلك حين تكشف [لهم][3] الغيوب والسرائر.

﴿قالوا بلى وربنا﴾ فيقرون بها، قال ابن عباس: هذا فى موقف، وقوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فى موقف آخر، وفى القيامة مواقف، ففى موقف ينكرون، وفى موقف يقرون، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ أى: خسروا أنفسهم بتكذيبهم بالمصير إلى الله؛ فاللقاء ها هنا بمعنى المصير إليه ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ أى: فجأة ﴿قالوا ياحسرتنا﴾ هذا على المبالغة، كقولهم: ياعجبا، وقول القائل: ياعجبا، أبلغ من قوله: أنا متعجب؛ فكذلك قوله: ﴿ياحسرتنا﴾ أبلغ من قوله: أنا متحسر، قال سيبويه: هذا على وجه النداء، كأنه يقول: أيتها الحسرة هذا أوانك وأيها العجب جاء أوانك.

﴿على ما فرطنا فيها﴾ أى: قصرنا فيها، أى: فى أمر القيامة ﴿وهم يحملون

(١) ليست فى «ك».

(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير (٢/٩٩ - ١٠٠/ رقم ٨٥٥) وقال: لا يروى هذا الحديث عن أبى هريرة إلا بهذا الإسناد، تفرد به عبد الأعلى.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٥١): رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه الفضل بن عيسى الرقاشى، وهو كذاب. وليس هو فى الأوسط بل فى الصغير.

(٣) فى «الأصل» و«ك»: بهم.

حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ

أوزارهم على ظهورهم ﴾ الأوزار: الأثقال، واحدها: وزر، ومنه الوَزَر، وهو الحبل فى قوله – تعالى –: ﴿ كلا لا وزر ﴾(١) أى: لاحبل ولا ملاذ، وحملهم الأوزار بيانه فى الخبر، وهو ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة، فمن كان منهم برا تلقاه صورة حسنة طيبة الريح، فتقول: أما تعرفنى؟ أنا عملك الصالح، فاركبنى فقد طال ما ركبتك، ومن كان فاجرا تلقاه صورة قبيحة منتنة الريح، فتقول: أما تعرفنى؟ أنا عملك الخبيث، وقد طال ما ركبتنى فأنا اليوم أركبك»(٢). فهذا معنى قوله: ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾.

﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ وصف كلا الدارين فى هذه الآية.

قوله – تعالى –: ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ سبب هذا: «أن رسول الله مرّ على أبى جهل، فقال: يامحمد، أنت صادق عندنا، وإنما نكذب بما جئت به»(٣) فهذا معنى الآية. وقيل: إنما نزل هذا تسلية للرسول، يقول الله – تعالى –: لاتحزن؛ فإنهم لايكذبونك، ويقرأ: «فإنهم لايَكْذِبُونَكَ» مخففا(٤)، والفرق بين التكذيب والإكذاب: أن التكذيب: هو أن يقول له: كذبت، والإكذاب: هو أن يجده كاذبا.

قوله تعالى: ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا ﴾ فيه

---

(١) القيامة: ١١.

(٢) أخرجه الطبري (٧/ ١١٤) عن عمر بن قيس الملائي من قوله.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٠) لابن أبي حاتم في تفسيره. ولم أجده مرفوعاً.
وروى الطبري (٧/ ١١٤) عن السدي بنحوه.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر (٣/ ١١) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه من حديث أبي ميسرة.
وفى الباب عن على وغيره. انظر الدر المنثور.

(٤) هى قراءة نافع، والكسائى. انظر النشر (٢/ ٢٥٧).

نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

حذف، وتقديره: ولقد كذبت رسل من قبلك وأوذيت، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا ﴿ حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ﴾ أى: لعِلْم الله وأحكامه ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ أى: أخبار المرسلين.

قوله - تعالى -: ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض ﴾ النفق: السرب فى الأرض، ومنه: «النافقاء» وهو جحر اليربوع؛ ومنه: النفاق، لأن المنافق يدخل نفقين ﴿ أو سلما فى السماء [فتأتيهم بآية](١) ﴾ أى: درجا فى السماء فتأتيهم بآية، سبب هذا: أن الكفار كانوا يقترحون الآيات؛ وودّ النبى ﷺ أن (يعطيهم)(٢) الله ما اقترحوا من الآيات (طمعا)(٣) فى أن يرواالآيات؛ فيسلموا فنزل قوله: ﴿ فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ﴾ وتقديره: إن استطعت ذلك فافعل، وفيه حذف.

﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ أى: بأن يريهم آية؛ فيضطرون إلى الإيمان بها، والصحيح: أن المراد به: ولو شاء الله لطبعهم وخلقهم على الإيمان؛ فهذا أقرب إلى قول أهل السنة؛ لأن إيمان الضرورة لاينفع، وإنما ينفع الإيمان بالغيب اختيارا ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ أى: بهذا الحرف، وذلك قوله: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ هاهنا الوقف، ومعناه: إنما يستجيب الذين يسمعون سماع القبول ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ يعنى: الكفار ﴿ ثم

---

(١) من «ك».

(٢) فى «ك»: يأتيهم.

(٣) ليست فى «ك».

لِجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ

إليه يرجعون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وقالوا لولا نُزِّل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ يعنى: أنه قادر على إنزال الآيات، وقد أنزل كثيرا من الآيات والمعجزات، ولكن لاينزل الآيات على اقتراح الكفار ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ إنما قيد الطيران بالجناح تأكيدا ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ أى: أصناف أمثالكم، وفى الخبر: «لولا أن الكلاب أمة؛ لأمرتكم بقتلها؛ فاقتلوا منها كل أسود بهيم، فإنه شيطان»[1]، ومعنى الآية: أنها أمثالكم فى الخلق، والموت، والبعث، يعنى: يخلقها كما يخلقكم، ويميتها كما يميتكم ويبعثها كما يبعثكم، وقيل: معنى قوله: ﴿ أمم أمثالكم ﴾ يعنى: فى العلم بالضار والنافع، والتوقى عن الهلاك، ومعرفة العدو.

﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾ فإن قال قائل: نرى كثيرا من الأحكام ليست فى الكتاب، فما معنى قوله: ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾؟ قيل: ما من شيء إلا وأصله فى الكتاب، وقيل: ماقاله الرسول، فإنما قاله من الكتاب؛ لأنه ﷺ قد قال فى خبر معروف: «أوتيت القرآن ومثله»[2] وقد قال الله - تعالى - ﴿ وما ينطق عن

(١) رواه أبو داود (٣/١٠٨ رقم ٢٨٤٥)، والترمذى (٤/٦٦ رقم ١٤٨٦)، والنسائى (٧/١٨٥ رقم ٤٢٨٠)، وابن ماجة (٢/١٠٦٩ رقم ٣٢٠٥)، وأحمد (٤/٨٥)، و(٥/٥٤، ٥٦)، والدارمى (٢/١٢٥ رقم ٢٠٠٨) وابن حبان - الإحسان - (١٢/٤٧١ - ٤٧٣) كلهم من حديث عبد الله بن مغفل - رضى الله عنه -.

وقال الترمذى: حسن صحيح، وفى الباب عن ابن عمر، وجابر، وأبى رافع، وأبى أيوب.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/٢٠٠/ ٤٦٠٤)، وأحمد في مسنده (٤/١٣٠/ ١٣١) والآجري في الشريعة (ص٥١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٣٣٢) وابن حبان في صحيحه - الإحسان - (١/ ١٨٩) من حديث المقدام بن معد يكرب.

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ

لهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾[1] فكل ما ثبت بالسنة؛ فكأنه ثابت فى الكتاب، وقيل: [معناه][2] : مافرطنا فى الكتاب من شىء تقع الحاجة إليه.

﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ ولاشك فى حشر البهائم والحيوانات يوم القيامة، حتى روى: أن الله - تعالى - يحشرها ويقتص للجماء من القرناء، وروى أبو ذر: « أن النبى ﷺ رأى شاتين تنتطحان؛ فقال: يا أباذر، أتدرى فيما تنتطحان؟ فقلت: لا. فقال: لكن الله يدرى، وسيقضى بينهما[3] وأمثال هذا كثير»، وسبيل الناس أن يؤمنوا به، ويكلوا علمه إلى الله - تعالى - فإنه شىء لاتهتدى إليه العقول، وعلى هذه الآية حكاية: حُكِيَ أن بهلول المجنون رأى أبا يوسف القاضى فى الطريق؛ فسأله وقال: إن الله - تعالى - يقول: ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ ثم يقول: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾[4] فما نذير الكلاب؟ فتحير أبو يوسف عن الجواب، فأخذ بهلول حجرا من الأرض، وقال: هذا نذير الكلاب.

قوله - تعالى -: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات ﴾ أى: صم عن سماع الحق، وبكم عن قول الحق ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ﴾ قيل: عذاب الله: هو

---

(١) النجم: ٣ - ٤. (٢) ليست في «الأصل».

(٣) رواه أحمد في مسنده (٥/١٦٢) والطيالسي في مسنده (ص٦٥/ رقم ٤٨٠) والطبرى في تفسيره (٧/ ١٢٠)، وابن أبي الدنيا في الأهوال (٢/١٩٢/ رقم٣٦)، وابن أبي داود في البعث (ص٥٥/ رقم٣٦).

قال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٥٥) بعد ذكر روايتين هذه الثانية منهما: رواه أحمد... ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، وفيها راوٍ لم يسم.

(٤) فاطر: ٢٤.

تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ

الموت ﴿أو أتتكم الساعة﴾ يعنى: القيامة ﴿أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ هذا استفهام بمعنى التقرير، يعنى: لاتدعون إلا الله، وأراد به فى أحوال الضرورات؛ فإن الكفار فى حال الضرورات يدعون الله - تعالى - كما قال: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾(١).

قوله - تعالى -: ﴿بل إياه تدعون﴾ هذا تقرير لما استفهم منه فى الآية الأولى، يعنى: بل تدعون الله، ولاتدعون غيره ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ قيد إجابة الدعوة بالمشيئة ها هنا، وأطلقها فى قوله: ﴿ادعونى أستجب لكم﴾(٢).

قال أهل العلم: وذلك مقيد بالمشيئة أيضا؛ بدليل هذه الآية.

﴿وتنسون ما تشركون﴾ وذلك أنهم لما تركوا الأصنام فى حال الضرورات إلى دعاء الله؛ فكأنهم نسوا ما يشركون، وفى الآية مجاز، وتقدير قوله: ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ أى: فيكشف ضر ما تدعون إليه.

وقوله - تعالى -: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء﴾ البأساء: الجوع، والفقر، والضراء: المرض، والبلوى فى النفس والمال.

﴿لعلهم يتضرعون﴾ التضرع: السؤال بالتذلل، وحكى أبو عبيد عن الفراء: فلان يتضرع، ويتصدى [أى](٣) أنه سأل متذللاً وبتضرع.

قوله - تعالى -: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أى: فهلا تضرعوا ﴿إذ جاءهم بأسنا﴾؟ ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ قال الزجاج معناه: بلغت قلوبهم فى

---

(١) لقمان: ٣٢.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) ليست في «الأصل» ولا «ك».

الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

القساوة أنا أرسلنا إليهم الرسل،وأريناهم الآيات، وأخذناهم بالبأساء والضراء، فلم يتضرعوا، ولم يعودوا عما كانوا عليه ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ يعنى: حتى مضوا على عملهم وكفرهم.

قوله – تعالى –: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ هذا فتح استدراج ومكر، وفي الآثار: «من فتح عليه باب نعمة، فلم ير أنه مكر به فلا رأى له، ومن أصابته شدة فلم ير أنه نظر له، فلا رأى له»[1] يعنى: في الدين.

﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ هذا فرح بطر، وهو منهى عنه، وذلك مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا حتى قال له قومه: «لاتفرح إن الله لايحب الفرحين».

﴿أخذناهم بغتة﴾ أى: فجأة ﴿فإذا هم مبلسون﴾ قال ابن عباس: آيسون من كل خير، وقال أبو عبيدة: المبلس: النادم الحزين، وقال الفراء: هو الساكت المنقطع عن الحجة، وأنشدوا:

ياصاح هل تعرف رَسْمًا مُكْرَسَا ... قال نعم أعرفه وأَبْلَسَا

وقال آخر:

ملك إذا طاف الغفاة ببابه ... غبطوا وأنجى منهم المتبلس

قوله – تعالى –: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ الدابر: الأصل ها هنا؛ فيكون الدابر بمعنى: الآخر؛ ومنه قوله: ﷺ «من أشراط الساعة كذا وكذا، ولايأتون الصلاة إلا دبرا»[2]، أى: آخرا ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ حمد الله نفسه على إهلاكهم واستئصالهم، وفيه تعليمنا الحمد لله على هلاك الكفار.

قوله – تعالى –: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/١٣) لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن الحسن قوله.

(٢) تقدم الكلام عليه في سورة النساء، آية رقم: ٨٢.

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

من إله غير الله يأتيكم به ﴾ ذكر أشياء، ثم قال: ﴿ يأتيكم به ﴾ فاختلفوا؛ فقال (بعضهم)(١) معناه: يأتيكم بما (أخَذَ. و)(٢) قال آخرون: قوله: ﴿ يأتيكم به ﴾ يرجع إلى السمع خاصة، واندرج فيه الأبصار والقلوب. ومن هذا ذهب بعض العلماء إلى أن السمع أفضل من سائر الحواس؛ حيث خصه بالكناية، وقالوا: هو مثل قوله – تعالى –: ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾(٣) و«الهاء» راجعة إلى الله –تعالى – واندرج فيه الرسول ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ أى: يعرضون.

قوله – تعالى –: ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ﴾ حكى الفراء عن العرب أنهم يقولون: أرأيتك بمعنى أَخْبرنى، [وأرأيتكما](٤) بمعنى أَخْبرانى، وأرأيتكم يعنى: أَخْبرونى وأرأيتكِ يمعنى: للمرأة بمعنى: أخبرينى، هكذا ﴿ بغتة أو جهرة ﴾ معناه: ليلا أو نهارا وقيل: معناه: فجأة أو عيانا ﴿ هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ وقد بينا هذا ﴿ فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ يعنى: يوم القيامة.

﴿ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب ﴾ أى: يصيبهم عذاب النار ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ أنزل هذا حين اقترحوا الآيات، وكانوا يقولون: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً من السماء، وسائر ما

(١) في «ك»: بعضكم.

(٢) في «ك»: أخذوا قال.

(٣) التوبة: ٦٢.

(٤) فى «الأصل»، و«ك»: ورأيتكما.

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ

اقترحوا من الآيات؛ فنزل قوله: ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله﴾ فأعطيكم ما تريدون ﴿ولا أعلم الغيب﴾. والغيب. كل ما غاب عنك ويكون ماضيا، ويكون فى المستقبل، والماضى منه يجوز أن يعلمه الإنسان بخبر مخبر ونحوه. فأما المستقبل فلا يعلمه إلا الله، ورسول ارتضاه، كما قال فى سورة الجن[1]، وقوله: ﴿ولا أعلم الغيب﴾ فيه إضمار، أى: ولا أعلم الغيب إلا ما أعلمنيه الله ﴿ولا أقول لكم إنى ملك﴾ إنما أمره بذلك؛ لأن الملك يقدرعلى ما لايقدر عليه الآدمى، وقيل: لأن الملك يشاهد ما لايشاهده الآدمى، واسْتَدَلَّ بهذا من فَضَّلَ الملائكة على الآدميين، وليس فيه مستدل، ومعناه: ما بيّنا.

﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ قل هل يستوى الأعمى والبصير﴾ قال قتادة: الكافر والمؤمن، وقال مجاهد: الضال والمهتدى، وقيل: الجاهل والعالم ﴿أفلا تتفكرون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وأنذر به﴾ أى: خوّف به ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ قيل: هم المسلمون، وقيل: كل من يؤمن بالبعث من المسلمين وأهل الكتاب.

﴿ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون﴾ فإن قيل: أليس يشفع الأنبياء والأولياء يوم القيامة، فما معنى قوله: ﴿ليس لهم من دونه ولى ولاشفيع﴾؟ قلنا: معناه: لاشفاعة إلا بإذنه، وهم إنما يشفعون [بإذنه، أو هذا ردٌّ لما زعموا أن الملائكة والأصنام يشفعون][2] لنا.

قوله: ﴿ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ سبب نزول الآية: «أن المشركين بمكة أتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: إنك تجالس الفقراء، وأرادوا به: بلالا،

(١) وهو قوله - تعالى -: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ...﴾ الآية - الجن: ٢٦ - ٢٧.

(٢) سقط من «ك».

أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا

وصهيبا، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، ومهجع، ونحوهم من فقراء أهل الصفة، وقالوا: لو طردتهم آمنا بك؛ كأنهم استنكفوا الجلوس معهم فَهَمَّ النبى ﷺ بذلك طمعا فى إيمانهم؛ فنزلت الآية»[1]. قال سعد بن أبى وقاص: «فىّ نزلت الآية وابن مسعود...»[2] وعدّ جماعة، وقال مجاهد: نزلت الآية فى بلال وجماعة، وفيه قول آخر: أن الآية نزلت بالمدينة، روى: «أن الأقرّع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى أتيا رسول الله ﷺ، كانا من أكابر الكفار؛ فقالا: إنا نستنكف من الجلوس مع هؤلاء، فلو اتخذت لنا مجلسا منك، آمنا بك؛ فهمّ بذلك، طمعا فى إيمانهم؛ فنزلت الآية»[3] فعلى هذا تكون الآية من الآيات المبينة التى نزلت بالمدينة.

قوله: ﴿ولاتطرد الذين يدعون ربهم﴾ اختلفوا فى هذه الدعوة، قال ابن عباس: معناه: يصلون الصلوات الخمس، وقال إبراهيم النخعي: هو ذكر الله، وقال الضحاك: كل الطاعات.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/٤٢٠)، والطبري في تفسيره (٧/١٢٧)، والطبراني في الكبير (١٠/٢١٧/ رقم ١٠٥٢٠) من حديث ابن مسعود.

وقال الهيثمي في المجمع (٧/٢٤): رواه أحمد، والطبراني.... ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس، وهو ثقة.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥/٢٦٧ رقم ٢٤١٣)، وابن ماجة فى سننه (٢/٣٨٣ رقم ٤١٢٨) والطبرى فى تفسيره (٧/١٢٨)، والحاكم فى مستدركه (٣/٣١٩) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبى، وقد أخرجه مسلم كما قدمنا.

(٣) رواه ابن ماجة فى سننه (٢/١٣٨٢/ رقم ٤١٢٧) وقال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وابن جرير فى تفسيره (٧/١٢٧-١٢٨) والطبرانى فى الكبير (٤/٧٥ - ٧٦/ رقم ٣٦٩٣) وأبو نعيم فى الحلية (١/١٤٦ - ١٤٧).

وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٣/١٤) لابن أبى شيبة، وأبى يعلى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل وأبو الشيخ وابن مردويه.

مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ

وقوله: ﴿ يريدون وجهه ﴾ قال ابن عباس: أى: يريدون إياه بالطاعة، ويريدون خالص وجهه، والوجه صفة لله - تعالى - بلا كيف؛ وجه لا كالوجوه.

﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ يعنى: إن طردتهم، وقيل: فى الآية تقديم وتأخير، وتقديره: ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه فتكون من الظالمين، (ثم قال):[1] ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ قوله - تعالى -: ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾ هو فتنة الأغنياء بالفقراء، [والله - تعالى - يفتن الأغنياء بالفقراء][1]، ويفتن الفقراء بالأغنياء، والمراد هاهنا: فتنة أكابرهم بفقرائهم؛ حيث امتنعوا عن الإيمان بسببهم؛ وذلك كان فتنة لهم.

﴿ ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ يقول الأغنياء: أهؤلاء الفقراء سبقونا بالإيمان، ثم يقول الله - تعالى -: ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ يعنى: أليس الله بأعلم من هو أهل للإسلام؛ فيدخل فى الإسلام؟!.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ﴾ هم الفقراء الذين ذكرنا ﴿ فقل سلام عليكم ﴾ أمر رسوله ببدائتهم بالسلام، وقد ذكرنا معنى السلام فيما سبق، وقيل: معناه: [سلمكم][2] الله فى دينكم، وقيل: معناه السلامة لكم.

﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أى قضى بالرحمة لكم ﴿ أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ﴾ أى خطيئة، وقد بيّنا أن كل عاص جاهل ﴿ ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴾ يقرأ: أَنّه، وفأنه، كلاهما بنصب الألف؛ فيكون بدلا عن قوله:

(١) سقط من «ك».

(٢) فى «الأصل، وك»: علمكم. وهو خطأ.

منكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن

﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ ويقرأ: كلاهما بكسر الألف على الابتداء، ويقرأ: الأول بالفتح والثاني بالكسر[١].

قوله – تعالى –: ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ يقرأ بثلاثة أوجه ولتستبين – بالتاء، سبيل: بنصب اللام. ومعناه: ولتستبين يامحمد سبيل المجرمين؛ فإن قيل: ألم يكن مستبينا له؟ قيل: معناه: لتزداد بيانا، وقال الزجاج: الخطاب مع الرسول، والمراد بالآية: الأمة.

ويقرأ وليستبين: بالياء والتاء سبيلُ: برفع اللام[٢]، وقالوا: لأن السبيل يذكر ويؤنث؛ قال الله – تعالى –: ﴿ قل هذه سبيلى ﴾[٣] ومعناه: وليظهر سبيل المجرمين؛ (فإن قيل: لم خصّ سبيل المجرمين؟)[٤] قيل: تقديره: ولتستبين سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين؛ فحذف أحدهما اختصارا، والأصح أن تقديره: ولتستبين سبيل المجرمين عن سبيل المؤمنين.

قوله – تعالى –: ﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ هو النهى عن الشرك ﴿ قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴾ يعنى: إن اتبعت أهواءكم، قوله – تعالى –: ﴿ قل إنى على بينة من ربى ﴾ على بيان من ربى ﴿ وكذبتم به ﴾ أى: بما [جئت] به ﴿ ما عندى ما تستعجلون به ﴾ قيل: أراد به استعجالهم الآيات والمعجزات، وقيل: أراد به استعجالهم القيامة، قال الله – تعالى – ﴿ يستعجل بها الذين لايؤمنون بها ﴾[٥] وقيل: أراد به استعجال العذاب، قال الله –

(١) قرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب بفتح الهمزة فيهما، ووافقهم نافع، وأبو جعفر فى الأولى، وقرأ الباقون بالكسر فيهما.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) يوسف: ١٠٨.

(٤) سقط من «ك».

(٥) الشورى: ١٨.

رَبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا

تعالى -: «ويستعجلونك بالعذاب» وكانوا يقولون: ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[1].

﴿إن الحكم إلا لله يقضى الحق وهو خير الفاصلين﴾ ويقرأ: يقص بالصاد[2]، واستدل بالكتابة فى المصاحف؛ فإن هذه الكلمة تكتب بغير الياء.

قوله تعالى: ﴿قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم﴾ معناه: لقامت القيامة، وقيل: هو فى العذاب، ومعناه: لو كان العذاب بيدى لعجلته؛ حتى أتخلص منكم ﴿والله أعلم بالظالمين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو﴾ روى ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «مفاتيح الغيب خمسة»، وذكر (الخمس)[3] المذكورة فى قوله - تعالى -: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾[4] ثم قرأ الآية[5]. ﴿ويعلم ما فى البر والبحر﴾ قال مجاهد: البحر: القرى والأمصار ها هنا، (والبر: المفاوز)[6]، يقال: هذا المصر بحر، وهذه القرية بحر؛ لاجتماعها وكثرة أهلها، وقيل: هو البر والبحر المعروف.

﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ فإن قال قائل: لم خص [الورق][7] الساقط

---

(١) الأنفال: ٣٢.

(٢) قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وعاصم بالصاد المهملة، مشددة من القصص، وقرأ الباقون بإسكان القاف وكسر الضاد المعجمة من القضاء. انظر النشر (٢/٢٥٨).

(٣) فى «ك»: الخمسة. (٤) لقمان: ٣٤.

(٥) رواه البخارى (٢/ ٦٠٩ رقم ١٠٣٩ وأطرافه فى: ٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٤٧٧٨، ٧٣٧٩)، وأحمد (٢/ ٢٤، ٥٢، ٥٨، ٨٥، ٨٦)، وابن حبان (١/ ٢٧٢ - ٢٧٣رقم ٧٠، ٧١).

(٦) فى «الأصل، وك»: والبر والمفاوز. (٧) فى «الأصل، وك»: ورقة.

تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

وهو يعلم الساقط والثابت؟ قيل: هذا معناه: أى: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ساقطة وثابتة، قال جعفر بن محمد الصادق: أراد بالورقة الساقطة: السقط.

﴿ولا حبة فى ظلمات الأرض﴾ هو الحب المعروف، وقال جعفر الصادق: هو الولد ﴿ولا رطب ولايابس﴾ قيل: معناه: ولاحى ولا موات، وقيل: هو عبارة عن كل شىء ﴿إلا فى كتاب مبين﴾ يعنى: أن الكل مكتوب فى اللوح المحفوظ، وهو مثل قوله - تعالى -: ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾[1].

قوله - تعالى -: ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ أى: يقبض أرواحكم بالليل إذا نمتم، وهذا نظير قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها﴾[2]. فإن قال قائل: أليس من نام فروحه معه؛ فما معنى هذا القبض؟ قيل: هو قبض النفس المميزة المتصرفة ﴿ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾ أى: كسبتم بالنهار ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ قال قتادة: البعث اليقظة هاهنا، أى: ثم يوقظكم فى النهار ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ القضاء: هو فصل الحكم على التمام، ومعناه هاهنا: استيفاء أجل العمر على التمام.

﴿ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة﴾ أما معنى القاهر، وصفة الفوق، فقد ذكرنا؛ وأما إرسال الحفظة: هو إرسال الملائكة الحفاظ، وهو ماقال فى آية أخرى ﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين﴾[3] وقال: ﴿له معقبات

(١) القمر: ٥٣. (٢) الزمر: ٤٢.
(٣) الانفطار: ١٠ - ١١. (٤) الرعد: ١١.
(٥) فى «الأصل، وك»: يحفظون.

وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم

من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[٤] وحفظهم: أن [يحفظوا][٥] على العباد العمل والأجل والرزق ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ﴾ ويقرأ: «توفيه» بالياء[١] ﴿ وهم لايفرطون ﴾ أى: لايؤخرون.

فإن قيل: قد قال فى آية أخرى: ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾[٢] وقال هاهنا: ﴿ توفته رسلنا ﴾ فكيف وجه الجمع؟ قيل: قال إبراهيم النخعى: لملك الموت أعوان من الملائكة، يتوفون عن أمره؛ فهو معنى قوله: ﴿ توفته رسلنا ﴾ ويكون ملك الموت هو المتوفى فى الحقيقة؛ لأنهم يصدرون عن أمره، ولذلك نُسِبَ الفعل إليه فى تلك الآية، وقيل: معناه: ذكر الواحد بلفظ الجمع، والمراد به: ملك الموت، وفى القصص أن الله – تعالى – جعل الدنيا بين يديه كالمائدة الصغيرة؛ فيقبض من هاهنا ومن هاهنا؛ فإذا كثرت الأرواح يدعو الأرواح فتجيب له.

قوله – تعالى –: ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ فإن قال قائل: الآية فى المؤمنين والكفار، فكيف قال: ﴿ مولاهم الحق ﴾ وقد قال فى آية أخرى: ﴿ وأن الكافرين لامولى لهم ﴾[٣] ؟ قيل: المولى فى تلك الآية بمعنى: الناصر، ولاناصر للكفار، والمولى هاهنا بمعنى: المالك، والله مالك الكل، وقيل: أراد به رد المؤمنين إليه، ويدخل الكفار فيه تبعا.

﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ أى: يحاسب الكل فى لحظة.

قوله تعالى: ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾ يعنى: من شدائد البحر والبر، تقول العرب: يوم مظلم. إذا كان يوم شدة، ويسمونه أيضا: يوما ذا كوكب. كأنهم جعلوه كالليل لشدته، قال الشاعر:

(١) هى قراءة حمزة بألف ممالة بعد الفاء، وقرأ الباقون بتاء ساكنة بعد الفاء. انظر النشر (٢/٢٥٨).

(٢) السجدة: ١١.

(٣) محمد: ١١.

مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ

بني أسد هل تعلمون (بلاءنا)[1] إذا كان يوماً ذا كواكب أشهبا[2]

وقال آخر:

فدا لبني ذهل بن شيبان ناقتي إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا

﴿ تدعونه تضرعا وخفية ﴾ أى: علانية وسرا، وقيل: معناه: أن يكون السر مع الجهر فى الدعاء بحيث يدعو باللسان وسره معه، ويقرأ «وخفية» بكسر الخاء[3] ومعناهما واحد ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ والشكر: [هو][4] معرفة النعمة مع القيام [بحقها][5]، ولابد من هذين حتى يتحقق الشكر.

قوله - تعالى -: ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ الكرب: غاية الهم.

قوله - تعالى -: ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، وجماعة: نزلت الآية فى أهل الإيمان وأهل الصلاة. وقال غيرهم: نزلت فى المشركين، وقوله: ﴿ عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبير: عذابا من فوقكم: هو الرمى بالحجارة، كما كان فى قوم لوط. أو من تحت أرجلكم هو الخسف والرجفة.

وحكى عن ابن عباس أنه قال: عذابا من فوقكم: تسليط أئمة السوء، ومن تحت أرجلكم: تسليط الخدم السوء، وقيل: عذابا من فوقكم: الطوفان والغرق، ومن تحت

---

(١) فى «ك»: ثلاثا.

(٢) فى لسان العرب (مادة: ظلم) وتفسير القرطبى (٧/٨): إذا كان يوم ذو كواكب أشهبُ.

(٣) هى قراءة أبى بكر. انظر النشر (٢/٢٥٩).

(٤) فى «الأصل» و«ك»: هى.

(٥) فى «الأصل» و«ك»: لحقها.

أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ

أرجلكم: الريح، كما كان فى قوم عاد ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ قال الزجاج: معناه: يخلطكم خلط اضطراب لا خلط اتفاق، وحقيقة المعنى: أنه يبث فيكم الأهواء المتفرقة؛ فتصيرون فرقا وأحزابا.

﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ هو وقوع القتل بينهم؛ وقد صح عن النبى ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية، وسمع الأولين؛ قال: «أعوذ بوجهك؛ فلما سمع الآخرين؛ قال: هاتان أيسر»[1] وفى الخبر المعروف: «أنه لما نزلت هذه الآية؛ دعا لأمته وناجى طويلا؛ حتى نزل جبريل أن الله رفع الأولين، وأجاب دعوتك فيهما، ولم يجب فى الآخرين»[2]. فبثت الأهواء والقتال فى هذه الأمة، وقد سُلّ السيف من زمان عثمان، فلا يغمد إلى قيام الساعة، وقد روى أن الدعاء المعروف الذى كان يدعو به رسول الله ﷺ، دعا به حيث نزلت هذه الآية، وقال: «اللهم إنى أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك»[3] أى: بقضاءك من قضاءك ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ يعنى: مرة هكذا، ومرة هكذا ﴿لعلهم يفقهون﴾.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/ ١٤١رقم ٤٦٢٨ وطرفاه فى: ٧٣١٣، ٧٤٠٦)، والترمذى (٥/ ٢٤٤/ رقم ٣٠٦٥) والنسائى فى الكبرى (٦/ ٢٤٠ - ٢٤١/ رقم ١١١٦٤، ١١١٦٥)، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٠٩) والطبرى فى التفسير (٧/ ١٤٣) كلهم من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

(٢) عزاه ابن كثير فى التفسير (٢/ ١٤٢) والسيوطى فى الدر المنثور (٣/ ١٩) لابن مردويه من حديث ابن عباس.
وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٧/ ١٤٥) عن الحسن البصرى مرسلاً.

(٣) هذا الدعاء ثابت فى صحيح مسلم (٤/ ٢٧١/ رقم ٤٨٦) ومسند أحمد (٦/ ٥٨، ٢٠١) وعند أبى داود فى سننه (١/ ٢٣٢/ رقم ٨٧٩) وعند النسائى (١/ ١٠٢ - ١٠٣)، (٢/ ٢١٠) وابن حبان فى صحيحه (٥/ ٢٥٨ - ٢٥٩) وغيرهم من طرق عن عائشة «أنها فقدت النبى ﷺ ذات ليلة من الفراش فالتمسته، فإذا هو راكع أو ساجد، يدعو بهذا الدعاء» ولكن ليس فيه أنه ﷺ دعا بهذا الدعاء عند نزول هذه الآية. ولكن صح عنه ﷺ «أنه حين نزلت هذه الآية قال أعوذ بوجهك» كما فى صحيح البخارى (٨/ ١٤١/ رقم ٤٦٢٨) وقد خرجناه قبل حديثين.

الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا

قوله – تعالى –: ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ يعنى: القرآن ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أى: بمسلط؛ فألزمكم الإسلام شئتم أو أبيتم، قال ابن جريج: كان هذا فى الابتداء ثم نسخ بقوله: ﴿فاقتلوا المشركين﴾(1).

﴿لكل نبأ مستقر﴾ قال مجاهد: معناه: لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة إما فى الدنيا، وإما فى الآخرة ﴿وسوف تعلمون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم﴾ أراد به: يخوضون فيها بالرد والاستهزاء، قال أبو جعفر بن محمد بن على الباقر: ويدخل فى هذا: الخوض فى كل الآيات لا على وفق الكتاب والسنة.

﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ يعنى: قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم﴾ قالت الصحابة: إذًا كيف نقعد فى المسجد الحرام وكيف نطوف بالبيت، وهم يخوضون أبدا؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء﴾ يعنى: إذا لقوهم، ولم يخوضوا فيما يخوضون ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أمر [بتذكيرهم](2) ومنعهم عن ذلك، وقيل: معناه: فى حال الذكر، وليس عليهم شىء فى حال ما يذكرونهم إذا لم يرضوا بما خاضوا فيه.

قوله – تعالى –: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا﴾.

قال الفراء فى كتابه: عيد [أهل كل ملة](3) يوم لهو ولعب إلا عيد المسلمين؛

---

(1) التوبة: ٥.

(2) فى «الأصل، وك»: بذكرهم. والصواب ما أثبتناه.

(3) كذا فى «ك»، وفى «الأصل»: كل أهل ملة.

وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

فإنه (يوم)[1] الصلاة وفعل الخير والتكبير.

﴿وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت﴾ قال مجاهد: أن تسلم للهلاك، وقال قتادة: أن تحبس، وقال الفراء: أن ترتهن، وقال الكسائى، والأخفش: أن تجزى. والصحيح هو الأول، يقال: فلان مستبسل إذا استسلم للهلاك، قال الشاعر:

وإبسالى بَنِيَّ بغير جرم [بعوه ولا بغير دم مراق][2]

وحقيقة المعنى: وذكر به، لأن لاتسلم نفس للهلاك بعملها ﴿ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع﴾ وقد ذكرنا ﴿وإن تعدل كل عدل﴾ هو الفدية ﴿لايؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا﴾ هو ما ذكرنا ﴿لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿قل أندعوا من دون الله ما لاينفعنا ولا يضرنا﴾ فإن قيل: كيف لايضرهم وفى الأصنام ضرهم؟ قيل: معناه: لايجلب نفعا، ولايدفع ضرا، وقيل: معناه: ليس بيدهم شيء.

﴿ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ أى: مرتدين على أعقابنا بعد الهداية به والإسلام ﴿كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران﴾ أضلته الشياطين وغلبته حتى هوى، والحيران: المتردد بين شيئين لايدرى كيف يفعل.

---

(١) فى «ك»: عيد.

(٢) فى تفسير الطبرى (٧/١٥١) وتفسير القرطبى (٧/١٦): (بعوناه ولا بدمٍ مراق) وكذا فى لسان العرب (مادة: بسل) وعزا البيت لعوف بن الأحوص بن جعفر. وفيه: بدل كلمة: مراقٍ كلمة: قراضِ.

الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

﴿ له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ﴾ ضرب مثلا للذى يرتد عن الإسلام برجل يكون فى الطريق مع رفقة؛ فيضل به الغول، ويدعوه أصحابه من أهل الرفقة إلى الطريق، فيبقى حيران، لايدرى أين يذهب. ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾.

﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ أى: وأمرنا بإقامة الصلاة والتقوى ﴿ وهو الذى إليه تحشرون ﴾.

﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أى: لإظهار الحق؛ لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ قيل: هو راجع إلى قوله: ﴿ خلق السموات ﴾ يعنى: وخلق يوم يقول، فإن قيل: كيف يصح هذا التقدير، والقيامة غير مخلوقة بعد؟ قيل: هى كائنة فى علم الله - تعالى - [فتكون][1] كالمخلوقة؛ إذ الخلق بمعنى: القضاء والتقدير، وهى مقضية مقدرة، وقيل: تقديره: واذكر يوم يقول: كن فيكون ﴿ قوله الحق ﴾.

﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور ﴾ قرئ فى الشواذ: «يوم ينفخ فى الصوَر» وهى جمع الصورة، قال أبو عبيدة: الصور: هو الصُّوَر فى كل موضع، وقال ابن مسعود فى تفسير الآية: الصور: قرن ينفخ فيه، وهو معروف فى الأخبار. ﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ يقرأ «آزرُ» برفع الراء، وهو فى الشواذ، ومعناه: يا آزرُ، وكذلك فى حرف أُبى بن كعب: يا آزرُ، والمعروف «آزرَ» بنصب

(١) فى «الأصل» و«ك»: يكون.

لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ

الراء، وهو اسم أعجمى غير منصرف؛ فينصب فى موضع الخفض.

قال الفراء، والزجاج: اسم أبيه: تارخ، أجمع عليه النسابون، وآزر لقب له، قال الفراء: واللقب قد غلب على الاسم، وقيل: كان له اسمان: آزر، وتارخ، قال الحسن: اسمه: آزر لاغير، كما نص عليه فى الكتاب، وقال مجاهد: آزر: اسم صنم، وتقدير الآية: وإذ قال إبراهيم لأبيه: ﴿ أتتخذ ﴾ آزر إلها ﴿ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ الملكوت والملك واحد، وإنما أدخل التاء فيه للمبالغة، مثل: رهبوت ورحموت، واختلفوا فى معناه، منهم من قال: أراه أبواب السموات والأرض، ومنهم من قال: فرّج له السموات حتى رآها كلها وما فيها، وخرّق له الأرضين حتى رآها كلها، وقيل: رفعه إلى السماء حتى رأى السمو ات والأرض.

وفى الخبر: «أنه لما رفعه إلى السماء رأى فى الأرض رجلا على المعصية، فدعا الله حتى أهلكه، ثم رأى آخر، فدعا الله حتى أهلكه، ثم رأى ثالثا كذلك؛ فدعا الله حتى أهلكه فقال الله – تعالى –: أهبطوه، ثم أوحى الله –تعالى – إليه : مهلا يا إبراهيم؛ فإن عبادى منى على ثلاث خصال: إما أن يتوبوا فأغفر لهم، وإما أن يتركوا ولدا يدعو لهم فأغفر لهم، وإن لم يكن [لهم][1] فجهنم من ورائهم»[2] ﴿ وليكون من الموقنين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا ﴾.

---

(١) من «ك».

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٧) لابن مردويه من حديث على بن أبى طالب مرفوعاً. وعزاه لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن المنذر، وأبى الشيخ، عن سلمان موقوفاً.

رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ

وفى القصة: أن واحدا من الكهنة، قال لنمروذ: إن ملكك يهلك على (يدى)(١) ولد فى زمانك، فكان يقتل البنين ممن يولد فى زمانه؛ فلما أتت أم إبراهيم بإبراهيم، جاء به أبوه إلى سرب من الأرض شبه مغار، ووضعه فى موضع يقال له: كوثاء؛ فقيل: إنه كان فيه سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وقيل سبع عشرة سنة، ثم إنه لما شبّ، قال لأمه: من ربى؟ فقالت له: اسكت، ثم جاءت وأخبرت أباه بما قال؛ فجاء أبوه؛ فقال له إبراهيم: من ربى؟ فقال: أمك، قال: ومن رب أمى؟ قال: أنا، قال: ومن ربك؟ قال: اسكت، وتركوه، ثم لما جن عليه الليل خرج من السرب، ولم يكن رأى شيئا قط، فرأى كوكبا، قيل: هو المشترى.

قال السدى: كان الكوكب: زهرة، وهى أضوأ كوكب فى السماء. ﴿قال هذا ربى﴾ قيل: إنه قال ذلك فى صغره حين لايعبأ بقوله، وقيل: إنما كان مستدلا به؛ فقال ذلك فى حال الاستدلال؛ فلم يضره هذا القول، وهذان القولان ضعيفان، وفيه ثلاثة أقوال معروفة: أحدها: قال قطرب: قوله: هذا ربى. على وجه الاستفهام، وتقديره أهذا ربى؟ ومثله قول الشاعر:

رَفَوْنى وقالوا ياخويلد (لم تُرَعْ)(٢) فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ همُ همُ

وإنما قال: هم على طريق الاستفهام، وتقديره: أهم هم؟ وأما الزجاج وغيره لم يرضوا منه هذا، وقالوا: ليس فى كلام العرب «هذا» بمعنى الاستفهام.

وذكر الزجاج قولين آخرين فيه: أحدهما: قال: «هذا ربى» على زعم قومه، فإن قيل: هم كانوا يعبدون الكواكب، فكيف قاله على زعمهم؟ قيل: كان منهم أهل نجوم، وكانوا يرون أنه إلى الكواكب الأمور؛ وكأنهم يعبدون الكواكب.

والقول الثانى: أن القول مضمر فيه، وتقديره: يقولون: هذا ربى.

(١) فى «ك»: يد.

(٢) فى لسان العرب (مادة: روع): لاترع. وعزا البيت لأبى خراش.

هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن

﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ .

قوله – تعالى –: ﴿ فلما رأى القمر بازغا ﴾ أى: طالعا ﴿ قال هذا ربى ﴾ وكان ذلك فى ليلة قد تأخر طلوع القمر فيها قليلا ﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ والأفول: الغروب.

قوله – تعالى –: ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ﴾ أى: أضوأ وأنور فإن قال قائل: لِمَ قال: هذا ربى، والشمس مؤنثة، ولم يقل هذه؟ قيل: لأن ما ليس عليه علامة التأنيث يجوز أن يُذَكَّر، كما قال الشاعر:

فـــلا مـــزنة وقـــد دقـــت ... وَدْقَها ولا أرض ذا بقـــل أبقالها[1]

ولم يقل [أبقلت][2]، وإن كانت الأرض مؤنثة؛ إذ لم يكن عليها علامة التأنيث، وقيل: إن قوله: هذا ربى، يرجع إلى المعنى، وهو الضياء والنور ﴿ فلما أفلت قال ياقومى إنى برىء مما تشركون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ الحنيف: الثابت على الدين، المائل إليه بالكلية.

قوله – تعالى –: ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجونى ﴾ (أى)[3]: جادله قومه؛ قال: أتجادلونى ﴿ فى الله وقد هدان ﴾.

(١) كذا وقع البيت فى «الأصل، وك». وفى لسان العرب (مادة: ودق):

فلا مُزْنة وَدَقَتْ ودقها ... ولا أرضَ أبقل أبقالها

(٢) فى «الأصل، وك»: ذا بقلت.

(٣) ليست فى «ك».

يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم

﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ لأنهم كانوا يخوفونه بالأصنام، وكانوا يقولون: احذر الأصنام؛ فإنا نخاف عليك الخبل والجنون؛ فقال: ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلاَّ أن يشاء ربى شيئا﴾ قوله: إلا أن يشاء ربى شيئا. ليس باستثناء عن الأول؛ إذ لايجوز أن يشأ الله أن يصيبه شيء من الأصنام، وما يشركون به، وإنما هذا استثناء منقطع، ومعناه: لكن إن شاء ربى أن يأخذنى بشيء، أو يعذبنى بجرمى؛ فله ذلك.

﴿وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا﴾ الإشراك: هو الجمع بين الشيئين فى معنى؛ فالإشراك بالله: هو أن يجمع مع الله غير الله فيما لايجوز إلا لله، ومعنى الآية: وكيف أخاف الأصنام وما أشركتم، وأنتم أحق بالخوف منى حيث أشركتم بالله، ولا تخافون الله بشرككم أو فعلكم الذى لم ينزل به الله حجة وسلطانا؟ ﴿فأى الفريقين أحق بالأمن﴾ يعنى الموحِّد أو المشرك ﴿إن كنتم تعلمون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ اختلفوا فيه، قال بعضهم: هذا من قول الله – تعالى –، وقيل: هو من قول إبراهيم، ومعناه: الذين آمنوا، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، هذا هو قول أبى بكر، وعلى، وحذيفة، وسلمان أن المراد بالظلم الشرك، وقد صحّ برواية ابن مسعود: «أنه لما نزلت هذه الآية؛ شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟! فقال ﷺ: ليس الأمر كما تظنون، إنما الظلم هاهنا بمعنى الشرك، وقرأ قوله تعالى: ﴿لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[١]»[٢]. ومعنى الآية: الذين آمنوا بالله ولم يشركوا به ﴿أولئك لهم الأمن

(١) لقمان: ١٣.

(٢) متفق عليه، رواه البخارى فى الصحيح (١/ ١٠٩/رقم ٣٢)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم فى صحيحه (٢/ ١٨٧ – ١٨٩/ رقم ١٢٤).

مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ

وهم مهتدون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ اختلفوا فيه، قال بعضهم: هى احتجاجه عليهم بقوله: ﴿فأى الفريقين أحق بالأمن﴾، وحجته فى ذلك أن الذى يعبد الله لايشرك به شيئا أحق بالأمن من الذى يعبد الله ويشرك به. وقيل: أراد به الحجاج الذى حاج به نمروذ، على ما سبق فى سورة البقرة.

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعنى: (بالحجاج)[1]، والاستدلال، ويقرأ: «نرفع درجاتٍ» منونا[2]، وتقديره: نرفع من نشاء درجات ﴿إن ربك حكيم عليم﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته﴾ اختلفوا فيه، قال بعضهم: أراد به: ذرية إبراهيم، والصحيح أنه أراد به: ومن ذرية نوح؛ لأنه عدّ فى الجملة يونس ولوطا، وهما من ذرية نوح لا من ذرية إبراهيم ﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين﴾ وليس هذا على ترتيب الأزمان؛ إذ كان هؤلاء على أزمان مختلفة، بعضهم سابق على البعض، (فالواو لا)[3] تقتضى الترتيب وإنما هى للجمع.

قوله - تعالى -: ﴿وزكريا ويحيى وعيسى﴾ هذا دليل على أن عيسى من ذرية آدم، وإن كان انتماؤه إلى الأم؛ لأنه عدّه من ذرية نوح؛ فيكون آدم أباه من قبل الأم ﴿وإلياس كل من الصالحين﴾ قال ابن مسعود: إلياس هو إدريس، والصحيح أنه رجل آخر.

---

(١) فى «ك»: الاحتجاج.

(٢) هى قراءة: حمزة، والكسائى، وعاصم، ويعقوب، انظر النشر (٢ / ٢٦٠).

(٣) فى «ك»: قالوا لا. وهو خطأ.

وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ

قوله - تعالى -: ﴿ وإسماعيل واليسع ﴾ ويقرأ: «واللَّيْسع»(1) وهو اسم أعجمى مثل: زيد، ويزيد، ونحوه، وإنما وصل فيه الألف واللام نادرا، ومثله قول الشاعر:

وجدنا (الوليد بن اليزيد)(2) مباركا شديدا (بأعباء)(3) الخلافة كاهلـه

﴿ ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ ومن آبائهم ﴾ «من» فيه للتبعيض؛ لأن آباء بعضهم كانوا مسلمين ومهتدين ﴿ وذرياتهم ﴾ أى: ومن ذرياتهم، وأراد به: ذرية بعضهم أيضا؛ لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ذرية، وكان فى ذرية بعضهم من كان كافرا ﴿ وإخوانهم واجتبيناهم ﴾ أى: اصطفيناهم ﴿ وهديناهم ﴾ أرشدناهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ﴾ أى: يرشد به من يشاء من عباده ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ أى: لبطل عنهم، والحبوط: البطول وهذا مثل قوله - تعالى -: ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾(4).

﴿ أولئك الذين أتيناهم الكتاب ﴾ الكتاب: اسم الجنس، وأراد به: الكتب المنزلة عليهم ﴿ والحكم ﴾ يعنى: العلم والفقه ﴿ والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ﴾ يعنى: أهل المدينة، ومن كان بها من المهاجرين والأنصار، وقال قتادة: فإن يكفر بها هؤلاء يعنى: الكفار، فقد وكلنا بها قوما [يعنى](5)

(1) هى قراءة حمزة، والكسائى، وخلف بتشديد اللام، وإسكان الياء. انظر النشر (2 / 260).

(2) كذا فى «الأصل وك»، وفى تفسير القرطبى (7 / 33): اليزيد بن الوليد.

(3) فى «ك»: باغيا.

(4) الزمر: 65.

(5) من «ك».

وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ

الأنبياء الذين سبق ذكرهم، وقال أبو رجاء العطاردى: معناه: فإن يكفر بها أهل الأرض، فقد وكلنا بها أهل السماء، وهم الملائكة ﴿ليسوا بها بكافرين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿أولئك الذين هدى الله﴾ أى: هداهم الله ﴿فبهداهم اقتده﴾ وهذه هاء الوقف، كما فى قوله: ﴿ماليه﴾[1] و﴿سلطانيه﴾[2]، ونحو ذلك، ويقرأ «فبهديهم اقتده» بكسر الهاء، وتقديره: فبهديهم اقتد اقتداء، هكذا قيل: إن المصدر مقدّر فيه ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أى: تذكرة.

قوله - تعالى -: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قال ابن عباس: ما عظّموا الله حق عظمته، وقال أبو عبيدة: ما عرفوا الله حق معرفته، وقال الخليل بن أحمد: ما وصفوا الله حق صفته، يقال: قدرت الشىء، وقدرته؛ إذا عرفت حقيقته.

﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء﴾ قيل: هذا قول مالك بن الصّيف، كان حبر اليهود، فحاج النبى ﷺ، فجرى على لسانه فى المحاجة: ما أنزل الله على بشر من شىء، وكان ذلك بمكة؛ فنزلت الآية.

﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس﴾ أى: أجبه يامحمد، وقل: من أنزل التوراة على موسى وأنتم تؤمنون به؟.

وفى القصة: أن اليهود سمعوا منه تلك المقالة؛ فعتبوا عليه، وقالوا: أليس أن الله قد أنزل التوراة على موسى؟ فَلِمَ قلت ما أنزل الله على بشر من شىء؟! فقال مالك بن الصّيف: أغضبنى محمد؛ فقلت ماقلت؛ فقالوا: وأنت إذا غضبت تقول على الله

(١) الحاقة: ٢٨.

(٢) الحاقة: ٢٩.

أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ

غير الحق؛ فنزعوه عن الحبرية، وأجلسوا مكانه كعب بن الأشرف.

﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها ﴾ أى: تكتبون منها كتبا تبدونها ﴿ وتخفون كثيرا ﴾ أى: تخفون ما فيه نعت محمد، وتبدون منها ماليس فيه نعت محمد ﴿ وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا (آباؤكم)[1] ﴾ قيل: هو راجع إلى اليهود، وقيل: هو خطاب للصحابة.

قال الله - تعالى -: (يعنى: قل من أنزله)[2] وهو راجع إلى ما تقدم ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وكل من خاض فيما لاينتفع به فهو لاعب.

قوله - تعالى -: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ يصف القرآن بالبركة: وأصل البركة الثبوت، ومنه بروك البعير إذا ثبت واستقر، ومنه قوله: ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾[3] أى: ثبت له ما يستحقه من التعظيم والجلال فيما لم يزل ولايزال.

﴿ مصدق الذى بين يديه ﴾ يعنى: من الكتب المنزلة قبله ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾ يعنى: أهل أم القرى ﴿ ومن حولها ﴾ وأم القرى مكة: وسميت أم القرى؛ لأن سائر القرى [يقصدونها ويأتونها][4]، وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها، (وقيل: لأنها)[5] معظمة تقصد بالتعظيم، ومنه سميت الأم أما؛ لأنها تعظم، وقد قال ﷺ: «إن المدينة قرية تأكل سائر القرى»[6] يعنى: أن أهل المدينة يقتحمون سائر القرى

(١) تكررت فى «ك».

(٢) ليست فى «ك».

(٣) الملك: ١.

(٤) فى «الأصل» و «ك»: يقصدونه ويأتونه.

(٥) تكررت فى «ك».

(٦) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٤/١٠٤/ رقم ١٨٧١) ومسلم (٩/٢١٨ - ٢١٩/ رقم ١٣٨٢). ولفظه «أمرت بقرية تأكل القرى...» الحديث.

يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ

بالسيف.

﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾.

فإن قيل: اليهود والنصارى يؤمنون بالآخرة، ولايؤمنون به، فما معنى قوله «والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به»؟ قيل: أراد به المؤمنين؛ لأنهم الذين يؤمنون بالآخرة حقيقة، فأما الذين يؤمنون بالآخرة، ولايصدقون محمدا، وما جاء به؛ فكأنهم لم يؤمنوا بالآخرة على الحقيقة.

قوله - تعالى -: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ﴾ قال ابن عباس: «[نزل][(1)] هذا فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وكان قد أسلم؛ فجعله النبى ﷺ كاتبا للوحى، وكان يملى عليه الوحى؛ فيكتب، فقيل: إنه كان يملى عليه: «إن الله سميع عليم»، فيكتب: «إن الله غفور رحيم» ويملى عليه: «إن الله غفور رحيم» فيكتب: «إن الله عليم حكيم» هكذا كان يبدل؛ فروى أنه لما نزل قوله - تعالى -: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين... ﴾[(2)] الآية فأملى النبى ﷺ ذلك؛ فلما رأى تفضيل خلق الله تعجب، وقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال له النبى ﷺ: هكذا أنزل ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فشك الرجل فى الوحى، وقال: أوحى إلىّ كما يوحى إليه، وارتد عن الإسلام»[(3)] فقوله: ﴿ أو قال أوحى إلىّ ﴾ هو هذا.

وقيل: نزلت الآية فى مسيلمة الكذاب، والأسود العنسى، خرجا باليمن، وادعيا

(١) فى «الأصل»: نزلت.

(٢) المؤمنون: ١٢ - ١٣.

(٣) لم أجده من حديث ابن عباس، وإنما عزاه السيوطى فى الدر (٣/٣٣) لابن أبى حاتم عن السدى وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٧/١٨١) عن عكرمة، والسدى أيضاً. وذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص١٦٥) بلفظ المصنف ثم قال: وهذا قول ابن عباس فى رواية الكلبى.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ

النبوة، والوحى إليهما، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «رأيت فى المنام سوارين من ذهب فى يدى، فنفخت فيهما، فطارا، فأولتهما على كذابين يخرجان بعدى»(١) مسيلمة الكذاب كان باليمامة، والأسود العنسى كان بصنعاء اليمن.

﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ هذا فى النضر بن الحارث بن كلدة، ادعى معارضة القرآن، فروى أنه قال فى معارضة القرآن: والطاحنات طحنا، فالعاجنات عجنا، والخابزات خبزا فاللاقمات لقما.

﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت﴾ يعنى: فى شدائد الموت، قال الشاعر:

الغمرات ثم تنجلينا　　　ثمة تذهبن فلا تجينا

﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ قيل: للعذاب، وقيل: لقبض الأرواح ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ أى: أرواحكم، فإن قال قائل: الروح إنما تخرج كرها؛ فما معنى قوله: أخرجوا أنفسكم؟ قيل: إنما قال ذلك تغليظا عليهم، كمن يخرج من الدار كرها، ويقال له: اخرج.

﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ الهُون: من الهوان، والهَون: من اللين والرفق، كما فى قوله: ﴿يمشون على الأرض هونا﴾(٢).

قوله - تعالى -: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ أى وحدانا فردا فردا ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ بلا أهل ولا مال ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ أى: ملكناكم، والخول: المماليك. ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦ / ٧٢٥ /رقم٣٦٢١) وانظر أطرافه هناك ومسلم فى صحيحه (١٥ /٤٩ /رقم ٢٢٧٤).

(٢) الفرقان: ٦٣.

ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ

أراد به: مازعموا من أن الأصنام والملائكة شفعاؤنا عند الله ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أى: وصلكم، وهو مثل قوله: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ أى: الموصلات، ويقرأ: «لقد تقطع بينَكم» – بفتح النون[1] – ومعناه: تقطع الأمر بينكم ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ الفلق: الشق، ومعناه: أنه يشق الحبة؛ فيستخرج السنبلة من الحبة، ويشق النواة؛ فيستخرج النخلة من النواة، [ويدخل][2] فى قوله: ﴿فالق الحب﴾ جميع البذور والحبوب، ويدخل فى قوله: ﴿والنوى﴾ نواة جميع الأشجار؛ مثل نواة المشمش، ونواة الخوخ، ونواة الغبيراء، ونحو ذلك، وقيل: فالق الحب والنوى بمعنى: خالق الحب والنوى.

﴿يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى﴾ وقد ذكرنا هذا واختلاف القراءة فيه، والفرق بين الميّت والميت ﴿ذلكم الله فانى تؤفكون﴾ أى تصرفون.

قوله – تعالى –: ﴿فالق الإصباح﴾ معناه: أنه يستخرج الصبح من الليل، والإصباح: مصدر، وهو بمعنى: الصبح هاهنا، أى: فالق الصبح، وقرأ إبراهيم النخعى: «فلقَ الإصباح» وقرأ الحسن: «فالقَ الإصباح» – بنصب القاف – وهما فى الشواذ.

﴿وجعل الليل سكنا﴾ أى: يسكن فيه، ويقرأ: «وجعلَ الليلَ سكنا»[3]، أى: جعل الله الليل سكنا ﴿والشمس والقمر حسبانا﴾ أى: بحساب معلوم، والحسبان: هو الحساب هاهنا بمعنى أنهما يدوران بحساب معلوم مقدر. وحكى منصور بن

---

(١) هى قراءة نافع، وأبى جعفر، والكسائى، وحفص. انظر النشر (٢/ ٢٦٠).

(٢) فى «ك»: ويخرج. وهو خطأ.

(٣) هى قراءة حمزة، والكسائى، وعاصم، انظر النشر (٢/ ٢٦٠).

سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

المعتمر - وهو الثقة من رواة النخعى - عن إبراهيم النخعى أنه قال: يجوز أن يتعلم الإنسان من النجوم بقدر ما يعرف منازل القمر، وسير الكواكب لمعرفة القبلة وأوقات الصلاة ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾ هذه إحدى فوائد النجوم، والله - تعالى - خلق النجوم لفوائد: منها تزيين السماء، كما قال - عز وعلا-: ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾[١] ومنها رمى الشياطين بها كما قال: ﴿ وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[٢] ومنها الاهتداء فى ظلمات البر والبحر كما قال هاهنا.

وحكى أبو الحسين بن فارس عن بعض التابعين أنه أراد بالنجوم هاهنا: الصحابة، يهتدى بهم فى ظلمات الشرك، وهذا مثل قوله ﷺ: « أصحابى [كالنجوم][٣] بأيهم اقتديتم اهتديتم »[٤]، ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ﴾ يعنى: آدم - صلوات الله عليه - ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ قال عطاء، ومجاهد: أراد بالمستقر: أرحام الأمهات، وبالمستودع: أصلاب الآباء، وحكى ذلك عن ابن عباس أيضا، ويروى عن ابن عباس أنه قال - على عكسه -: المستقر: أصلاب الآباء، والمستودع: أرحام

(١) فصلت: ١٢.

(٢) الملك: ٥.

(٣) فى « ك »: مثل النجوم.

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٥/رقم ١٧٦٠) وابن حزم فى الإحكام (٦/ ٨٢) من حديث جابر بن عبد الله. وقال ابن عبد البر: هذا إسناد لاتقوم به حجة. وانظر كلام الشيخ الألبانى - حفظه الله - عليه فى الضعيفة رقم (٥٨،٦١) وحكم عليه بالوضع هناك، وانظر تخريج أحاديث المختصر للحافظ ابن حجر (١/ ١٤٥ - ١٤٨).

وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ

الأمهات، وعن ابن مسعود أنه قال: المستقر: أرحام الأمهات، والمستودع: القبور، وفيه قول ثالث: أن المراد بالمستقر الدنيا والمستودع: الآخرة، ويقرأ: «فمستقِر» بكسر القاف[١]، وتقديره: فمنكم مستقر، ومنه مستودع ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء، فأخرجنا منه خضرا﴾ هو الغصن الطرى ﴿نخرج منه حبا متراكبا﴾ أى: متراكما بعضه على بعض ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية﴾ الطلع: ما يخرج من شجر النخل، والقنوان: العذوق، واحدها: قنو، والعذق: أصل الشجرة، والعذق: الكباسة، والعذق والقنو واحد، وقال الشاعر:

أثيث كقنوِ النخلة المتعثكلِ

وقال أيضا:

فأثت أعاليه (ودقت)[٢] أصولـــه (يميل به قنو)[٣] من البسر أحمرا

وأما «الدانية» قال البراء بن عازب: ﴿قنوان دانية﴾ أى: قريبة المتناول، وفيه حذف وتقديره: قنوان دانية وغير دانية أى: قريبة، المتناول وبعيدة المتناول، فحذف أحدهما اختصاراً؛ لسبقه إلى الأفهام، ومثله قوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾[٤] وتقديره: تقيكم الحر والبرد، قوله: ﴿وجنات من أعناب﴾ يقرأ بكسر التاء، ورفعها ﴿والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه﴾ أى: مشتبها يشبه بعضه بعضا فى الورق، وغير متشابه فى الثمر والطعم، وهكذا يكون الزيتون مع الرمان، فإن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان، وقيل: تكون أوراقه إلى أصل الشجرة كأوراق الرمان، ثم يخالف

(١) وهى قراءة ابن كثير، وأبو عمرو، وروح. انظر النشر (٢/ ٢٦٠).

(٢) فى تفسير الطبرى: وآدت.

(٣) فى تفسير الطبرى: ومال بقنوان.

(٤) النحل: ٨١.

مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ

الرمان فى الطعم، فهذا معنى قوله: ﴿ مشتبها وغير متشابه ﴾، ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ أى: فى نضجه، ومنه قول الحجاج حيث خطب، وقال: إنى أرى رءوساً قد أينعت، وآن قطافها، وأنا والله صاحبها، وأرى دماء ترقرق بين اللحى والعمائم ﴿ إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله من سروات الجن ﴿ وخلقهم ﴾ قيل: إن الآية راجعة إلى الجن، وقيل: راجعة إلى الكفار يعنى: أنهم يقولون ذلك ﴿ وخلقهم ﴾ وقرأ يحيى بن يعمر: «وخلْقهم» بجزم اللام، وهو فى الشواذ.

﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ يقرأ مخففا ومشددا[1] والخرق: الاختلاق، والتخريق: التكثير منه، يعنى: واختلقوا له بنين وبنات، وذلك مثل قول اليهود: عزير ابن الله، ومثل قول النصارى: المسيح ابن الله، ومثل قول بعضهم: الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى: مبدع السموات والأرض، وهو الخالق لاعلى مثال سبق، ومنه المبتدعة، ولايكون الولد إلا من الصاحبة؛ فهذا معنى قوله: ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء ﴾ وفيه أيضا دليل على أن لا ولد له؛ لأنه إذا كان خلق كل شىء؛ لم يصلح شىء أن يكون ولدا له؛ إذ المخلوق لايصلح ولدا للخالق؛ فإن ولد كل أحد يكون من جنسه ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء ﴾ أكدّ ما سبق

(١) قرأ نافع، وأبو جعفر بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، انظر النشر (٢/ ٢٦١).

ذكره من نعت الوحدانية ﴿فاعبدوه﴾ أى: فأطيعوه ﴿وهو على كل شىء وكيل﴾ قيل: هو الكفيل بالأرزاق، وقيل: الوكيل هاهنا بمعنى: القائم بخلق كل شىء وتدبيره.

قوله - تعالى -: ﴿لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ واستدل بهذه الآية من يعتقد نفى الرؤية، قالوا: لما (تمدح)[1] بأنه لاتدركه الأبصار؛ فمدحه يكون على الأبد فى الدنيا والآخرة. واعلم أن الرؤية حق على مذهب أهل السنة، وقد ورد به القرآن والسنة.

قال الله - تعالى -: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[2] وقال: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[3].

وقال: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾[4] ونحو هذا، وروى جرير بن عبد الله البجلى، وغيره بروايات صحيحة عن النبى ﷺ أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، لاتضامون فى رؤيته»[5] ويروون: «لاتضارون فى رؤيته».

فأما قوله - تعالى -: ﴿لاتدركه الأبصار﴾ فالإدراك غير الرؤية؛ لأَنَّ الإدراك: هو الوقوف على كُنه الشىء وحقيقته، والرؤية: هى المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله - تعالى - فى قصة موسى: ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا﴾[6] فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، وإذا كان الإدراك غير الرؤية، فالله - تعالى - يجوز أن يرى، ولكن لايدرك كنهه؛ إذ لا كُنْهَ له حتى يدرك؛ وهذا

(١) فى «ك»: مدح.

(٢) القيامة: ٢٣.

(٣) المطففين: ١٥.

(٤) الكهف: ١١٠

(٥) متفق عليه، رواه البخارى (٢/ ٤٠/رقم ٥٥٤) وانظر أطرافه هناك، ومسلم (٥/١٨٧ - ١٨٨/ رقم ٦٣٣).

(٦) الشعراء: ٦١ - ٦٢.

الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ

كما أنه يعلم ويعرف ولايحاط به، كما قال: ﴿ولايحيطون به علما﴾[(١)] فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، وقال ابن عباس – حكاه مقاتل عنه، والأول قول الزجاج –: معنى قوله: ﴿لاتدركه الأبصار﴾ يعنى: فى الدنيا، هو يرى الخلق، ولايراه الخلق فى الدنيا بدليل قوله – تعالى –: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[(٢)] فكما أثبتت الرؤية بتلك الآية فى الآخرة؛ دلّ أن المراد بهذه الآية الإدراك فى الدنيا؛ ليكون جمعا بين الآيتين ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ اللطيف: موصل الشىء باللين والرفق، ويقال فى الدعاء: «ربّ الطف بى» أى: أوصل إلى بالرفق، وقيل: معناه: وهو اللطيف بأوليائه وعباده الخبير بهم.

قوله – تعالى –: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ البصائر: البينات ﴿فمن أبصر فلنفسه﴾ يعنى: نفع بصره له ﴿ومن عمى فعليها﴾ أى: وبال العمى عليها ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أى: ما أمرت أن ألازمكم حتى تسلموا لامحالة، قيل: هذا كان فى الابتداء، ثم صار منسوخا بآية السيف.

قوله – تعالى –: ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أى: نفصل الآيات، مرة هكذا، ومرة هكذا ﴿وليقولوا درست﴾ قيل: هذه «لام العاقبة» أى: عاقبة أمرهم أن يقولوا: درست، وهذا مثل قوله – تعالى –: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا﴾[(٣)] ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لهذا، ولكن أراد أن عاقبة أمره معهم أن كان عدوا لهم؛ فيسمون ذلك لام العاقبة، كذلك ها هنا، وقوله: ﴿درست﴾ يقرأ على وجوه: «دَرَسْتَ» أى: تعلمت من غيرك، وكانوا يقولون: إنه تعلم أخبار القرون الماضية من جبر، ويسار، وكانا عبدين سبيا من الروم، ويقرأ «دارست» أى تاليت وقاربت، وهو

(١) طه: ١١٠.

(٢) القيامة: ٢٢ – ٢٣ .

(٣) القصص: ٨.

وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ

من المدارسة بين اثنين يدرس أحدهما على الآخر، وقرأ ابن عامر «دَرَسَتْ» أى: تلك أخبار قد درست ومحيت، ويقرأ فى الشواذ «وليقولوا دُرِسَتْ» بمعنى: محيت، قرأه قتادة، وفى حرف أبى بن كعب وابن مسعود «وليقولوا دَرَسَ»[1] يعنى: درس محمد، وهو بمعنى: تعلّم، كما بيّنا ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك﴾ يعنى: القرآن ﴿لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ وهذا دليل على القدرية ﴿وما جعلناك عليهم حفيظا﴾ قد بيّنا معناه ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾.

قوله: ﴿ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ ويقرأ: «عُدُوًّا بغير علم»[2] ومعناهما واحد أى: اعتداءً بغير علم، وسبب نزول الآية: أن الكفار كانوا يقولون لرسول الله: ذرنا وآلهتنا؛ حتى نذرك وإلهك - وكان يذكر آلهتهم بالسوء - فنزلت الآية وروى: «أن قوما من كفار قريش من رؤسائهم جاءوا إلى أبى طالب، وقالوا: مر ابن أخيك يذرنا وآلهتنا حتى نذره وإلهه، فدعا رسول الله ﷺ، وقال: إن قومك جاءوا يطلبون منك النصفة، فقال: وماذا يريدون؟ فقال أبو طالب: يقولون: ذرنا وآلهتنا، ونذرك وإلهك؛ فقال رسول الله ﷺ: هل أنتم معطى كلمة إن أنتم قلتموها دانت لكم العرب، وأدّت إليكم العجم الجزية؟ فقالوا: وما [هى][3]؟ قال: كلمة لا إله إلا الله. فنفروا، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء

(١) انظر النشر (٢/ ٢٦١).

(٢) وهى قراءة يعقوب، انظر المصدر السابق.

(٣) كذا فى «ك»، وفى «الأصل»: ذلك.

زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا

عجاب ﴾[1] »[2] فقوله: ﴿ ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ وإن كان ظاهره للنهى عن سب الأصنام، ولكن معناه: النهى عن سب الله - تعالى - حتى لاتسب آلهتهم؛ فيسبوا الله. وهذا مثل قوله ﷺ: «لايسب أحدكم والديه؟! قيل: يارسول الله، ومن يسب والديه؛ قال: يسب والدى غيره؛ فيسب والداه»[3] ﴿ كذلك زيّنا لكل أمة عملهم ﴾ للمؤمنين إيمانهم وللكافرين كفرهم ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ كانوا يطلبون الآيات، ويحلفون أنها لو جاءت آمنوا بها.

﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أى: الآيات (بيدى)[4] الله، والله قادر على إنزالها.

﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون ﴾ فقوله: «أنها» يقرأ على وجهين: بكسر الهمزة، وفتحها[5]؛ فمن قرأ: «إنها» فعلى الإبتداء، واختلفوا فى معنى قوله: ﴿ وما يشعركم ﴾ أنه خطاب لمن؟ قال بعضهم: هو خطاب للكفار، ومعناه: وما يشعركم أيها الكفار أنها لو جاءت آمنتم؟ ثم ابتدأ، فقال: إنها إذا جاءت لايؤمنون.

وقيل: إنه خطاب للمؤمنين، ومعناه: وما يدريكم أنها لو جاءت آمنوا بها، إذ كان

---

(١) ص: ٥.

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٧/ ٢٠٧ - ٢٠٨)، وذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص١٦٦) عن السدى. وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٤٢) لابن أبى حاتم فى تفسيره.

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه. أخرجه البخارى (١٠/ ٤١٧/ رقم ٥٩٧٣) ومسلم (٢/ ١١٠/رقم ٩٠).

(٤) فى «ك»: بيد.

(٥) قرأ ابن كثير، ويعقوب، وأبو عمرو، وخلف بكسرها، وقرأ الباقون بفتحها، واختلف على أبى بكر فيها. انظر النشر (٢/ ٢٦١).

إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ

المؤمنون يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله - تعالى - حتى يريهم آية؛ كي يؤمنوا، فقال: وما يشعركم أنها لو جاءت آمنوا بها؟ ثم ابتدأ، وقال: إنها إذا جاءت لايؤمنون، وهذا فى قوم مخصوصين علم الله أنهم لايؤمنون.

وأما من قرأ «أنها» بفتح الهمزة؛ فاختلفوا فى معناه، قال الكسائى: لاصلة هاهنا وتقديره: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون، وقيل: «أنها» بمعنى: «لعلها» كما قال الشاعر:

أرينى جوادا مات هـزلا (فإننى)[1]   أرى ما [ترين][2] أو بخيلا مخلـدا

ومعناه: لعلى أرى ما ترينى، كذلك هذا، ومعناه: وما يشعركم لعلها إذا جاءت لايؤمنون، وقيل: فيه حذف، وتقديره: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو لايؤمنون.

قوله - تعالى -: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ أى: نقلب أفئدتهم كيلا يدركوا، وأبصارهم؛ كيلا يبصروا؛ فلا يؤمنون ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ نزلت الآية على ما اقترحوا من الآيات، فكانوا قد اقترحوا هذا كله، قالوا: لن نؤمن بك حتى تنزل علينا كتابا من السماء يحمله أربعون من الملائكة، وسألوا إحياء الموتى، وقالوا: ادع الله حتى يحشر قصيا - يعنون قصى بن كلاب - فإنه شيخ مبارك؛ حتى نشهد لك بالنبوة، فنزلت الآية ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا﴾ قال مجاهد: القبل: جمع القبيل، ومعناه: فوجا فوجا، وقال غيره: قبلا

(١) فى تفسير القرطبى (٧/ ٦٤): لأننى.

(٢) فى «الأصل»، «ك»: ترينى، وما أثبتناه من تفسير القرطبى.

وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ

أى: مقابلة، ويقرأ: «قِبَلاً» بكسر القاف وفتح الباء[١] أى: عيانا ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ وفى الآية دليل واضح على أهل القدر.

قوله - تعالى -: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا﴾ أى: أعداء، والعدو: اسم للواحد والجمع ﴿شياطين الإنس والجن﴾ وقرأ الأعمش: «شياطين الجن والإنس» والشيطان كل عات متمرد، سواء كان من الإنس أو من الجن، وروى أن النبى ﷺ قال لأبى ذر: «تعوّذ بالله من شياطين الإنس. قال أبو ذر: قلت: ومن الإنس شياطين؟ فقال - عليه السلام - نعم، وتلا هذه الآية»[٢].

وحكى عن مالك بن دينار أنه قال: خوفى من شيطان الإنس أكبر من خوفى من شيطان الجن؛ لأن الجنى يذهب إذا ذكرت الله، (والإنسى)[٣] يجرنى إلى المعاصى.

﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ أى: يلقى بعضهم إلى بعض.

﴿زخرف القول غرورا﴾ زخرف القول: هو قول مزين لامعنى تحته، والغرور: القول الباطل ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ أى: ما ألقت الشياطين الوسوسة فى القلوب. ﴿فذرهم وما يفترون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ وهذا يرجع إلى ما سبق من قوله: ﴿زينا لكل أمة عملهم﴾ ﴿لتصغى إليه﴾ والهاء كناية عن زخرف القول؛ يعنى: لتميل إليه قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة، وقيل: اللام فيه لام العاقبة، كما بيّنا.

(١) هى قراءة: نافع، وأبى جعفر، وابن عامر. انظر النشر (٢/ ٢٦٢).

(٢) تقدم تخريجه فى أواخر سورة النساء، وهو حديث عدد الأنبياء والمرسلين.

(٣) فى «ك»: والجنى. وهو خطأ.

أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن

﴿ وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون ﴾ قال الزجاج: أى: ليعملوا من الذنوب ما كانوا عاملين.

قوله - تعالى -: ﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾ لأنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ اجعل بيننا وبينك حكما؛ وأجابهم بقوله: أفغير الله ابتغى حكما؟!.

﴿ وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾ يعنى: خمسا خمسا، وعشرا عشرا وهذا مثل قوله - تعالى -: ﴿ وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾(١) أى: فصلناه؛ لنُثَبِّت به فؤادك.

﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ يعنى: القرآن ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ يعنى بالكلمة: أمره ونهيه، ووعده ووعيده، والأحكام والآيات. ﴿ صدقا وعدلا ﴾ صدقا فى الوعد والوعيد، وعدلا فى الأمر والنهى .

قال قتادة: صدقا فيما وعد، وعدلا فيما حكم ﴿ لامبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة، وقيل: أراد به: إن تطعهم فيما يجادلون من تحليل الميتة وأكلها ﴿ يضلوك عن سبيل الله ﴾ على ما سيأتى.

﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ أى: يكذبون.

قوله - تعالى -: ﴿ إن ربك هو أعلم من يضلُّ عن سبيله ﴾ قيل: هذا فى عمرو

(١) الفرقان: ٣٢.

سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ

ابن لحى، وهو أول من غير دين إبراهيم ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ أى: كلوا ما ذبح على اسم الله ﴿ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ وذلك أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين، ويقولون: إنكم تأكلون مما تقتلون، ولاتأكلون مما قتله الله، وكانوا يدعونهم إلى أكل الميتة واستحلالها؛ فنزلت هذه الآيات».

﴿وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم﴾ هو تفصيل ما عد من المحرمات: من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، ونحوه فى القرآن، وقرأ عطية: «وقد فَصَلَ لكم» مخففا؛ أى: ظهر لكم، وهو مثل ما يقرأ فى قوله: ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾[1] مخففا ﴿وقد فصل لكم ماحرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ قيل: ظاهر الإثم: هو الزنا علنا، وباطنه هو الزنا سرا، وكان أشراف العرب يتكرمون من الزنا علانية ويزنون سرا، (فالآية)[2] فى النهى عنهما جميعا، قال قتادة: أراد به: النهى عن كل المعاصى سرا وجهرا، وفى الآية سوى هذا أقوال ثلاثة:

أحدها: أن ظاهر الإثم هو: نكاح المحارم، وباطنه: الزنا.

والثانى: أن ظاهر الإثم: كشف العورة، وباطنه: الزنا.

والثالث: أن ظاهر الإثم: هو الذى تقترفه الجوارح، وباطنه الذى يعقد القلب

(١) هود: ٢.

(٢) فى «ك»: فى الآية.

﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ

عليه، كالمصر على الذنب القاصد له.

﴿ إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ أى: جزاء ماكانوا يقترفون، والإقتراف: اكتساب الذنب.

قوله ﴿ ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ قال ابن عباس: الآية فى الميتات، ومافى معناها من المنخنقة وغيرها، وقال عطاء: الآية فى الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الأصنام لا على اسم الله - تعالى -.

وفيه قول ثالث: أن الآية: فى متروك التسمية كما يقتضيه الظاهر، ثم اختلف العلماء فى متروك التسمية، قال الشعبى، وابن سيرين: لاتحل، سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا، وقال عطاء، وسعيد بن جبير: إن ترك التسمية عامدا لاتحل، وإن تركها ناسيا تحل، والأول قول مالك، والصحيح أن الآية فى الميتات؛ لأنه قال: ﴿ وإنه لفسق ﴾ وإنما يفسق بأكل الميتة.

وقال: ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ ومجادلتهم كانت فى أكل الميتة؛ فإنهم كانوا يقولون: إنكم تأكلون مما قتلتموه، ولا تأكلون مما قتله الله - تعالى - فنزلت الآية.

﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ يعنى: باستحلال الميتة، قال الزجاج: فى هذا دليل على أن استحلال الحرام، وتحريم الحلال يوجب الكفر، وفى الآثار: «أن ابن عباس سئل، فقيل له: إن المختار بن أبى عبيد يزعم أنه يوحى إليه، فقال ابن عباس: صدق؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾.

وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: «يخرج من ثقيف رجلان: كذاب، ومبير مهلك»[1]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦/ ١٥٠/رقم ٢٥٤٥)، والحميدى فى مسنده (١/ ١٥٦ - ١٥٧/ رقم ٣٢٦)، وأحمد فى مسنده (٦/ ٣٥٢)، والبيهقى فى الدلائل (٦/ ٤٨١، ٤٨٢)، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٣٢٤) كلهم من حديث أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها.
ورواه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٦)، والترمذى (٤/ ٤٣٢ - ٤٣٣/ رقم ٢٢٢٠)، (٥/ ٦٨٦/رقم ٣٩٤٥) والبيهقى فى الدلائل (٦/ ٤٨٢) من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما -.

وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا

فالكذاب: هو المختار، و المبير: هو الحجاج.

قوله - تعالى -: ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ قال مجاهد: معناه: من كان ضالا فهديناه ﴿ وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ﴾ أى: نور الإسلام، يعيش به بين المسلمين ﴿ كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ المثل صلة هاهنا، وتقديره: كمن هو فى ظلمات، أى: فى ظلمات الشرك لايخرج منها أبدا، قال الضحاك: هذا فى عمر وأبى جهل، وقال ابن عباس: فى عمار بن ياسر وأبى جهل، وقيل: هو فى حمزة وأبى جهل.

وفى الآية قول آخر: أن معناه: أو من كان ميتا بالجهل؛ فأحييناه بالعلم، وكل جاهل ميت، وكل عالم حى، قال الشاعر:

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت ... وليس له قبل النشور نشور

﴿ كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ﴾ تقديره: جعلنا فى كل قرية مجرميها أكابر، ومعناه: إنا كما جعلنا مجرمى مكة أكابر، فكذلك جعلنا فى كل قرية مجرميها أكابر، وهذه سنة الله فى كل قرية، ومن سننه: أنه جعل ضعفاءهم أتباع الأنبياء، كما قال فى قصة نوح: ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾[1] وروى: «أن هرقل سأل أبا سفيان بن حرب - حين قدم عليه - عن حال النبى ﷺ، فكان فيما سأله عنه أنه قال: من أتباعه ضعفاؤهم أم العلية؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم؛ فقال هرقل: هم أتباع الأنبياء»[2] و فى الخبر قصة، وهو فى الصحيح.

(١) الشعراء: ١١١.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس، أخرجه البخارى فى صحيحه (١ / ٤٢ - ٤٤ /رقم ٧) وانظر أطرافه هناك. ومسلم فى صحيحه (١٢ /١٤٧ - ١٥٧ / رقم ١٧٧٣).

فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ

﴿ليمكروا فيها﴾ وكان من مكر أهل مكة أنهم جعلوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر؛ حتى يقولوا لكل من يقدم: [إياك][(1)] وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذاب ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ أى: وباله يرجع إليهم ﴿وما يشعرون﴾.

قوله تعالى: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله﴾ أى: لانؤمن حتى يوحى إلينا كما يوحى إليه، وينزل علينا جبريل كما ينزل عليه، حتى روى أن الوليد بن المغيرة قال: إن كان الله يريد أن يبعث نبيا فأنا أولى بالنبوة؛ لأنى أكثر مالا، وأقدم سنا، وكذا كان يقول أكابرهم ورؤساؤهم؛ فنزلت الآية.

قوله - تعالى -: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ يعنى: الله أعلم من أهل النبوة، وأن محمدا أهل الرسالة، ولستم بأهل الرسالة.

﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ فيه معنيان:

أحدهما: قال الفراء: معناه: صغار من عند الله، و «من» محذوف.

قال البصريون: «من» لاتحذف ومعناه: صغار ثابت دائم عند الله ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

أى: يفتح قلبه حتى يدخل الإسلام ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾.

ويقرأ: حرجا - بفتح الراء -[(2)] يعنى: ذا حرج، وأما بالكسر فللمبالغة فى الضيق، وعن عمر أنه قال: سألت أعرابيا: ما الحرجة عندكم؟ فقال: شجرة ملتفة لاتصل إليها راعية ولاسائمة، فعلى هذا معنى الآية.

(1) فى «الأصل»: إياه.

(2) قرأ نافع، وأبو جعفر، وأبو بكر، بكسر الراء، وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (2 / 262).

لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا

﴿ يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ بحيث لايصل إليه الإيمان، ولايدخله الإسلام ﴿ كأنما يصعد فى السماء ﴾ يقرأ على وجوه: « يصَّعَّد » بتشديدين، ومعناه يتصعد، وكذا يقرأ فى الشواذ، وقرئ: « يَصَّاعَد » بتشديد الصاد بمعنى يتصاعد، وقرئ: « يَصْعَد مخففا من الصعود[١]، ومعنى الكل واحد.

وفى معناه قولان: أحدهما: أن معناه: كأنما يكلف الصعود فلا يستطيعه، وأصل الصعود: المشقة، وهو قوله – تعالى – ﴿ سأرهقه صعودا ﴾[٢] أى: عقبة شاقة، ومنه قول عمر – رضى الله عنه – : ما تصعدنى شيء كما تصعدتنى خطبة النكاح، أى: ماشق عليّ شيء كما (شقت)[٣] عليّ خطبة النكاح.

والقول الثانى: معنى قوله: ﴿ كأنما يصعد فى السماء ﴾ نَبْوَة[٤] من الحكمة، وفرارا من القرآن.

﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾ الرجس: هو النتن، والرجز: العذاب، وفى الخبر: «أن النبى ﷺ كان إذا دخل الخلاء يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الرجس النجس الخبيث المخبث من الشيطان الرجيم»[٥] وقيل: اللعنة فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة.

قوله – تعالى –: ﴿ وهذا صراط ربك مستقيما ﴾ يعنى: الإسلام ﴿ قد فصلنا الآيات

---

(١) انظر المصدر السابق.
(٢) المدثر: ١٧.
(٣) فى «ك»: شق.
(٤) النَّبْوَة: الجفوة، انظر لسان العرب (مادة: نبا).
(٥) روى من حديث ابن عمر، وأنس، وعلى وبريدة، فأما حديث ابن عمر فقد رواه ابن السنى فى اليوم والليلة (ص ١٩) والطبرانى فى الدعاء (٢/٩٦٥/رقم ٣٦٧). وضعف الحافظ بن حجر إسناده فى نتائج الأفكار (١/١٩٨).

وأما حديث أنس، فقد رواه ابن السنى أيضاً (ص ١٧)، والطبرانى فى الدعاء (٢/٩٦٤/ رقم ٣٦٥) وقال الحافظ فى نتائج الأفكار (١/١٩٩) مداره على إسماعيل بن مسلم المكى وهو ضعيف.

وأما حديث على وبريدة فقد أخرجه ابن عدى فى الكامل (٢/٣٨٧) فيما استنكره على حفص بن عمر الفرخ. وقد تقدم تخريجه فى سورة المائدة.

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ

لقوم يذكرون ﴾.

﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾ السلام: هو الله – تعالى – ودار السلام الجنة، قال الزجاج: أراد بالسلام: السلامة، أى: لهم دار السلامة من الآفات.

﴿ وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ أما حشر الجن والإنس: حق يجب الإيمان به ﴿ يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ يعنى: استكثرتم من الإنس بالإغواء والإضلال ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ﴾ يعنى: الكفار وأولياء الشياطين يقولون يوم القيامة: ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ يعنى: استمتع الجن بالإنس، والإنس بالجن، قيل: استمتاع الجن بالإنس: تزيينهم لهم، وتسهيلهم طريق الغواية عليهم.

وأما [استمتاع][1] الإنس بالجن: طاعتهم، والجملة أن استمتاع الجن: بالأمر واستمتاع الإنس: بالقبول، وقيل: معناه: أن الرجل من العرب كان إذا نزل بوادٍ يقول: أعوذ بسيّد هذا الوادى من سفهاء قومه، ثم يبيت آمنا من تخبيل الجن، وهذا استمتاع الإنس بالجن، وأما استمتاع الجن بالإنس: أن ذلك الجنى الذى تعوذ به الإنسى يقول لقومه: إن الإنس يتعوذون بنا؛ (فنحن سادات الجن والإنس)[2]، وهذا مبين فى قوله – تعالى – فى سورة الجن ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾[3] أى: نخوة وتكبرا.

﴿ وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ﴾ يعنى: أجل القيامة.

﴿ قال النار مثواكم ﴾ يعنى: يقول الله: النار مثواكم ﴿ خالدين فيها إلا ما شاء

(١) فى «الأصل» و «ك»: الاستمتاع.
(٢) تكررت فى «ك».
(٣) الجن: ٦.

فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ

الله ﴾ فإن قال قائل: أليس أن الكافرين خالدون فى النار بأجمعهم، فما هذا الاستثناء؟

الجو اب: قال الفراء: هو مثل قوله: ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾(١) يعنى: من الزيادة على مدة دوام السموات والأرض؛ فهذا هو المراد بهذه الآية أيضا، وقيل: الاستثناء فى العذاب يعنى: خالدين فى نوع من العذاب إلا ما شاء الله من سائر العذاب.

وقيل: هو استثناء مدة البعث والحساب، لايعذبون فى وقت البعث والحساب ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا ﴾ يعنى: يجعل بعضهم على إثر بعض فى القيامة إلى النار. وقيل: هذا فى الدنيا، ومعناه: نأخذ من الظالم بالظالم، وذلك بتسليط بعضهم على البعض ﴿ بما كانوا [يكسبون](٢) ﴾ أى: جزاء بما كانوا يعملون.

قوله – تعالى –: ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ فإن قال قائل: ومن الجن رسل، كما يكون من الإنس؟

الجواب: قال الضحاك: بلى من الثقلين رسل، كما نطق به الكتاب. وقال مجاهد: الرسل من الإنس، وأما الجن فمنهم النذر، كما قال الله – تعالى –: ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾(٣) فعلى هذا للآية معنيان: أحدهما أن قوله: ﴿ رسل منكم ﴾ ينصرف إلى أحد الصنفين، وهو الإنس، ومثله قوله – تعالى –: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾(٤) والمراد: أحد البحرين، المالح دون العذب.

---

(١) هود: ١٠٧، ١٠٨.
(٢) فى «الأصل» و «ك»: يعملون.
(٣) الأحقاف: ٢٩.
(٤) الرحمن: ٢٢.

آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا

والثانى: أن الرسل من الصنفين، إلا أنه عبّر بالرسل عن النذر من الجن بطريق المعنى؛ لأن النذير فى معنى الرسول.

﴿ يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ وذلك حين تنطق جوارحهم ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ هذا من قول الله - تعالى - اعترض فى - البين - ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ يعنى: ذلك من إرسال الرسل وإنزال الكتب؛ إنما كان لأن الله - تعالى - لايهلك قرية قبل بعث الرسول إليها، وإنذارها بالوحى؛ وذلك لأن الله - تعالى - أجرى سنته: أن لايأخذ أحدا بالذنب إلا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنبا إذا أُمِر فلم يأتمر، ونهى فلم ينته، ودُعى فلم يجب.

قوله - تعالى -: ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أى: درجات فى الجزاء مما عملوا ﴿ وما ربك بغافل ﴾ - أى: بساه - ﴿ عما يعملون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾ يعنى: إن يشأ يهلككم، ويستخلف [من][1] بعدكم من يشاء ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ بأن (أهلكهم)[2] وأنشأكم من بعدهم ﴿ إن ما توعدون لآت ﴾ أى: كل موعود كائن ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى: فائتين عنه.

(قوله تعالى)[3]: ﴿ قل ياقوم اعملوا على مكانتكم ﴾ يعنى: على تمكنكم،

---

(١) من «ك».

(٢) فى «ك»: أهلككم. وهو خطأ.

(٣) ليست فى «ك».

قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ

وقيل: على ما أنتم عليه، وهذا أمر تهديد، كقوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[1] فكذلك قوله ﴿اعملوا على مكانتكم إنى عامل﴾.

﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أى: من يكون له الأمر فى العاقبة ﴿إنه لايفلح الظالمون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا﴾ وكانوا يُقَسِّمون الحرث، فيجعلون لله نصيبا، وللأصنام نصيبا، ويُقَسِّمون الأنعام، فيجعلون لله نصيبا، وللأصنام نصيبا، ثم ما جعلوا لله، صرفوه للفقراء والمساكين، وماجعلوا للأصنام أنفقوه على الأصنام، وعلى خدم الأصنام؛ فهذا معنى قوله: ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ فأما قوله: ﴿فما كان لشركائهم فلايصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ معنى هذا: أنهم كانوا إذا قسموا الحرث والأنعام كما وصفنا، فإذا سقط مما جعلوا لله من الحرث شيء فيما جعلوه للأصنام تركوه، وإذا سقط شيء من نصيب الأصنام، فيما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وكان إذا هلك أو انتقص مما جعلوا لله من الأنعام شيء؛ لم يبالوا به، وكان إذا هلك أو انتقص من نصيب الأصنام، جبروه مما جعلوه لله، وقالوا: الله غنى،والصنم محتاج، وكانوا إذا أجدبوا وقحطوا؛ أكلوا مما جعلوه لله، ولم يأكلوا من نصيب الأصنام.

وقوله: ﴿ساء ما يحكمون﴾ أى: لم يأتهم فيه وحى، ولايقتضيه عقل؛ فإن القياس يقتضى التسوية – على زعمهم – بين الشريكين، لا ما حكموا به.

قوله – تعالى –: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ يعنى: كما زين هذا لأولئك القوم، فقد زين لكثير من المشركين قتل أولادهم

(١) فصلت: ٤٠.

شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن

شركاؤهم من وأد البنات على ما سنبين ﴿ليردوهم﴾ ليهلكوهم. ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ أى: ليخلطوا عليهم دينهم؛ إذ كانوا على بقية من ملة إبراهيم فَلَبسُّوا عليهم دينهم بما ليس منه ﴿ولو شاء (الله)[1] ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر﴾ أى: حرام ﴿لا (يطعمها) إلا من نشاء بزعمهم﴾ ثم بين (تحريمهم)[2]؛ فقال ﴿لايطعمها إلا من نشاء﴾ يعنى: من خدم الأصنام، وقيل: هو تحريم البحيرة والسائبة على الإناث، ولا يطعمها إلا الذكور.

﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ هى الحوامى التى ذكرنا فى المائدة، كانوا يقولون: حمت ظهرها ﴿وأنعام لايذكرون اسم الله عليها﴾ قيل: ذبائح كانوا يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله - تعالى - وقيل معناه: أنهم لايركبون عليها لفعل الخير. قال أبو وائل شقيق بن سلمة: معناه: أنهم لايحجون عليها ولايركبونها لفعل الحج، إلا أنه جرت العادة بذكر اسم الله على فعل الخير، فعبّر بذكر اسم الله عن فعل الخير؛ فقال: ﴿وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه﴾ يعنى: افتراء على الله ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ أى: جزاء ماكانوا (يكذبون)[3].

قوله - تعالى -: ﴿وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ يعنى: الأجنة حلال لذكورنا، وقرأ الأعمش: «خالص لذكورنا» قال الكسائى: خالص وخالصة واحد، كما يقال: وعظ وموعظة، وله نظائر ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أى: على نسائنا أرادوا به ما سبق ذكره من أولاد البحيرة والوصيلة.

﴿وإن يكن ميتة﴾ يعنى: وإن يكن ما فى البطن ميتة ﴿فهم فيه شركاء﴾ يعنى:

(١) فى «ك»: ربك.
(٢) فى «ك»: تحريمها.
(٣) فى «ك»: يفترون.

مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ

الذكور والإناث، ويقرأ «وإن تكن ميتة»[1] ﴿فهم فيه شركاء﴾ ﴿سيجزيهم وصفهم﴾. أي: جزاء كذبهم ﴿إنه حكيم عليم﴾.

﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ أى: هلك وغبن الذين قتلوا أولادهم وذلك من وأد البنات، وكانوا فى الجاهلية يدفنون البنات حيّة، حتى كان الرجل منهم يقتل ولده، ويربى كلبه. وكان البعض يفعل ذلك دون البعض، وقيل: كان ذلك فى قبيلتين: ربيعة، ومضر، كانا يدفنان البنات وهن حيات، فأما بنو كنانة وسائرهم ماكانوا يفعلون ذلك.

﴿سفها بغير علم﴾ أى: جهلا لا عن بصيرة ﴿وحرّموا مارزقهم الله﴾ (وهو)[2] ما ذكرنا من تحريم أولاد البحيرة، والوصيلة ونحو ذلك (من)[3] الحوامى، حرموها تدينا ﴿افتراء على الله﴾ لأنهم كانوا يدعونه دينا من الله – تعالى – وقد كذبوا فى ذلك عليه ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وهو الذى أنشأ جنات﴾ الجنات: البساتين ﴿معروشات﴾ أى: ذات عروش، والعرش: السقف، والكروم ذات سقوف ﴿وغير معروشات﴾ ومنها ما لا سقف له، وكذلك سائر الأشجار ﴿والنخل والزرع مختلفا أكله﴾ أى: ثمره.

﴿والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه﴾ أى: متشابها فى [المنظر][4]، يشبه أحدهما الآخر فى الورق، وغير متشابه فى الثمر والطعم، وقد بينا هذا، وقيل: هو

(١) وهى قراءة ابن عامر، وأبى جعفر. انظر النشر (٢/٢٦٥).

(٢) فى «ك»: على.

(٣) فى «ك»: و.

(٤) فى «الأصل» و «ك»: النظر.

يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا

راجع إلى ما سبق ذكره من الكرم، والنخل، والأشجار، فإن بعضها يشبه بعضا فى الورق والثمر والطعم،ومنها ما يخالف بعضه بعضا.

﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ هذا أمر إباحة ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ والقِطاف، ويقرأ: «حِصاده» بكسر الحاء[١]، قيل: الحَصاد والحِصاد واحد، كالجَزاء والجِزاء، والقَطاف والقِطاف، ثم اختلف العلماء فى هذا الحق ماهو؟ قال ابن عمر، وأبو الدرداء -وهو قول عطاء ومجاهد -: إن هذا الحق كان حقا فى المال سوى العشر المفروض، وأمر بإتيانه.

قال ابن عباس، وأنس - وهو قول الحسن فى إحدى الروايتين عنه -: إنه أراد به إيتاء العشر المفروض، وعن الحسن - فى رواية أخرى وهو قول النخعى، وسعيد بن جبير -: أن هذا حق كان يؤمر بإتيانه فى ابتداء الإسلام، ثم صار منسوخا بإيجاب العشر، والقول الأول أولى؛ لأن الآية مكية، والزكاة فرضت من بعد بالمدينة، فحمله على حق سوى الزكاة أولى[٢].

﴿ ولاتسرفوا﴾ أى: لاتنفقوا الأموال فى معصية الله، وكل من أنفق فى معصية فهو مسرف، وقيل: هو إعطاء الكل، وذلك أن يعمد الرجل إلى جميع زرعه ونخله فيعطى الكل، ويترك عياله عالة. وروى: «أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة كانت له، فأعطى الكل؛ فنزلت الآية ﴿ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشا﴾ أى: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا، قال مجاهد: الحمولة: الإبل الكبار التى يحمل عليها، والفرش: الصغار، وقال الضحاك: الحمولة: الإبل والبقر، والفرش: [الغنم][٣]، قال الشاعر:

---

(١) قرأ ابن عامر، ويعقوب، وأبو عمرو، وعاصم: بفتح الحاء، وقرأ الباقون بكسرها - انظر النشر (٢ / ٢٦٦).

(٢) وفى هذا الترجيح نظر، فتأمل.!

(٣) فى «الأصل، وك» : والغنم.

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ

أَوْرَثَني حَمُولةً وفرشًا ... أمسُّها في كلِّ يومٍ مسّا

أي: أمسحها في كل يوم ﴿كلوا مما رزقكم الله ولاتتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: آثار الشيطان، وخطاياه، وهو تخطيه من الحلال إلى الحرام ﴿إنه لكم عدو مبين﴾.

﴿ثمانية أزواج﴾ إنما نصب ثمانية؛ لأن قوله ﴿ثمانية﴾ بدل عن قوله: ﴿حمولة وفرشا﴾، وقوله: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾.

هذا في الحقيقة أربعة أزواج، كل زوج اثنان، لأن العرب تسمي الواحد زوجا إذا كان لاينفك عن غيره، قال الله - تعالى -: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾[1].

﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ هذا في تحريمهم الوصيلة والبحيرة ونحوها، والآية في الاحتجاج عليهم، ومعنى هذا: أن الذي تدعون على الله من تحريمها إن كان بسبب الذكورة، فينبغي أن تحرم كل الذكور، وإن كان التحريم بسبب الأنوثة؛ فينبغي أن تحرم كل الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم كل ما اشتملت عليه الرحم، فأما تخصيص التحريم بالولد السابع والخامس فمن أين؟! ﴿نبؤني بعلم﴾ أخبروني بعلم (إن كان لكم به علم)[2] ﴿إن كنتم صادقين﴾.

﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ هذا في تحريمهم أولاد البحيرة من البطن الخامس، كما سبق، ووجه الاحتجاج عليهم ما بينا.

---

(١) الذاريات: ٤٩.

(٢) ليست في «ك».

بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ

﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ فمعناه: أنكم قلتم ذلك عن علم لكم؟ فأخبرونى به! أم نزل [عليكم][(١)] به وحى؟ أم أمركم الله به عيانا؟

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ فبين الله يعنى: أنهم كاذبون به ﴿إن الله لايهدى القوم الظالمين﴾.

وفى الخبر: «أن عوف بن مالك الأشجعى جاء، وقال: يا محمد، أبحت ما حرمنا! وحرمت ماأبحنا – يعنى: الميتة – فقرأ عليه هذه الآيات؛ فعرف الحجة، وسكت عنه».

قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فى ما أوحى إلىّ محرما﴾ سبب هذا أنهم قالوا: فما المحرم إذا؟ فنزل قوله: قل يامحمد: لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما ﴿على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير﴾.

واختلف العلماء فى هذا؛ فذهبت عائشة، وابن عباس إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء، وبه قال مالك، وقالوا: قوله: ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ دخل فيه المنخنقة والموقوذة،وما عدّ فى سورة المائدة، ومالك يعد ما سواها مكروها ولايعده حراما، وجمهور العلماء على أن التحريم [يعدو][(٢)] هذه الأشياء؛ إلا أن البعض ثبت بالكتاب، والبعض بالسنة، والكل حرام. وقد ثبت: «أنه ﷺ نهى عن كل ذى ناب من السباع و[عن][(٣)] كل ذى مخلب من الطير»[(٤)] ﴿فإنه رجس﴾ أى: نتن ﴿أو فسقا أهل لغير الله به﴾ وهو المذبوح على اسم الصنم؛ سمى ذلك فسقا؛

---

(١) فى «الأصل»: عليه. وفى «ك»: علىّ.

(٢) فى «الأصل»: يعدوا. وفى «ك»: يعد.

(٣) من «ك».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه (٣/١٢٣ – ١٢٤/ رقم ١٩٣٤)، وأبو داود فى سننه (٣/٣٥٥ – ٣٥٦/ رقم ٣٨٠٥)، وأحمد فى مسنده (١/٢٤٤)، والطيالسى (ص٣٥٩/رقم٢٧٤٥) كلهم من حديث ابن عباس.

وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا

للخروج عن أمر الله – تعالى –.

﴿ فمن اضطر غير باغ ولاعاد فإن ربك غفور رحيم ﴾ وقد ذكرنا هذا.

قوله – تعالى –: ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ﴾ يعنى: حرمنا على اليهود كل ذى ظفر، قيل: هو البعير والنعامة، ويدخل فيه الأوز والبط.

﴿ ومن البقروالغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ﴾ أما تحريم الشحوم عليهم: كان ذلك عن الثروب وشحم الكليتين، وقد قال ﷺ «لعن الله اليهود حرّم عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا ثمنها»[(١)].

وقوله: ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ أى: شحم ما حملت ظهورهما لم يحرم عليهم ﴿ أو الحوايا ﴾ تقديره: والحوايا، أى: شحم المباعر ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ أى: وشحم ما اختلط بعظم، قيل: هو الإلية، وقيل: هو شحم الجنب، ثم اختلفوا، أن الكل هل يدخل فى الاستثناء؟ قال بعضهم: إنما يدخل فى الاستثناء شحم الظهور فحسب، فأما قوله: ﴿ أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ﴾ راجع إلى التحريم، والصحيح: أن الكل يدخل فى الاستثناء، وهو ظاهرالآية. ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ أى: [بظلمهم][(٢)] ﴿ وإنا لصادقون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ فإن قيل: ما معنى هذا، وإنما يليق بتكذيبهم وعيد العذاب لا وعد الرحمة؟ قال ثعلب: هو الرحمة

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب، وجابر بن عبد الله فأما حديث عمر، فقد أخرجه البخارى (٤/ ٤٨٣/ رقم ٢٢٢٣) ومسلم (١١/ ١٠/ رقم ١٥٨٢).

وأما حديث جابر، فقد رواه البخارى (٤/ ٤٩٥/ رقم ٢٢٣٦) ومسلم (١١/ ٨ – ٩/ رقم ١٥٨١).

(٢) فى «الأصل»: ظلمهم.

يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بتأخيرالعذاب عنهم، لابترك أصل العذاب، وهذا حسن، بدليل قوله: ﴿ولايرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ يعنى: فى القيامة، إذا [جاء][1] وقته؛ فسئل ثعلب: أليس أن الله - تعالى - قد عذب الكفار فى الدنيا؟ فقال: هذا فى الكفار من قوم نبينا محمد ﷺ لم يعذبهم الله؛ ببركته فيهم، كما قال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾[2] ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[3].

قوله - تعالى -: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ استدل أهل القدر بهذه الآية؛ فإنهم لما قالوا: لو شاء الله ما أشركنا؛ كذبهم الله - تعالى - ورد قولهم فقال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ قيل: معنى الآية: أنهم كانوا يقولون الحق إلا أنهم كانوا (يعدون)[4] ذلك عذرا لهم، ويجعلونه حجة لأنفسهم فى ترك الإيمان، فالرد عليهم كان فى هذا بدليل قوله - تعالى - بعده: ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ أى: الحجة بالأمر والنهى باقية له عليهم، وإن شاء أن يشركوا.

﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولو لم يحمل على هذا؛ لكان هذا مناقضة للأول، وقيل: إنهم كانوا يقولون: إن الله أمرنا بالشرك، كما قال فى الأعراف: ﴿وإذا فعلوا

(١) ليست فى «الأصل»، ولا «ك».

(٢) الأنفال: ٣٣.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) فى «ك»: يقدرون.

فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾[1] وكأن قوله: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ أى: هو الذى أمرنا بالشرك؛ فالرد فى هذا لا فى حصول الشرك بمشيئته، فإنه حق وصدق، وبه يقول أهل السنة.

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ أى: من كتاب، فتخرجوه لنا حتى يظهر ما تدعون على الله (من أمره بالشرك)[2] ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ يعنى: أنكم تقولون ما تقولون ظنا لا عن بصيرة ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ أى: تكذبون ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ قل هلم شهداءكم ﴾ أى: ائتوا بشهدائكم ﴿ الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ هذا راجع إلى ما تقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم بغير أمر الله، وادعوا أنه من أمر الله.

﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ يعنى: فإن شهدوا كاذبين، فلا تشهد معهم ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾ أى: يشركون.

قوله – تعالى –: ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ﴾ لأنهم سألوه أيش الذى حرم الله – تعالى – ؟ فنزل قوله – تعالى –: ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فإن قال قائل: الله – تعالى – ما حرم ترك الشرك بل أمر به، فما معنى قوله: ﴿ ألا تشركوا به شيئا ﴾؟ .

فيه جوابان: أحدهما: أن قوله «لا» صلة، وتقديره: أن تشركوا؛ فعلى هذا استقام الكلام.

والثانى: أن قوله: ﴿ [تعالوا][1] أتل ما حرم ربكم ﴾ كلام تام. (ثم)[2] قوله:

(١) الأعراف: ٢٨.

(٢) ليست فى «ك».

شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

﴿ عليكم ألا تشركوا ﴾ ابتداء كلام. وإذا قدّر هكذا استقام الكلام أيضا، ثم قوله ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى: وأحسنوا بالوالدين إحسانا.

﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ قال المؤرج: الإملاق: الجوع بلغة حمير، والمعروف فى اللغة أن الإملاق: الفقر ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ أى: رزق الكل علينا؛ فلا تقتلوهم خوف الجوع والفقر.

﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ هذا نهى عن أنواع الزنا سرا وعلنا، وكانت الزوانى فى الجاهلية على نحوين: كانت لبعضهم رايات على الأبواب، علما لمن أراد الزنا؛ كنّ يزنين علنا، وأخريات كن يزنين سرا. فهذا المراد بالفواحش ماظهر منها وما بطن.

﴿ ولاتقتلواالنفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ نهى عن القتل بالظلم، وأباح القتل بالحق، وهو مفسر فى قول النبى ﷺ: «لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس»[٣] ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ قد سبق الكلام على قربان مال اليتيم فى سورة النساء. ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ قال السدى: أشده ثلاثون سنة. وقال غيره: أوان الحلم. وقيل: هو استكمال القوة، وسيأتى شرحه فى موضع بعده.

﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ أى: بالعدل ﴿ لانكلف نفسا إلا وسعها ﴾ أى:

(١) فى «ك»: تعالى.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) تقدم تخريجه فى سورة المائدة.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

طاقتها ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ أى: فاصدقوا، ولو كان على القريب ﴿ وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ﴾ يقرأ: وأنَّ - بالتشديد - فيكون راجعا إلى قوله: ﴿ أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ يعنى: وأتل عليكم: أنّ هذا صراطى، ويقرأ: وأنْ - بالتخفيف - فيكون صلة[1]، وتقديره هذا صراطى مستقيما.

﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ بمعنى: سائر الملل سوى ملة الإسلام وقيل: هو الأهواء والبدع ﴿ فتفرق بكم عن سبيله ﴾ أى: فَتُفَرِّق بكم عن سبيله.

﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وقد صح برواية ابن مسعود عن النبى ﷺ: «أنه خط خطا، وخط حواليه خطوطا، ثم أشار إلى الخط الأوسط؛ فقال: وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه، ثم أشار إلى الخطوط حوله؛ فقال: لاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»[2].

قوله - تعالى -: ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ فإن قيل: كيف قال: ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ بعد ذكر محمد ﷺ، وموسى أوتى الكتاب قبله، وكلمة «ثم»

---

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها، إلا أن يعقوب ابن عامر خففا النون، وقرأ الباقون بالتشديد. انظر النشر (٢/٢٦٦).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (١/٤٣٥، ٤٦٥)، والنسائى فى الكبرى (٦/٣٤٣/ رقم ١١١٧٤، ١١١٧٥) والطبرى فى التفسير (٨/٦٥)، وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (١/١٨١/ رقم ٧) والحاكم (٢/٣١٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٥): رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة، وهو ثقة وفيه ضعف. وزاد السيوطى فى عزوه فى الدر (٣/٦١) لكل من ابن أبى حاتم، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وعبد بن حميد، وابن مردويه.

وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن

للتعقيب؟ قيل: معناه: ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب.

﴿ تماما على الذى أحسن ﴾ قيل: أراد بالذى أحسن: موسى، ومعناه: أنه كما أحسن بطاعة ربه واتباع أمره؛ أتممنا عليه النعمة والإحسان بإعطائه التوراة.

وقال الحسن: معناه تماما على المحسنين من قومه، وكان منهم محسن ومسيء، وهذا معنى قراءة ابن مسعود: تماما على الذين أحسنوا، وقرأ يحيى بن يعمر: «على الذى أحسنُ» أحسن، برفع النون، أى: على الذى هو أحسن.

﴿ وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة ﴾ هذا فى وصف التوراة ﴿ لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وهذا كتاب ﴾ ثم وصف القرآن ﴿ أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ وقد بينا معنى المبارك ﴿ واتقوا لعلكم ترحمون ﴾.

﴿ أن تقولوا ﴾ أى: كراهة أن تقولوا، على قول الكوفيين، وأما على قول البصريين: تقديره: أن لاتقولوا: ﴿ إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ يعنى: اليهود والنصارى ﴿ وإن كنا ﴾ أى: وقد كنا ﴿ عن دراستهم لغافلين ﴾ ومعنى الآية: أنا إنما أنزلنا عليكم القرآن؛ لئلا تقولوا: إن الكتاب أنزل على من قبلنا بلغتهم ولسانهم فلم نعرف ما فيه، وغفلنا عن دراسته؛ فتمهدون بذلك عذرا لأنفسكم، وحجة على الله ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾.

وقد كان جماعة من الكفار، قالوا ذلك: لو أنزل علينا مأأنزل على اليهود والنصارى كنا خيرا منهم وأهدى، يقول الله - تعالى -: ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ يعنى: قد جاءكم القرآن؛ فكذبتم به، ثم قال: ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ أى: أعرض عنها ﴿ سنجزى الذين يصدفون ﴾

رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا

أى: يعرضون ﴿عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ قوله - تعالى -: ﴿[هل ينظرون](١)﴾ أى: بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن. ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ قيل: بالعذاب، وقيل: بقبض الأرواح ﴿أو يأتى ربك﴾ يعنى: فى القيامة، كما قال فى سورة البقرة: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام﴾(٢) وقد بينا هنالك ﴿أو يأتى بعض آيات ربك﴾ أجمع المفسرون على أنه أراد به طلوع الشمس من مغربها، إلا فى رواية: شاذة عن معاذ بن جبل أنه: خروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج. وقد ثبت برواية ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال فيه: «هى طلوع الشمس من مغربها»(٣) وكذلك رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا بلفظه(٤).

وقال ابن مسعود: إن الشمس والقمر يطلعان يومئذ أسودين، وروى صفوان بن عسال المرادى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن للتوبة بابا قِبَلَ المغرب، عرضه سبعون ذراعا؛ فهو مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها، ثم يغلق فلا تقبل التوبة بعده»(١) فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يوم يأتى بعض آيات ربك﴾. ﴿لاينفع نفسا

(١) سقط من «الأصل»، و«ك».

(٢) البقرة: ٢١٠.

(٣) لم أجده مرفوعاً. وأخرجه الطبرى (٨/ ٧٤، ٧٥) والطبرانى فى الكبير (٩/ ٢٠٩/ رقم٩٠١٩، ٩٠٢٠) عن ابن مسعود موقوفاً. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٥): رواه الطبرانى من طريقين أحدهما هذه، وفيها عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم، وهو ضعيف، والآخر مختصرة، ورجالها ثقات.
وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٦٣) لابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وسعيد بن منصور.

(٤) رواه الترمذى فى جامعه (٥/ ٢٤٧/ رقم ٣٠٧١) وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه، أحمد فى مسنده (٣/ ٣١) والطبرى فى التفسير (٨/ ٧١)، وأبو يعلى فى مسنده (٢/ ٥٠٥/ رقم ١٣٥٣).

إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ﴾ أى: لايقبل توبة كافر بالإيمان، ولاتوبة فاسق بالرجوع عن الفسق ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ﴾.

وروى أبو أمامة الباهلى صدى بن عجلان، عن النبى ﷺ قال: «هم الخوارج»(٢) قال مجاهد: هم أهل الأهواء والبدع، وقيل: هم أهل سائر الملل من اليهود، والنصارى، والمجوس، ونحوهم، وعن ابن مسعود أنه قال: «أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»(٣) ويروى هذا مرفوعا(٤)، وقوله: ﴿ لست منهم فى شىء ﴾ أى: ليسوا منك، ولست منهم ﴿ إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لايظلمون ﴾ وهذا فضل من الله – تعالى – حيث يجازى الحسنة بعشر

(١) رواه الترمذى فى جامعه (٥/٥١٠ – ٥١١/رقم ٣٥٣٦) وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى (٦/٣٤٤/ رقم ١١١٧٨)، وابن ماجة فى سننه (٢/١٣٥٣/ رقم ٤٠٧٠)، وأحمد (٤/٢٣٩، ٢٤١) والطيالسى (ص١٦٠ – ١٦١/رقم ١١٦٨) والطبرى فى التفسير (٨/٧٢)، وابن خزيمة فى صحيحه (١/٩٧/ رقم ١٩٣)، وابن حبان فى صحيحه – كما فى الإحسان – (٤/١٤٩ – ١٥١/ رقم ١٣٢٠). وعزاه السيوطى فى الدر (٣/٦٤) لكل من: عبد بن حميد، سعيد بن منصور، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى، والطبرانى.

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٣/٦٩) لكل من: ابن أبى حاتم، والنحاس، وابن مردويه به، وقال ابن كثير فى تفسيره (٢/١٩٦): ولا يصح.

(٣) رواه بنحوه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٨/١٦٢ – ١٦٣)، وهناد فى زهده (٤٩٧)، وأبو نعيم فى الحلية (١/١٣٨ – ١٣٩)، وانظر تعليقنا عليه فى زهد أبى داود السجستانى (ص١٦٢/ رقم١٧٠).

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦/٢١٩ – ٢٢٣/ رقم ٨٦٧) ولفضيلة الشيخ الألبانى – حفظه الله – جزء يسير فى هذا الحديث، وهو حديث خطبة الحاجة.

إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ

أمثالها، والسيئة بمثلها، قال ابن عمر: هذا فى غير الصدقات من الحسنات، فأما الصدقات: تضاعف بسبعمائة ضعف، وقال أبو صالح: الحسنة: قول لا إله إلا الله، «وسئل رسول الله عن كلمة لا إله إلا الله أهى من الحسنات؟ فقال: هى أحسن الحسنات»(١).

قوله - تعالى -: ﴿قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما﴾ هو دين الإسلام أى: دينا مستقيما ﴿ملة إبراهيم﴾ نصب على الإغراء، أى: اتبع ملة إبراهيم ﴿حنيفا وما كان من المشركين﴾ ﴿قل إن صلاتى ونسكى﴾ أما الصلاة: معلومة، وأما النسك: العبادة، وقيل: أراد به: الذبيحة، وقوله: ﴿ومحياى ومماتى لله﴾ أى: طاعتى فى حياتى لله، وجزائى بعد مماتى من الله ﴿رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ يعنى: من هذه الأمة.

قوله - تعالى -: ﴿قل أغير الله أبغى ربا﴾ لأنهم كانوا يقولون له: ارجع إلى ديننا فإن خفت الله فنحن نكفل لك العذاب؛ قاله كفار قريش؛ فنزل: ﴿قل أغير الله أبغى ربًّا وهو رب كل شيء﴾ ﴿ولاتكسب كل نفس إلا عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى﴾ أى: ليس هذا بأمر تنفع فيه الكفالة، (ويقوم)(٢) أحد مقام أحد فيه. ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾ أى: يخلف بعضكم

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٥/ ١٦٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ٢١٧) من حديث أبى ذر. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٨٤): رواه أحمد، ورجاله ثقات، إلا أن شمر بن عطية حدث به عن أشياخه، عن أبى ذر، ولم يسم منهم أحدا.
ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٦/ ٥٥) من حديث أنس بنحوه.
قال ابن رجب فى جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٧): وخرج ابن عبد البر فى التمهيد بإسناد فيه نظر عن أنس .. فذكره.
(٢) فى «ك»: ويقدم.

الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

بعضا ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ يعنى: فى الدنيا بالفقر والغنى، والمرض والصحة، ونحو هذا ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أى: ليختبركم فيما أعطاكم.

﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ وكل ماهو آت فهو سريع ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

المص ﴿١﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى

سورة الأعراف

قال الشيخ الإمام – رضى الله عنه –: اعلم أن سورة الأعراف مكية إلا قوله – تعالى –: ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ إلى قوله – تعالى –: ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾[1] فإن هذا القدر نزل بالمدينة، و(قد)[2] روى «أن النبى ﷺ قرأ فى المغرب بطول الطولين»[3] يعنى: سورة الأعراف، وإنما سميت طول الطولين؛ لأن أطول السور التى نزلت بمكة سورة الأنعام، وسورة الأعراف، والأعراف أطولهما.

قوله تعالى ﴿ المص ﴾ معناه: أنا الله أعلم وأفصل، وقيل: معناه: أنا الله الملك الصادق، وقال الشعبى: لكل كتاب سر، وسر القرآن: حروف التهجى فى فواتح السور.

﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ قال الفرّاء: تقديره: هذا كتاب أنزل إليك ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج منه ﴾ أى: شك، والخطاب للرسول، والأمة هم المراد.

والحرج بمكان الشك، قاله الفراء، وأنشدوا:

لولا حرج يغزونى جئتك أغزوك ولا تغزونى

وقيل الحرج: هو الضيق، ومعناه: لايضيقن صدرك بالإبلاغ، وذلك أن النبى ﷺ

(١) الأعراف: ١٦٣ – ١٧٢.

(٢) ليست فى «ك».

(٣) رواه البخارى (٢/ ٢٨٧/ رقم ٨٧٤)، وأبو داود (١/ ٢١٥/ رقم ٨١٢)، والنسائى (٢/ ١٦٩/ رقم ٩٨٩، ٩٩٠) من حديث زيد بن ثابت.

لما بعث إلى الكفار، قال: «يارب إنى أخاف أن يثْلغُوا رأسى، ويجعلوه كالخبزة؛ فقال الله - تعالى - : لايكن فى صدرك ضيق من الإبلاغ؛ فإنى حافظك وناصرك»[١].

قوله: ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ فيه تقديم وتأخير، وتقدير الآية: كتاب أنزل إليك؛ لتنذر به، وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه.

قوله - تعالى - : ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعنى: القرآن، وقيل: القرآن والسنة لأمر الله - تعالى - لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه﴾[٢] فالسنة وإن لم تكن (منزلة)[٣]، فهى كالمنزلة بحكم تلك الآية، قال الحسن فى هذه الآية: يا ابن آدم، أمرت باتباع القرآن، فما من آية إلا وعليك أن تعلم فيما نزلت، وماذا أريد بها، حتى تتبعه، وتعمل به.

﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ يعنى: من عاند الحق، وخالفه، فلا تتبعوه، وإنما قال: ﴿من دونه أولياء﴾ لأن من اتخذ مذهبا، فكل من سلك طريقه واتبعه كان من أوليائه، فهذا معنى قوله: ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ وقال مالك بن دينار: ولا تبتغوا، يعنى: الطلب، والمعنى: ولا تبتغوا من دونه أولياء. ﴿قليلا ما تذكرون﴾، وقرأ ابن عامر: «يتذكرون»[٤] والمراد بهما واحد، أى: قليلا ما تتعظون.

قوله - تعالى - : ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ «كم» للتكثير، و«رُبَّ» للتقليل.

قال الشاعر:

كـــم عمـــة لك ياجـرير وخالة … فدعاء قد حلبت على عشـــارى

---

(١) رواه مسلم (١٧/٢٨٧ - ٢٩١/ رقم ٢٨٦٥)، والنسائى فى الكبرى (٥/٢٦ - ٢٧/ رقم ٨٠٧٠) وأحمد (٤/١٦٢).

(٢) الحشر: ٧.

(٣) فى «ك»: فى منزلته.

(٤) انظر النشر (٢/٢٦٧).

تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ

قاله الفرزدق.

﴿ فجاءها بأسنا بياتا ﴾ أى: عذابنا بياتا ﴿ أو هم قائلون ﴾ وتقديره: ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم قائلون، من القيلولة.

قال الزجاج: «أو هم قائلون» أو لتصريف العذاب، يعنى: مرة بالليل، ومرة بالنهار كما بينا، فإن قال قائل: قد قال: ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ فما معنى قوله: ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ وكيف يكون مجىء البأس بعد الإهلاك؟ قيل: معنى قوله: ﴿ أهلكناها ﴾ أى: حكمنا باهلاكها؛ فجاءها بأسنا، وقيل: قوله: ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ هو بيان قوله: ﴿ أهلكناها ﴾، وقوله: ﴿ أهلكناها ﴾ هو قوله: ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ وهذا مثل قول القائل: أعطيتنى فأحسنت إلىّ، لافرق بينه وبين قوله: أحسنت إلى ما أعطيتنى، وأحدهما بيان للآخر، كذلك هذا.

قوله - تعالى -: ﴿ فما كان دعواهم ﴾ أى: دعاؤهم، قال سيبويه: تقول اللهم اجعلنى فى دعوى المسلمين، أى: فى دعاء المسلمين فقوله: ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ معناه: لم يقدروا على رد العذاب حين جاءهم العذاب، وكان حاصل أمرهم أن اعترفوا بالخيانة حين لاينفع الاعتراف.

قوله - تعالى -: ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ هذا سؤال توبيخ، لاسؤال استعلام، يعنى: نسألهم عما عملوا فيما بلغهم ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ عن الإبلاغ ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ أى: نخبرهم بما عملوا عن بصيرة وعلم.

﴿ وما كنا غائبين ﴾ فإنه - جلّ وعلا - مع كل أحد بالعلم والقدرة.

قوله - تعالى -: ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ قال مجاهد: معناه: القضاء يومئذ بالحق والعدل، وأكثر المفسرين على أنه أراد به: الوزن بالميزان المعروف، وهو حق، وكيف

الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ

يوزن؟ اختلفوا، قال بعضهم: توزن صحائف الأعمال، وقيل: يوزن الأشخاص؛ وعليه دل قول عبيد بن عمير أنه قال: «يؤتى بالرجل العظيم الطويل، الأكول والشروب، يوم القيامة، فيوزن فلا يزن عند الله جناح بعوضة» وقد روى هذا مرفوعا(١).

وقيل: توزن الأعمال، فإن الأعمال الحسنة تأتي على صورة حسنة، والأعمال السيئة تأتي على صورة قبيحة؛ فذلك الذى يوزن، وفى الخبر «أن ذلك الميزان له كفتان، كل كفة بقدر ما بين المشرق والمغرب»(٢)، والميزان للكل واحد، وقيل لكل واحد ميزان. ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾.

﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أى: غبنوا أنفسهم ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ قال الحسن: إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه باتباع الحق، وحُق لميزانٍ وُضع فيه الحق أن يثقل، وإنما خف ميزان من خف ميزانه باتباع الباطل،وحُق لميزانٍ لم يُوضَع فيه إلا الباطل أن يخف.

ويروى عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ نائما ذات يوم، ورأسه فى حجرى، فبكيت، فقطرت دموعى على خده؛ فانتبه رسول الله ﷺ فقال: مالك؟ قلت: ذكرت القيامة وأهوالها، فهل يذكر أحد أحداً يومئذ؟ فقال ﷺ: أما فى ثلاثة مواطن فلا: عند الميزان حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أن صحيفته توضع فى يمينه أو [فى](٣) شماله، وعلى

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (٨/٢٧٩/ رقم ٢٧٢٩)، ومسلم (١٧/١٨٨/رقم٢٧٨٥).

(٢) فيه أحاديث، منها حديث البطاقة، الذى رواه الترمذى (٥/٢٥ رقم ٢٦٣٩)، وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٢/١٤٣٧/ رقم ٤٣٠٠)، وأحمد (٢/٢١٣)، وابن حبان – الإحسان (١/٤٦١ – ٤٦٢/ رقم ٢٢٥)، والحاكم (١/٥٢٩) وقال: صحيح الإسناد.

(٣) من «ك».

فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ

الصراط»[1].

قوله – تعالى –: ﴿ولقد مكناكم فى الأرض﴾ التمكين هاهنا بمعنى: التمليك ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أى: أسباب تعيشون بها، وقيل: جعلنا لكم ما تصلون به إلى المعاش ﴿قليلا ما تشكرون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ قال ابن عباس: خلقناكم فى صلب آدم، ثم صورناكم فى أرحام الأمهات، وقال مجاهد: خلقناكم فى ظهر آدم، ثم صورناكم يوم الميثاق، حين أخرجهم كالذر، وقيل: هذا فى حق آدم – صلوات الله عليه – يعنى: خلقنا أصلكم آدم، ثم صورناه؛ فذكر بلفظ الجمع، والمراد به الواحد، وقال الأخفش – وهو أحد قولى قطرب –: إن ثم بمعنى الواو، أى: وصورناكم.

﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فإن قال قائل: الأمر بسجود الملائكة كان قبل خلق بنى آدم، فما معنى قوله: ﴿ثم قلنا للملائكة﴾ عقيب ذكر الخلق والتصوير؟

والجواب: أما على قول مجاهد، وقول من صرّفه إلى آدم، يستقيم الكلام.

وأما على قول ابن عباس، يرد هذا الإشكال، والجواب عنه من وجوه:

أحدها: أن المراد به: ثم أُخبِرُكُم أنَّا قلنا للملائكة: اسجدوا [لآدم][2]، وقيل فيه: تقديم وتأخير، وتقديره: ولقد خلقناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا، ثم صورناكم،

(١) رواه أبو داود فى سننه (٤/ ٢٤٠ – ٢٤١/ رقم ٤٧٥٥)، وأحمد فى مسنده (٦/ ١٠١، ١١٠)، وابن المبارك فى الزهد (ص٤٧٩/ رقم ١٣٦١)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (١٣/ ٢٥٠/رقم ١٦٢٥٣) والآجرى فى الشريعة (ص٣٨٤، ٣٨٥)، والحاكم (٤/ ٥٧٨) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة على أنه قد صحت الروايات أن الحسن كان يدخل وهو صبى منزل عائشة – رضى الله عنها – وأم سلمة. قلت: وقد رواه الآجرى، وأحمد من طريق القاسم عن عائشة ولكن فيه ابن لهيعة. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٦٢): رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) من «ك».

اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

وقيل: «ثم» بمعنى «الواو» أى: وقلنا للملائكة: اسجدوا، والواو لاتوجب الترتيب، وهو قول الأخفش، وأحد قولى قطرب، ولم يرضوا منهم ذلك، فإن كلمة «ثم» لاترد بمعنى الواو، وهى للتعقيب.

﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ وقد ذكرنا سجود الملائكة فى سورة البقرة، وأن سجودهم كان لآدم.

قوله – تعالى –: ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ «لا» زائدة، والمراد: ما منعك أن تسجد؟ وقد سبق نظائره.

﴿ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ فإن قيل: لم يكن هذا منه جوابا عما سئل عنه؟ قيل: تقديره قال: لم أسجد لأنى خير منه، وقيل: السؤال مقدر فيه، كأنه قيل له: أنت خير أم هو؟ فقال: أنا خير منه.

قال محمد بن جرير الطبرى: ظن الخبيث، ورأى أن النار خير من الطين، ولم يعلم أن الفضل لما جعل الله له الفضل، وقد فضّل الله الطين على النار، ولأن فى طبع النار طيشا، وخفة، وإحراقا، وفى الطين رزانة، وحلم، وتواضع، وأمانة، فيجوز أن يكون خيرا من النار، وقد قال ابن عباس: أول من قاس: إبليس، كما بينا.

وقوله – تعالى –: ﴿ قال فاهبط منها ﴾ أى: فاخرج منها، واختلفوا فى هذه الكناية، قيل: أراد به: فاهبط من الجنة، وقيل: أراد به: من الدرجة التى جعله الله عليها من قبل، وقيل: أراد به: من الأرض؛ فإن الله – تعالى – لما طرده؛ أخرجه من الأرض إلى جزائر البحر، وكان من قبل له ملك الأرض، حتى قيل: إنه لايدخل الأرض إلا خائفا، سارقا، على هيئة شيخ عليه أطمار ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ يعنى: بترك السجود ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ أى: الأذلة.

﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

﴿ قال أنظرنى ﴾ أى: أمهلنى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ سأل المهلة إلى القيامة، ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾ فأنظره الله - تعالى - وهذا الإنظار إلى النفخة الأولى، كما قال فى موضع آخر مقيداً: ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾[1] وأراد به: النفخة الأولى، فإن قيل: وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر؛ حيث أجاب دعوة اللعين؟ قيل: يجوز على طريق الاستدراج والمكر والإملاء لا على سبيل الكرامة.

﴿ قال فبما أغويتنى ﴾ قال ابن عباس: بما أضللتنى، وقيل: بما خيبتنى، فالإغواء بمعنى: الخيبة، قال الشاعر:

فمن يَلْقَ خيرا يحمد الناس أمرَهُ ... ومنْ يغْوَ لاَ يُعْدَمْ على الغَيِّ لائمَـــا

أى: ومن يخب لايعدم على الخيبة لائما، وقيل: معناه: بما دعوتنى إلى ما ضللت به ﴿ لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ﴾ أى: على صراطك المستقيم، وهو صراط الدين.

قوله تعالى: ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾

روى سفيان الثورى عن منصور عن الحكم بن عتيبة[2] أنه قال: ﴿ لآتينهم من بين أيديهم ﴾ يعنى: من قِبَل الدنيا بأن أزينها فى قلوبهم، فيغتروا بها ﴿ و من خلفهم ﴾ أى: من قِبل الآخرة، بأن أقول: لا بعث، ولا جنة، ولا نار ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من قِبَل الحسنات ﴿ وعن شمائلهم ﴾ من قبل السيئات، وقال ابن عباس - فى رواية الوالبى عنه -: لآتينهم من بين أيديهم يعنى: من قبل الآخرة، ومن خلفهم (أى)[3] من قبل الدنيا، وعن أيمانهم: أشبه عليهم أمر الدنيا، وعن شمائلهم: أشهى لهم ارتكاب المعاصى، قال مجاهد: أراد به لآتينهم من كل الجوانب، قال قتادة: لم يقل الخبيث: من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل عليهم من فوقهم.

(١) الحجر: ٣٨، وص: ٨١.

(٢) فى «ك»: عيينة، وهو تصحيف.

(٣) فى «ك»: يعنى.

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا

﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أى: مؤمنين فإن قيل: بأيش علم الخبيث أنه لايجد أكثرهم شاكرين؟ قيل: قرأ من اللوح المحفوظ، وقيل: قال ذلك ظنا؛ فأصاب كما قال الله - تعالى -: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾[1].

قوله - تعالى -: ﴿قال اخرج منها مذءوما﴾ وقرأ الأعمش: «مذمومًا»، والمعروف: مذءوما من الذأم: وهو العيب، وقيل: معناه مقيتا من المقت.

﴿مدحورا﴾ أى: مطرودا ﴿لمن تبعك منهم لأملان جهنم منكم أجمعين﴾ اللام فيه للقسم، يعنى: أقسم لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين.

قوله - تعالى -: ﴿وياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ وقد بينا هذا ﴿فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ وقد بينا على قول ابن عباس: أنها كانت شجرة السنبلة، وقيل: شجرة التين، وقال على بن أبى طالب: كانت شجرة الكافور، وقيل: كانت شجرة تأكل منها الملائكة تسمى: شجرة الخلد.

قوله - تعالى -: ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ الوسوسة: حديث يلقيه الشيطان فى قلب الإنسان، واختلفوا كيف وسوس لهما وهما فى الجنة، وهو فى الأرض؟

فقيل: وسوس لهما من الأرض؛ لأن الله - تعالى - أعطاه قوة بذلك حتى وسوس لهما بتلك القوة من الأرض إلى الجنة، وقيل: حين وسوس لهما كان فى السماء؛ فالتقيا على باب الجنة هو وآدم، فوسوس، وقيل: إن الحية خبأته فى [أنيابها][2] وأدخلته الجنة، فوسوس من بين [أنيابها][2]؛ فمسخت الحية، وأخرجت من الجنة.

﴿ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما﴾ اللام فيه لام العاقبة؛ فإنه لم

(١) سبأ: ٢٠.

(٢) فى «الأصل» «ك»: أنيابه.

وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ

يوسوس لهذا، لكن عاقبة أمرهم فى وسوسته أنه أبدى لهما ما ستر من عورتيهما.

﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ وهذه كانت وسوسته، وقرأ يحيى بن أبى كثير والضحاك: «إلا أن تكونا مَلِكين» بكسر اللام، والمعروف: «مَلَكين» بفتح اللام، قال أبو عمرو بن العلاء: لم يكن فى الجنة مُلك لغير الله حتى يقول: ملكين من الملك، وكان فيها الملائكة، ومعناه: ما نهاكما الله عن أكل هذه الشجرة إلا أنكما إذا أكلتما صرتما ملكين أو تكونا من الخالدين.

﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾ وسوس لهما، وحلف عليه، وهو أول من حلف بالله كاذبا، فكل من حلف بالله كاذبا؛ فهو من أتباع إبليس، وفى الحديث:

«إن المؤمن يخدع بالله»[1] فلما حلف إبليس على ما وسوسه به؛ ظن آدم أنه لايحلف أحد بالله إلا صادقا؛ من سلامة قلبه، فاغتر به.

وفيه قول آخر: أن قوله: ﴿ وقاسمهما ﴾ من القسمة، كأن إبليس قال لهما: كُلا من هذه الشجرة، فما كان من خير فلكما، وما كان من شر وسوء فعلى.

وقوله: ﴿ إنى لكما لمن الناصحين ﴾ يعنى: المرشدين، المريدين للخير.

فإن قال قائل: قوله: ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ دليل على أن الملائكة أفضل من الآدميين، قيل: معناه - والله أعلم -: أنهما رأيا الملائكة فى أحسن صورة، وأرفع منزلة، وفى تسبيح دائم من غير تعب ولاشهوة؛ فتمنيا أن يصلا إلى تلك المنزلة لو أكلا من تلك الشجرة، ويتخلصا من التعب، ومن شهوة البشرية، وليس فى هذا دليل على أن الملك أفضل من الآدمى.

وقوله: ﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أى: حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية، قال

(١) روى هذا موقوفًا على ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، رواه ابن سعد فى الطبقات (٤/ ١٢٥ - ١٢٦)، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٩٤).

فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا

الشاعر:

ويوسف إذ دلاه أولاد علة ... فأصبح فى قعر البريكة ثاويا

وأما الغرور: فهو إظهار النصح مع إبطان الغش.

قوله - تعالى -: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ فى هذا دليل على أنهما لم يمتعا فى الأكل، قال ابن عباس: قيل: إن ازدردا؛ أخذتهما العقوبة، وكانت عقوبتهما أن تهافت عنهما لباسهما، وبدت عورتهما.

﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال ثعلب: جعلا يلصقان بعض الورق بالبعض، ويستران العورة به، ويقال: خصف النعل؛ إذا جعل طبقا على طبق، واختلفوا فى ذلك الورق، قال ابن عباس - وبه قال أكثر المفسرين -: إنه ورق التين والزيتون، وقيل: كان ورق الموز.

﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ يعنى: عن الأكل منها ﴿وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ أى: بيّن العداوة، ويحكى عن أُبى بن كعب، ويذكر عن عطاء أيضا، أنهما قالا: لما بدت سوآتهما فى الجنة، هرب آدم فى الجنة؛ فتعلقت شجرة بشعره، وناداه الرب: أفرارا منى يا آدم؟ فقال: لا بل حياء منك يارب.

قوله - تعالى -: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ اعترف آدم بالذنب، وسأل المغفرة، وهذا هو الفرق بين معصيته ومعصية إبليس، أن إبليس عصى وأصرّ على المعصية، وآدم عصى وتاب عن المعصية، وأن إبليس كان متعمدا، وآدم كان ساهيا، واختلفوا فى أن آدم هل عرف عند الأكل أنه معصية؟ قال بعضهم: عرف ذلك، لكن الله غفر له، وتاب عليه، وقيل: دخل عليه شبهة من وسوسة إبليس، ولم يكن متعمدا؛ إذ كان معصوما نبيا.

قوله - تعالى -: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ فإن قال قائل: ألم يكن

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ

خاطب إبليس بالهبوط من قبل، فما معنى هذه الإعادة؟ قيل: إن هذا الثانى خطاب لآدم وحواء والحية، قاله أبو صالح، وإبليس خارج من الخطاب، وقيل: الخطاب للكل؛ لأنهم وإن افترقوا فى وقت الإخراج والإنزال، (لكن)[1] لما اجتمعوا فى الإنزال جمع بينهم فى الخطاب، والأول خاص لإبليس، والخطاب الثانى عام للكل.

﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ وفى القصص: أن آدم وقع بأرض الهند، وحواء بجدة، والحية بميسان، وإبليس بأيلة، وقيل: بمداد ، وقيل: وقع إبليس بأرض البصرة، ثم خرج إلى أرض مصر وباض وفرّخ فيه.

وعن ابن عمر أنه قال: لما أخرج الله - تعالى - إبليس إلى الأرض، قال: يارب، أين مسكنى؟ قال: الحمامات؛ فقال: أين مجلسى؟ قال: الأسواق، فقال: وأيش مطعمى؟ قال: كل طعام لم يذكر عليه اسمى، فقال: وماذا شرابى؟ فقال: كل مسكر. قال: وما حبالتى؟ فقال: النساء، فقال: وما كتابتى؟ قال: الوشم، فقال: ومن رسلى؟ قال: الكهنة.

قوله - تعالى -: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ يعنى: الأرض فيها حياتكم وموتكم، ومنها بعثكم.

قوله - تعالى -: ﴿يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم﴾ فإن قال قائل: كيف قال: أنزلنا. ولم ينزل اللباس من السماء؟ قيل: قد أنزل المطر، وكل نبات من المطر؛ فكأنه أنزله، وقيل: معناه: أن كل ما فى الأرض فهو من بركات السماء؛ فيكون كالمنزّل من السماء، وعلى هذا معنى قوله - تعالى -: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾[2] وإنما يستخرج من الأرض، لكن نسبه إلى السماء، كذا هذا.

(١) فى «ك»: لكنهم. (٢) الحديد: ٢٥.

وسبب نزول الآية: أنهم فى الجاهلية، كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون لانطوف فى (أثواب)[1] عصينا الله - تعالى - فيها، وكان الرجال يطوفون عراة بالنهار، والنساء بالليل؛ فنزلت الآية فى المنع عن ذلك. قال الزهرى: كانت العرب يطوفون كذلك عراة إلا الحمس، وهم قريش وأحلاف قريش، كانوا يطوفون فى ثيابهم، وسمّوا حمسا؛ بشدتهم فى دينهم، ومنه الحماسة لشدتها، وقال مجاهد: كانت النساء يطفن وعليهن رهاط، والرهط: قطعة من صوف لاتستر تمام العورة، وربما كانت من سيورة، وقال قتادة: كانت المرأة منهم تطوف تضع يدها على فرجها تستر بها عورتها، وتقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كلُّه ... وما بدَا منه فلا أحلُّه

فقوله: ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم﴾ معناه: قد أنزلنا عليكم ما تسترون به عورتكم؛ فلا تطوفوا بالبيت عراة، وقوله: ﴿وريشا﴾ وقرئ: «ورياشا» منهم من فرّق بينهما.

قال مجاهد: الريش: المال، وقال الكسائى: الريش: اللباس.

وأما الرياش: قيل: هو المعاش، يقال: تريش فلان إذا وجد ما يعيش به، وقيل: الرياش: أثاث البيت، وقال أبو عبيدة: الريش والرياش واحد، وهو ما يبدو من اللباس، والشعرة وأنشد سيبويه:

وريشى منكم وهواى فيكم ... وإن كانت زيارتكم لماما

أى: قليلا، وقوله: ﴿ولباس التقوى﴾ يقرأ بالنصب، (يعنى)[2]: وأنزلنا عليكم لباس التقوى، ويقرأ: «ولباسُ التقوى» بالرفع[3]، يعنى: هو لباس التقوى.

---

(١) فى «ك»: ثياب.

(٢) فى «ك»: أى.

(٣) قرأ نافع، وابن عامر، والكسائى وأبو جعفر بنصب السين، وقرأ الباقون بالرفع. انظر النشر (٢ / ٢٦٨).

قال القتيبي : يعني : الثياب لباس التقوى؛ فإن من اتقى الله يطوف لابسًا لا عاريًا، وفي الحديث : «إن لباس التقوى هو الحياء»[1] لأنه يبعث على التقوى، وهو قول الحسن،

قال الشاعر :

إني كأني أرى من لاحياءَ له ... ولا أمانة وسط الناس عُرْيانا

وقال عكرمة : الحياء والإيمان في قرن واحد، فإذا ذهب أحدهما؛ تبعه الآخر، وقال قتادة : لباس التقوى : هو الإيمان، وقال عثمان بن عفان : لباس التقوى : هو السمت الحسن، وقال عروة : هو خشية الله، وقيل : لباس التقوى ها هنا : لباس الصوف، والثوب (الخشن)[2] الذي يلبسه أهل الورع، وقيل : هو العمل الصالح.

﴿ذلك خير﴾ قيل : «ذلك» صلة، وتقديره : ولباس التقوى خير، وهكذا قرأه الأعمش، وقيل : «ذلك» في موضعه، ومعناه : ذلك الذي ذكر من اللباس والريش، وكل ما ذكر خير ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾.

قوله - تعالى - : ﴿يابني آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ أي : لايضلنكم الشيطان، كما فتن أبويكم فأخرجهما من الجنة.

﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾ هو ما ذكرنا من تهافت اللباس عند أكلهما من الشجرة، وفيه دليل على أنهما ما كانا يريان عورتهما من قبل؛ حيث قال : ليريهما سوءاتهما واختلفوا في ذلك اللباس الذي كان عليهما ما هو؟ قال ابن عباس : لباسهما كان من الظفر؛ كأن الله - تعالى - ألبسهما من جنس ظفرهما، وقال وهب بن منبه : كان لباسا من النور.

---

(١) روى عن معبد الجهني من قوله، رواه الطبري في التفسير (٨/ ١١٠)، وزاد السيوطي في الدر (٣/ ٨٣) فعزاه لعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٢) في «ك» : الحسن.

إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ

﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ أى: وجنوده ﴿ من حيث لاترونهم ﴾ يعنى: أن الشيطان وجنوده يرونكم، وأنتم لاترونهم ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون ﴾ يعنى: أن الشياطين يوالون الكفار، وهذا قوله: ﴿ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾[1].

قوله – تعالى –: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ قيل: الفاحشة ها هنا هى طوافهم عراة، وقيل: هى الشرك ﴿ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ ﴿ قل ﴾ يا محمد: ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ وهى كل فعل قبيح بلغ النهاية فى القبح ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ قل أمر ربى بالقسط ﴾ أى: بالعدل والصدق ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها أن معناه: أقيموا الصلاة فى كل مسجد تدرككم فيه الصلاة، ولا تقولوا نؤخرها إلى مسجدنا، والثانى معناه: استقبلوا القبلة بوجوهكم فى كل صلاة،والثالث معناه: أخلصوا صلاتكم وعبادتكم لله – تعالى –.

﴿ وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾ يعنى: تعودون فرادى بلا أهل ولا مال، كما خلقكم فرادى بلا أهل ولا مال، وهذا معنى قوله – تعالى –: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾[2] قال الزجاج: معناه: إن إعادتكم أحياء كخلقكم ابتداء، كلاهما علىّ هين، والصحيح أن المراد به: أنه كما خلقكم أشقياء وسعداء، ومؤمنين وكافرين، تعودون كذلك؛ وعليه دلّ قوله – تعالى –: ﴿ فريقا

(١) مريم: ٨٣.

(٢) الأنعام: ٩٤.

وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ

هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ أى: فريقا هداهم الله، وفريقا أضلهم الله [تعالى](١)؛ فوجبت عليهم الضلالة، وقد صح الحديث عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: «حدثنى الصادق المصدوق - يعنى رسول الله ﷺ -: أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لايكون بينه وبين الجنة إلا ذراعا؛ فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار؛ فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى لايبقى بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة؛ فيدخل الجنة»(٢).

﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ وفى هذا دليل على أن المستبصر بالكفر الذى يحسب أنه على الحق مثل المعاند سواء.

قوله - تعالى -: ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو فى الأمربالطواف والصلاة لابسا، وفى شواذ التفاسير: أنه المشط، ولبس النعل، وقيل: أراد به: السكينة، والوقار، وذلك معنى ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ولكن ائتوها وأنتم تمشون، وعليكم بالسكينة والوقار»(٣).

﴿ وكلوا واشربوا ﴾ قال الفراء: إنما أمرهم بالأكل والشرب؛ لأنهم كانوا فى الجاهلية يتركون أكل اللحم والدسم فى وقت الموسم، كما يتركون اللباس عند الطواف ويقولون: نترك اللحم والدسم لله - تعالى -.

﴿ و لاتسرفوا ﴾ أى: بتحليل ما حرم الله، وبتحريم ما أحل الله، وكل مال أنفق

---

(١) من: «ك».

(٢) متفق عليه، فرواه البخارى (٦/ ٣٥٠/ رقم ٣٢٠٨)، ومسلم (١٦/ ٢٩٢ - ٢٩٤/ رقم ٢٦٤٣).

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (٢/ ١٣٨/ رقم ٦٣٦)، ومسلم (٥/ ١٣٨ - ١٤٠/ رقم ٦٠٢).

لا يُحبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

فى معصية الله؛ فهو سرف،وأصل الإسراف: هو مجاوزة الحد بغلو أو تقصير ﴿إنه لايحب المسرفين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده﴾ يعنى: اللباس عند الطواف ﴿و الطيبات من الرزق﴾ يعنى: ما حرموا على أنفسهم من أكل اللحم فى أيام الموسم، مع سائر ما حرموا من البحيرة، والسائبة ونحوها. ﴿قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ قال أكثر المفسرين – وهو قول الضحاك –: فيه حذف، وتقديره: هى للذين آمنوا وللمشركين فى الحياة الدنيا، خالصة للمؤمنين يوم القيامة. وقيل: معناه: خالصة يوم القيامة من التنغيص والغم، فإنها لهم فى الدنيا مع التنغيص والغم. ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن﴾ قال قتادة: هى الزنا سرا وعلنا، وقال غيره: ما ظهر منها: نكاح المحارم، وما بطن: الزنا ﴿والإثم والبغى بغير الحق﴾ أما الإثم ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال الفراء: كل ما دون الحد، وقيل: هو كل المعاصى، وقيل: الإثم الخمر، وقد ورد ذلك فى الشعر:

شربت (الإثم) [1]حتى ضلّ عقلى كـــذاك الإثم يذهب بالعقـــول

وأما البغى، قيل: هو الاستطالة على الناس، وقيل هو الفساد، وقال ثعلب: هو أن يقع فى الناس بغير الحق ﴿وأن تشركوا بالله﴾ وتقديره: وحرم أن تشركوا بالله ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ أى: حجة ﴿وأن تقولوا على الله مالاتعلمون﴾ لأنهم كانوا

(١) فى «ك»: الخمر.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ

ينسبون كل ما ارتكبوا من الفواحش والإشراك إلى الله – تعالى – ويقولون: نفعله بأمر الله؛ فهذا قولهم على الله ما لايعلمون.

قوله – تعالى –: ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ يعنى: مدة العمر ﴿ فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون ﴾ فإن قيل: لم خصّ الساعة، وهم لايستأخرون دون الساعة، ولايستقدمون؟ قيل: إنما خصها لأنها أقل الأوقات المعلومة.

قوله – تعالى –: ﴿ يابنى آدم إما يأتينكم ﴾ فقوله: «إما» كلمتان: «إن» و «ما» فأدغمت إحداهما فى الأخرى، ومعناه: متى يأتكم، وإن يأتكم ﴿ رسل منكم ﴾ قيل: أراد به رسولنا خاصة، وقيل: كل الرسل ﴿ يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح ﴾ أى: اتقى الشرك، وأصلح ما بينه وبين ربه ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ وإنما ذكر الاستكبار؛ لأن كل مكذب وكل كافر مستكبر، وإنما كذّب وكفر تكبراً، قال الله – تعالى – ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾[1] أى: استكبروا عن الإقرار بالوحدانية ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ﴾ وقد بينا هذا الإفتراء ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها – وهو قول ابن عباس –: ينالهم ما قدر لهم من خير وشر.

والثانى: قول مجاهد: ينالهم ما وعدوا من خير وشر.

والثالث: قول سعيد بن جبير: ينالهم ما قضى لهم من الشقاوة والسعادة.

والرابع: قول محمد بن كعب القرظى: أراد به: الأجل والعمل والرزق.

(١) الصافات: ٣٥.

يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا

وفيه قول خامس معروف: ينالهم نصيبهم من العذاب المذكور فى الكتاب؛ فإنه ذكر فى الكتاب عذاب الفرق من الكفار مثل: المنافقين واليهود، و النصارى، والمشركين.

﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ يعنى: ملك الموت وأعوانه ﴿ يتوفونهم ﴾ أى: يتوفون عدد آجالهم ﴿ قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ﴾ يعنى: الرسل يقولون للكفار: أين الذين كنتم تدعون من دون الله من الأصنام؟ ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أى: ذهبوا وفاتوا عنا ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ قال ادخلوا فى أمم ﴾ يعنى: مع أمم، وهو مثل قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان أقرب عهده ... ثلاثين شهـــرا فى ثلاثة أحـــوال

أى: مع ثلاثة أحوال، وقيل: معناه: ادخلوا بين أمم ﴿ قد خلت ﴾ أى: مضت ﴿ من قبلكم من الجن والإنس فى النار ﴾ وفيه دليل على أن الجن يموتون كالإنس؛ خلافا لقول الحسن، حيث قال: لايموتون.

﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ قال الفراء: يعنى: أختها فى الدين لا فى النسب؛ يعنى: يلعن اليهود اليهود، والنصارى النصارى.

﴿ حتى إذا ادَّاركوا ﴾ أى: تداركوا وتتابعوا واجتمعوا ﴿ فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ﴾ أراد به: أخرى كل أمة، وأولى كل أمة، وقيل: أراد به: آخرهم دخولا، وأولهم دخولا، وهم القادة مع الأتباع؛ فإن القادة يدخلون أولا.

فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ يعنى: القادة أضلونا ﴿ فآتهم عذابا ضعفا من النار ﴾ أى: ضاعف لهم العذاب ﴿ قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون ﴾ بالتاء فقوله ﴿ ولكن لاتعلمون ﴾ يعنى: أيها الناس لاتعلمون، أما من قرأ بالياء[١] فمعناه: لايعلم القادة ما للأتباع ولا الأتباع ما للقادة.

قوله - تعالى-: ﴿ وقالت أولاهم ﴾ يعنى: القادة ﴿ لأخراهم ﴾ يعنى: الأتباع ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ قال السُّدى: معناه: أنكم كفرتم، كما كفرنا، وجحدتم كما جحدنا، فليس لكم علينا من فضل، وقيل: معناه: ماكان لكم علينا من فضل فى تخفيف العذاب ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ﴾ اعلم أن أبواب السماء تفتح لثلاثة: للأعمال، والأدعية، والأرواح، وفى الخبر. «أن الملك يصعد بروح المؤمن، ولها ريح طيبة؛ فتفتح لها أبواب السماء، ويصعد بروح الكافر، ولها ريح منتنة؛ فتغلق لها أبواب السماء، ويؤمر بطرحها فى السجين فذلك قوله - تعالى -: ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ﴾[٢]، ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾[٣]»[٤] ومعنى ا لآية: أنه لاتفتح أبواب السماء لأعمال الكفار و أدعيتهم وأرواحهم.

(١) قرأ أبو بكر بالياء التحتية، وقرأ الباقون بالتاء الفوقية. انظر النشر (٢/ ٢٦٩).

(٢) المطففين: ١٨.

(٣) المطففين: ٧.

(٤) رواه أبو داود (٤/ ٢٣٩-٢٤٠/ رقم ٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، والطبرى فى التفسير (١٣/ ٢١٥)، والحاكم (١/ ٣٧-٤٠) وصححه على شرط الشيخين جميعم من حديث البراء.

وحسنه المنذرى فى الترغيب (٤/ ١٨٦) ونقل عن البيهقى أنه صحح إسناده.

وقيل: معناه: لاتفتح لهم أبواب الجنة، لكن عبر عنها بأبواب السماء؛ لأن أبواب الجنة فى السماء.

﴿ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾ وقرأ ابن عباس: «يلجُ الجُمَّل» برفع الجيم وتشديد الميم، وقرأ سعيد بن جبير: «حتى يلجُ الجمل» برفع الجيم مخففة الميم، وقرأ ابن سيرين: «فى سُم الخياط» برفع السين، والمعروف ﴿حتى يلجَ الجَمَلُ فى سَمِّ الخِيَاط﴾ وهو الجمل المعروف، وسئل ابن مسعود عن هذا الجمل فقال: هو زوج الناقة، كأنه استحمق السائل حين سأله عما لايخفى، ويحكى عن الحسن أنه قال: هو الأشطر الذى عليه جولقان أسودان، وأما الجمل الذى قرأه ابن مسعود: فهو قلس السفينة، وأما الجمل بالتخفيف، قيل: هو أيضا قلس السفينة، وقيل: هو حبل السفينة، وأما السُم والسَم واحد، وهو ثقبة المخيط، والمراد بالآية: تأكيد منع دخولهم الجنة، وذلك سائر فى كلام العرب، وهو مثل قولهم: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب، وحتى يبيض القار، وقال الشاعر:

إذا شاب الغرابُ أتيتُ أهلى ... وصارَ القارَ كاللبنِ الحليبِ

والقار والقير: شىء أسود، يضرب به المثل، يقال: شىء كالقير والقار فى السواد ﴿وكذلك نجزى المجرمين﴾.

قوله - تعالى -: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أى: فرش ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أى: لحف وهذا مثل قوله: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾[1].

قال سيبويه - رحمه الله -: التنوين فى قوله ﴿غواش﴾ غير أصلى، وإنما هو بدل عن الياء، وأصله: «غواشى» ومثله كثير ﴿وكذلك نجزى الظالمين﴾.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا إلا وسعها﴾ أى: طاقتها ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

(١) الزمر: ١٦.

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

قوله - تعالى - : ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار﴾. الغل الغش والحقد، وعن على - رضى الله عنه - أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله - تعالى - : ﴿ونزعنا مافى صدورهم من غل﴾.

وروى مسلم فى الصحيح بإسناده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا خلص المؤمنون عن الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة و النار، فيقتص بعضهم من بعض، حتى إذا نقوا وهذبوا، أذن لهم فى دخول الجنة؛ فوالذى نفسى بيده، لأحدهم أهدى إلى منزله فى الجنة منه إلى منزله فى الدنيا»[١]. وفى بعض الأخبار: «أن على باب الجنة عينا يشرب منها أهل الجنة ويغتسلون؛ فيذهب الغل والحقد من قلوبهم، ثم يدخلون الجنة[٢]».

﴿وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾ وفى هذا دليل على القدرية ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ تلك تأنيث ذلك، ومعنى الآية: كأنهم إذا رأوا الجنة من بعيد نودوا: أن تلكم الجنة، وقيل: هذا النداء يكون فى الجنة، فينادون: هذه الجنة التى أورثتموها، وفى الخبر: «أن لكل واحد منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار، ثم يرث المؤمن من الكافر منزله فى الجنة، ويرث الكافر من المؤمن منزله فى النار»[٣].

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه (٥/١١٥/رقم ٢٤٤٠) وانفرد به دون مسلم كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر فى الفتح (٥/١٥١). ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف (٣/٤٣١/ رقم ٤٢٥٧) إلا للبخارى. والحديث فى مسند أحمد (٤/١٦٢).

(٢) رواه الطبرى فى التفسير (٨/١٣٣) عن السدى قوله.
وزاد السيوطى فى الدر (٣/٩٣) فعزاه لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ بمعناه.

(٣) رواه ابن ماجة (٢/١٤٥٣/ رقم ٤٣٤١)، وقال البوصيرى فى الزوائد: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. والطبرى فى التفسير (١٨/٥)، والبيهقى فى البعث (ص١٠١/رقم ٢٦٦) من حديث أبى هريرة وزاد السيوطى فى عزوه فى الدر (٥/٧) لسعيد بن منصور، وابن أبى حاتم، وابن مردويه وابن المنذر.

بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

قوله – تعالى –: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا﴾ وهذا قبل التطبيق على جهنم ﴿قالوا نعم﴾ وقد بينا أن جواب الاستفهام الذى فيه جحد: «بلى»، وجواب الاستفهام الذى ليس فيه تجحد: «نعم» ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾.

﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أى: يعرضون عن الدين ﴿ويبغونها عوجا﴾ أى: يطلبون الدين بالزيغ، والعوج بمعنى الزيغ ها هنا ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾.

﴿وبينهما حجاب﴾ وهو حجاب بين الجنة والنار. ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ قيل: الأعراف: سور بين الجنة والنار، وذلك قوله: ﴿فضرب بينهم بسور﴾[1] وقيل: هو مكان مرتفع، والأول أصح، وعليه الأكثرون.

وأما الرجال الذين على الأعراف، اختلفوا فيهم، قال ابن مسعود، وحذيفة، وعطاء: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقال أبو مجلز لاحق بن حميد: هم قوم من الملائكة فى صورة رجال من الإنس، وحكى مقاتل بن سليمان فى تفسيره عن النبى ﷺ أنه قال: «هم قوم غزوا بغير إذن آبائهم، فاستشهدوا، فبقوا على الأعراف تمنع شهادتهم دخولهم النار، ويمنع عصيانهم الآباء دخولهم الجنة»[2].

(١) الحديد: ١٣.

(٢) رواه الطبرى (٨/ ١٣٩)، والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (ص١٠٤/ رقم ٢٥١)، والبيهقى فى البعث (ص٨٣–٨٤/ رقم ١١٢) من حديث عبد الرحمن المزنى، وقال البيهقى: أبو معشر نجيح المزنى، ضعيف. وكذا قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٧) وعزاه للطبرانى.

وزاد السيوطى فى عزوه فى الدر (٣/ ٩٦) لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن منيع والحارث بن أسامة فى مسنديهما وابن الأنبارى فى كتاب الأضداد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

وله شواهد من حديث أبى سعيد، وأبى هريرة، وابن عباس وغيرهم.

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ

وقال الحسن: هم أهل الفضل من المؤمنين، جعلوا على الأعراف؛ فيطلعون على أهل الجنة والنار، يطالعون أحوال الفريقين ﴿ يعرفون كلا بسيماهم ﴾ أى: يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم، وأهل النار بسواد وجوههم.

﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ فإذا رأوا أهل الجنة قالوا: سلام عليكم ﴿ لم يدخلوها ﴾ يعنى: أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة ﴿ وهم يطمعون ﴾ يعنى: فى دخول الجنة، قال الحسن: الذى جعل الطمع فى قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون(١). وقال حذيفة - رضى الله عنه -: لايخيِّب الله أطماعهم.

قوله - تعالى -: ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ يعنى: إذا اطلعوا على أهل النار، وما هم فيه؛ استعاذوا بالله من النار.

قوله - تعالى -: ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ﴾ قيل: إنهم يرون الكفار؛ فيعرفونهم، مثل: الوليد بن المغيرة، وأبى جهل، وأبى لهب، ونحوهم فينادونهم ﴿ قالوا ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ يعنى: ما نفعكم اجتماعكم وتظاهركم فى الدنيا ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ﴾ وذلك حين قالوا

---

(١) كذا!ومثله فى تفسير البغوى (٢/١٦٣)، وهذا الأثر عزاه السيوطى فى الدر (٣/٦٧) لعبد الرزاق وابن جرير، وابن المندر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، عن الحسن، ولفظه: «والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم».

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ

للكفار ما قالوا، ثم ينظرون إلى أهل الجنة؛ فيرون خبابا، وعمارا، وبلالا، وصهيبا، ونحوهم، فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ يعنى: أهؤلاء الذين حلفتم أنهم لايدخلون الجنة، وقد دخلوا، يعنى: خبابا، وعمارا، ونحوهما.

ثم يقول الله - تعالى -: ﴿ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ وفيه قول آخر: أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأولئك الكفار ماقالوا؛ يقول الكفار لهم: إن دخلوا أولئك الجنة ونحن فى النار فأنتم لم تدخلوا الجنة بعد، فيعيرونهم على ذلك، ويحلفون أنهم (لا يدخلون)(١) الجنة؛ فيقول الله - تعالى - لأولئك الكفار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لاخوف عليكم﴾ يقوله لأصحاب الأعراف؛ فيدخلهم الجنة ﴿ولا أنتم تحزنون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ فى هذا دليل على أنهم كما يعذبون بالنار؛ فيكون عليهم عذاب الجوع والعطش مع عذاب النار؛ حتى يسألوا الطعام والشراب.

وفى الخبر: «أن الرجل من أهل النار يرى أخاه أو قرينه فى الجنة؛ فيقول له من النار: يا أخى أغثنى بشربة ماء فقد احترقت. فيقول: إن الله حرمه على الكافرين؛ فذلك قول الله - تعالى -: ﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾»(٢) يعنى: الطعام والشراب، وهذا تحريم منع لاتحريم تعبد، واعلم أن لسقى الماء أجر عظيم، وفى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «من سقى مؤمناً شربة ماء؛ بعّده الله من جهنم شوط فرس».

(١) فى «ك»: لم يدخلوا.

(٢) رواه الطبرى فى التفسير (٨/١٤٤) عن ابن عباس، قوله. وعزاه السيوطى فى الدر (٣/٩٨) لابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

قوله – تعالى –: ﴿الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا﴾ معناه: أكلا وشربا، قاله عبد الله بن الحارث، وقيل: معناه: الذين كانت همتهم الدنيا، واشتغالهم بها؛ فهم الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وغرتهم الحياة الدنيا.

﴿فاليوم ننساهم﴾ أي: نتركهم ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي: كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ أي: أتيناهم بالقرآن ﴿فصلناه﴾ أي: بينا ما فيه من الحلال والحرام ﴿على علم﴾ أي: على علم بما يصلحهم، وقيل: معناه: على علم بالثواب والعقاب ﴿هدى﴾ أي: هاديا ﴿ورحمة﴾ أي: ذو رحمة ﴿لقوم يؤمنون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿هل ينظرون﴾ أي: هل ينتظرون ﴿إلا تأويله﴾ قال مجاهد: (معناه)[1] إلا جزاءه، وقال قتادة: إلا عاقبته، وحقيقة المعنى: أنهم هل ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من مصير أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار ﴿يوم يأتى تأويله﴾ أي: جزاؤه، وما يؤول إليه أمرهم.

﴿يقول الذين نسوه﴾ أي: تركوه من قبل ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ اعترفوا به حين لاينفعهم الاعتراف ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد﴾ يعنى: إلى الدنيا ﴿فنعمل غير الذى كنا نعمل﴾ ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ أي: نقصوا حق أنفسهم ﴿وضل عنهم﴾ أي: ذهب وفات عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾.

(١) فى «ك»: هل ينظرون.

قوله تعالى: ﴿إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام﴾.

قال مجاهد: هى من يوم الأحد إلى الجمعة، فإن قيل: كيف قال: فى ستة أيام، ولم تكن أيام حين خلق السموات والأرض؟ قيل: وما يدرينا أنها لم تكن، بل كانت؛ فإن الله - تعالى - أخبر، وقوله وخبره صدق، وقيل: يجوز أن يكون المراد به على تقدير ستة أيام، فإن قيل: وما الحكمة فى خلقها فى ستة أيام، وكان قادراً على خلقها فى طرفة عين؟ قيل: لأن خلقها على التأنى أدل على الحكمة، فخلقها على التأنى ليكون أدل على حكمته، ولطف تدبيره، وفيه أيضًا تعليم الناس، وتنبيه العباد على التأنى فى الأمور، وفى الخبر «التأنى من الله، و العجلة من الشيطان»[(١)].

﴿ثم استوى على العرش﴾ أوَّلَ المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأنشدوا فيه:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، والإيمان به واجب، كذلك يحكى عن مالك بن أنس، وغيره من السلف، أنهم قالوا فى هذه الآية: الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

﴿يغشى الليل النهار﴾ أى: يغطى الليل على النهار، وفيه حذف، وتقديره: يغشى الليل النهار، ويغشى النهار الليل؛ كما قال فى آية أخرى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾[(٢)] ﴿يطلبه حثيثا﴾ أى: سريعا، وذلك أنه لما كان

---

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده (٧/٢٤٨/رقم ٤٢٥٦) والبيهقى فى الكبرى (١٠/١٠٤) من حديث أنس، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٢): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح. وكذا قال المنذرى فى الترغيب (٢/٢٥١). وعزاه الحافظ ابن حجر فى المطالب (٣/٣٥/ رقم ٢٨١٢) لابن أبى شيبة، وأحمد بن منيع، والحارث بن أسامة. وقال البوصيرى: رجاله ثقات.

ورواه الترمذى من حديث سهل بن سعد (٤/٣٢٢/ رقم ٢٠١٢) وقال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث فى عبد المهيمن بن عباس بن سهل، وضعفه من قبل حفظه.

(٢) الزمر: ٥.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ

يعقب أحدهما الآخر، ويخلفه على أثره فكأنه فى طلبه.

﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أى: مذللات بما أريد منها ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ أى: تعالى بالوحدانية.

قوله - تعالى -: ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ أى: ضارعين متذللين خاشعين، وخفية أى: سرا ﴿إنه لايحب المعتدين﴾ قال ابن جريج: الجهر بالدعاء عدوان، وفى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «سيكون أقوام يعتدون فى الطهور والدعاء»(١) وروى: «أنه ﷺ رأى أقواما يصيحون بالدعاء، فقال لهم: أربعوا على أنفسكم، فإنكم لاتدعون [أصما](٢) ولا غائبا، وإنما تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم»(٣) بالعلم والقدرة وقيل: من الاعتداء فى الدعاء: أن يسأل لنفسه درجة ليس من أهلها؛ بأن يسأل درجة الأنبياء، وليس بنبىّ، ودرجة الشهداء، وليس بشهيد.

قوله - تعالى -: ﴿ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ أى: بعد إصلاح الأرض بالدين والشريعة، وقال الضحاك: من الفساد فى الأرض تغوير المياه، وقطع الأشجار المثمرة، وكسر الدراهم والدنانير.

﴿وادعوه خوفا وطعمًا﴾ أى: خوفامن الله وطمعًا لثوابه ﴿إن رحمة الله قريب

(١) رواه أبو داود (١/٢٤/ رقم ٩٦)، وابن ماجة (٢/١٢٧١/ رقم ٣٨٦٤)، وأحمد فى مسنده (٤/٨٦، ٨٧) وابن أبى شيبة (١٠/٢٨٨)، وابن حبان - الإحسان (١٥/١٦٦-١٦٧/ رقم ٦٧٦٣، ٦٧٦٤) والحاكم (١/١٦٢، ٤٥٠) وصحح إسناده، وأعله الذهبى فى الموضع الأول بالإرسال. كلهم من حديث عبدالله بن مغفل.
وروى من حديث سعد بن أبى وقاص، رواه أبو داود (١/٧٧/ رقم ١٤٨٠)، وأحمد (١/١٧٢، ١٨٣)، وابن أبى شيبة (١٠/٢٨٨)، والطبرانى فى الدعاء (٢/٨٠٩ - ٨٠١/ رقم ٥٥،٥٦) وفيه راو لم يسم.

(٢) فى «الأصل»، و «ك»: أصم.

(٣) متفق عليه من حديث أبى موسى، فرواه البخارى (١١/٥٠٩/ رقم ٦٦١٠)، ومسلم (١٧/٤١-٤٣/ رقم ٢٧٠٤).

الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

من المحسنين ﴾ فإن قيل: القريب نعت المذكر، والرحمة مؤنثة، والله – تعالى – قال: قريب، ولم يقل: قريبة؛ قيل: قال الزجاج: الرحمة هاهنا بمعنى العفو والغفران، وقال الأخفش: هى بمعنى الإنعام؛ فيكون النعت راجعا إلى المعنى دون اللفظ، قال الفراء: إذا كان القرب فى النسب؛ فنعت المؤنث منه يكون على التأنيث، وأما القرب فى غير النسب؛ فالنعت منه يذكر ويؤنث، وأنشدوا فيه:

عشية لاعفراء منك قريبة فتدنو ولا عفراء منك بعيد

فذكر النعت مرة على التأنيث، ومرة على التذكير.

قوله – تعالى –: ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا ﴾ يقرأ: «بُشْرًا» من البشارة، ويقرأ: «نُشْرا» وهو جمع النشور، كالرسول والرسل، وذلك ريح طيبة، ويقرأ: «نَشْرا» بجزم الشين[1]، وهو جمع النشور أيضا كالرسول والرسل والكتاب والكتب.

﴿ بين يدى رحمته ﴾ يعنى: المطر ﴿ حتى إذا أقلت ﴾ أى: حملت ﴿ سحابا ثقالا ﴾ يعنى: بالماء ﴿ سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ استدل بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى، وفى ذلك دليل بيّن، وفى بعض الأخبار: «أن بين النفختين أربعين عاما فيرسل الله – تعالى – مطرا من السماء كمثل منى الرجال، فيدخل الأرض؛ فينبت منه الناس، ثم يحشرون بالنفخة الثانية»[2].

---

(١) قرأ عاصم بالباء الموحدة وضمها وإسكان الشين، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها وإسكان الشين، وقرأ حمزة، والكسائى، وخلف بالنون وفتحها وإسكان الشين، وقرأ الباقون بالنون وضمها، وضم الشين. انظر النشر (٢/ ٢٧٠).

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، فرواه البخارى (٨/ ٤١٤/ رقم ٤٨١٤)، ومسلم (١٨/ ١٢٢ – ١٢٣/ رقم ٢٩٥٥). وفيه: أربعون فقط، وسأل أبو هريرة عن الأربعين هل هى أربعون يومًا، أم شهرًا، أم عامًا؟ فقال: أبيت.

﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾

قوله – تعالى –: ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ ﴿ والذى خبث ﴾ يعنى: الأرض السبخة ﴿ لايخرج إلا نكدا ﴾ أى: نزرا قليلا، قال الشاعر:

فأعـط ما أعطيتهُ طيـبا   لاخيرَ فى المنكود والناكد

وهذا مثل ضربه الله – تعالى – للمؤمنين وللكافرين؛ فإن المؤمن يخرج ما يخرج من نفسه من الإيمان والخيرات سهلا سمحا، والكافر يخرج ما يخرج من الخيرات نزرا قليلا ﴿ كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ ذكر فى هذه الآية قصة نوح وقومه، وسيأتى.

﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين، قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من ربِّ العالمين ﴾ علّم الله – تعالى – الناس بذكر قوله حسن الجواب، حيث قال: «ليس بى ضلالة» ولم يقل: أنتم الضلال، كما جرت عادتنا.

قوله – تعالى –: ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ﴾ النصح: هو أن يريد لغيره من الخير مثل ما يريد لنفسه، ومعناه: أرشدكم أنى أريد لنفسى ما أريد لكم ﴿ وأعلم من الله مالاتعلمون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ العجب: هو تغيير النفس عند رؤية أمر خفى عليه باطنه ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ﴾ أى: فى السفينة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا

﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وستأتى القصة ﴿ إنهم كانوا قوما عمين ﴾ أى: عن الحق.

قوله - تعالى -: ﴿ وإلى عاد ﴾ أى: وأرسلنا إلى عاد ﴿ أخاهم هودا ﴾ قال الفراء: كان أخاهم فى النسب لا فى الدين، وقيل: أراد به: كان آدميا مثلهم ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾.

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة ﴾ أى: فى حمق وجهالة ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ وهو أيضا من حسن الجواب ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾ وقد بيّنا معنى النصح.

قوله - تعالى -: ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء ﴾ يعنى: فى الأرض ﴿ من بعد قوم نوح ﴾ أى: من بعد إهلاكهم.

﴿ وزادكم فى الخلق بسطة ﴾ وأراد به: البسطة فى الطول، قال محمد بن إسحاق ابن يسار[1] والسدى: كانت قامة الطويل من قوم عاد مائة ذراع، وقامة القصير منهم ستين ذراعا ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾.

(١) فى «ك»: بشار، وهو تصحيف، وهو محمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر، الإمام المعروف صاحب المغازى.

آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ

قوله – تعالى –: ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ يعنى: من الأصنام ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أى: من العذاب ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ الرجس والرجز: هو العذاب، والغضب: السخط ﴿ آتجادلوننى فى أسماء ﴾ أى: لأجل أسماء ﴿ سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أى الأصنام نحتموها وسميتموها أنتم وآباؤكم ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أى: برهان ﴿ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ ﴿ فأنجيناه والذين معه ﴾ هودا وقومه ﴿ برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين ﴾ أى: قطعنا أصلهم، واستأصلناهم بالعذاب.

قوله – تعالى – ﴿ وإلى ثمود أخاهم ﴾ أى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم ﴿ صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ سألوه أن يخرج من الصخرة ناقة، وأشاروا إلى صخرة صماء ملساء؛ فدعا صالح – عليه السلام – فتمخضت الصخرة كما تتمخض الحبلى، وأخرجت الناقة؛ فخرجت وألقت «سَقْبًا»[1] من ساعتها ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ﴾ قيل: كان لهم وادٍ يشربون منه فجعلوا يوما للناقة، ويوما لهم؛ فتشرب الناقة يومها جميع ماء الوادى، وتبدلهم بذلك لبنا ﴿ ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾.

(١) السقب: هو ولد الناقة انظر لسان العرب (مادة: سقب).

مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

قوله – تعالى –: ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم فى الأرض ﴾ أى: أنزلكم، قال الشاعر:

فبوئت فى صميم معشرها   فتـمَّ فى قومهـا مبوَّؤهـــا

﴿ تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ﴾ كانوا فى الصيف يسكنون فى بيوت من الطين، وفى الشتاء يسكنون فى بيوت نحتوها فى الجبل، وقيل: إنما كانوا ينحتون البيوت فى الجبل؛ لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم؛ لطول أعمارهم. ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أى نعم الله ﴿ ولاتعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ العيث: أشد الفساد.

قوله – تعالى –: ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ يعنى: قال الكفار منهم للمؤمنين ﴿ أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ﴾ وهذا استفهام أريد به الجحد؛ لأنهم كانوا يجحدون إرساله ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ﴾ العتو الغلو فى الباطل ﴿ وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ﴾ أى: من العذاب ﴿ إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة ﴾ الرجفة: زلزلة الأرض وحركتها، وكانوا قد أهلكوا بالصيحة والرجفة ﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ أى: خامدين ميتين، ومنه الرماد الجاثم، وقيل: جاثمين أى: خارّين على ركبهم ووجوههم، وقيل: إنهم احترقوا بالصاعقة حتى صاروا كالرماد الجاثم.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

قوله – تعالى –: ﴿ فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين ﴾ فإن قال قائل: كيف خاطبهم وقد هلكوا؟ قيل: هو كما خاطب الرسول ﷺ الكفار القتلى يوم بدر حين ألقاهم فى القليب؛ جاء إلى رأس البئر، وقال: «ياعتبة، ياشيبة، ويا أبا جهل، قد وجدت ماوعدنى ربى حقا؛ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فقال عمر: يارسول الله، كيف تخاطب قوما قد جيفوا؟ فقال ﷺ: ما أنتم بأسمع منهم؛ ولكنهم لايقدرون على الإجابة»(١) وقيل: إنما خاطبهم به؛ ليكون عبرة لمن خلفهم، وقيل: فى الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: فتولى عنهم، فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا فى دارهم جاثمين، وذلك أن الله – تعالى – ما كان ليعذب قوما ونبيهم بينهم.

وروى أبو الزبير عن جابر: «أن النبى ﷺ مرّ بمنازل ثمود فى أراضى تبوك، فقال لأصحابه: يا أيها الناس، لاتسألوا الله الآيات؛ فإن هؤلاء سألوا الناقة؛ فأخرجها الله لهم؛ فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعقروها؛ فأنزل الله عليهم العذاب فلم ينج منهم أحد إلا رجل كان فى الحرم؛ فلما خرج أصابه ما أصابهم من العذاب وكان ذلك الرجل يكنى أبا رغال»(٢).

قوله – تعالى –: ﴿ ولوطا إذ قال لقومه ﴾ أى: وأرسلنا لوطا، واذكر لوطا إذ قال لقومه ﴿ أتاتون الفاحشة ﴾ الفاحشة: الفعلة القبيحة التى هى فى غاية القبح ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: إن تلك الفعلة لم

---

(١) متفق عليه من حديث أنس عن أبى طلحة، رواه البخارى (٧/ ٣٥٠ – ٣٥١ / رقم ٣٩٧٦)، ومسلم (١٧/ ٣٠٠ / رقم ٢٨٧٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٩٦)، والطبرى فى التفسير (٨/ ١٦٢)، والطبرانى فى الأوسط – مجمع البحرين – (٦/ ٣٦/رقم ٣٣٣٩)، وابن حبان – الإحسان – (١٤/ ٧٧/رقم ٦١٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٤٠ – ٣٤١) وصحح إسناده.

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤١): رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار، وأحمد بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح.

أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ

يفعلها أحد قبلهم ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ فسّر تلك الفاحشة ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أى: مجاوزون حد الأمر.

قوله – تعالى –: ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ معناه: يتنزهون عن أدبار الرجال، قال قتادة: ذموهم من غير ذم، وعابوهم من غير عيب.

قوله – تعالى –: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أى: من الباقين فى العذاب؛ يقال: غبر إذا بقى. وأنشدوا:

ولست يامعـد فى الرجـال … أسـائل هـذا وذا ما الخبـر
ولكنـى مدده الأصفر بن قيس … بمـا قـد مضى وما غبـر

وقيل معناه: من الغابرين عن النجاة.

قوله – تعالى –: ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ فى القصة: أن الله – تعالى – أرسل جبريل – صلوات الله عليه – حتى قلع مدينتهم، وقيل: كانت مدائن قلعها ورفعها إلى السماء ثم قلبها؛ وبذلك سمّوا مؤتفكة؛ لأنهم قلبوا وأفكوا، وأما الإمطار بالحجارة، كان على من شذ منهم فى الطرق، وقيل: بعدما قلبهم أمطر عليهم بالحجارة ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وإلى مدين﴾ أى: وأرسلنا إلى مدين، قيل: هو مدين بن إبراهيم الخليل – صلوات الله عليه – وكان أولئك من نسله، وقيل: ليس بذاك، وإنما هو اسم قبيلة.

مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ

وقوله : ﴿ أخاهم شعيبا ﴾ أى: فى النسب لا فى الدين ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ فإن قال قائل: ما معنى قوله ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ ولم تكن لهم آية؟ قيل: بل كانت لهم آية؛ إلا أنها لم تذكر فى القرآن، وليست كل الآيات مذكورة فى القرآن ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ﴾ وكانوا يعبدون الأصنام، ويبخسون فى الموازين ﴿ ولاتبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أى: لاتنقصوهم من حقوقهم.

﴿ ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ يعنى: إصلاحها ببعث الرسول والأمر بالعدل ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ يعنى: إن آمنتم فذلك خير لكم، وقيل: معناه: ما كنتم مؤمنين.

قوله – تعالى –: ﴿ ولاتقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أى: طريق، قال الشاعر:

حَشَوْنَا قومهم بالخيل حتى ... جعلناهم أذل من الصِّــــراطِ

يعنى: من الطريق.

﴿ توعدون وتصدون عن سبيل الله ﴾ قيل: إنهم كانوا يبعثون إلى الطرق من يهدد الناس، فكان الرجل إذا أراد الإيمان بشعيب وقصده يهددونه ويقولون: إن آمنت بشعيب نقتلك؛ فهذا معنى قوله: ﴿ توعدون ﴾ أى: تهددون. والإيعاد: التهديد، وأما الوعد فيذكر فى الخير والشر؛ إذا ذكر الخير والشر مقرونا به، فأما إذا أطلق فلا يذكر إلا فى الخير، أما فى الشر عند الإطلاق، يقال: أوعد.

﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن ﴾ أى: تمنعون عن الدين من قصد الإيمان ﴿ وتبغونها عوجا ﴾ أى: تطلبون الاعوجاج فى الدين، والعدول عن القصد؛ قاله الزجاج، وذكر الأزهرى فى التقريب: أنه يقال: فى الدين عوج، وفى العود عوج.

وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا

﴿ واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ﴾ أى: فى العدد، وقيل معناه: إذ كنتم قليلا أى: بالمال؛ فكثركم بالغنى ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أى: ممن كان قبلكم.

قوله - تعالى -: ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ﴾ وذلك أن بعضهم آمن، وبعضهم كفر ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ قاله كفار قومه ﴿ قال أو لو كنا كارهين ﴾ يعنى: تفعلون هذا، وإن كنا كارهين ﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذْ نجانا الله منها ﴾ فإن قيل: كيف يصح لفظ العود من شعيب، ولم يكن على ملتهم قط؟ قيل معناه: إن صرنا فى ملتكم، وعاد بمعنى صار وكان ، كما قال الشاعر:

لئن كانت الأيام أَحْسَنَّ مرة [إلىَّ][(١)] فقد عـادت لهـن ذنوب

أى: كانت لهن ذنوب.

وقوله: ﴿ بعد إذ نجانا الله منها ﴾ يعنى: من الدخول فى ملتهم ابتداء، وقيل المراد به: قوم شعيب ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ فإن قيل: وهل يشاء الله عودهم إلى الكفر؟ قيل: وما المانع منه؟ وإنما الآية على وفق قول أهل السنة، وكل ذلك جائز فى المشيئة، ويدل عليه قوله: ﴿ وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ أى: اقض بالحق، فإن قيل: كيف طلب

(١) فى «الأصل»: أى.

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ

القضاء من الله بالحق، وهو لايقضى إلا بالحق، قيل: ليس ذلك على طريق طلب القضاء الحق، وإنما هو على نعت قضائه بالحق؛ فإن صفة قضائه الحق، وهو مثل قوله – تعالى –: ﴿ قال رب احكم بالحق ﴾[1] فى سورة الأنبياء ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا ﴾ يعنى: فى دينهم ﴿ إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ وقد بيّنا هذا فى قصة ثمود.

قوله – تعالى –: ﴿ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى: كأن لم يقيموا فيها، يقال: غنيت بموضع كذا، أى أقمت، والمغانى: المنازل؛ قاله ثعلب، وقال الشاعر، وهو حاتم الطائى:

عنينا زمانا بالتصعلك والغنى ... وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

فما زادنا بأوًا على ذى قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وقال الأخفش: معنى قوله: ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى: كأن لم يتنعموا فيها ﴿ الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى ﴾ أى: أحزن ﴿ على قوم كافرين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ﴾.

قال ابن مسعود: البأساء: الفقر، والضراء: المرض؛ وهذا معنى قول من قال:

(١) الأنبياء: ١١٢.

أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ

البأساء فى المال، والضراء فى النفس، وقيل: البأساء: الجوع، والضراء: الفقر، وقيل: أخذنا أهلها بالبأساء يعنى: بالحروب ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أى: لكى (يتضرعوا)[1].

قوله – تعالى –: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ قال مجاهد: السيئة: الشدة، والحسنة: الخصب ﴿حتى عفوا﴾ أى: حتى كثروا، ومنه قول النبى ﷺ: «قصوا الشوارب واعفوا اللحى»[2] أى: كثّروا اللحى، وقيل: حتى عفوا: حتى سمنوا.

﴿وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء﴾ أى: هذا كان عادة الدهر قديما لنا ولآبائنا؛ فلم ينتبهوا لما أصابهم من الشدة ﴿فأخذناهم بغتة﴾ أى: فجأة ﴿وهم لايشعرون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ يعنى: من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، وقيل: بركات السماء: إجابة الدعوات، وبركات الأرض: تسهيل الحاجات ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

قوله – تعالى –: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ يعنى: أن يأتيهم عذابنا ليلاً ونهارًا

---

(١) فى «ك»: يتضرعون.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر، فرواه البخارى (١٠/٣٦٣/ رقم ٥٨٩٣)، ومسلم، (٣/١٨٧/ رقم ٢٥٩) بلفظ «احفوا الشوارب واعفوا اللحى».

ورواه مسلم (٣/١٨٨/ رقم ٢٦٠)، وأحمد (٢/٢٢٩) وغيرهما من حديث أبى هريرة بلفظ المصنف.

﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

﴿ وهم يلعبون ﴾ وكل من اشتغل بما لايجزى عليه؛ فهو لاعب.

قوله – تعالى –: ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ أى: عذاب الله، ومكر الله أخذه فجأة ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ يعنى: أو لم يتبين للذين يرثون الأرض من بعد هلاك قومها ﴿ أن لو نشاء أصبناهم ﴾ يعنى: أنا لو نشاء أخذناهم ﴿ بذنوبهم ﴾ ﴿ ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ﴾ أى: نختم على قلوبهم حتى لايفقهوا ولايسمعوا.

قوله – تعالى –: ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ هذا فى قوم مخصوصين، علم الله أنهم لايؤمنون ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ أى: من وفاء بالعهد، قال السدى: هو العهد يوم الميثاق، لم يوفوا به ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أى: ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين، قيل: أراد بالفسق ها هنا الخروج عما يقتضيه دينهم من الوفاء بالعهد، وكان هذا من بعضهم دون بعض.

قوله – تعالى –: ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها ﴾ وقد بينا أن الظلم: وضع الشىء فى غير موضعه، وظلمهم: وضع الكفر موضع

فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن

الإيمان ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول ﴾ أى: حقيق بأن ألا أقول، وهكذا قرأ ابن مسعود، ومعناه: حريص بأن لا أقول على الله إلا الحق، وقرئ: «حقيق عليَّ»[1] أى: واجب عليَّ أن لا أقول على الله إلا الحق.

﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ وذلك أنه أراد موسى أن يخرج بهم إلى الشام ﴿ قال ﴾ - يعنى: فرعون - ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿ فألقى عصاه ﴾ قيل: إن ملكا أعطاه تلك العصا، وللعصا قصة، ستأتى فى قصة شعيب فى سورة القصص إن شاء الله.

﴿ فإذا هى ثعبان مبين ﴾ الثعبان: الحية الذكر، وفى القصص: أن موسى - صلوات الله عليه - لما ألقى العصا، صارت ثعبانا عظيما، ملأ قصر فرعون، وقيل: كان بين شدْقيه ثمانون ذراعا،وقيل: إنه أخذ قصر فرعون بين نابيه؛ فهرب منه فرعون وأخذه البَطَنُ فى ذلك اليوم أربعمائة مرة.

قوله - تعالى -: ﴿ ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ قيل: إنه نزع يده من جيبه، وقيل: من تحت إبطه ﴿ فإذا هى بيضاء ﴾ لها شعاع كالشمس يتلألأ، وكان موسى آدم اللون.

قوله - تعالى -: ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾ يعنى: موسى

(١) هى قراءة نافع، بتشديد الياء، وفتحها. انظر النشر (٢ / ٢٧٠).

يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن

﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ أى: بماذا تشيرون؟ قاله فرعون لقومه، وقيل: إن هذا من قول الملأ، قالوا لفرعون وخاصته: ماذا تأمرون وقيل: إنهم قالوا ذلك لفرعون خاصة؛ لكن ذكروا بلفظ الجمع تفخيماً وتعظيماً.

قوله - تعالى -: ﴿ قالوا أرجه وأخاه ﴾ أى: أرجئه، والإرجاء: التأخير، يقال: أرجأت أمر كذا، أى أخرّت، ومنه المرجئة، سمّوا بذلك؛ لتأخيرهم العمل فى الإيمان، فإنهم زعموا أن العمل ليس من الإيمان، ويقرأ: «ارجُه» من غير همز، قيل معناه: التأخير أيضا، قال المبرد: معناه: اتركه يرجو، ومعنى الكل واحد؛ فإنهم أشاروا عليه بتأخير أمره، وترك التعرض له، وذكر النقاش فى تفسيره: أنهم أشاروا بتأخيره؛ لأنه لم يكن فيهم ولد عاهر، إذ لو كان فيهم ولد عاهر لأشاروا بالقتل.

﴿ وأرسل فى المدائن حاشرين ﴾ هى مدائن الصعيد، وهو فوق مصر ﴿ يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ وفى القصة: أن فرعون أرسل أصحاب الشرط إلى تلك المدائن ليجمعوا السحرة و يأتوا بهم.

قوله - تعالى -: ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ وفيه حذف، يعنى: فأرسل؛ فجاء السحرة، واختلفوا فى عددهم، قال ابن عباس: كانوا اثنى وسبعين رجلاً، وقال كعب الأحبار: كانوا (اثنى)[1] عشر ألفا، وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفا. والمعروف أنهم كانوا سبعين ألفا.

﴿ قالوا إنّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم ﴾ لكم الأجر ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ أى: لكم المنزلة الرفيعة مع الأجر.

(١) فى «ك»: اثنا وهو خلاف الجادة.

تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ

قوله – تعالى –: ﴿قالوا ياموسى إما أن تلقى﴾ يعنى: العصا ﴿وإما أن نكون نحن الملقين﴾ يعنى: عصيّنا ﴿قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس﴾ أى: صرفوا أعين الناس عن إدراك حقيقتها؛ فعلوا من التمويه والتخييل، وهذا هو السحر.

﴿واسترهبوهم﴾ أى: السحرة طلبوا رهبة الناس؛ فرهبوهم، و قال المبرد: السين فيه زائدة، ومعناه: أرهبوهم ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تَلَقَّفُ ما يأفكون﴾ ويقرأ: «تَلْقَف ما يأفكون» مخففا[١]، ويقرأ فى الشواذ «تَلَقَّم» وقرأ سعيد بن جبير :«تلقم» مخففا، ومعنى الكل واحد. والتلقف: الأخذ بسرعة، ومعناه: تتلتقم ما يأفكون أى: ما يكذبون من التخاييل الكاذبة، وفى القصص: أن السحرة كانوا سبعين ألفا، مع كل واحد منهم عصا، فألقوا عصيهم؛ فإذا هى تتحرك كالحيات، ثم ألقى موسى عصاه؛ فصارت ثعبانا، وتلقف كل ذلك، وقصد الناس الذين حضروا؛ فوقع الزحام عليهم؛ فهلك خمسة وعشرون ألفا فى الزحام، ثم أخذه موسى؛ فصارت عصا كما كانت؛ فذلك قوله ﴿فإذا هى تلقف ما يأفكون﴾ قال الشاعر:

أنت عصا موسى التى لم تزل   تلقف ما يأفكه الساحر

وقال آخر:

إذا جاء موسى وألقى العصا   فقد بطل السحر والساحر

قوله – تعالى –: ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ قال الحسن، ومجاهد: معناه: ظهر الحق أى: ظهر عصا موسى على عصيِّهم، وقيل معناه: ظهرت نبوّة موسى على دعوى فرعون الربوبية ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ أى: ذليلين.

(١) هى قراءة حفص عن عاصم، وقرأ الباقون بتشديد القاف. انظر النشر (٢ / ٢٧١).

وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ

قوله – تعالى –: ﴿وألقى السحرة ساجدين﴾ واختلفوا فى سجودهم، قال بعضهم: ألهمهم الله – تعالى – أن يسجدوا فسجدوا، وقيل: إن موسى وهارون سجدا شكراً لله – تعالى – فوافقهم السحرة ﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾ قيل: إن فرعون لما سمع ذلك منهم قال: آمنتم بى؟ فقالوا: ﴿رب موسى وهارون﴾ وقال فرعون: ﴿آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة﴾ قال السدى: كان موسى قد قال لرئيس السحرة: إن غلبتك غدا لتؤمنن بى؟ فقال: لآتينك بسحر أغلبك، وإن غلبتنى آمنت بك فهذا معنى قول فرعون: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة﴾ أى: تدبير دبرتموه فى المدينة ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أى: لتغلبو ا أهلها ﴿فسوف تعلمون﴾.

﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ هددهم بهذه العقوبات، وهى معلومة ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فهذا قالوه تسلية لقلو بهم.

﴿وما تنقم منا﴾ أى: وما تكره منا، وقيل معناه: وما تعيب علينا ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ ﴿ربنا أفرغ﴾ أى: أنزل ﴿علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾.

قوله – تعالى –: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ وإنما سموا ملأ لمعنيين: أحدهما: أنهم كانوا يملئون صدور الناس هيبة، وقيل: لأنهم كانوا مليئين بما فوض إليهم.

﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض﴾ أرادوا بهذا الفساد: مخالفة أمر فرعون ﴿ويذرك وآلهتك﴾ وقرأ ابن عباس: «وإلاهتك» أى: عبادتك، وقيل: الإلاهة:

سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ

الشمس، وكان فرعون يعبد الشمس، قال الشاعر:

تروَّحنا من اللَّعْباء عَصْراً فأَعْجَلْنا الإلاهة أن تَؤُوبا[1]

أى: أعجلنا الشمس أن ترجع، والمعروف ﴿ويذرك وآلهتك﴾.

قال سليمان التيمى: وكان فرعون يعبد البقر[2]، وقال السدى: كان قد اتخذ أصناما، وقال لقومه: هذه آلهتكم، وأنا إله الآلهة[3]، وقال الحسن: كان قد علق على عنقه صليباً - وكان يعبده - فلذلك قالوا: «ويذرك وآلهتك» وهذا كان إغراء منهم لفرعون على موسى ﴿قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم﴾ وكان من قبل يفعل ذلك ثم تركه، ثم عاد إليه ثانياً فقال: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾.

قوله - تعالى -: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يُورِثُها﴾ وفى الشواذ: «يورّثها» ﴿من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ أى: فى النصر والظفر.

قوله - تعالى -: ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ فيه أقوال:

قال الحسن: كان الإيذاء بأخذ الجزية؛ كان فرعون يأخذ الجزية منهم قبل مجىء موسى وبعده، وقيل: هو من قتل الأبناء؛ كان يقتل أبناءهم، ويستحيى نساءهم قبل مجىء موسى؛ ثم عاد إليه، وذكر جويبر فى تفسيره: أن المراد به أن فرعون كان يسخّرهم ويستعملهم إلى نصف النهار، فلما جاء موسى استسخرهم كل النهار بلا أجر ولاشىء، وذكر الكلبى: أنهم كانوا يضربون له اللَّبِن بتبن فرعون قبل مجىء

(١) فى «ك»: يتوبا.

(٢) فى «ك» فرعون.

(٣) فى «ك» آلهتكم.

فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

موسى، فلما جاء موسى أجبرهم على أن يضربوه بتبن من عندهم.

﴿ قال عسى ربكم ﴾ وهى كلمة التطميع ﴿ أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ يعنى: حتى يجازيكم على ما يرى واقعا منكم لا على ما علم فى الغيب منكم.

قوله – تعالى –: ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ أى: بالقحط والجدب.

تقول العرب جاءتنا سَنَة أى: سنة جدب؛ فأخذهم الله – تعالى – بالسنين ﴿ ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ أى: يتعظون؛ وذلك أن الشدة ترقق القلوب وترغبها إلى الله – تعالى –.

قوله – تعالى –: ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أى: الخِصْب ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أى: هذا كان عادة الدهر بنا ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أى: جدب ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أى: يقولون: هذا من شؤم موسى ومن معه ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أى: الشؤم والبركة والخير والشر كله من الله – تعالى – وقيل معناه: الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله – تعالى – فى الآخرة، تقول العرب: طار لفلان سعد، وطار لفلان شؤم ﴿ و لكن أكثرهم لايعلمون ﴾.

قوله – تعالى –: ﴿ وقالوا مهما ﴾ أى: متى ما ﴿ تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ قال عطاء: أراد بالطوفان: الموت الذريع، وقيل: السيل العظيم، وفى القصة: أنهم مُطروا من السبت إلى السبت، حتى بلغ الماء تراقيهم، فكان الرجل إذا أراد أن يجلس غرق فى الماء؛ فاستغاثوا بموسى وقالوا: ادع الله حتى يمسك ونؤمن لك؛ فدعا الله – تعالى – فأمسك عنهم المطر، فأخرجت

الأرض تلك السنة نباتا كثيرا وأخصبت، فقالوا: هذا كان خيرا لنا، فلم يؤمنوا وكفروا به؛ فأرسل الله عليهم الجراد؛ فأكل زرعهم ونباتهم إلا قليلا؛ فاستغاثوا بموسى حتى يدعو الله – تعالى – فيدفع عنهم ذلك.

وفى أخبار عمر – رضى الله عنه –: أنه قلَّ الجراد فى زمانه سنة، فبعث راكبًا قبل اليمن وراكبًا قبل الشام وراكبًا قبل العراق؛ ليطلبوا الجراد؛ فجاء راكب اليمن بكف من جراد، فقال عمر – رضى الله عنه – الله أكبر، إن لله – تعالى – ألف أمة: ستمائة فى البر، و أربعمائة فى البحر، وأول أمة تهلك الجراد، ثم تتبعهم سائر الأمم الباقين».

وفى الأخبار: أن مريم سألت [ربها][1]، وقالت: يارب أطعمنى لحما بلا دم؛ فأطعمها الجراد. وفى الخبر «مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم»[2].

رجعنا إلى القصة، فلما رفع عنهم الجراد لم يؤمنوا أيضا؛ فأرسل الله عليهم القُمَّل، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: القمل صغار الجراد، وهى: الدَّبَى التى ليست لها أجنحة، وعن ابن عباس – فى رواية أخرى – أن القمل: سُوس الحنطة. وقال أبو عبيدة: هو كبار القراد، وسمى القُرَاد الكبير: حَمْنَان أيضًا، وقيل: القُمَّل هو القمل، وقيل: هو الرعاف. فاستغاثوا بموسى، فدعا الله فرفع عنهم فلم يؤمنوا؛ فسلّط عليهم الضفادع.

وفى القصة: أن موسى جاء إلى شط البحر وأشار بعصاه إلى أدنى البحر وأقصاه، فخرجت الضفادع حتى امتلأت بيوتهم – وكانت قوافز – وكان الرجل منهم إذا فتح فاه ليتكلم تثب فى فيه، وكل من نام منهم فإذا انتبه من النوم يرى على بدنه منها قدر ذراع، وكان إذا تكلم الرجل تقفز فى فمه، ثم رفع عنهم فلم يؤمنوا؛ فجعل الله نيل مصر عليهم دمًا – وكان كل ذلك للقبط خاصة – وكان القبطى يأخذ من النيل الدم، وبنو إسرائيل يأخذون الماء، حتى كان الكوز الواحد يشرب القبطى منه دمًا عبيطًا[3]،

---

(١) فى «الأصل وك»: ربه.

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٣/١١٩) للحاكم فى تاريخه، والبيهقى بسند فيه مجهول عن ابن عمر قال: «وقعت جرادة بين يدى رسول الله ﷺ فاحتملها، فإذا مكتوب فى جناحها .. نحن جند الله العظيم...» وقال البيهقى: هذا حديث منكر.

(٣) عبيطا: هو الدم الطرى – النهاية فى غريب الحديث (٣/١٧٣)، وفى «ك» غبيطا، بالغين المعجمة، وهو تصحيف.

الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا

والإسرائيلى ماء؛ فذلك معنى قوله: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات ﴾ وتفصيلها أن كل عذاب منها يمتد أسبوعًا، وكان بين كل عذابين شهرٌ ﴿ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾ قيل: أراد به ما سبق من العذاب، وقيل: هو عذاب الطاعون، قال سعيد بن جبير: مات منهم بالطاعون سبعون ألفا فى يوم واحد، والرجز والرجس: العذاب.

﴿ قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ يعنى: من إجابة دعوتك ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾ فإنه أراد أن يخرج بهم إلى الشام ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه ﴾ وذلك الغرق فى اليَمِّ ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ أى: ينقضون العهد ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ وللغرق قصة ستأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾ قيل أراد بها أرض مصر والشام، وقيل: أراد بها الشام وحده، وقيل: أراد به الأردن وفلسطين، وقوله ﴿ باركنا فيها ﴾ أى: بالخصب والسعة.

﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ وتلك الكلمة: وعده الذى وعدهم، وذلك فى قوله: ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[1] فلما أورثهم تلك الأراضى وأنجزهم ذلك[2]

(١) القصص: ٥.

(٢) فى «ك»: تلك.

صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ

الوعد؛ قال: تمت كلمة ربك، أى: تم وعده لهم، وإنما سماها: حسنى لأنها كانت على وفق ما يحبون ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ أى: أهلكنا ذلك عليهم ﴿وما كانوا يعرشون﴾ أى يبنون ويسقفون تجبراً وتكبراً.

قوله - تعالى -: ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ أى: يلازمون عبادة تلك الأصنام، وهم قوم من العمالقة رآهم بنو إسرائيل عاكفين على أصنام لهم ﴿قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ ولم يكن ذلك من بنى إسرائيل شكًا فى وحدانية الله - تعالى - وإنما معناه: اجعل لنا شيئا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله - تعالى - وظنوا أن ذلك لايضر الديانة، وكان ذلك من شدة جهلهم.

﴿قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه﴾ أى: مُدمَّر ما هم فيه ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾.

﴿قال﴾ يعنى: موسى ﴿أغير الله أبغيكم إلها﴾ أى: أطلب لكم إلها تعظمونه غير الله ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ وفى الخبر المعروف: «أن رسول الله ﷺ لما رجع من حنين مرّعلى شجرة يقال لها: ذات أنواط، وقد عكف حولها قوم من الأعراب يعظمونها، وقد علقوا عليها أسلحتهم، فقال أصحابه: يارسول الله، لو جعلت لنا ذاتَ أَنْواط كما لهم ذاتُ أَنْواط. فقال - عليه الصلاة والسلام - الله أكبر، هذا مثل ما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾»[1].

(١) رواه الترمذى (٤/ ٤١٢-٤١٣/رقم ٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٣٤٦/ رقم ١١١٨٥)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، والطيالسى (ص١٩١/رقم ١٣٤٦)، والحميدى (٢/ ٣٧٥/ رقم ٨٤٨)، وعبد الرزاق (١١/ ٣٦٩/ رقم ٢٠٧٦٣)، وابن أبى شيبة (١٥/ ١٠١/ رقم ١٩٢٢٢)، وأبو يعلى (٣/ ٣٠/ رقم ١٤٤١)، وابن حبان - الإحسان - (١٥/ ٩٤/ رقم ٦٧٠٢) من حديث أبى واقد الليثى.

فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ

قوله – تعالى –: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾ أى: يذيقونكم شر العذاب، وقد ذكرنا معنى هذا فى سورة البقرة.

﴿يقتلون أبناءكم﴾ يعنى: صغار أبناءكم ﴿ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ قيل معناه: فى تعذيبهم إياكم بلاء من ربكم عظيم، وقيل: فى إنجائنا إياكم ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ أى: نعمة.

قوله – تعالى –: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾ قال المفسرون: هى أيام ذى القعدة وعشر من ذى الحجة ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ فإن قيل: ذكْر الثلاثين و العشر يغنى عن ذكر الأربعين، فما معنى هذا التكرار؟ قيل: كرره تأكيداً، وقيل: فائدة قوله: ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ قطع الأوهام عن الزيادة؛ لأنه لما وَقَّتَ الثلاثين أولاً، ثم زاد عليه عشراً، ربما يقع فى الأوهام زيادة أخرى، فذكره لقطع الأوهام عن الزيادة، وذكر الثلاثين فى الابتداء والعشر مفصلا: ليعلم أن الميقات كان كذلك مفصلا ثلاثين ذى القعدة وعشراً من ذى الحجة.

وفى القصة: أن الله تعالى أمر موسى أن يصوم ثلاثين يومًا ثم يأتى الطور ليكلمه؛ فصام ثلاثين يومًا ليلاً ونهاراً.

وفى بعض التفاسير: صام ثلاثين يومًا فتغيرت رائحة فمه، فأخذ ورق الخرنوب وتناوله؛ لتزول رائحة فمه، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرًا أخر؛ لتعود الرائحة، وتمام القصة فى الآية الثانية.

﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى﴾ استخلفه على قومه ﴿وأصلح﴾ أى: ارفق ﴿و لاتتبع سبيل المفسدين﴾ أى: لاتتبع آراءهم وأهواءهم.

﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ

قوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ يعنى الوقت الذى وقّت له على ما بيّنا ﴿وكلمه ربه﴾ وفى القصة: أن الله - تعالى - لما استحضره بجانب الطور [و][1]أنزل ظلمة على سبعة فراسخ، وطرد عنه الشيطان، ونحى عنه الملكين، وكلمه حتى أسمعه وأفهمه. وفى القصة: كان جبريل معه فلم يسمع ما كلمه ربه.

﴿قال ربّ أرنى أنظر إليك﴾ قال الزجاج: فيه حذف، وتقديره أرنى نفسك أنظر إليك. فإن قال قائل: كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله عز وجل لايرى فى الدنيا؟ قال الحسن: هاج به الشوق؛ فسأل الرؤية. وقيل: سأل الرؤية ظنًا منه أنه يجوز أن يرى فى الدنيا.

﴿قال لن ترانى﴾ يستدل من ينفى الرؤية بهذه الكلمة، وليس لهم فيها مستدل؛ وذلك لأنه لم يقل: إنى لا أُرى؛ حتى يكون حجة لهم؛ ولأنه لم ينسبه إلى الجهل فى سؤال الرؤية، كما نسب إليه قومه بقولهم: «اجعل لنا إلها كما لهم آلهة» لما لم يجز ذلك، وأما معنى قوله ﴿لن ترانى﴾ يعنى: فى الحال أو فى الدنيا.

﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى﴾ معناه: اجعل الجبل بينى وبينك؛ فإنه أقوى منك، فإن استقر مكانه فسوف ترانى؛ وفى هذا دليل على أنه يجوز أن يُرى؛ لأنه لم يعلّق الرؤية بما يستحيل وجوده؛ لأن استقرار الجبل مع تجليه له غير مستحيل، بأن يجعل له قوة الاستقرار مع التجلى.

﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ أن ظهر للجبل. قيل: إنه جعل للجبل بصراً وخلق فيه حياة، ثم تجلى له فتدكدك على نفسه. وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله - تعالى - تجلى للجبل بقدر أنملة الخنصر، ثم وضع ثابت إبهامه على أنملة خنصره، فقيل له: أتقول بهذا؟ فقال: يقول به أنس ورسول الله ﷺ، ولا

(١) من «ك».

مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ

أقول به أنا!: وضرب فى صدر القائل»(١) وفى بعض الروايات «أنه تجلى للجبل بقدر جناح بعوضة أو أقل».

﴿ جعله دكًا ﴾ قال ابن عباس: صار ترابا. وقال الحسن وسفيان: ساخ فى الأرض، وفى بعض التفاسير: أنه صار ستة أَجْبَل: ثلاثة بمكة: وذلك ثور وثبير وحراء، وثلاثة بالمدينة: رضوى وأحد وورقان، وقيل: انقلع الجبل من أصله، ووقع فى البحر، فهو يذهب فيه إلى يوم القيامة.

وأما من حيث اللغة: قال الزجاج: معنى قوله: ﴿ جعله دكًا ﴾ أى: مدكوكًا مدقومًا(٢)، وقرأ حمزة والكسائى: «جعله دكاء» ممدودًا(٣)، يقال: أرض دكاء إذا كان فيها ناتئ ومواضع مرتفعة كالقلال، والدَّكَّاوات: الرواسى من الأرض، ومعناه: أنه جعله كالأرض المرتفعة، وخرج من كونه جبلا.

وقوله: ﴿ وخرّ موسى صعقا ﴾ قال قتادة: أى ميتًا، وكان قد مات تلك الساعة. وقال الحسن وابن عباس: خر مغشيًا عليه. وهذا أليق بالنظم؛ لأنه قال ﴿ فلما أفاق قال سبحانك ﴾ وهذا التنزيه. ﴿ تبت إليك ﴾ يعنى: من سؤال الرؤية قبل الإذن ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ يعنى أنا أول المؤمنين بأن من يراك متجليا فى الدنيا لايستقر مكانه، وقيل معناه: أنا أول المؤمنين بأنك لاترى فى الدنيا.

(١) أخرجه الترمذى(٥/٢٤٨/رقم٣٠٧٤)،وأحمد (٣/١٢٥)،والطبرى(٩/٣٧)، وابن أبى عاصم فى السنة (ص ٢١٠/ رقم ٤٨٠)، وابن خزيمة فى التوحيد (ص٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٢٠ - ٣٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم، وابن عدى فى الكامل (٢/ ٢٦٠)، وابن الجوزى فى الموضوعات (١/١٣٣) وقال: وهذا حديث لا يثبت. قال ابن عدى: كان ابن ابى العرجاء ربيب حماد بن سلمة، فكان يدس فى كتبه هذه الأحاديث. ورواه ايضًا عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، وأبو الشيخ، والبيهقى فى كتاب الرؤية كما فى الدار (٣/١٢٩). وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة. وقال الذهبى فى تلخيص الموضوعات - بتحقيقنا - رقم (١٨): سنده قوى مع نكارته. وراجع كلام المعلمى - رحمه الله - فى الفوائد المجموعة (ص ٤٤٦).

(٢) مدقومًا: أى مكسوراً، لسان العرب (١٢/ ٢٠٣).

(٣) وهى قراءة خلف أيضًا. انظر النشر (٢/ ٢٧١ - ٢٧٢).

إِنّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ

قوله تعالى: ﴿ ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ فإن قال قائل: قد أعطى غيره الرسالات، فما معنى قوله: ﴿ اصطفيتك على الناس برسالاتى ﴾؟ قيل: لما لم يكن إعطاء الرسالة على العموم فى حق الناس، استقام قوله: ﴿ اصطفيتك على الناس برسالاتى ﴾ وإن شاركه فيها غيره، وهذا مثل قول الرجل: خصصتك بمشورتى، وإن شاور غيره، لكن لما لم تكن المشاورة على العموم؛ استقام الكلام. ﴿ فخذ ماآتيتك وكن من الشاكرين ﴾ لما أنعمت عليك من إعطاء الرسالة والكلام، وهذه الآية فى تسلية موسى - صلوات الله عليه - حيث سأل الرؤية فلم يحظ بها.

قوله تعالى: ﴿ وكتبنا له فى الألواح ﴾ وأراد به التوراة، وفى الخبر: «أن الله - تعالى - خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده»[1].

واختلفوا فى تلك الألواح، قال الحسن: كانت الألواح من خشب، وقال مجاهد: كانت من زبرجد أخضر، وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوتة حمراء، وقال أبو العالية: كانت من برد. وقيل: نزلت الألواح والتوراة مكتوبة عليها كنقش الخاتم.

﴿ من كل شىء موعظة ﴾ أى: تذكرة، وحقيقة الموعظة: هى التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته. ﴿ وتفصيلا لكل شىء ﴾ أى: بيانا للحلال والحرام وما أمروا به، وما نهو عنه ﴿ فخذها بقوة ﴾ أى: بجد واجتهاد، وقيل معناه: بقوة القلب.

﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ قال قطرب: أى: بحسنها. واعلم أن الأحسن ما

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة (ص٢٧ / رقم ٤١)، والخرائطى فى مساوئ الأخلاق (ص١٦٢ / رقم ٤٢٦)، وأبو الشيخ فى العظمة (ص ٣٧٢ / رقم ١٠٢٩) وأبو نعيم فى صفة الجنة (ص١١ / رقم ٢٣)، والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص٤٠٣) عن عبد الله بن الحارث. وقال البيهقى: هذا مرسل.
وعزاه السيوطى بنحوه فى الدر (٣ / ١٣٢) لعبد بن حميد عن مغيث الشامى، وللطبرانى فى السنة عن ابن عمر. وعزاه فى (٣ / ١٣١) لابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن حكيم بن جابر.

يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا

كان فيه من الفرائض المكتوبة والنوافل المندوب إليها فإنها الأحسن، وأما الحسن: ما كان مباحا، وقيل: معنى قوله: ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ أى: بأحسن الأمرين فى كل شيء، كالعفو أحسن من الاقتصاص، والصبر أحسن من الانتصار ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ وقرأ قَسَامة بن زهير: «سأُورِّثكم» من التوريث، فعلى هذا معناه: سأورثكم أرض مصر، وأما القراءة المعروفة «سأريكم» قال مجاهد وجماعة: سأريكم جهنم، وقيل: أرادبه مصارع الكفار. قال قتادة: دار الفاسقين أراد بها الشام؛ على معنى: أريكم فيها ما أهلكت من قرى الكفار قبلكم؛ لأن موسى خرج بهم إلى الشام.

قوله – تعالى –: ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ قال سفيان بن عيينة معناه: سأمنعهم فَهْمَ القرآن، قال الزجاج تقديره: سأصرفهم عن قبول آياتى، وأما التكبر: هو طلب الفضل من غير استحقاق.

﴿ وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ: «سبيل الرشاد» والمعروف: «سبيل الرُّشد» ويقرأ أيضا: «سبيل الرَّشَد»[1] والرَّشَد والرُشْد واحد، وهو الصلاح.

﴿ وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا ﴾ يعنى: سبيل الضلالة ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ لأنهم لما لم يتدبروا القرآن فكأنهم عنه غافلين ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ﴾ أى: بطلت أعمالهم ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم ﴾ ويقرأ: «من حِلِيِّهم»[2]

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف بفتح الراء والشين وقرأ الباقون بضم الراء، وإسكان الشين. انظر النشر (٢/٢٧٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ

﴿ عجلا جسدا له خوار ﴾ أى: جسد له خوار، ويقرأ فى الشواذ: «له جؤار» وهو بمعنى الخوار، وفى القصة: أن موسى – صلوات الله عليه – لما أراد الخروج إلى الطور قال لقومه: أرجع إليكم بعد ثلاثين يوما، فلما لم يرجع إليهم بعد الثلاثين ظنوا أنه مات، وكان السامرى فى بنى إسرائيل مطاعًا بينهم، وكان صائغا، فقال لهم: اجمعوا لى ما أخذتم من الحليّ من آل فرعون أصنع لكم شيئًا، فدفعوا إليه ما أخذوا من الحلى فصاغ منه العجل، قال الحسن: كان السامريّ قد رأى جبريل يوم غرق فرعون على فرس، فأخذ قبضة من أثر قدم فرسه.

قال عكرمة: أُلْقِيَ فى روعه أنه فى أى شىء ألقى تلك القبضة من التراب يحيا بها ذلك الشىء، وذلك أنه رأى مواضع قدم الفرس تخضر فى الحال وتنبت، فلما صاغ العجل أُلْقِي فى روعه أن يلقى تلك القبضة فى فمه فألقاها فى فم العجل فحيى، فصار لحما ودما من ذهب، وله خوار فإنه خار، ثم قال السامريّ: ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴾[1] على ما سيأتى فى قصته فى سورة طه، وقيل: إنه ما خار إلا مرة، وقيل كان يخور كثيراً، كما تخور البقرة، وكان كلما خار سجدوا له، وكلما سكت رفعوا رءوسهم.

وقال بعض المفسرين: لم تنبت فيه حياة أصلا، ولم يكن له خوار حقيقة، وإنما الذى سمعوا من الخوار كان بحيلة، والصحيح هو الأول. ثم اختلفوا فى عدد الذين عبدوا العجل، قال الحسن: كلهم عبدوه إلا هارون وحده، وقيل: – وهو الأصح –: عبده كلهم إلا هارون واثنا عشر ألف رجل منهم.

﴿ ألم يروا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلا ﴾ وهذا دليل على أن الله متكلم لم يزل ولايزال؛ لأنه استدل بعدم الكلام من العجل على نفى الإلهية.

---

(١) طه: ٨٨.

وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي

﴿ ولايهديهم سبيلا ﴾ أى: طريقا ﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ بوضع الإلهية فى غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿ ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ قال الفراء: تقول العرب: سقط فلان فى يده إذا بقى نادما متحيرا على ما فاته، كأنه حصّل الندم فى يده ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ قال أبو الدرداء: الأسف: شديد الغضب، وقيل: الأسف: أشد الحزن، وكأن موسى رجع نادمًا حزينًا يقول: ليتنى كنت فيهم فلم يقع لهم ما وقع.

﴿ قال بئسما خلفتمونى من بعدى ﴾ أى: (بئسما فعلتم خلفى)[1] ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ معناه: أسبقتم أمر ربكم، يعنى: بفعلكم الذى فعلتم من غير أمر ربكم، وقيل معناه: استعجلتم وعد ربكم.

﴿ وألقى الألواح ﴾ وكان حاملا لها، فالقاها على الأرض من شدة الغضب، وفى التفسير: أنه لما ألقاها رجع بعضها إلى السماء وبقى منها لوحان[2]، فرجع ما كان فيه أخبار الغيب، وبقى ما كان فيه الموعظة والأحكام من الحلال والحرام، وقيل: لما ألقى الألواح انكسر بعضها، فشدها موسى بالذهب ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ يعنى: هارون، وفيه حذف، وتقديره: وأخذ بشعر رأس أخيه ﴿ يجره إليه قال ابن أم ﴾ يعنى هارون قال لموسى: ابن أمّ، ويقرأ بكسر الميم ونصبها[3]، فأما بكسر الميم معناه يا ابن أمى، قال الشاعر:

---

(١) فى «ك» بئسما خلفتم بعدى.

(٢) فى «ك» لوحات.

(٣) قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائى، وخلف، وأبو بكر بكسر الميم وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢/ ٢٧٢).

وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

يا ابْنَ أُمِّى وياشُقَيِّقَ نَفْسِى　　　أنتَ خَلَّفتنى لأمـرٍ كَـؤودِ

وأما بنصب الميم، فوجه النصب فيه أن قوله: «ابن أمّ» كلمتان، لكنهما ككلمة واحدة، مثل قولهم: «حضر موت» و «بعلبك» ركب أحد الاسمين فى الآخر، فبقى على النصب تبيينا.

﴿إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى﴾ وفى القصة: أن هارون كان لما مضى ميقات الثلاثين يقوم بينهم خطيباً، فيخطب كل يوم ويبكى، ويقول: أنشدكم بالله لاتعبدوا العجل، فإن موسى راجع غدا - إن شاء الله - فهكذا كان يفعل ثلاثة أيام، فلما لم يرجع بعد الثلاث قالوا: إنه قد مات، فخلوه، وأقبلوا على عبادة العجل، فهذا معنى قوله: ﴿إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء﴾ والشماتة فعل ما يُسَرُّ به العدو ﴿ولاتجعلنى مع القوم الظالمين﴾ أى: لاتجعلنى مع الكافرين ومن جملتهم.

قوله تعالى: ﴿قال ربّ اغْفِر لى ولأخى﴾ يعنى ما فعلت بأخى من أخذ شعره، وجره، وكان بريئا، قوله: ﴿ولأخى﴾ يعنى: ما وقع له من تقصيره إن قصر ﴿وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ فيه حذف، وتقديره: اتخذوا العجل إلها ﴿سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا﴾ قيل: أراد بالذلة الجزية، وقيل: أرادبه قتل بعضهم بعضاً مع علمهم أنهم قد ضلوا ﴿وكذلك نجزى المفترين﴾ أى: كل مفتر على الله، ومن القول المعروف فى الآية عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا فى كل مبتدع إلى يوم القيامة.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ

قوله تعالى: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها﴾ أى: من بعد التوبة ﴿لغفور رحيم﴾.

قوله تعالى: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ وقرأ معاوية بن قُرَّة: «ولما سكن عن موسى الغضب» وفى مصحف ابن مسعود وأبى بن كعب: «ولما سيّر عن موسى الغضب» وفى مصحف حفصة: «وإنما أسكت عن موسى الغضب» ومعنى الكل واحد أى: سكن عن موسى الغضب. والسكوت والإسكات معروف، ويقال: رجلٌ سِكِّيتٌ إذا كان كثير السكوت.

﴿أخذ الألواح﴾ وذلك أنه كان ألقاها فأخذها ﴿وفى نسختها﴾ اختلفوا فيه، قال بعضهم: أراد بها الألواح؛ وذلك أنّ لها أصل نسخت منه، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: إن موسى لما ألقى الألواح انكسرت، فنسخ منها نسخة أخرى، فذلك المراد به من قوله: ﴿وفى نسختها هدى ورحمة﴾ أى: هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾.

قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾ فيه حذف، أى: من قومه ﴿سبعين رجلا لميقاتنا﴾ وفى هذا دليل على أن كلهم لم يعبدوا العجل - وهو الأصح - واختلفوا أنه لأى شىء اختارهم؟ قال بعضهم: إنما اختارهم ليعتذروا إلى الله من عبادة أولئك الذين عبدوا العجل، وقيل: إنما اختارهم ليسمعوا كلام الله؛ فإنهم سألوا ذلك موسى ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ قال مجاهد: رجفت بهم الأرض؛ فماتوا، وقيل: وقعت رعدة وزلزلة فى أعضائهم، حتى كاد ينفصل بعضها من بعض، وقيل: إنما أهلكهم عقوبة على ما سألوا من رؤية الله جهرة.

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ

﴿ قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ﴾ وذلك أن موسى ظن أن الله - تعالى - إنما أهلكهم بعبادة أولئك القوم العجل، وخاف أن بنى إسرائيل يتهمونه، ويقولون: إن موسى قتلهم؛ قال: ﴿ ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل ﴾ يعنى: عند عبادة العجل قبل أن آتى بهم ﴿ وإيّاى ﴾ بقتل القبطى الذى كان موسى قتله، وقيل: أراد به المشيئة الأزلية، كأنه فوّض إهلاكهم إلى مشيئته، أى: لو شئت فى الأزل أهلكتهم وإياى ومَنْ فى العالم، فلا اعتراض لأحد عليك.

﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ اختلفوا فيه أنه كيف قال: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، وكان يعلم أن الله - تعالى - لايهلك أحداً بذنب غيره؟ فقال بعضهم: هذا استفهام بمعنى الجحد، وهو قول ابن الأنبارى أى: لاتهلكنا بفعل السفهاء، وهذا مثل قول الرجل لصاحبه: أتجهل علىّ وأنا أحلم؟! أى: لا أحلم، ويقال فى المثل: أغدة كغدة البعير؟ وموت فى بيت السلوليّة؟[1] أى: لايكون هذا قط، وقال الشاعر:

أتنسى حين تَصقُل عارضَيها — بعودِ بَشامة سُقِىَ البَشامُ[2]

أى: لاتنسى، وقيل: هو استفهام بمعنى الإثبات، والمراد منه السؤال، كأنه يسأله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟.

﴿ إن هى إلا فتنتك ﴾ أى: بَلِيَّتُكَ ﴿ تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ واكتب لنا ﴾ أى: أوجب لنا ﴿ فى هذه الدنيا حسنة ﴾ وهى

(١) انظر مجمع الأمثال للنيسابورى (٢/٥٧/ رقم ٢٦٦٧).

(٢) هو بيت شعر لجرير، وصدر البيت فى اللسان: أتذكر يوم تصقل .. انظر لسان العرب. ونقل عن التهذيب: أتذكر إذ تودعنا سليمى.

أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي

النعمة والعافية ﴿ وفى الآخرة ﴾ أى: وفى الآخرة حسنة، فحذف.

﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أى: تبنا إليك، وقرأ أبو وجزة السعدى: «هدنا إليك» بكسر الهاء، أى: ملنا إليك ﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ﴾ وهذا على وفق قول أهل السنة؛ فإن للّه – تعالى – أن يصيب بعذابه من يشاء من عباده أذنب أو لم يذنب، وصحّف بعض القدرية، فقرأ[1]: «عذابى أصيب به من أساء» من الإساءة، وليس بشىء.

﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ قال الحسن وقتادة: وسعت رحمته البَرَّ والفاجر فى الدنيا، وهى للمتقين يوم القيامة، وفى الآثار: الرحمة مسجّلة للبر والفاجر فى الدنيا.

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾ وهذه فضيلة عظيمة لهذه الأمة، وذلك أن موسى – صلوات الله عليه – سأل أن يكتب الرحمة له ولأمته، فكتبها لأمة محمد ﷺ وفى الأخبار: «أن موسى – صلوات الله عليه – قال: يارب، إنى أجد فى التوراة أمة يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، فاجعلهم من أمتى، قال الله – تعالى –: تلك أمة أحمد. فقال: يارب إنى أجد فى التوراة أمة صدقاتهم فى بطونهم – يعنى: يأكلها فقراؤهم، وكانت صدقات قومه ومن قبلهم تأكلها النار – فاجعلهم من أمتى، فقال – تعالى –: تلك أمة أحمد. فقال: يارب، إنى أجد فى التوراة أمة هم آخر الناس خروجًا، وأوّل الناس فى الجنة دخولا، فاجعلهم من أمتى. فقال: تلك أمة أحمد. فقال: يارب، إنى أجد فى التوراة أمة أناجيلهم فى صدورهم، يراعون الشمس والأوقات لذكرك، فاجعلهم من أمتى. فقال: تلك أمة أحمد. فقال: يارب، إنى أجد

(١) فى «ك»: فقال.

التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا

فى التوراة أمة إذا هَمَّ أحدهم بحسنة كتبتها له حسنة، وإن عمل بها كتبتها له عشراً إلى سبعمائة ضعف، وإذا هَمَّ بسيئة لم تكتبها (عليه)[1]، فإن عمل بها كتبتها عليه واحدة، اجعلهم من أمتى، فقال: تلك أمة أحمد. فألقى الألواح، وقال: اللهم اجعلنى من أمة محمد»[2]. وهذا قول آخر، ذكر فى سبب إلقائه الألواح، والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى﴾ هو محمد ﷺ وقد بينا معنى الأمى فيما سبق.

﴿الذى يجدونه مكتوبًا﴾ أى: موصوفًا ﴿عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات﴾ يعنى: ما حرّمه الكفار من السوائب والوصائل والبحائر والحوامى، ونحو ذلك ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ وذلك مثل: الميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ الإصر: كل ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل، والإصر: العهد الثقيل، وإصرهم: أن الله – تعالى – جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم ﴿والأغلال التى كانت عليهم﴾ وذلك مثل ما كان عليهم من قرض موضع النجاسة عن الثوب بالمقراض، ولايجزئهم غسلها، وأنه كان لاتجوز صلاتهم إلا فى الكنائس، وأنه لايجوز لهم أخذ الدية عن القتيل بل كان يتعين القصاص، وكان يجب عليهم قطع الجوارح الخاطئة لايسعهم غير ذلك، فسمّاها أغلالا؛ لأنها كانت كالطوق فى عنقهم.

﴿فالذين آمنوا به﴾ أى: بمحمد ﷺ ﴿وعزّروه﴾ أى: عظموه ﴿ونصروه واتبعوا

(١) فى «الأصل وك»: عليها.

(٢) روى هذا ونحوه عن ابن عباس، وأبى هريرة، وقتادة، وكعب الأحبار، انظر الدرالمنثور (٣/١٣٣ – ١٣٦).

النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ

النور الذى أنزل معه ﴾ وهو القرآن ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ﴾ يعنى: محمداً ﷺ يؤمن بالله وبالقرآن ويقرأ: «وكلمته» قيل: هى القرآن أيضًا، وقال بعضهم: أراد بالكلمة: عيسى - صلوات الله عليه - ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال: هؤلاء قوم بأقصى الشرق وراء الصين عند مطلع الشمس، كانوا على شريعة موسى - صلوات الله عليه - إلى أن بعث محمد ﷺ فلما بعث محمد آمنوا به، وكانوا على الحق من لدن موسى إلى زمان محمد عليهما السلام - وقيل: هم الذين أسلموا فى زمن النبى ﷺ من اليهود مثل (ابن)[1] صوريا، وابن سلام، ونحوهما، والأول أظهر.

وقوله: ﴿ وبه يعدلون ﴾ أى: يقومون بالحق والعدل.

قوله تعالى: ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما ﴾ أى: فرقناهم فرقًا، وقوله: ﴿ اثنتى عشرة ﴾ يقال فى اللغة: اثنتى عشرة بكسر الشين وبجزم الشين، والجائز فى القرآن بجزم الشين، فإن قيل: لِمَ لمْ يقل: اثنى[2] عشر أسباطا على التذكير؟ قيل: إنما ذكره على التأنيث لأنه يرجع إلى الأمم.

(١) فى الأصل: أبى وهو خطأ.

(٢) فى «ك»: اثنا.

فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

قالوا: وفى الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: وقطعناهم أسباطا أمما اثنتى[1] عشرة، وقيل فيه حذف، وتقديره: وقطعناهم اثنتى عشرة فرقة أسباطا أمما، فيكون بدلا عن الفرقة، وقد بيّنا أن الأسباط فى بنى إسحاق كالقبائل فى بنى إسماعيل، وأنشدوا فى السبط:

عـلـىّ والثـلاثة مـن بنيـه ... هم الأسباط ليس بهم خَفَاءُ
فسبطٌ سبْـطُ إيمـان وبر ... وسبـطٌ غَيَّبَتْهُ كـربلاءُ

أى: كرب وبلاء.

﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر﴾ وقد بينا هذا فى سورة البقرة.

﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾ أى: انفجرت ﴿قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وقد سبق تفسيره فى سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم﴾ ويقرأ: «خطيئاتكم»[2] وكلاهما واحد ﴿سنزيد المحسنين﴾ وقد بينا هذا أيضا فى سورة البقرة.

﴿فبدل الذين ظلموا﴾ وقد بينا معنى هذا التبديل ﴿منهم قولاً غير الذى قيل

(١) فى «ك»: اثنتا.

(٢) انظر النشر (٢/ ٢٧٢).

وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ

لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء ﴾ أى عذابا من السماء ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ واسألهم عن القرية ﴾ هذا سؤال توبيخ وتقريع لاسؤال استعلام، واختلفوا فى تلك القرية، قال ابن عباس: هى الأيلة. وقال الزهرى: هى طَبَرِيَّة الشام. وقيل: إنها مدين ﴿ التى كانت حاضرة البحر ﴾ أى: مجاورة البحر ﴿ إذ يعدون فى السبت ﴾ أى: يجاوزون أمر الله فى السبت، وكان الله - تعالى - حرّم عليهم أن يعملوا فى السبت عملا سوى العبادة.

﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ﴾ أى: ظاهرة، قاله ابن عباس، ومنه الشوارع لظهورها، وقيل: هو من الشروع، وهو الدخول، فيكون معناه أن تلك القرية كان بجنبها خليج البحر، فتدخله الحيتان يوم السبت ولاتدخله فى سائر الأيام. وفى القصة: أنها كانت تأتيهم مثل الكباش السمان البيض يوم السبت تشرع إلى أبوابهم، ثم لايرى شيء منها فى غير يوم السبت فذلك قوله: ﴿ ويوم لايسبتون لاتأتيهم ﴾ وقرأ الحسن: «لايُسْبِتون» بضم الياء، أى: لايدخلون فى السبت، والمعروف: «لايَسبتون» ومعناه: لايعظمون السبت، يقال: (أسبت)[1] إذا دخل السبت، وسبت إذا عظّم السبت، يعنى: ويوم لايعظمون السبت ﴿ لاتأتيهم ﴾ وعلى قراءة الحسن: ويوم لايدخلون السبت لاتأتيهم، وكان ذلك ابتلاء من الله - تعالى - لهم كما قال: ﴿ كذلك نبلوهم ﴾ أى: نختبرهم ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا ﴾ وفى القصة: أنهم احتالوا بحيلة الاصطياد؛ فكانوا يضعون الحبال يوم الجمعة حتى تقع فيها الحيتان يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، وقيل: إن الشيطان وسوس إليهم أن الله - تعالى -

(١) فى «الأصل وك»: السبت وهو خطأ، وانظر لسان العرب (مادة: سبت).

رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ

لم ينهاكم عن الاصطياد فى هذا اليوم وإنما نهاكم عن الأكل، فاصطادوا يوم السبت، ثم افترقوا على ثلاث فرق: فرقة اصطادت، وفرقة نهت وأمرت بالمعروف، وفرقة سكتت؛ فقالت الفرقتان للفرقة العاصية: لانساكنكم قرية عصيتم الله فيها؛ فاعتزلتا القرية وخرجوا، فلما أصبحوا جاءوا إلى باب القرية، فلم يفتحوا لهم الباب؛ فجاءوا بسلّم، فلما صعدوا بالسلم، رأوهم قد مسخوا قِرَدة، قال قتادة: كانت لهم أذناب يتعاوون.

فقوله: ﴿وإذ قالت أمة منهم﴾ هى الفرقة الساكتة، قالت للفرقة الناهية: ﴿لم تعظون قومًا﴾ يعنى: الفرقة العاصية ﴿الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديداً قالوا معذرة إلى ربكم﴾ أى: موعظتنا معذرة، وذلك أَنَّا قد أمرنا بالأمر بالمعروف، فنأتهم هذا الأمر وإن لم يقبلوا؛ حتى يكون ذلك لنا عذرا عند الله - تعالى - ويقرأ «معذرةَ» بالنصب[1]، أى: نعتذر معذرة إلى ربكم ﴿ولعلهم يتقون﴾.

قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أى: تركوا ما ذكروا به، قيل: كانوا يصطادون سبعة أيام، وقيل: كانوا قد اصطادوا يوما واحدا.

﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ يعنى: الفرقة الناهية ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ يعنى: الفرقة العاصية، فأخذناهم بعذاب بئيس على وزن فعيل. وبئس على وزن فعل، وبيِّس على وزن فعلل، والكل واحد، ومعناه: بعذاب شديد، قال ابن عباس: بعذاب لارحمة فيه.

﴿بما كانوا يفسقون﴾ قال ابن عباس: أدرى أن الفرقة العاصية قد هلكت، وأن الفرقة الناهية قد نجت، ولا أدرى ما حال الفرقة الساكتة.

قال عكرمة: مازلت أنزله - يعنى: من الآيات درجة درجة - وأبصّره - يعنى: ابن عباس - حتى قال: نجت الفرقة الساكتة، وكسانى بذلك حلّة. فإن عكرمة كان

(١) هى قراءة حفص، وقرأ الباقون بالرفع، انظر النشر (٢ / ٢٧٢).

كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

يكلمه فى الآية، ويستدل بظاهرها؛ حتى ظهر الدليل لابن عباس على نجاة الفرقة الساكتة، ومن الدليل عليه فى ظاهر الآية أنه قال: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ وتلك الفرقة لم ينسوا ذلك، والثانى أنه قال: ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ والفرقة الساكتة قد نهوا نهى تحذير بقولهم[1]: لم تعظون قوما الله مهلكهم.

والثالث أنه قال: ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ يعنى: بالاصطياد يوم السبت؛ وهم ما ظلموا بالاصطياد، قال الحسن البصرى: نجت الفرقتان، وهلكت واحدة.

وقوله تعالى: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ وهذا أمر تكوين، وقوله: ﴿خاسئين﴾ أى: مبعدين.

قوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ أى: أَعْلَم ربك، قال الشاعر:

تَأَذَّن إنَّ شَــرَّ النـاس حى ... يُنادَى من شِعارِهم يَسَارُ

وقال الزجاج: معناه: تألّى ربك وحلف ﴿ليبعثن عليهـم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أى: يذيقهم سوء العذاب، وهو الجزية، وقيل: هو قتل بختنصر إياهم فإن قال قائل: كيف يبعث عليهم العذاب، وقد أهلكهم؟ قيل: أراد به على أبنائهم، ومن يأتى بعدهم ﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾.

قوله تعالى: ﴿وقطعناهم فى الأرض أمما﴾ أى: فرقناهم فرقًا، ومعناه: شتتنا أمر اليهود فلا يجتمعون على كلمة واحدة ﴿منهم الصالحون﴾ يعنى: الذين أسلموا منهم ﴿ومنهم دون ذلك﴾ يعنى الذين بقوا على الكفر.

﴿وبَلَوْنَاهم﴾ أى: اختبرناهم ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أى: بالخصْب والجدب والخير والشر ﴿لعلهم يرجعون﴾.

(١) فى «ك»: بقوله.

﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ اعلم أن الخلف يقال في الذم والمدح جميعا، لكن عند الإطلاق الخلف للمدح، والخلْف للذم، قال الشاعر:

لنا القدم الأولَى إلَيْكَ وَخَلْفُنا … لأوّلنا فى طاعـةِ اللـه تابـع

وهاهنا للذم، وأراد به أبناء الذين سبق ذكرهم من أصحاب السبت ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ يعني: انتقل إليهم الكتاب ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أي: حطام الدنيا، وإنما سميت الدينا دنيا؛ لأنها أدنى إلى الخلق من الآخرة؛ ولذلك قال: ﴿ عرض هذا الأدنى ﴾.

﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ وهذا اغترار منهم بالله - تعالى - وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والفاجر من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله المغفرة»[(١)] ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ قال مجاهد: وصفهم بالإصرار على الذنب، وقيل معناه: إنهم يأخذون أخْذاً بعد أخذ لايبالون من حلال كان أو من حرام، بل يأخذون من غير تفتيش.

﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي: أخذ عليهم العهد ألا يقولوا على الله الباطل في التوراة ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أي: علموا ذلك فيه بالدرس، قاله الضحاك، ودرس الكتاب: قراءته مرة بعد أخرى ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾.

(١) رواه الترمذي (٤/٥٥٠/رقم٢٤٥٩)، وابن ماجة (٢/١٤٢٣/ رقم٤٢٦٠)، وأحمد (٤/١٢٤)، والطبراني في الكبير (٧/٢٨٤/ رقم٧١٤٣)، والحاكم (١/٥٧)، والبيهقي في الآداب (ص٣٢٨) من حديث شداد بن أوس. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري؛ فتعقبه الذهبي في تلخيصه وقال: لا والله، وأبو بكر واه.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ

قوله تعالى: ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ قيل: هذا فى أمة محمد ﷺ وقيل: هو فيمن أسلم من اليهود، يمسكون بالقرآن، وأقاموا الصلاة ﴿ إنا لانضيع أجر المصلحين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ نتقنا أى: رفعنا الجبل فوقهم، وقد ذكر هذا فى سورة البقرة ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾ يعنى: وأيقنوا، والظن: اليقين، وقيل: غلب على ظنهم أنه واقع بهم ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ وقد ذكرنا القصةفى سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ فى الآية نوع إشكال، وشرحها وتفسيرها فى الأخبار، روى مالك فى الموطأ بإسناده عن مسلم بن يسار الجهنى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله - تعالى - مسح ظهر آدم، فاستخرج منه ذرية، وقال: هؤلاء فى الجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهر آدم فاستخرج ذرية، وقال: هؤلاء أهل النار، وبعمل أهل النار يعملون، فقيل: يارسول الله، ففيم العمل إذاً؟ فقال: إن الله - تعالى - إذا خلق للجنة أهلاً استعملهم بعمل أهل الجنة حتى يدخلهم الجنة، وإذا خلق للنار خلقًا استعملهم بعمل أهل النار حتى يدخلهم النار»(١) والمعروف والذى عليه جماعة المفسرين فى معنى الآية أن الله - تعالى -

---

(١) رواه مالك فى الموطأ (٢/٨٩٨)، وأبو داود (٤/٢٢٦-٢٢٧رقم٤٧٠٣، ٤٧٠٤)، والترمذى (٥/٢٤٨-٢٤٩/رقم٣٠٧٥)، وأحمد (١/٤٤-٤٥)، والطبرى (٩/١١٣)، وابن أبى عاصم (١/٨٧)، وابن حبان - الإحسان - (١٤/٣٧-٣٨/ رقم٦١٦٦)، والحاكم (١/٢٧) و(٢/٥٤٤ - ٥٤٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبى فى الموضع الأول وقال: فيه إرسال.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار، وعمر. رجلاً مجهولاً، وفيهما ضعف كما بين الترمذى والذهبى وغيرهما. ورجح الدارقطنى فى العلل (٢/٢٢٢) الرواية الموصولة.

مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون، ثم مسح صفحة ظهر آدم اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر، فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك، ثم قال لهم: ﴿ألست بربكم﴾؟ قالوا: بلى، فقال للبيض: هؤلاء فى الجنة برحمتى ولا أبالى، وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء فى النار ولا أبالى، وهم أصحاب الشمال، ثم أعادهم جميعًا فى صلبه، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء.

قال الله تعالى فيمن نقض العهد: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾(١) وروى أبو العالية عن أُبىّ بن كعب فى هذه الآية، قال: جمعهم الله جميعًا، فجعلهم أرواحًا ثم صوّرهم، ثم استنطقهم، فقال: ﴿ألست بربكم﴾؟ قالوا: بلى، شهدنا أنك ربنا وإلهنا، لارب لنا غيرك، قال الله – تعالى –: فأرسل إليكم رسلى، وأنزل عليكم كتبى، فلا تكذبوا رسلى، وصدقوا كلامى، فإنى سأنتقم ممن أشرك ولم يؤمن بى، فأخذ عهدهم وميثاقهم.

وفى بعض الأخبار: أن الله استخرج ذرية آدم، فنثرهم بين يدى آدم، ثم كلمهم قبلا – أى: عيانا – فقال: ﴿ألست بربكم﴾؟ قالوا: بلى. وقيل: جعل لهم عقولا يفهمون بها، وألسنة ينطقون بها، ثم خاطبهم وألهمهم الجواب.

وقال بعض المفسرين عن علماء السلف: إن الكل قالوا: بلى، لكن المؤمنين قالوا: بلى طوعًا، وقال الكافرون كرها، وهذا معنى قوله – تعالى –: ﴿وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها﴾(٢).

رجعنا إلى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ فإن قال قائل: لما كان الاستخراج من ظهر آدم، فكيف قال: ﴿أخذ ربك من بنى آدم من

(١) الأعراف: ١٠٢.

(٢) آل عمران: ٨٣.

ظهورهم ﴾؟ قال بعض العلماء فى جوابه: إن الله - تعالى - استخرجهم من صلب آدم على الترتيب الذى يخرجه من بنى آدم من ظهورهم إلى يوم القيامة، فلذلك قال: ﴿ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾.

واعلم أن المعتزلة تأولوا هذه الآية، فقالوا: أراد به الأخذ من ظهور بنى آدم على الترتيب الذى مضت به السنة من لدن آدم إلى فناء العالم.

وقوله: ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾ يعنى كما نصب من دلائل العقول التى تدل على كونه ربًّا، ويلجئهم إلى الجواب بقولهم: بلى، وأنكروا الميثاق. وهذا تأويل باطل، وأما أهل السنة مقرون بيوم الميثاق، والآية على ما سبق ذكره.

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ واختلفوا فى قوله: ﴿ شهدنا ﴾ قال بعضهم: هذا من قول الله والملائكة قالوا: شهدنا، وقيل: هو قول المخاطبين، قالوا: بلى شهدنا، وقيل: فيه حذف، وتقديره: أن الله تعالى قال للملائكة: اشهدوا، فقالوا: شهدنا.

وأما قوله تعالى: ﴿ أن تقولوا يوم القيامة ﴾ يقرأ بالياء والتاء[1]، فمن قرأ بالياء فتقدير الكلام: وأشهدهم على أنفسهم لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام: أخاطبكم ألست بربكم؟ لئلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين. فإن قال قائل: الحجة إنما تلزم فى الدنيا إذا رجعوا عن ذلك العهد الذى كان يوم الميثاق واحدٌ لايذكر ذلك الميثاق حتى يكون بالرجوع معانداً، فتلزمه الحجة، وقيل: إن الله - تعالى - قد أوضح الدلائل ونصبها على وحدانيته، وصدق قوله، وقد أخبر عن يوم الميثاق، وهو صادق فى الإخبار، فكل من نقض ذلك العهد كان معانداً ولزمته الحجة.

قوله تعالى: ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ يعنى: إنما أخذت ما أخذت

(١) قرأ أبو عمرو بالياء، وقرأ الباقون بالتاء انظر النشر (٢ / ٢٧٣).

من العهد والميثاق عليكم جميعا؛ لئلا تقولوا: ﴿إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ يعنى: أن الجناية من الآباء، وكنا أتباعًا لهم؛ فيجعلوا لأنفسهم حجة وعذراً عند الله، وفى هذا دليل على أن أولاد الكفار يكونون مع الكفار.

﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أى: تأخذنا بجناية آبائنا المبطلين؟.

قوله تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾.

قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: فى بلعم بن باعور، ويقال: بلعام بن باعر، كان فى مدينة الجبارين، وكان معه الاسم الأعظم، فلما قصدهم موسى بجنده، قالوا لبلعم: إن موسى رجل فيه حدّة، فادع الله حتى يَرُدَّ عَنّا موسى، وقيل: إن ملكهم دعاه إلى نفسه وقال له ذلك، فقال بلعم: لو فعلت ذلك ذهب دينى ودنياى، فألحوا عليه حتى دعا الله - تعالى - فاستجيبت دعوته، وردّ عنهم موسى، وأوقعهم فى التِّيه، فلما وقعوا فى التيه، قال موسى: يارب بِمَ حبستنا فى التيه؟ قال: بدعاء بلعم. قال موسى: اللهم فكما استجبت دعوته فينا فاستجب دعوتى فيه، ثم دعا الله - تعالى - حتى ينزع عنه اسمه الأعظم والإيمان، ففعل، وقيل: نزع الله عنه الاسم الأعظم والإيمان، معاقبة له على ما دعا، ولم يكن ذلك بدعوة موسى؛ فهذا معنى قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها﴾.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: الآية فى أمية بن أبى الصلت الثقفى كان يطلب الدين قبل مبعث النبى ﷺ، وكان يطمع أن يكون نبيا، فلما بعث النبى ﷺ حسده وكفر به، وكان أمية صاحب حكمة وموعظة حسنة.

وقال الحسن: الآية فى منافقى اليهود. وقال مجاهد: الآية فى نبى من الأنبياء بعثه الله - تعالى - إلى قومه، فرشاه قومه. وهذا أضعف الأقوال؛ لأن الله تعالى يعصم أنبياءه عن مثل ذ لك، وعن ابن عباس - فى رواية أخرى - أن الآية فى رجل من بنى إسرائيل كانت له ثلاث دعوات مستجابة أعطاه الله تعالى ذلك، وكانت له امرأة

مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ

دميمة؛ فقالت له: ادع الله أن يجعلني من أجمل نساء العالم، فدعا الله تعالى فاستجاب دعوته؛ فتمردت واستعصت عليه؛ فدعا الله تعالى أن يجلعها كلبة؛ فَجُعِلَت، فقال له بنوها: ادع الله أن يردها، فدعا الله تعالى فعادت كما كانت، فذهبت فيها دعواته الثلاثة، والقولان الأولان أظهر.

وقوله: ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ أى: أدركه الشيطان، يقال: تبعه إذا سار فى أثره، واتبعه إذا أدركه ﴿ فكان من الغاوين ﴾ أى: من الضالين.

قوله تعالى: ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أى لرفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات وأَمَتْناه قبل أن يكفر، وقيل معناه: لو شئنا [لحلنا](١) بينه وبين الكفر ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ أى: مال إلى الدنيا ﴿ واتبع هواه ﴾ وهذه أشد آية فى حق العلماء، وقلما يخلوا عن أَحدِ هذين عالمٌ من الركون إلى الدنيا، ومتابعة الهوى.

﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ ضرب له مثلا بأخس حيوان فى أخس الحال؛ فإنه ضرب له المثل بالكلب لاهثا، وحقيقة المعنى: أنك إن حملت على الكلب وطردته يلهث، وإن تتركه يلهث، فكذلك الكافر، إن وعظته وزجرته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، واللهث: إدلاع اللسان.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ ضرب المثل ثم بيّن أنه مثل ذلك (الذى)(٢) سبق ذكره، وقيل: هذا كله ضرب مثل لكفار مكة؛ فإنهم كانوا يتمنون أن يكون منهم نبى، فلما بعث النبى ﷺ حسدوه وكفروا؛ فكانوا كفارا قبل بعثته وكفارا (بعد بعثته)(٣) ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾.

(١) فى «الأصل، ك»: دخلنا، وهو تصحيف.

(٢) فى «الأصل، ك»: الذين.

(٣) فى «ك»: ببعثته.

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ

قوله تعالى ﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى : بئس المثل مثلا القوم ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ .

﴿ من يهد الله ﴾ أى : من يهده الله ﴿ فهو المهتد ومن يضلل ﴾ أى : ومن يضلله الله ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ وهذا دليل على القدرية؛ حيث نسب الهداية والضلالة إلى فعله من غير سبب .

قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ أى : خلقنا لجهنم كثيرا، وهذا على وفق قول أهل السنة، وروت عائشة - رضى الله عنها - عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى خلق الجنة، وخلق لها أهلا؛ خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلا، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » وهذا فى الصحيح(١)، وفى رواية أخرى : « إن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلا بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء قبائلهم، وخلق النار، وخلق لها أهلا بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء قبائلهم - وهذا الحديث ليس فى الصحيح - لايزاد فيهم ولا ينقص »(٢) وقيل معنى قوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ أى : ذرأناهم، وعاقبة أمرهم إلى جهنم، واللام لام العاقبة، وهذا مثل قول القائل :

يا أم سليم فلا تجـزعنْ فللموت ما تلد الوالدَة

وقال آخر :

وللموت تغذوا الوالداتُ سخالها كـما لخراب الدهـر تبنى المسَاكـنُ

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه (١٦ / ٣٢٤ - ٣٢٥ / رقم٢٦٦٢)، وأبو داود (٤ / ٢٢٩ / رقم ٤٧١٣) .

(٢) عزاه الهيثمى فى المجمع (٧ / ١٩٠) للطبرانى، عن عبد الله بن بسر بمعناه، وقال : فيه عبد الرحمن بن أيوب السكونى، روى حديثًا غير هذا فقال العقيلى لايتابع عليه، فضعفه الذهبى من عند نفسه، لكن فى إسناده بقية، وهو متكلم فيه بغير هذا الحديث أيضًا . وعزاه للطبرانى أيضًا من طريق ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عمر، وقال : ولم أعرف ابن مجاهد، وبقية رجاله رجال الصحيح .

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ

والأول أصح، وأقرب إلى مذهب أهل السنة، وقوله: ﴿لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها﴾ ومعناه: أنهم لما لم يفقهوا بقلوبهم ما انتفعوا به، ولم يبصروا بأعينهم، ولم يسمعوا بآذانهم؛ ما انتفعوا به؛ فكأنهم لايفقهون ولايبصرون ولايسمعون شيئًا، وهذا كما قال مسكين الدارى:

أعمى إذا ما جارتى برزت ... حتى توارى جارتى الخدر

أصم عما كان بينهما سمعى ... وما بالسمع من وقر

﴿أولئك كالأنعام﴾ يعنى: فى أن همتهم من الدنيا الأكل والتمتع بالشهوات ﴿بل هم أضل﴾ وذلك أن الأنعام تميز بين المضار والمنافع، وأولئك لايميزون ما يضرهم عما ينفعهم ﴿أولئك هم الغافلون﴾.

قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ الأسماء الحسنى هى ما وردت فى الخبر، روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا - مائة غير واحد - من أحصاها دخل الجنة»[(١)]، وقوله: ﴿الحسنى﴾ يرجع إلى التسميات، وقوله ﴿فادعوه بها﴾ وذلك بأن يقول: ياعزيز، يارحمن، ونحو هذا، واعلم أن أسماء الله تعالى على التوقيف؛ فإنه يُسمى جوادًا ولايسمى سخيًا، وإن كان فى معنى الجواد، ويسمى رحيمًا ولايسمى رقيقًا، ويسمى عالمًا ولايسمى عاقلاً، وعلى هذا لايقال: ياخادع، يامكار، وإن ورد فى القرآن ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[(٢)] ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾[(٣)] لكن لما لم يرد الشرع بتسميته به لم يجز ذلك له.

﴿وذروا الذين يلحدون فى أسمائه﴾ قال يعقوب بن السكيت صاحب الإصلاح:

---

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (١١/٢١٨/ رقم ٦٤١٠)، ومسلم (١٧/٨٠٧/ رقم ٢٦٧٧).

(٢) النساء: ١٤٢.

(٣) الأنفال: ٣٠.

وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ

الإلحاد: هو الميل عن الحق، وإدخال ما ليس فى الدين، قيل: والإلحاد فى الأسماء هاهنا: كانوا يقولون فى مقابلة اسم الله: اللات، وفى مقابلة العزيز: العزى، ومناة فى مقابلة المنان، وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة، وهذا أعظم الإلحاد فى الأسماء، فهذا معنى قوله: ﴿وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾.

قوله تعالى: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ روى قتادة مرسلا عن النبى ﷺ أنه قال: «هؤلاء من هذه الأمة، وقد كان فيمن قبلكم»[1] وأشار به إلى قوم موسى، كما قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[2].

قوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون﴾ قال الأزهرى: الاستدراج: هو الأخذ قليلاً قليلاً، ومنه درج الكتاب، وقيل: الاستدراج من الله هو أن العبد كلما ازداد معصية زاده الله - تعالى - نعمة، وقيل: هو أن يكثر عليه النعم وينسيه الشكر، ثم يأخذه بغتة؛ فهذا هو الاستدراج من حيث لايعلمون.

قوله تعالى: ﴿وأملى لهم﴾ أى: أمهل لهم وأؤخر لهم ﴿إن كيدى متين﴾ أى: شديد.

قوله تعالى ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾ سبب نزول هذه الآية ما روى: «أن النبى ﷺ ذات ليلة صعد الصفا، وهو ينادى طول الليل: يابنى فلان، يابنى فلان، إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فلما أصبحوا قالوا: إن محمداً قد جنّ، يصيح طول الليل؛ فنزلت هذه الآية» ﴿أو لم يتفكروا﴾»[3] يعنى: فى حال محمد أنه لايليق بحاله الجنون.

---

(١) رواه الطبرى فى التفسير (٩ / ٩٢)، وعزاه السيوطى أيضاً فى الدر (٣ / ١٦٢) لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٢) الأعراف: ١٥٩.

(٣) رواه الطبرى (٩ / ٩٣) عن قتادة مرسلاً. وعزاه السيوطى أيضاً فى الدر (٣ / ١٦٢) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾ يعنى: استدلوا بها على وحدانية الله تعالى ﴿وما خلق الله من شيء﴾ أى: أو لم ينظروا إلى ما خلق الله من شيء ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ يعنى: لعل قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ أى: بأى نبى بعد محمد، وبأى كتاب بعد كتاب محمد ﷺ يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿من يضلل الله﴾ أى: من يضلله الله ﴿فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ أى: فى غلوهم فى الباطل ﴿يعمهون﴾ يتحيرون ويترددون.

قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ أى: مثبتها، يقال: أرسى، أى: أثبت، ومعناه: يسألونك عن الساعة متى قيامها ﴿قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها﴾ لايظهرها لوقتها ﴿إلا هو﴾.

﴿ثقلت فى السموات والأرض﴾ أى: خفى علمها فى السموات والأرض، فكأنما ثقلت، وكل خفى ثقيل، ومعناه: ثقيل وَصْفُهَا على أهل السموات والأرض؛ بما يكون فيها من تكوير الشمس والقمر، وتكوير النجوم، وتسيير الجبال، وطيٍّ السموات والأرض ، وقيل معناه: عظم وقوعها على أهل السموات والأرض.

﴿لاتأتيكم إلا بغتة﴾ أى: فجأة.

﴿يسألونك كأنك حفى عنها﴾ أى كأنك مسرور بسؤالهم عنها، يقال: تحفيت فلانا فى المسألة إذا سألته وأظهرت السرور فى سؤالك، فعلى هذا تقدير الآية:

قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ

يسألونك عنها كأنك حفى بسؤالهم، وقيل معناه: يسألونك كأنك حفى عنها أى: عالم بها، يقال: أحفيت فلانا، إذا ما بالغت فى المسألة عنه حتى علمت، فعلى هذا معنى الآية: كأنك حفى عنها، أى: كأنك بالغت فى السؤال عنها، حتى علمت ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾.

قوله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: معناه: ولو كنت أعلم الخصب من الجدب لأعددت من الخصب للجدب وما مسنى الجوع، قاله ابن عباس.

وقال ابن جريج: معناه: لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من الخيرات والطاعات، وما مسنى السوء أى: ما بى جنون؛ لأنهم كانوا نسبوه إلى الجنون.

القول الثالث: معناه: ولو كنت أعلم متى الساعة لأخبرتكم بقيامها حتى تؤمنوا، وما مسنى السوء يعنى: بتكذيبكم ﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾.

قوله تعالى: ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ يعنى: آدم ﴿وجعل منها زوجها﴾ يعنى: حوّاء ﴿ليسكن إليها﴾ ﴿فلما تغشاها﴾ أى: وطئها، والغشيان أحسن كناية عن الوطء، يقال: تغشاها وتخللها، إذا وطئها.

﴿حملت حملا خفيفًا﴾ هو أول ما تحمل المرأة من النطفة ﴿فمرّت به﴾ وقرأ يحيى بن يعمر: «فَمَرَتْ به» خفيفا من المرْيَة أى: شكت، وقرئ فى الشواذ: «فَمَارَتْ به:» أى: تحركت به من المور، وقرأ ابن عباس: «فاستمرت به» وهو معنى القراءة المعروفة، ومعناه: فمرّت بالحمل حتى قامت وقعدت ودخلت وخرجت، وقيل: هو مقلوب، وتقديره: فمرّ الحمل بها حتى قامت وقعدت ﴿فلما أثقلت﴾ أى: حان

فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا

وقت الولادة ﴿ دعوا الله ربهما ﴾ .

وفى القصة: أن إبليس جاء إلى حواء حين حبلت، وقال لها: أتدرين ما فى بطنك؟ قالت: لا. فقال: لعله بهيمة، وإنى أخشى أن تكون لها قرنان تشق بهما بطنك؛ فخافت حواء، وجلست حزينة، ثم عاد إليها اللعين، وقال: أتريدين أن أدعو الله تعالى حتى يجعله إنسانًا متكلمًا؟ قالت: نعم. قال: إنى قد وسوست إليكما مرة فأطيعانى حتى أدعو، فقالت: ماذا نصنع؟ قال اللعين: إذا ولدت تسميه عبد الحارث – وكان اسم إبليس من قبل الحارث – فذكرت ذلك لآدم، فتوافقا على ذلك، فلما ولدت سمياه عبد الحارث، وقيل: إنها ولدت مرة فسمياه عبد الله فمات، ثم ولدت ولدا آخر فسمياه عبد الله فمات، فجاء اللعين، وقال: أما علمتما أن الله تعالى لايدع عبده عندكما، فإذا ولدت ولداً فسمِّيه عبد الحارث، حتى يحيا، فلما ولدت الثالث سمياه عبد الحارث فعاش وحيا.

وفى الخبر: قال النبى ﷺ: « خدعهما إبليس مرتين: مرة فى الجنة، ومرة فى الأرض »[1] وأراد به هذا». قوله ﴿ فلما أثقلت دعوا الله ربهما ﴾ يعنى: آدم وحواء ﴿ لئن آتيتنا صالحا ﴾ أى: ولدا سَوِى الخلق، إذ كانا [يدعوان][2] أن يجعله الله إنسانًا مثلهما خوفًا من وسوسة إبليس ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ ﴿ فلما آتاهما صالحا ﴾ أى: سوى الخلق ﴿ جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ يعنى سمياه عبد الحارث، فإن قال قائل: كيف يقول: ﴿ جعلا له شركاء ﴾ وآدم كان نبيا معصوما عن الإشراك بالله؟

قيل: لم يكن هذا إشراكًا فى التوحيد، وإنما ذلك إشراك فى الاسم، وذلك لايقدح فى التوحيد، وهو مثل تسمية الرجل ولده عبد يغوث وعبد زيد وعبد عمرو، وقول الرجل لصاحبه: أنا عبدك، وعلى ذلك قول يوسف – صلوات الله عليه –: ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾[3] ومثل هذا لايقدح، وأما قوله: ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٣/١٦٤– ١٦٥) لابن أبى حاتم عن ابن زيد.

(٢) فى «الأصل»: يدعوا. (٣) يوسف: ٢٣.

صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

ابتداء كلام بعد الأول، وأراد به: إشراك أهل مكة، ولئن أراد به الإشراك الذى سبق استقام الكلام؛ لأنه كان الأولى ألا يفعل ما أتى به من الإشراك فى الاسم، وكان ذلك زلة منه؛ فلذلك قال: ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ وفى الآية قول آخر: أن هذا فى جميع بنى آدم. قال عكرمة: وكأن الله يخاطب به كل واحد من الخلق بقوله: ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ يعنى: خلق كل واحد من أبيه ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ أى: جعل من جنسها زوجها ﴿ ليسكن إليها ﴾ يعنى: كل زوج إلى زوجته ﴿ فلما تغشاها ﴾ أى: وطئها ﴿ حملت حملاً خفيفًا فمرت به ﴾ وهذا قول حسن فى الآية.

وقيل: إنما عبر بآدم وحواء عن جميع أولادهما؛ لأنهما أصل الكل، والأول أشهر وأظهر، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير. وجماعة المفسرين كلهم قالوا: إن الآية فى آدم وحواء كما بينا.

قوله تعالى: ﴿ أيشركون ما لايخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ يعنى: الأصنام لايخلقون شيئا بل هم مخلوقون ﴿ ولايستطيعون لهم نصرا ﴾ أى: منعًا ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم ﴾ هذا فى قوم مخصوصين علم الله أنهم لايؤمنون ﴿ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ أى: سواء دعوتموهم أو لم تدعوهم لايؤمنون.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾. فإن قال قائل: كيف تكون الأصنام عباداً أمثالنا؟ قيل: قال مقاتل: أراد به الملائكة. والخطاب مع قوم كانوا

﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ

يعبدون الملائكة، وقيل: أراد به الشياطين. والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الكهنة والشياطين، والصحيح أنه فى الأصنام، وهم عباد أمثال الناس فى العبادة، وعبادتهم التسبيح، وللجمادات تسبيح كما نطق به الكتاب. ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾[1] وقوله ﴿أمثالكم﴾ يعنى: أن الأصنام مذللون مسخرون لما أريد منهم مثلكم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾[2] ومعناه: أمثالكم فى شيء دون شيء كذلك هاهنا وقيل: إنما قال: ﴿أمثالكم﴾ لأنهم صوروها على صورة الأحياء، وطلبوا منها ما يطلب من الأحياء.

﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ وهذا لبيان عجزهم، ثم أكده فقال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ وذلك أن قدرة المخلوقين إنما تكون بهذه الآلات والجوارح، وليست لهم تلك الآلات، بل أنتم أكبر قدرة منهم لوجود هذه الأشياء فيكم.

﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ أى: فلا تمهلون.

قوله تعالى: ﴿إن وليِّيَ الله الذى نزل الكتاب﴾ يعنى: ناصرى ومعينى الله الذى نزل الكتاب، وقرئ فى الشواذ: «إن وَلِيِّ اللهِ» بكسر الهاء، ومعناه: جبريل ولى الله الذى نزل الكتاب أى: نزل بالكتاب ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ يعنى: جبريل ولى الصالحين، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل﴾[3].

قوله تعالى ﴿والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) التحريم: ٤.

نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

ينصرون ﴾ وهذا لبيان عجزهم أيضاً ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا ﴾ يعنى: الأصنام ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ﴾ فإن قيل: كيف يتصور النظر من الأصنام؟ قال الكسائى: تقول العرب: دارى تنظر إلى دار فلان، إذا كانت مقابلة لما، فكذلك قوله: ﴿ وتراهم ينظرون إليك ﴾ يعنى: نظر المقابلة.

قوله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ روى: «أن جبريل – صلوات الله عليه – لما نزل بهذه الآية، قال: يارسول الله، أتيتك بمكارم الأخلاق، فروى أن النبى ﷺ سأل جبريل عن معنى هذه الآية، فقال له: حتى أسأل ربى، ثم رجع وقال: صل من قطعك، وأعط من حرمك واعف عن من ظلمك»[1].

ثم اختلفوا فى معنى هذا العفو، فقال عطاء: هو الفضل من أموال الناس. وكان فى الابتداء يجب التصدق بما فضل من الحاجات، ثم صار منسوخا بآية الزكاة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾[2] وقال ابن الزبير: العفو: ما تيسر من أخلاق الناس، أى: خذ الميسور من أخلاق الناس مثل: قبول الاعتذار، والعفو والمساهلة فى الأمور، وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك.

وقوله: ﴿ وأمر بالعرف ﴾ هو الأمر بالمعروف، وهو ما يعرفه الشرع.

وقوله: ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ يعنى: إذا سفه عليك الجاهل فلا تكافئه ولاتقابله بالسفه، وذلك مثل قوله: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾[3] وذلك

(١) رواه الطبرى فى التفسير (٩/١٠٥)، وابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق (ص٢٤/رقم ٢٥) من طريق سفيان عن أُمَيّ الصيرفى به، ووقع فى الطبرى: أبى بالباء، وهو تحريف، وانظر الإكمال لابن ماكولا (٧/١٨٩). ورواه ابن مردويه عن جابر، وعن قيس بن سعد بن عبادة كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (١/٤٧٦–٤٧٧)، والدر المنثور (٣/١٦٦).

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) الفرقان: ٦٣.

﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا

سلام المنازعة، قال: ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾[(١)] يعنى: أكرموا أنفسهم عن الخوض فيه.

وروى أن عيينة بن حصن - وكان سيد غطفان - لما قدم المدينة قال للحر بن قيس: لك وجه عند أمير المؤمنين؛ فاستأذن لى عليه، فاستأذن له فدخل على عمر - رضى الله عنه - فقال له: إنك لاتقضى فينا بالحق، ولا تقسم فينا بالعدل، فغضب عمر وهَمَّ أن يؤدبه، فقال له الحر بن قيس: إن الله تعالى يقول: ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وهذا من الجاهلين، فسكت عمر - رضى الله عنه -.

قوله تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ النزغ من الشيطان: الوسوسة ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أى: استجر بالله ﴿ إنه سميع عليم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان ﴾ وتقرأ: «طائف»[(٢)] ومعناهما واحد.

قال سعيد بن جبير: هو الغضب. وقال أبو عمرو بن العلاء: هو الوسوسة. وأصل الطيف: الجنون.

﴿ تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وفى معناه قولان: أحدهما: أنهم إذا وسوسهم الشيطان بالمعصية ذكروا عقاب الله؛ فإذا هم كافون عن المعصية.

والقول الثانى معناه: ذكروا الله؛ فإذا هم يبصرون الحق عن الباطل.

قوله تعالى: ﴿ وإخوانهم ﴾ أى: أشباههم من الشياطين ﴿ يمدونهم ﴾ أى: يردونهم ﴿ فى الغى ﴾ فى الضلالة ﴿ ثم لايقصرون ﴾ أى: لايكفون.

(١) الفرقان: ٧٢.

(٢) قرأ يعقوب، وأبو عمرو، وابن كثير، والكسائى «طيف» بياء ساكنة بين الطاء، والفاء، من غير همزة ولا ألف. وقرأ الباقون بألف بعد الطاء، وهمزة مكسورة بعدها انظر النشر (٢ / ٢٧٥).

أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا

قوله تعالى: ﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ﴾ كانوا يسألون النبى ﷺ الآيات (تعنتا)[1] ويستكثرون منها، فإذا لم يقرأ عليهم آية قالوا: لولا اجتبيتها، أى: هلا اختلقتها وقلتها من تلقاء نفسك. قال: ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى هذا بصائر من ربكم ﴾ يعنى: القرآن ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ قال الحسن، والزهرى، والنخعى: هذا فى القراءة فى الصلاة. وقال عطاء ومجاهد: هو فى الخطبة. ولم يرضوا من مجاهد هذا القول؛ لأن الآية مكية، والجمعة إنما وجبت بالمدينة، ولأن الاستماع فى جميع الخطبة واجب، ولايختص بالقراءة فى الخطبة. فالأول أصح.

وليس لمن يرى ترك القراءة خلف الإمام مستدل (فى الآية)[2]؛ لأن القراءة خلف الإمام لاتنافى الاستماع؛ لأنه يتبع سكتات الإمام، ولأن الآية فيما وراء الفاتحة؛ بدليل حديث عبادة بن الصامت، عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا كنتم خلفى فلا تقرءوا إلا بأم القرآن»[3].

وفى الآية: قول ثالث: أن المراد به النهى عن الكلام فى الصلاة. قاله أبو هريرة. وهذا قول حسن.

قوله تعالى ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ﴾ قيل: هذا فى الدعاء أى: ادع الله بالتضرع والخيفة. وقيل: هو فى صلاة السر.

---

(١) فى «ك»: تعبثًا.

(٢) فى «ك»: بالآية.

(٣) رواه أبو داود (١/٢١٧-٢١٨/ رقم ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥)، والترمذى (٢/١١٦-١١٧/ رقم ٣١١) وحسنه، والنسائى (٢/١٤١/ رقم ٩٢٠)، وأحمد (٥/٣١٦)، والدارقطنى (١/٣١٨ - ٣٢٠) وحسن إسناده، والحاكم (١/٢٣٨ - ٢٣٩)، وابن خزيمة فى صحيحه (٣/٣٦ - ٣٧/ رقم ١٥٨١)، وابن حبان - الإحسان - (٥/٨٦/ رقم ١٧٨٥).

وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾.

﴿ ودون الجهر من القول ﴾ أراد به: فى صلاة الجهر لاتجهر جهرا شديدا ﴿ بالغدو والأصال ﴾ فالغدو: أوائل النهار، والآصال: أواخر النهار ﴿ ولاتكن من الغافلين ﴾ عن ذكر الله.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ يعنى: الملائكة؛ ذكرهم بالتقريب والكرامة ﴿ لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ يعنى: إن كان هؤلاء يستكبرون عن عبادة الله تعالى؛ فالذين عنده لايستكبرون عنها.

وقد ورد فى السجود أخبار منها: ما روى أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا سجد ابن آدم؛ اعتزل الشيطان يبكى، ويقول: ياويلاه، أمر ابن آدم بالسجود فسجد؛ فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت؛ فلى النار»[١].

وفى حديث ربيعة بن كعب الأسلمى: «أنه أتى النبى ﷺ بوضوئه لحاجته فقال: سلنى. فقلت: أريد مرافقتك فى الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ فقلت: هو ذاك، فقال: أعنى على نفسك بكثرة السجود» أخرجه مسلم فى الصحيح[٢].

وروى أبو فاطمة عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من عبد يسجد لله سجدة؛ إلا رفعه الله بها درجة»[٣]. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٩٢/ رقم ٨١)، وابن ماجة (١/ ٣٣٤/ رقم ١٠٥٢)، وأحمد (٢/ ٤٤٣)، وابن خزيمة فى صحيحه (١/ ٢٧٦/ رقم ٥٤٩)، ومن طريقه ابن حبان - الإحسان - (٦/ ٤٦٥/ رقم ٧٥٩).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٧٤/ رقم ٤٨٩)، وأبو داود (٢/ ٣٥/ رقم ١٣٢٠)، والنسائى (٢/ ٢٢٧ - ٢٢٨/ رقم ١١٣٨).

(٣) رواه ابن ماجة (١/ ٤٥٧/ رقم ١٤٢٢)، وأحمد (٣/ ٤٢٨):

وقال المنذرى فى الترغيب (١/ ٢٥٠): رواه ابن ماجة بإسناد جيد، ورواه أحمد مختصراً.

ويشهد له ما رواه مسلم (٤/ ٢٧٣ - ٢٧٤/ رقم ٤٨٨)، والترمذى (٢/ ٢٣٠ - ٢٣١) رقم ٣٨٩ - ٣٩٨)، والنسائى (٢/ ٢٢٨/ رقم ١١٣٩) وابن ماجة (١/ ٤٥٧/ رقم ١٤٢٣)، وغيرهم من حديث ثوبان، وأبى الدرداء بنحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا

تفسير ســورة الأنفــال

قال الشيخ الإمام رضى الله عنه: سورة الأنفال مدنية إلا سبع آيات؛ وذلك من قوله: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾[1] إلى آخر الآيات السبع؛ فإنها نزلت بمكة، وأكثرالسورة فى غزوة بدر.

قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ والسؤال سؤالان: سؤال استخبار، وسؤال طلب؛ فقوله: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ سؤال استخبار؛ فإنهم سألوه عن حكم الأنفال.

وقرأ ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص: «يسألونك الأنفال» وهذا سؤال طلب. روى مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبى وقاص أنه قال: «سألت رسول الله ﷺ سيفا يوم بدر فقلت: نفِّلنيه يارسول الله، فنزل قوله: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾»[2].

والأنفال: الغنائم. والنَّفَل فى اللغة: الزيادة، قال لبيد بن ربيعة العامرى شعراً:

إن تَقْوَى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذن اللـه رَيْثِى والعَجَلْ

ومنه صلاة النافلة؛ لأنها زيادة على الفريضة. فسميت الغنائم أنفالا؛ لأنها زيادة كرامة من الله تعالى لهذه الأمة على الخصوص.

وسبب نزول الآية ما روى «أن أصحاب النبى ﷺ افترقوا يوم بدر فرقتين: فرقة كانت تقاتل وتأسر، وفرقة تحرس رسول الله ﷺ، ثم تنازعوا، فقالت الفرقة المقاتلة:

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) رواه مسلم (١٢/ ٨١-٨٢/ رقم ١٧٤٨)، وأبو داود (٣/ ٧٧-٧٨/ رقم ٢٧٤٠)، والترمذى (٥/ ٢٥٠ - ٢٥١/ رقم ٣٠٧٩)، وأحمد (١/ ١٧٨، ١٨٥، ١٨٦).

الغنائم لنا؛ قاتلنا وأسرنا، وقال الآخرون: كنا ردءاً لكم، ونحرس رسول الله ﷺ، فالغنيمة بيننا؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾[1].

وفى رواية: «أن النبى ﷺ قال يومئذ: من قتل قتيلاً فله كذا، ومن أسر أسيراً فله كذا، فتسارع الشبان وقاتلوا وأسروا، وبقى الشيوخ مع الرسول - عليه السلام - يحرسونه ثم تنازعوا فى الغنيمة، فقال الشبان: الغنيمة لنا؛ لأنا قاتلنا. وقال الشيوخ: كنا نحرس رسول الله ﷺ، وكنا ردْءاً لكم. وكان الذى تكلم من الشبان أبو اليسر والذى تكلم من الشيوخ سعد بن معاذ، فنزلت الآية، فقسم النبى ﷺ الأنفال بين الكل[2].

وقوله: ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ واختلفوا فيه قال مجاهد، وعكرمة: الآية منسوخة بقول تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾[3] فهذه الآية ردّت من الكل إلى الخمس، فكانت ناسخة للأولى.

وقيل: الآية غير منسوخة، ومعنى قوله: ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أى: حكمها لله والرسول؛ فتكون موافقة لتلك الآية.

﴿فاتقوا الله و أصلحوا ذات بينكم﴾ قال: ثعلب: يعنى: أصلحوا الحالة التى بينكم، ومعناه: الإصلاح بترك المنازعة وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾.

قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال ابن أبى نجيح:

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٣/١٧٤) لابن عساكر، عن الحجاج بن سهيل النصرى، وقيل: إن له صحبة.

(٢) رواه أبو داود (٣/٧٧/رقم٢٧٣٧، ٢٧٣٨، ٢٧٣٩)، والنسائى فى الكبرى (٦/٣٤٩/ رقم ١١١٩٧)، والطبرى فى التفسير (٩/١١٦)، والحاكم (٢/١٣١ - ١٣٢، ٣٢٦ - ٣٢٧) وصححه. وقال الذهبى فى الموضع الأول: هو على شرط البخارى. والبيهقى (٦/٢٩١ - ٢٩٢)، وابن حبان - الإحسان - (١١/٤٩٠/ رقم ٥٠٩٣) من حديث ابن عباس، وليس فيه تسمية القائلين.

(٣) الأنفال: ٤١.

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ

أى: خافت وفرقت، قال الشاعر:

لعَمْرُكَ ما أدرى وإنى لأوجلُ　　　على أيِّنا تغدو المنية أوّلُ

﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ أى: يقينا وتصديقا؛ وذلك أنه كلما نزلت آية فآمنوا بها ازدادوا إيمانًا وتصديقًا، وهذا دليل لأهل السنة على أن الإيمان يزيد وينقص ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ التوكل هو الاعتماد على الله والثقة به.

﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ إقامة الصلاة هى أداؤها فى أوقاتها بشرائطها وأركانها.

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ قال مقاتل: يعنى: إيمانًا لاشك فيه. وقيل: برَّأهم من الكفر والنفاق.

وفيه[1] دليل لأهل السنة على أنه لايجوز لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنًا حقًا؛ لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قومًا مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لايتحقق فى نفسه وجود تلك الأوصاف.

﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ قال الربيع بن أنس: الدرجات سبعون درجة، ما بين كل درجتين حُضْرُ[2] الفرس المضمر سبعين سنة ﴿ ومغفرة ورزق كريم ﴾ أى: كامل لانقص فيه.

قوله تعالى: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ الأكثرون على أنه فى إخراجه من المدينة إلى بدر للقتال مع المشركين. وقيل: هو فى إخراجه من مكة إلى المدينة.

(١) فى «ك»: وهذا.

(٢) والحُضْرُ، والإحضار: ارتفاع الفرس فى عدوه. لسان العرب (مادة: حضر).

﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ

واختلفوا فى أن قوله: ﴿كما أخرجك﴾ إلى ماذا ترجع كاف التشبيه؟ قال المبرد: تقديره: الأنفال لله وللرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك من بيتك وإن كرهوا. وقول الفراء قريب من هذا، وهكذا قول الزجاج؛ فإنهما قالا: تقديره: امض لأمر الله فى الأنفال وإن كرهوا كما مضيت لأمر الله عند إخراجك من بيتك وإن كرهوا.

وقيل: هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿فاتقوا الله﴾ وتقديره: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق فاتبعت أمره فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم. وقيل: هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ وتقديره: وعد الدرجات حق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق؛ فأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقال أبو عبيدة: «ما» هاهنا بمعنى: «الذى» أى: كالذى أخرجك ربك.

﴿وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعد ما تبين﴾ وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كرهوا خروجه إلى بدر، وجادلوا فيه، فقالوا: لانخرج؛ فإنا لم نستعد للقتال، وليس معنا أهبة الحرب.

وقوله: ﴿بعد ما تبين﴾ معناه: ماتبين لهم صدقه فى الوعد بما وعدهم مرة بعد أخرى فصدقهم فى وعده.

﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ فيه تقديم وتأخير، وتقديره: وإن فريقًا من المؤمنين لكارهونه كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين.

قوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ سبب هذا: ما روى أن أبا سفيان قدم على عير من قبل الشام فيها أموال قريش، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة، فخرجوا فى طلب العير، فبعث أبو سفيان رجلا إلى مكة يستنفرهم ويستغيث بهم، فخرج أبو جهل ورءوس المشركين فى سبعمائة وخمسين

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ

رجلا، وكان المسلمون يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر نفراً، ولم يكن لهم كثير سلاح، وكان معهم فَرَسَان فحسب، أحدهما للمقداد بن عمرو، والآخر لأبى مرثد الغنوى، وكان معهم ستة أدرع، وكان أكثرهم رجّالة، وبعضهم على الأبعرة، فوعدهم الله - تعالى - إحدى الطائفتين: إما العير (أو)[1] النفير، وكان أبو سفيان صاحب العير، وأبو جهل صاحب النفير، فالتقى الجمعان، ووقعوا فى القتال، وأخذ العير طريق الساحل وذهبوا، وكان المسلمون يودون أن يظفروا بالعير ويفوزوا بالمال من غير القتال» فهذا معنى قوله: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ والشوكة: السلاح.

﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ أى: يظهر الحق ويعلى كلمته ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أى: أصل الكافرين.

﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ أى: يثبت الحق وينفى الباطل ﴿ولو كره المجرمون﴾.

قوله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ الاستغاثة: طلب الغوث ﴿فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ سبب هذا ماروى: «أنه لما التقى الجمعان ببدر استقبل النبى ﷺ القبلة ورفع يديه وقال: اللهم أنجزنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض، وعلا به صوته فقال له أبو بكر: خفض من صوتك يارسول الله؛ فإن الله منجزك ماوعدك»[2] فنزلت الآية واستجاب دعاءه، وأمدهم الله تعالى بالملائكة؛ فروى: «أنه نزل جبريل فى خمسمائة، وميكائيل فى خمسمائة، وكان على رءوسهم عمائم بيض قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم، وهم على صور البشر

(١) فى «ك»: وإما.

(٢) رواه مسلم (١٢/١٢١ - ١٢٥/ رقم ١٧٦٣)، والترمذى (٥/٢٥١ - ٢٥٢/ رقم ٣٠٨١)، وأحمد (١/٣٠)، والطبرى فى التفسير (٩/١٨٩) من حديث عمر.

مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ

على خيل بُلْق»[١] فهذا معنى قوله: ﴿فاستجاب لكم أنى ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين﴾ يقال: ردفه وأردفه إذا (أتبعه)[٢]، قال الشاعر:

إذا الجـــوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

فمعنى قوله ﴿مردفين﴾ أى: متتابعين بعضهم فى إثر بعض. وهذا معنى القراءة الثانية بفتح الدال[٣]. ومنهم من فرق بينهما وقال: مردفين أى: ممددين بعضهم لبعض. ومن قرأ بفتح الدال فمعناه: ممدّين من قبل الله.

قوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ أى: بشارة ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ أى: تسكن به قلوبكم ﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾

قوله تعالى: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ ويقرأ: «إذ يَغْشَاكم النعاس»[٤] وقرأ ابن محيصن: «أمْنة» ساكنة الميم فى الشواذ.

والقصة فى ذلك: أن الكفار يوم بدر نزلوا على الماء، ونزل المسلمون على غير ماء، فأجنب بعضهم وأحدثوا، فلم يجدوا ماء يتطهرون به، وكانوا فى رمل تسوخ فيه أرجلهم، فوسوس إليهم الشيطان: إنكم تزعمون أنكم على الحق وأولئك على الباطل وإذا هم على الماء، فلو كنتم على الحق لكنتم أنتم على الماء، وما بقيتم مجنبين محدثين، فوقع فيهم خوف شديد، فألقى الله تعالى عليهم النعاس حتى أمنوا، وأنشأ سحابة فتمطرت عليهم حتى سال الوادى وتطهروا واغتسلوا، وتلبدت الرمال حتى ثبتت عليها الأقدام. فهذا معنى قوله: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة﴾.

(١) روى الشطر الأول منه الطبرى (٩/ ١٣٠)، والبيهقى فى الدلائل (٣/ ٧٨ - ٧٩)، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ١٨٣) لابن المنذر، وابن مردويه.

(٢) فى «ك»: تبعه.

(٣) وهى قراءة نافع، وأبو جعفر، ويعقوب. انظر النشر (٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٤) هى قراءة ابن كثير، وأبو عمرو. انظر النشر (٢/ ٢٧٦).

السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ

قال ابن مسعود: النعاس فى القتال من الله، وفى الصلاة من الشيطان.

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ وهو ما ذكرنا ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أى: وسوسة الشيطان ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ أى: يشدد قلوبكم وتثبت بإزالة الخوف ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ يعنى: على الرمل حين تلبد بالمطر.

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ أى: بالنصر والظفر ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ وروى «أن الملك كان يمشى بين أيديهم وينادى: أيها المسلمون، أبشروا بالظفر والنصر»[(١)] . وقيل: كان يلهمهم الملك ذلك؛ وللملك إلهام.

﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ﴾ أى: على الأعناق، وقيل: «فوق» فيه صلة، ومعناه: فاضربوا الأعناق، وقيل: هو على موضعه، ومعناه: فاضربوا على اليافوخ.

﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قيل: البنان: مفاصل الأطراف، وقيل: الأصابع، كأنه عبّر به عن الأيدى والأرجل.

قال ابن الأنبارى: ما كانت الملائكة تعلم كيف يقتل الآدميون، فعلّمهم الله.

وقيل: إن الملائكة لم يقاتلوا إلا فى غزوة بدر.

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه -: أنه لما أراد أن يحز رأس أبى جهل - وكان قد علاه ليقتله - فقال له أبو جهل: كنا نسمع الصوت ولا نرى شخصاً، ونرى الضرب ولانرى الضارب، فمن هم؟ قال: هم الملائكة، فقال أبو جهل: أولئك غلبونا لا أنتم.

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أى: نازعوا الله ورسوله.

(١) رواه ابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل بمعناه، عن أبى أسيد مالك بن ربيعة - رضى الله عنه - كما فى الدر (١٨٧/٣).

بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ

﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ إنما قال ذلك مبالغة فى التعذيب والانتقام، والعرب تقول للعدو إذا أصابه المكروه: ذق. قال الله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾[1].

وروى أن أبا سفيان بن حرب لما مرّ بحمزة بن عبد المطلب وهو مطروح مقتول يوم أحد فقال له: ذق ياعُقَق، يعنى: ذق أيها العاق.

وفى القصة: أن المسلمين لما فرغوا من قتال بدر وانهزم الكفار قصدوا طلب العير وأن يتبعوهم - وكان العباس بن عبد المطلب فى وثاق المسلمين وأَسْرِهم - فقال لهم: ليس لكم إلى ذلك سبيل؛ فإن الله - تعالى - وعدكم إحدى الطائفتين، وقد ظفرتم بالجيش؛ فليس لكم العير، فسكتوا.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا﴾ أى: متزاحفين والتزاحف: التدانى من القتال، ومعناه: إذا تزاحفتم وتوافقتم ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أى: لاتنهزموا؛ فإن المنهزم يولى دبره إذا انهزم ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال﴾ التحرف للقتال هو أن يرى الانهزام ويقصد به طلب الغِرَّة والغيلة، وانتهاز الفرصة ﴿أو متحيزا إلى فئة﴾ أى: مائلا إلى فئة ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ أى: رجع بغضب من الله ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ واستدلت المعتزلة بإطلاق قوله: ﴿ومأواه جهنم﴾ فى وعيد الأبد، ولاحجة لهم فيه؛ لأن معنى الآية: ومأواه جهنم إلا أن تدركه الرحمة؛ بدليل سائر الآى المقيدة.

قال الحسن البصرى: الآية فى أهل بدرخاصّة، ما كان يجوز لهم الانهزام بحال؛ لأن النبى ﷺ كان معهم ولم يكن لهم فئة يتحيزون إليها، فأما فى حق غيرهم فالفرار من الزحف لايكون كبيرة؛ لأن المسلمين بعضهم فئة لبعض، فيكون الفارّ متحيزاً إلى فئة.

---

(١) الدخان: ٤٩.

فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

وهذا مروى عن أبى سعيد الخدرى – من الصحابة – ويشهد لذلك: قول عمر – رضى الله عنه – أنه قال: لما أصاب المسلمين يوم الجسر ما أصابهم وصبروا حتى قتلوا، قال عمر: هلا رجعوا إليّ. وكان إذا بعث جيشًا بعد ذلك يقول: أنا فئة لكل مسلم.

ويدل عليه ما روى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أنه قال: «غزونا غزو فحصنا حيصة، فقلنا: يارسول الله، نحن الفرّارون؟ فقال لا؛ بل أنتم العكّارون، وأنا فئتكم»[1].

وفى الآية قول آخر – وهو المذهب اليوم وعليه عامة الفقهاء – أنه إن كان الكفار أكثر من مثليهم جاز الفرار من الزحف؛ لقوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾[2] ولقوله: ﴿ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[3] ولو صبروا جاز، اللهم أن يعلموا قطعًا أنه لايمكنهم مقاومتهم، فحينئذ لايجوز الصبر؛ لأنه يكون إلقاء لنفسه فى التهلكة، وإن كان الكفار مثلى المسلمين أو دون المثلين لايجوز الفرار من الزحف إلا متحرفًا لقتال أو متحيزا إلى فئة – يعنى: إلى فئة قريبة من الجيش مثل السرايا – والفرار من الزحف إنما يكون كثيره من هذه الصورة.

قوله تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ سبب هذا: أن المسلمين لما انصرفوا من قتال بدر، كان الواحد منهم يقول: أنا قتلت فلانا، ويقول الآخر: أنا قتلت فلانا؛ فلم يرض الله تعالى منهم ذلك، ونزلت الآية: ﴿فلم تقتلوهم﴾ يعنى: بقوتكم وعدتكم ﴿ولكن الله قتلهم﴾ (بنصره)[4] إياكم ومعونته لكم. وقيل معناه: ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى ظفرتم بهم.

---

(١) رواه أبو داود (٣/٤٦/رقم ٢٦٤٧)، والترمذى (٤/١٨٦ – ١٨٧/ رقم ١٧١٦) وقال: حسن، لانعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد. والحميدى (٢/٣٠٢/ رقم ٦٨٧)، وأحمد (٢/٧٠، ١٠٠)، وسعيد بن منصور (٢/٢٤٩/رقم ٤٥٣٩)، والبيهقى (٩/٧٨).

(٢) الأنفال: ٦٦. (٣) البقرة: ١٩٥. (٤) فى «ك»: بنصرته.

قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ

وقيل معناه: ولكن الله قتلهم ببعث الملائكة لكم مدداً، فقتلهم الله بالملائكة.

﴿وما رميت إذْ رميت ولكن الله رمى﴾ روى: «أن النبى ﷺ أخذ كفًا من الحصباء يوم بدر ورمى به إلى وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه. فلم يبق منهم أحد إلا وأصاب عينيه من ذلك، وشغل بعينيه»(1).

﴿وما رميت إذ رميت﴾ يريد به ذلك الرمى بالحصباء التى أصابت عيونهم؛ إذ ليس هذا فى قدرة البشر أن ترمى الحصباء إلى وجوه جيش بحيث لاتبقى عين إلا ويصيبها منها؛ ﴿ولكن الله رمى﴾ بقوته وقدرته. وقيل معناه: وما بلغت إذ رميت؛ ولكن الله بلّغ، وقيل معناه: وما رميت بالرعب فى قلوبهم.

﴿وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنًا﴾ أى: نعمة حسنة ينعم بها على المؤمنين، وذلك نعمة النصر والظفر، والشدة بلاء، والنعمة بلاء، والله تعالى يبتلى عبده تارة بالنعمة وتارة بالشدة ﴿إن الله سميع عليم﴾.

قوله تعالى: ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ يقرأ مخففًا ومشددًا(2) ومعناه: مُضعِّف كيدَ الكافرين.

قوله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ قال الضحاك: سبب هذا أن أبا جهل

---

(1) رواه الطبرى (9/136) عن محمد بن كعب القرظى، ومحمد بن قيس، ورواه الطبرانى (3/203/رقم 3128) عن حكيم بن حزام، وقال الهيثمى فى المجمع (6/87): رواه الطبرانى، وإسناده حسن.

ويشهد له ما رواه أحمد فى المسند (1/303، 368)، وابن حبان - الإحسان - (14/430/ رقم 6502)، والحاكم (3/157) وصحح إسناده، والبيهقى فى الدلائل. ولكن ليس فيه أن ذلك كان يوم بدر، وإنما كان فى المسجد فقتل كل من أصابه من هذا الحصباء.

(2) قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير وأبو عمرو «موهّنٌ كيدَ» بتشديد الهاء، وبالتنوين، ونصب كيد. وقرأ حفص «مُوهِنُ كيدِ» بالتخفيف من غير تنوين، وخفض كيد. وقرأ الباقون بالتخفيف، وبالتنوين، نصب كيد. انظر النشر (2/276).

وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

قال يوم بدر: اللهم انصر أحبّ الفئتين إليك وأكرمهم عليك. وفى رواية أخرى: اللهم أَقطَعُنا للرّحِم، وأفسدنا للجماعة، وأتانا بما لا نعرف؛ فاخزه اليوم، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿إن تستفتحوا﴾ أى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر.

﴿وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد﴾ أى: إن تعودوا إلى الدعاء نعد إلى الإجابة، وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى النصر ﴿ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ أمر الصحابة بطاعته وطاعة رسوله ﴿ولاتولوا عنه﴾ أى: لاتعرضوا عنه ﴿وأنتم تسمعون ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون﴾ يعنى: أنهم لما لم ينتفعوا بما سمعوا فكأنهم لم يسمعوا، فلا تكونوا مثلهم.

قوله تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون﴾ سمى الكفار صمًّا بكمًا؛ لأنهم لما لم يسمعوا الحق، ولم ينطقوا بالحق، ولم يعقلوا الحق سماهم بذلك، وعدّهم من جملة الأنعام.

﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾ أى: لأسمعهم سماع التفهم والقبول لو علم أنهم يصلحون لذلك.

﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ فإن قيل: كيف يستقيم قوله: ﴿لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا﴾؟ قيل معناه: لو علم فيهم خيرا لأسمعهم سماع التفهم، ولو

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

أسمعهم سماع الآذان لتولوا. وقيل معناه: ولو أسمعهم سماع التفهم لتولوا؛ لما سبق لهم من الشقاوة، وأنهم لايصلحون لذلك ولاخير فيهم. وقيل: معناه: أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: أحيى لنا قصيًا؛ فإنه كان شيخا مباركا حتى نشهد لك بالنبوة فنؤمن بك، فقال الله تعالى: ﴿ولو أسمعهم﴾ كلام قُصَيٍّ ﴿لتولوا وهم معرضون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ قال السدى فى قوله: ﴿لما يحييكم﴾: أراد به الإيمان. وسمى السدى بذلك؛ لأنه كان يجلس فى سُدَّة مسجد الكوفة.

وقال قتادة: هو القرآن. وقال الفراء: هو الجهاد. وقال ابن قتيبة: هو الشهادة.

وروى أبو هريرة «أن النبى ﷺ دعا أبى بن كعب وهو فى الصلاة، فأسرع القراءة وأتم الصلاة وأجابه، فقال النبى ﷺ: ما منعك أن تجيبنى؟ فقال: كنت فى الصلاة، فقال – عليه السلام –: أما سمعت قول الله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ فقال: علمت، لا أعود»(١).

﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال سعيد بن جبير وجماعة: يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر، والإيمان. قال الضحاك: يحول بين المؤمن والمعصية، وبين الكافر والطاعة.

وفيه قول ثالث: أن معناه: يحول بين المؤمن والخوف، وبين الكافر والأمن؛ وذلك أن الكفار كانوا آمنين، والمسلمين كانوا خائفين؛ فأبدل الله تعالى خوف هؤلاء بالأمن، وأمن هؤلاء بالخوف، وعبّر بالقلب؛ لأنه محل الخوف والأمن ﴿وأنه إليه تحشرون﴾.

(١) رواه الترمذى (٥/ ١٤٣/ رقم ٢٨٧٥) وقال: حسن صحيح، والنسائى (٢/ ١٣٩/رقم ٩١٤)، وفى الكبرى (٦/ ٣٥١/ رقم ١١٢٠٥)، وأحمد (٢/ ٤١٢ – ٤١٣)، والطبرى (٩/ ١٤٢).

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ

قوله تعالى: ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أكثر المفسرين على أن الآية فى أصحاب النبى ﷺ ومعناها: اتقوا عذابا يصيب الظالم وغير الظالم.

قال الزبير حين رأى ما رأى يوم الجمل: ما علمت أن هذه الآية نزلت فينا أصحاب رسول الله ﷺ حتى كان هذا اليوم. وقال ابن عباس فى معنى الآية: لاتُقِرّوا المنكر بينكم، ومروا بالمعروف؛ كى لايعمكم الله بعقاب، فيصيب الظالم وغير الظالم.

وقيل: أراد بالفتنة: تفريق الكلمة واختلاف الآراء، واتقوا فتنة تفريق الكلمة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، فيكون العذاب مضمراً فيه ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾.

قوله تعالى: ﴿ واذكروا إذْ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ قال وهب بن منبّه: يعنى: تتخطفكم فارس. وقال عكرمة: يتخطفكم كفارالعرب ﴿ فآواكم ﴾ يعنى: إلى المدينة ﴿ وأيدكم بنصره ﴾ أى: قواكم بنصره ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ يعنى: الغنائم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم ﴾ ولاتخونوا أماناتكم ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ قال الكلبى: نزلت الآية فى أبى لبابة بن عبد المنذر؛ فإن النبى ﷺ لما حاصر بنى قريظة بعثه إليهم – وكان منهم – فقالوا له: ماذا يفعل بنا لو نزلنا على حكمه؟ فوضع أصبعه على حلقه وأشار إليهم بالذبح – يعنى: يقتلكم – قال أبو لبابة: فما برحت قدماى حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله، ونزلت الآية»[1].

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٣/١٩٣) لعبد بن حميد.
ورواه الطبرى (٩/١٤٦) عن أبى قتادة، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/١٩٣) لابن المنذر، وسعيد بن منصور، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.
ورواه الطبرى (٩/١٤٦) أيضاً عن الزهرى.

وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

وقيل: الآية فى جميع الأمانات، نهى العباد عن الخيانة فى الأمانات، وتدخل فى الأمانات الطاعات؛ فإن الطاعات أمانات عند العباد على معنى أنها بينهم وبين ربهم أدّوها أو لم يؤدُّوها.

قوله تعالى: ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ قيل: هذا أيضا فى أبى لُبابة، وكان فيهم أهله وأولاده وأمواله، فقال ما قال خوفا عليهم. وقيل: هو فى سائر الخلق. وفى الحديث: «الولد مجبنة مبخلة ومجهلة»(١).

وروى أن النبى ﷺ رأى الحسن والحسين فقال: «إنكم لتجبنونى وتبخلونى وتجهلونى، وإنكم لمن ريحان الله»(٢) وأشار إلى الحسن والحسين يعنى: توقعون الأباء فى الجبن والبخل والجهل. وقوله: «لمن ريحان الله» أى: من رزق الله.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ قال ابن عباس: أى: مخرجًا. وقال مجاهد: منجاة ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ سبب نزول الآية أن المشركين اجتمعوا فى دار الندوة ليدبروا أمر رسول الله ﷺ، فدخل

(١) رواه أحمد (٤/١٧٢)، وابن أبى شيبة (١٢/٩٧/رقم ١٢٢٢٩)، والبيهقى (١٠/٢٠٢)، والحاكم (٣/١٦٤) وصححه على شرط مسلم، كلهم من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن أبى راشد، عن يعلى العامرى.

ورواه عبد الرزاق (١١/١٤٠ - ١٤١/ رقم ٢٠١٤٣) عن عبد الله بن عثمان خثيم مرسلاً.

(٢) رواه الترمذى (٤/٢٧٩ - ٢٨٠/ رقم ١٩١٠) وأحمد (٦/٤٠٩)، والحميدى (١/١٦٠/رقم ٣٣٤) عن خولة بنت حكيم. وفيه: «إنكم لتجبنون، وتبخلون، وتجهلون» بدون ياء.

وله شاهد عن الأشعث بن قيس، رواه أحمد (٥/٢١١)، والحاكم (٤/٢٣٩) وصححه على شرط الشيخين، ولفظه: «إنهم لمبخلة، مجبنة.

الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ

عليهم إبليس فى صورة شيخ، فقالوا له: ما الذى أدخلك علينا؟ قال: أنا شيخ من نجد، ولست من تهامة، وقد بلغنى اجتماعكم فى أمر هذا الرجل، وأنه لايعدمكم منى رأى، فقالوا: اتركوه، ثم تشاوروا، فقال عتبة: اربطوه على جمل وأخرجوه من بلدكم تكفكموه العرب، فقال إبليس: ليس هذا برأى، أما ترون حلاوة منطقه وأخذه القلوب، فلو فعلتم به ذلك يذهب فيستميل قلوب قوم ثم يغزوكم ويفرق جمعكم، فتركوا ذلك، فقال أبو البخترى بن هشام: نحبسه فى بيت ونتربص به ريب المنون، فقال إبليس: ليس هذا برأى، فإن له عشيرة وقومًا لايرضون به ويخرجونه، فتركوا ذلك، فقال أبو جهل: عندى رأى، هذه خمسة أحياء من قريش، نختار من كل حى شابًا قويًا ونضع فى يده سيفًا حادًا، ونأمرهم أن يضربوه دفعة واحدة حتى يتفرق دمه فى القبائل، ويعجز قومه عن القتال فيرضون بالدية، فقال إبليس: هذا هو الرأى، وتفرقوا عليه، فأخبره الله تعالى بمكرهم، ونزلت الآية، فروى أن النبى ﷺ بعث أبا بكر ليتفحّص عن حالهم، فلما جاء إليهم فإذا إبليس قد خرج من بينهم، فماشاه ساعه ثم لما أراد أن يفارقه قال له أبو بكر: أين تريد؟ فقال [له][1] اللعين: لى قوم بهذا الوادى، فعلم أبو بكر أنه إبليس، فقال الحمد لله الذى أخزاك وأظهر دينه، فاختفى منه؛ فقوله ﴿ وإذْ يمكر بك الذين كفروا ﴾ هو مكرهم ذلك، والمكر: التدبير ﴿ ليثبتوك ﴾ أى: ليحبسوك كما قال أبو البخترى ﴿ أو يقتلوك ﴾ كما قال أبو جهل ﴿ أو يخرجوك ﴾ كما قال عتبة.

﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾ والمكر من الله: التدبير بالحق، وقيل: هو الأخذ بغتة. قال الزجّاج معناه: يجازيهم جزاء المكر.

﴿ والله خير الماكرين ﴾ أى: خير المدبّرين.

قوله تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ هذا قول النضر بن الحارث بن كلدة، وكان قد خرج إلى الحيرة من أرض العراق

(١) من «ك».

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ

واشترى أخبار رستم، واسفنديار، وأحاديث العجم، وجاء بها إلى مكة، وقال: لو شئت لقلت مثل القرآن؛ فذلك قوله: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾.

﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أى: أكاذيب الأوّلين؛ والأساطير: جمع الأسطورة، وهى المكتوبة. فإن قيل: إذا كان القرآن معجزاً كيف يستقيم قوله: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وهل يقول أحد: لو شئت قلبت الحجر ذهبًا والعصا حية وهو عاجز عنه؟

قيل: إن القرآن مطمع ممتنع، فقد يتوهم صفوهم أنه يقول مثله، ويمتنع عليه ذلك فيخطئ ظنّه. وقيل: إنه توهّم بجهله أنه يمكنه الإتيان بمثله وكان عاجزاً.

قوله تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة منَ السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أكثر المفسرين على أن هذا قول النضر بن الحارث، وفى الصحيح برواية أنس أن هذا قول أبى جهل عليه اللعنة.

وهذا يدل على شدة بصيرتهم فى الكفر، وأنه لم تكن لهم شبهة وريبة فى كذب الرسول؛ لأن العاقل لايسأل العذاب بمثل هذا متردد فى أمره؛ وهذا دليل على أن العارف ليست بضرورته.

وحكى عن معاوية أنه قال لرجل من أهل اليمن: ما أجهل قومك حيث قالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، فقال الرجل: وأجهل من قومى قومك؛ حيث قالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ يعنى: أهل مكة ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ وفى معناه أقوال:

أحدها: أن هذا فى قوم من المسلمين بقوا بمكة بعد هجرة الرسول ﷺ، وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر.

اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ

وقيل: فى قوم علم الله تعالى أنهم يؤمنون ويستغفرون من أهل مكة، وذلك مثل: أبى سفيان، وصفوان بن أميّة، وعكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، ونحوهم، فلما كان فى علم الله تعالى أنهم لأصحابه يسلمون ويستغفرون؛ عدّهم مستغفرين فى الحال.

وقيل معناه: وماكان الله معذبهم وفى أصلابهم من يستغفر؛ إذ كان لبعضهم أولاد قد أسلموا.

وقيل: إنما قال: ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ دعوة لهم إلى الإسلام والاستغفار، كالرجل يقول: لا أعاقبك وأنت تطيعنى، أى: أطعنى حتى لا أعاقبك.

وفى الخبر: «أن النبى ﷺ قال: أنزل الله علىّ أمانين لأمتى: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فإذا مُضيتُ تركت لهم الاستغفار إلى يوم القيامة». وهو فى جامع أبى عيسى بطريق أبى موسى الأشعرى(١).

وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – أنه قال: من قال فى كل يوم: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، ثلاث مرات، غفر له ذنوبه وإن كان فارًّا من الزحف.

واستدل بهذا الأثر من عدّ الفرار من الزحف من جملة الكبائر.

قوله تعالى: ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ فإن قال قائل: كيف التلفيق بين هذا وبين قوله: ﴿ وما كان الله [ليعذبهم](٢) ﴾؟ قيل: أراد بالأول: عذاب الاستئصال، وبهذا: عذاب السيف. وقيل: أراد بالأول: عذاب الدنيا، وبالثانى: عذاب الآخرة.

---

(١) رواه الترمذى (٥/٢٥٢رقم ٣٠٨٢)، وتمام الرازى فى فوائده (١/٢٢١/رقم ٥٢٩) وقال الترمذى: هذا حديث غريب؛ وإسماعيل بن مهاجر يضعف فى الحديث.

ورواه الحاكم (١/٥٤٢) فأوقفه على أبى موسى.

(٢) فى «الأصل وك»: معذبهم.

الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ

وقيل: المراد به أولئك الذين ترك تعذيبهم؛ لكون النبى ﷺ بينهم، ومعناه: ومالهم ألا يعذبهم الله بعد خروجك من بينهم.

﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أى: يمنعون عنه ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ وذلك أنهم كانوا يدَّعون: إنا أولياء البيت ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ يعنى: المؤمنين ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ قال ابن عمر[١]، وابن عباس - رضى الله عنهم - والحسن المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. والمكاء فى اللغة: اسم طائر له صفير فكأنه قال: إلاَّ صوت مكاء، وقال مجاهد: والمكاء أن يجعل أصابعه فى شدقيه، والتصدية: الصفير؛ فجعلهما شيئًا واحداً. وقال سعيد بن جبير: التصدية: هى صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام. والأول أصح، قال الشاعر:

وحَلِيل غانيةٍ تركتُ مُجَـدَّلاً ... تمكو فَرِيصَتُه كَشِدْقِ الأعلَم

أى: تصفر فريصته كشدق الأعلم.

والقصة فى ذلك: أن أربعة من بنى عبد الدار كانوا إذا صلى النبى ﷺ فى المسجد الحرام وقف اثنان عن يمينه، واثنان عن يساره، فيصفر اللذان عن يمينه ويصفق اللذان عن يساره حتى يخلطوا عليه القراءة[٢].

قال ابن الأنبارى: إنما سماه صلاة؛ لأنهم أمروا بالصلاة فى المسجد، فلما وضعوا ذلك موضع الصلاة سماه صلاة ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾ فيه قولان:

(١) فى «ك»: عمر.

(٢) أخرجه الطستى بمعناه عن ابن عباس، كما فى الدر (٣/ ١٩٩).

الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ

أحدهما: أن الآية فى المطْعِمين يوم بدر، وهم اثنا عشر نفراً من رءوس المشركين: أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام، وأبى بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، والعباس بن عبد المطلب؛ لأن كل واحد منهم كان كل يوم ينحر عشرة أبعرة ويطعم الجيش.

والقول الثانى: أن هذا فى أبى سفيان بن حرب استأجر ثلاثة آلاف رجل من الأحابيش يوم أحد لقتال النبى - عليه السلام - فنزل قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ثم تكون حسرة عليهم يوم القيامة ثم يغلبون﴾.

قال الحسن: أشد الناس حسرة يوم القيامة من يرى ماله فى ميزان غيره ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾.

قوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أى: ليفرق الله الخبيث من الطيب؛ الخبيث: ما أنفق من الحرام، والطيب: ما أنفق من الحلال. وقيل: الخبيث ما أنفق فى المعصية، والطيب ما أنفق فى الطاعة.

﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا﴾ أى: يجمعه جميعًا؛ يقال: سحاب مركوم إذا كان بعضه على بعض ﴿فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون﴾.

وعن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال: إن الله تعالى يجمع الدنيا يوم القيامة، فيأخذ ماله ويطرح الباقى فى النار. ولأى معنى يطرحه فى النار؟ قيل: ليضيق المكان على الكفار، وقيل: لتكون الحسرة أشد عليهم إذا نظروا إليها.

قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ قال يحيى بن

الأَوَّلِين ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

معاذ الرازى - رحمه الله - إيمان لم يعجز عن هدم كفر قبله فمتى يعجز عن هدم ذنب بعده!

﴿وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ قيل: سنة الأولين: أن يصل عذاب الدنيا بعقوبة الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة﴾ أى: لايكون شرك ﴿ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ فالمولى: القيم بالأمور، والنصير: الناصر.

قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾ الآية.

اختلف العلماء فى الغنيمة والفيء؛ فأحد القولين: أنهما سواء، وهو المال المأخوذ من الكفار على وجه القهر.

والقول الثانى - وهو الأصح -: أنهما مختلفان، والفرق بينهما: أن الغنيمة: هى المال المأخوذ من الكفار على وجه العنوة بإيجاف الخيل والركاب، والفيء: هو المال المأخوذ من غير إيجاف خيل ولا ركاب.

وهذا القول منقول عن سفيان الثورى، والشافعى - رضى الله عنهما - وغيرهما.

﴿فأن لله﴾ أكثر المفسرين على أن قوله: ﴿لله﴾ افتتاح كلام، وليس لله سهم منفرد؛ بل سهم الله وسهم الرسول واحد.

وفيه قول آخر: أن لله سهمًا يصرف إلى الكعبة. وقد روى أن الحسن بن محمد بن الحنفية سئل عن هذه الآية فقال: قوله: ﴿فأن لله خمسه﴾ افتتاح كلام، لله الدنيا والآخرة. وعن أبى العالية الرياحى قال: «كان رسول الله ﷺ يقسم الغنيمة على

خمسة أسهم، فيفرز الخمس منه، ثم يأخذ منه قبضة فيجعله للكعبة، ثم يقسم الباقى على ما ذكر الله»[١].

وأما قوله: ﴿ وللرسول ﴾ أكثر المفسرين على أن للرسول سهمًا مفردًا. وقال بعضهم: ليس للرسول سهم أصلا؛ وإنما هو افتتاح كلام، ومعنى ذكر الرسول أن التدبير إليه.

ثم اختلفوا على القول الأول أن ذلك السهم بعد موته لمن يكون؟

قال قتادة: هو للخليفة بعده. وقال بعضهم: يرد إلى الأسهم الأربعة. وأما مذهب الشافعى: أن ذلك السهم يصرف إلى المصالح.

وفيه قول رابع: أنه يصرف إلى الكراع والسلاح فى سبيل الله. وهذا مروى عن إبراهيم النخعى وغيره.

وأما قوله: ﴿ ولذى القربى ﴾ اختلفوا فى هذا على ثلاثة أقاويل:

فمذهب الشافعى: أن لهم سهمًا مفردًا بعد رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، يشترك فيه أغنياؤهم وفقراؤهم على ماهو المعروف. وهذا قول أحمد وغيره.

وقال مالك: الأمر فيه إلى الإمام إن شاء أعطاهم، وإن شاء لم يعطهم، وكذلك فى الباقى، وإنما ذُكِرُوا لجواز الصرف إليهم لا للاستحقاق.

والقول الثانى: وهو مذهب أبى حنيفة - رضى الله عنه -: أن سهم ذوى القربى يرد إلى الباقين، وليس لهم سهم مفرد، فيقسم على ثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل. ويروون هذا عن الخلفاء الأربعة أنهم قسموا على هذا الوجه، والله أعلم بالصواب.

ثم اختلفوا فى ذوى القربى من هم؟ قال مجاهد. هم بنو هاشم خاصة؛ وروى عن ابن عباس أنه قال: جميع قريش. وحكى عنه أنه سئل عن سهم ذوى القربى فقال: نزعم أنه لنا، ويأبى قومنا ذلك علينا.

---

(١) رواه أبو داود فى المراسيل (ص ٢٧٥ / رقم ٣٧٤)، والطبرى فى التفسير (١٠/٤)، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٠١) لابن أبى شيبة، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى

والقول الثالث: أن ذوى القربى هم بنو هاشم وبنو المطلب، وهذا قول الشافعى - رحمه الله - وقد دل عليه الخبر المروى بطريق جبير بن مطعم - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ: «قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب، فمشيت أنا وعثمان إلى رسول الله ﷺ وقلنا: يارسول الله، إنا لاننكر فضيلة بنى هاشم لمكانك الذى وضعك الله فيهم؛ ولكننا وإخواننا بنى المطلب فى القرابة منك سواء، وقد أعطيتهم وحرمتنا، فقال: أنا وبنى المطلب شىء واحد - وشبك بين أصابعه - وإنهم لم يفارقونا فى الجاهلية والإسلام»(1).

وأما قوله تعالى: ﴿والیتامى﴾ فاليتامى لهم سهم مفرد بالإنفاق، واليتيم الذى يستحق السهم هو الذى لا أبٌ له فيكون صغيراً فقيراً.

وقوله: ﴿والمساكين﴾ فالمساكين هم أهل الحاجة، وسيرد الفرق بين المسكين والفقير فى سورة براءة.

وأما قوله: ﴿وابن السبيل﴾ فهو المنقطع الذى بَعُدَ عن ماله.

وقوله: ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ معناه: واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول، على ما ذكر، إن كنتم آمنتم بالله. وقيل معناه: يأ مران فيه بما يريدان فاقبلوا إن كنتم آمنتم بالله.

قوله تعالى: ﴿وما أنزلنا﴾ يعنى: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا ﴿على عبدنا﴾.

وفيه قول آخر: أن هذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة﴾ إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر، فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ معناه: التقى حزب الله وحزب الشيطان

(1) رواه البخارى (٦/ ٢٨١/ رقم ٣١٤٠)، و أبو داود (٣/ ١٤٥ - ١٤٦/ رقم ٢٩٧٨ - ٢٩٨٠)، والنسائى (٧/ ١٣٠ - ١٣١)/ رقم ٤١٣٧)، وابن ماجة (٢/ ٩٦١/ رقم ٢٨٨١)، وأحمد (٤/ ٨١، ٨٣، ٨٥)، والبيهقى فى الكبرى (٦/ ٣٤١).

الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ

﴿والله على كل شيء قدير﴾.

وروى عن الشعبى أنه قال: يوم الفرقان يوم السابع عشر من رمضان أخبر الله تعالى بتمام قدرته.

قوله تعالى: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ الآية، العدوة: شفير الوادى؛ والغدوة والعدوة واحد، وقوله ﴿الدنيا﴾ يعنى: الأدنى من المدينة؛ فهى تأنيث الأدنى ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ يعنى: الأقصى من مكة؛ وهى تأنيث الأقصى ﴿والركب أسفل منكم﴾ قالوا معناه: والركب بمنزل أسفل منكم. والركب: هو العير الذى كان عليه أبو سفيان، وكانوا بساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد﴾ معناه: ولو تواعدتم الاتفاق والاجتماع للقتال لاختلفتم لقلَّتكم وكثرتهم ﴿فى الميعاد ولكن﴾ الله جمع من غير ميعاد ﴿ليقضى الله أمرا كان مفعولا﴾.

قوله تعالى: ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ الآية فيها قولان:

أحدهما - وهو الأظهر -: أن الهلاك هو الكفر، والحياة هى الإيمان، ومعناه: ليكفر من كفر عن حجة بيّنة فيما له وعليه ﴿ويحيا من حى﴾ يعنى: ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

والقول الثانى: أن الهلاك هو الموت، والحياة هى العيش، ومعناه: ليموت من يموت عن حجة بينة، ويعيش من يعيش على مثل ذلك.

﴿وإن الله لسميع عليم﴾ سميع لأقوالكم، عليم بأموركم.

قوله تعالى: ﴿إذ يريكهم الله فى منامك قليلا﴾ الآية فيها قولان:

أظهر القولين: أن المنام حقيقة النوم؛ فرآهم رسول الله ﷺ فى نومه أقل مما كانوا

يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

فى العدد[١].

والقول الثانى وهو قول الحسن البصرى: أن قوله تعالى: ﴿ فى منامك ﴾ أى: فى عينك قليلا؛ وسمى العين مناماً؛ لأنها موضع النوم.

﴿ ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ﴾ لجبنتم ﴿ ولتنازعتم فى الأمر ﴾ يعنى: فى الإحجام والإقدام ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى: سلمكم من الفشل والجبن ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾.

وقد صح عن النبى ﷺ أنه كان يستعيذ بالله من الجبن[٢].

قوله تعالى: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾ معنى الآية: أن الله تعالى قلّل المشركين فى أعين المؤمنين؛ ليقدموا ولايجبنوا، وقلّل المؤمنين فى أعين الكفار؛ لئلا يهربوا.

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: قلت يوم بدر لبعض من كان بجنبى: تراهم سبعين رجلا، فقال: أراهم مائة، ثم إنا أسرنا منهم فقلنا لهم: كم كنتم؟ فقالوا: كنا ألفا ﴿ ليقضى الله ﴾ يعنى: ليقضى الله من إعلاء الإسلام وإذلال الشرك و نصرة المؤمنين وقتل المشركين.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ﴾ الآية، الفئة: الجماعة.

---

(١) رواه الطبرى فى التفسير (١٠/١٠) عن مجاهد، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٠٥) لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٢) متفق عليه من حديث أنس، رواه البخارى (٦/٤٣/رقم ٢٨٢٣)، ومسلم (١٨/٤٦ - ٤٨/رقم ٢٧٠٦). وفى الباب من حديث سعد بن أبى وقاص وغيره.

إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

قوله: ﴿ فاثبتوا واذكروا الله كثيراً ﴾ ومعنى ذكر الله: هو الدعاء بالنصرة والظفر ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وكونوا على رجاء الفلاح.

قوله تعالى: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ الآية، وقوله: ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا ﴾ معناه: ولاتختلفوا فتضعفوا ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ معناه: جدّكم وجهدكم.

وقال قتادة: الريح هاهنا: ريح النصرة. وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدَّبور»[1].

والقول الثالث، قول الأخفش وغيره: وتذهب ريحكم أى: دولتكم ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ معلوم التفسير.

وفى الآية فضيلة عظيمة لأهل الصبر؛ فإن الله تعالى قال: ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ قال الشاعر:

إنِّى رأيتُ فى الأيام تجربة　　　للصبر عاقبة محمودة الأثرِ

قوله تعالى: ﴿ ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ﴾ الآية، البطر: الطغيان فى النعمة وترك الشكر، والرياء: إظهار الجميل وإبطان القبيح.

والآية نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر، فقال تعالى للمؤمنين: ﴿ ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ﴾.

﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ معناه: يمنعون عن سبيل الحق ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ روى عن النبى ﷺ أنه قال حين أقبل المشركون: «اللهم هذه قريش أقبلت

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس، رواه البخارى (٦/ ٣٤٦ - ٣٤٧/ رقم ٣٢٠٥)، ومسلم (٦/ ٢٨٠ - ٢٨١/ رقم ٩٠٠).

مُحيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

بفخرها وخيلائها تحادك وتحاد رسولك»[١] الخبر إلى آخره.

قوله تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس﴾ الآية. روى أن إبليس - عليه مايستحق - تمثل فى صورة سراقة بن مالك و قال للمشركين: ﴿وإنى جار لكم﴾ معناه: مجير لكم من بنى كنانة، فلا يصيبكم منهم سوء، ثم جعل يحرضهم على القتال ﴿فلما تراءت الفئتان﴾ أى: تلاقت الفئتان، المؤمنون والمشركون ﴿نكص على عقبيه﴾ رجع القهقرى على عقبيه ﴿وقال إنى برىء منكم﴾ فى القصة: أنه كان آخذاً بيد الحارث بن هشام أخى أبى جهل، فلما رأى الملائكة ينزلون من السماء يقدمهم جبريل - عليه السلام - نزع يده من يد الحارث وهرب، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ وجعل يمسكه، فدفع فى صدره وقال: ﴿إنى أرى ما لاترون﴾ وهرب ﴿إنى أخاف الله﴾.

فإن قال قائل: كيف قال إنى أخاف الله وقد ترك السجود لآدم وهو لم يخف الله؟ الجواب فيه قولان:

أحدهما: أنه قال هذا كذباً، والقول الثانى: أنه خاف أن يؤخذ فيفتضح بين الإنس. ومنهم من قال: خاف أنه قد حضر أجله ﴿والله شديد العقاب﴾.

قوله تعالى: ﴿إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾ هؤلاء قوم كانوا أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فكان فى قلوبهم بعض الريب، فخرجوا مع المشركين وقالوا: إن نرى مع محمد قوة انتقلنا إليه، فلما رأوا قلة المؤمنين وضعف شوكتهم قالوا هذا القول، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إذ يقول المنافقون...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله﴾ ومن يثق بالله ﴿فإن الله عزيز حكيم﴾ قد

(١) رواه البيهقى فى الدلائل (٣/٣٥، ١١٠)، والطبرى فى التفسير (٩/١٣٦).

غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

بينا معنى العزيز الحكيم من قبل.

قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن هذا عند الموت، وقوله: ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ يضربون وجوههم بأسواط النار، وأدبارهم سوقًا إلى العذاب.

والقول الثانى: أن التوفى هاهنا هو القتل، ومعناه: قتل الملائكة المشركين ببدر، وقوله ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ معناه: يضربونهم بالسيف إذا أقبلوا. وقوله ﴿وأدبارهم﴾ ويضربونهم بالسيف إذا أدبروا، ويقولون: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾.

روى عن الحسن البصرى أنه قال: مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار، فتلتهب النار فى جراحاتهم؛ فهذا معنى قوله: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾.

قوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ الآية، الدأب هاهنا بمعنى العادة، ومعناه: عادتهم فى الكفر كعادة آل فرعون ﴿والذين من قبلهم كفروا بآيات الله﴾ الآية، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم﴾ الآية، فيه قولان:

أحدهما: معناه: ﴿لم يكن مغيرا نعمة﴾ يعنى: لم يكن مبدلا النعمة بالبلية

﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ

﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ يعنى: حتى يتركوا الشكر، ويؤتوا الكفران.

والقول الثانى: أن هذا فى أهل مكة؛ فإن الرسول ﷺ كان نعمة أنعمها الله تعالى عليهم، فكفروا بهذه النعمة، فغيرها الله تعالى، ومعناه: أنه نقلها إلى أهل المدينة ﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ معلومان.

قوله تعالى: ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ ومعناه: ما بينا، وإعادة الذكر للتأكيد، ويجوز أن هذا كان فى قوم آخرين سوى الأولين.

قوله تعالى: ﴿ والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ يعنى: نهلك هؤلاء كما أهلكنا أولئك.

قوله تعالى: ﴿ وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ يعنى: الأولين والآخرين.

قوله تعالى: ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ الآية. هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[1] سماهم الله تعالى دوابّ وأنعامًا؛ لقلة انتفاعهم بعقولهم وألبابهم وأسماعهم وأبصارهم ﴿ فهم لايؤمنون ﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ هذه الآية نزلت فى قوم من المشركين عاهدوا مع رسول الله ﷺ ثم نقضوا العهد، فقال الله تعالى: ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ﴾ يعنى: كلما عاهدوا نقضوا ﴿ وهم لايتقون ﴾ معناه: لايتقون نقض العهد.

قوله تعالى: ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب ﴾ معناه: فإما تصادفنهم فى الحرب ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ قال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم، قال الشاعر:

أطوِّفُ فى الأباطح كلَّ يومٍ مخافةَ أن يشرِّدَ بى حكيمُ

(١) الأعراف: ١٧٩.

﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ

قوله تعالى: ﴿لعلهم يذكرون﴾ يعني: يتذكرون.

ومعنى الآية: أى نكّل بهؤلاء الذين جاءوا لحربك أو نقضوا عهدك تنكيلا يفرق بينهم من خلفهم من جماعاتهم.

فقوله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ الآية، معنى المخافة هاهنا: هو الإحساس بالخيانة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ يعنى: فانبذ العهد إليهم ﴿على سواء﴾ يعنى: على حالة تستوى أنت وهم فى العلم به.

والمراد من الآية: ألا تقاتلهم قبل نبذ العهد، وقبل علمهم بالنبذ حتى لاتنسب إلى نقض العهد، وهذه الآية تعدّ من فصيح القرآن.

قوله تعالى: ﴿إن الله لايحب الخائنين﴾ والمعنى معلوم.

قوله تعالى ﴿ولايحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ الآية فى القوم الذين انهزموا يوم بدر من المشركين، قوله: ﴿سبقوا﴾ يعنى: فاتوا.

قوله ﴿إنهم لايعجزون﴾ يعنى: لايفوتونى. وقرأ ابن محيصن: «لايُعَجِّزون» والصحيح القراءة الأولى. وقد قرئت الآية بقراءتين: «أنهم» و«إنهم»[1] فقوله: «إنهم» على طريق الابتداء، وقوله: «أنهم» يعنى: لأنهم لايفوتون. ومعنى الفوات منقول عن أبى عبيدة، وعن الحسن البصرى أنه قال: ﴿لايعجزون﴾ معناه: إن فاتهم عذاب الدنيا لايفوتهم من عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ الآية، الإعداد: اتخاذ الشىء لوقت الحاجة، وقوله: ﴿من قوة﴾ فيه أقوال:

(١) قرأ ابن عامر بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها. انظر النشر (٢ / ٢٧٧).

أحدها: ماروى عقبة بن عامر: «أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال: ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى». أورده مسلم فى «الصحيح»[1].

والقول الثانى: وهو أن القوة: ذكور الخيل، والرباط: إناثها. هذا قول عكرمة.

وروى عن خالد بن الوليد أنه كان لايركب فى القتال إلا الإناث؛ لقلة صهيلها.

وعن أبى محيريز قال: كانوا يستحبون ركوب ذكور الخيل عند الصفوف، وركوب إناث الخيل عند الثبات والغارات.

والقول الثالث: أن القوة: هى جميع الأسلحة. وقد قيل: إن القوة: الحصون؛ و الحصون: الخيول، قال الشاعر:

ولقد عَلِمْتُ على تجنبى الرَّدَى　　　أن الحصونَ الخيل لامدَرُ القرى

وقوله: ﴿ترهبون به﴾ معناه: تخيفون به ﴿عدو الله وعدوكم﴾ أى: أعداء الله وأعداءكم واحد بمعنى الجمع. وقوله: ﴿وآخرين من دونهم﴾ أى: ترهبون به آخرين من دونهم، واختلفوا فى معناه:

روى عن مجاهد أنه قال: هم بنو قريظة. وفيه قول آخر: أنهم المنافقون.

وفيه قول ثالث: أنهم الجن. وعن السدى أنه قال: أهل فارس.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «لن يخبل الجن آدميًا فى داره فرس عتيق»[2]. أورده النقاش فى تفسيره.

---

(١) رواه مسلم (١٣/ ٩٥/ رقم ١٩١٧)، وأبو داود (٣/ ١٣/ رقم ٢٥١٤)، والترمذى (٥/ ٢٥٢/ رقم ٣٠٨٣)، وأحمد (٤/ ١٥٧).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٠): رواه الطبرانى، وفيه مجاهيل. وعزاه الحافظ ابن حجر فى المطالب (٣/ ٣٣٥ - ٣٣٦) لمسدد فى مسنده. ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٦٠) ونقل تضعيف راويه سعيد بن سنان عن الأئمة، وقال: وعامة ما يرويه وخاصة عن أبى الزاهرية غير محفوظ.

وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٢١٥) لابن سعد، والحارث بن أبى أسامة، وأبى يعلى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن قانع فى معجمه، والطبرانى، وأبى الشيخ، وابن منده، والرويانى، وابن مردويه، وابن عساكر من طريق يزيد بن عبد الله بن عريب عن أبيه عن جده.

مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ

وفى الآية قول رابع: روى عن معاذ بن جبل أنه قال: ﴿وآخرين من دونهم﴾ يعنى: الشياطين.

وقوله: ﴿لاتعلمونهم الله يعلمهم﴾ ظاهر.

قوله: ﴿وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون﴾ أى: لاينقص أجوركم.

قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ السَّلم والسِّلم والسُلم: الصلح؛ ومعناه: وإن مالوا إلى الصلح فمل إليه.

وروى عن الحسن وقتادة أنهما قالا: هذه الآية منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وتوكل على الله﴾ معناه: ثق بالله ﴿إنه هو السميع العليم﴾.

قوله تعالى: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ الخداع: أن يظهر خلاف ما يبطن.

قوله: ﴿فإن حسبك الله﴾ يعنى: فإن كافيك هو ﴿هو الذى أيدك بنصره﴾ هو الذى قواك بنصره ﴿وبالمؤمنين﴾ أى: قواك بالمؤمنين ﴿وألف بين قلوبهم﴾ أكثر المفسرين أن هذا فى الأوس والخزرج؛ وقد كانت بينهم إحن وَترات فى الجاهلية، وكان القتال بينهم قائمًا مائة سنة، فألف الله بين قلوبهم بالنبى ﷺ. قال الزجاج: كان الرجل منهم يُلطم اللطمة فكان يقاتل بقوته إلى أن يَستَقيدَ منها، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام، حتى صار الرجل يقاتل أخاه وقريبه على الإسلام.

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: نزلت الآية فى المتحابين فى الله.

وفى الأخبار عن النبى ﷺ أنه قال: «المؤمن مألفة، ولاخير فيمن لايؤلف ولا

جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن

يألف »[١].

وعن خالد بن معدان أنه قال: إن لله مَلَكًا في السماء؛ نصفه من ثلج ونصفه من نار، وتسبيحه: اللهم كما ألفت بين الثلج والنار فألف بين قلوب عبادك الصالحين.

قوله ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ أى منيع فى ملكه، حكيم فى خلقه.

قوله تعالى: ﴿يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ روى عن ابن عباس برواية الوالبى أنه قال: أسلم تسعة وثلاثون رجلاً وثلاث و عشرون امرأة، ثم أسلم عمر رضى الله عنه تمام الأربعين، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفى الآية قولان: أحدهما: ﴿يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك﴾ أى: يكفيك الله ويكفى من اتبعك من المؤمنين، فتكون «من» فى موضع النصب.

والقول الثانى: ﴿حسبك الله﴾ وحسبك تُبَّاعك من المؤمنين؛ فتكون «من» فى موضع الرفع، قال الشاعر:

إذا كانت الهَيْجاءُ وانشَقَّتِ العَصَا ... فحسبُكَ والضحاكَ سيفٌ مهندُ

وهذا استشهاد للقول الأول.

وقرأ الشعبى: «حسبكَ الله ومن اتبعك من المؤمنين» ومعناه قريب من الأول.

قوله تعالى: ﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال﴾ قرئ فى الشاذ: «حرص

(١) رواه أحمد (٥/٣٣٥)، والطبرانى فى الكبير (٦/١٣١/رقم ٥٧٤٤)، والخطيب فى تاريخه (١١/٣٧٦) من حديث سهل بن سعد. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٧٦): رواه أحمد، والطبرانى، وإسناده جيد. وذكره فى (٨/٩٠) وقال: رواه أحمد، وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات.

وانظر كلام الشيخ الألبانى عليه فى الصحيحة رقم [٤٢٥].

يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ

المؤمنين» بالصاد غير معجمة، والمعروف بالضاد معجمة؛ والتحريض: هو الحث على المبادرة إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، وكان الله تعالى أمر المؤمنين ألاّ يفر الواحد منهم عن عشرة، ولاتفر المائة منهم عن ألف. فإن قال قائل: أيش معنى ﴿بأنهم قوم لايفقهون﴾ وأى اتصال لهذا بمعنى الآية؟

جوابه: معناه: أنهم يقاتلون على جهالة لا على حسبة وبصيرة، وأنتم تقاتلون على بصيرة وحسبة، فلا يثبتون إذا ثبتم، ثم إن المسلمين سألوا الله التخفيف، فأنزل الله تعالى الآية الأخرى، وأمر ألا يفر الواحد من اثنين، والمائة من المائتين.

فإن قال قائل: الله تعالى قال: ﴿يغلبوا مائتين﴾ ونحن رأينا القتال على هذا العدد بلا غلبة، فكيف يستقيم معنى الآية، والخُلْف فى خبر الله لايجوز؟

قلنا: إن معنى قوله: ﴿يغلبوا﴾ أى: يقاتلوا؛ كأنه أمرهم بالقتال على رجاء الظفر والنصرة من الله تعالى.

وأما قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ هذه الآية ناسخة للآية الأولى، وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع: «وعلم أن فيكم ضعفاء» والمعروف: «ضَعْفًا» و«ضُعفا» ومعناهما واحد(١).

﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله و الله مع الصابرين﴾ وباقى الآية معناه معلوم.

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، وخلف بفتح الضاد، وقرأ الباقون بضمها، وقرأ أبو جعفر بفتح العين، والمد، والهمز وقرأ الباقون بإسكان العين منونًا من غير مد، ولا همز. انظر النشر (٢ / ٢٧٧).

الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا

قوله تعالى: ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى﴾ قرئ: «أسرى، وأسارى»[(١)] . قال أهل اللغة: أسرى جمع أسير، وأسارى جمع الجمع. وحكى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال: الأسرى هم المأخوذون من غير شد، والأسارى هم الذين أخذوا وشدوا. والأصح عند أهل اللغة أنه لافرق بينهما، قاله الأزهرى.

وقوله تعالى: ﴿حتى يثخن فى الأرض﴾ الإثخان: القتل، وقيل: المبالغة فى التنكيل.

﴿تريدون عرض الدنيا﴾ بالإفداء.

قوله تعالى: ﴿والله يريد الآخرة﴾ معناه: يرغبكم فى الآخرة، وقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ قد ذكرنا معنى العزيز الحكيم.

واعلم أن الآية نزلت فى أسارى بدر؛ فإنه روى: «أن النبى ﷺ قتل سبعين يوم بدر، وأسر سبعين من المشركين، ثم إنه استشار أصحابه فى الأسارى، فقال أبو بكر - رضى الله عنه -: هؤلاء قومك وأسرتك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يهديهم بك، وخذ منهم الفداء؛ فيكون معونة للمسلمين. وقال عمر: هؤلاء آذوك وأخرجوك وكفروا بما جئت به فاضرب أعناقهم. فمال الرسول إلى قول أبى بكر وأحبّ ما ذكره»[(٢)].

وروى «أنه قال لأبى بكر: مثلك مثل إبراهيم حين قال: ﴿فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾[(٣)] وقال لعمر: مثلك مثل نوح حين قال: ﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديّارا﴾[(٤)]»[(٥)] ثم قال لأصحابه: لايخلين أحد منكم

(١) انظر النشر (٢/٢٧٧).
(٢) رواه مسلم (١٢/١٢١ - ١٢٥/ رقم ١٧٦٣)، والترمذى (٥/٢٥١ - ٢٥٢/ رقم ٣٠٨١)، وأحمد (١/٣٠)، والطبرى (٩/١٨٩) من حديث عمر.
(٣) إبراهيم: ٣٦.
(٤) نوح: ٢٦.
(٥) عزاه السيوطى فى الدر (٣/٢١٨) لابن مردويه عن أبى هريرة.

أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

عن أسير إلا بفداء أو بضرب عنقه ففادوا وكان الفداء لكل أسير أربعين أوقية، الأوقية أربعون درهمًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ روى عن النبى ﷺ برواية أبى هريرة أنه قال: «لم تحل الغنائم لأحد سود الرءوس قبلكم؛ كانت نار تنزل من السماء فتأكلها. قال أبو هريرة: فلما كان يوم بدر ووقعوا فيما وقعوا من الغنائم فادوا الأسارى قبل أن ينزل الوحى بالجواز، أنزل الله تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم﴾ الآية»(١). وفى معنى الآية أقوال:

أحدها: لولا كتاب من الله سبق فى تحليل الغنائم لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. هذا قول سعيد بن جبير وجماعة.

والثانى: لولا كتاب من الله سبق من مغفرته لأهل بدر ما صنعوا؛ لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، هذا قول الحسن البصرى.

والثالث: لولا كتاب من الله سبق أنهم لم يُقَدِّم إليكم ألا تأخذوا؛ لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم؛ فإنه لايعذب من غير تقدمة.

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «أُريتُ عذابكم دون هذه الشجرة، وأشار إلى شجرة قريبة منه»(٢). وروى أنه قال لعمر: «لو نزل العذاب ما نجا أحد سواك»(٣). وروى أنه قال له: «كاد يصيبنا». (٤)

---

(١) رواه الترمذى (٥/٢٥٣ - ٢٥٤/ رقم ٣٠٨٥) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائى فى الكبرى (٦/٣٥٢/ رقم ١١٢٠٩)، وأحمد (٢/٢٥٢)، والطبرى (١٠/٣٢)، والبيهقى (٦/٢٩٠ - ٢٩١)، وابن حبان - الإحسان - (١١/١٣٤/ رقم ٤٨٠٦).

(٢) تقدم برواية مسلم والترمذى وأحمد له قبل حديثين.

(٣) عزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٢٠) لابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردويه، من طريق نافع عن ابن عمر.

(٤) رواه الحاكم (٢/٣٢٩) عن ابن عمر، وصحح إسناده، وقال الذهبى: على شرط مسلم، وأبو نعيم فى الحلية (١/٤٣) ولفظه: «كاد أن يصيبنا بلاء فى خلافك». وذكره الواحدى فى أسباب النزول.

﴿٦٩﴾ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

وروى أنه لما نزلت الآية الأولى كف أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى﴾ نزلت هذه الآية فى العباس بن عبد المطلب؛ فإنه أسر يوم بدر، وكانت معه عشرون أوقية من الذهب فأخذت منه، ثم قال له النبى ﷺ: «افد نفسك وابنى أخيك - يعنى عقيلاً ونوفلاً - فقال: مالى شيء، وقد أخذتم ما كان معى، قال: أين المال الذى دفعتَه إلى أم الفضل وقلت: إن أصبت فى هذا الوجه فلعبد الله كذا، وللفضل كذا، ولَقُثَم كذا؟ فقال: والله ما كان معنا أحد، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله؛ ثم إنه فادى نفسه وابنى أخيه، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها»[1].

قوله تعالى: ﴿إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا﴾ معناه: إن يعلم فى قلوبكم إيمانا.

قوله تعالى: ﴿يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾ قال العباس: فقد آتانى الله خيراً مما أخذ منى، وكان له عشرون عبداً يَتَّجر كل عبد فى عشرين ألف درهم.

وقوله: ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ قال العباس: وأنا أرجو من الله المغفرة.

قوله تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ الخيانة: ضد الأمانة؛ ومعناه: إن أرادوا أن يكفروا بك ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أى: قد كفروا بالله من قبل.

قوله: ﴿فأمكن منهم﴾ يعنى: مكَّن منهم ﴿والله عليم حكيم﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ الآية، الهجرة: هى الخروج من الوطن إلى غيره، وقد كانت فرضا فى ابتداء

(١) رواه الحاكم (٣/٣٢٤) عن عائشة، وقال: صحيح على شرط مسلم، ورواه البيهقى فى الدلائل (٣/١٤٢ - ١٤٣).

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

الإسلام، فلما كان يوم فتح مكة قال النبى ﷺ: «لاهجرة بعد اليوم»[1].

وروى عن الحسن البصرى أنه قال: الهجرة قائمة إلى قيام الساعة، فعلى أهل البوادى إذا أسلموا أن يهاجروا إلى الأمصار.

قوله: ﴿والذين آووا ونصروا﴾ هؤلاء أهل المدينة؛ ومعنى الإيواء: ضمّهم المهاجرين إلى أنفسهم فى الأموال والمساكن.

قوله: ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ فيه قولان:

أحدهما: أولئك أعوان بعض.

والقول الثانى معناه: يرث بعضهم من بعض.

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ قطع الموالاة بين المسلمين وبينهم حتى يهاجروا، وكان المهاجر لايرث من الأعرابى، ولا الأعرابى من المهاجر، ثم قال: ﴿وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر﴾ يعنى: وإن استنصروكم الذين لم يهاجروا فعليكم النصر، ثم استثنى وقال: ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أى: موادعة، فلا تنصروهم عليهم. قوله: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ يعنى: أن بعضهم أعوان بعض.

والقول الثانى: إن بعضهم يرث من البعض.

وقوله ﴿إلا تفعلوه﴾ يعنى: إن لم تقبلوا هذا الحكم ﴿تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير﴾ الفتنة فى الأرض: قوة الكفر، والفساد الكبير: ضعف الإيمان.

(١) الحديث متفق عليه، وقد تقدم تخريجه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا﴾ (الآية)[1]، فإن قيل: أى معنى فى هذا التكرار؟

قلنا: المهاجرون كانوا على طبقات، وكان بعضهم أهل الهجرة الأولى، وهم الذين هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية، وهم الذين هاجروا بعد الحديبية قبل فتح مكة، وكان بعضهم ذا هجرتين، وهما الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة؛ فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، والمراد من الثانية الهجرة الثانية.

قوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ يعنى: لامرية ولاريب فى إيمانهم.

قوله: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ روى فى الرزق الكريم أن المراد منه: رزق الجنة لايصير بخوى؛ بل يصير رشحا له ريح المسك.

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ الآية، أراد به: فأولئك معكم، فأنتم منهم وهم منكم.

قوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ أكثر المفسرين على أن هذه الآية ناسخة لما سبق من إثبات الميراث بالهجرة، فنقل الميراث من الهجرة إلى الميراث بالقرابة.

قوله تعالى: ﴿فى كتاب الله﴾ أى: فى حكم الله.

قوله: ﴿إن الله بكل شىء عليم﴾ قال أهل العلم: ليس المراد من أولى الأرحام الأقرباء الذين ليس لهم عصوبة ولافرض؛ وإنما المراد من أولى الأرحام [أهل العصابات][2] ثم ميراث الأقرباء مذكور فى موضع آخر، وهو آية الميراث، والله أعلم.

(١) ليست فى «ك».

(٢) ليست فى «الأصل، ولا ك».

تفسير سورة التوبة

اعلم أن هذه السورة مدنية، وقد صح عن النبى ﷺ برواية البراء بن عازب: «أنها آخر سورة أنزلت كاملة»[١] ولها أسماء كثيرة.

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه السورة، فقال: هى الفاضحة؛ مازال ينزل قوله [تعالى][٢]: ومنهم، ومنهم، حتى ظننا أنه لايترك منا أحدا. وقال حذيفة بن اليمان: هى سورة العذاب.

ومن المعروف أنها تسمى سورة البُحوث، ومن أسمائها: المبعثرة، ومن أسمائها: المنيرة، ومن أسمائها: الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين. وروى النقاش عن ابن عمر أنها تسمى المقشقشة. وعن عمران بن حدير أنه قال: قرأت هذه السورة على أعرابى، فقال: هذه السورة أظنها آخر ما أنزلت، فقلت له: ولِمَ؟ فقال: أرى عهودا تنبذ، وعقودا تنقض.

وعن سعيد بن جبير: أن هذه السورة كانت تعدل سورة البقرة فى الطول.

وأما الكلام فى حذف التسمية: روى عن ابن عباس أنه قال: «قلت لعثمان - رضى الله عنه -: ما بالكم عمدتم إلى سورة التوبة وهى من المئين، وإلى سورة الأنفال وهى من المثانى، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾؟ فقال: «كان إذا أنزل على رسول الله ﷺ الشىء من القرآن دعا بعض من يكتب، فيقول له: ضعه فى سورة كذا، ضعه فى سورة كذا، وكانت الأنفال من أول ما أنزلت بالمدينة، والتوبة من آخر ما أنزلت، وكان قصّتيهما شبيهة بعضها ببعض، وخرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يبيّن لنا شيئا فظننا أنهما سورة واحدة؛ فلذلك قرنا بينهما ولم نكتب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

(١) تقدم تخريجه فى أواخر سورة البقرة.

(٢) من «ك».

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ

وهذا خبر فى «الصحيح» أورده مسلم[1]، وروى أن الصحابة اختلفوا، فقال بعضهم: هما سورتان، وقال بعضهم: هما سورة واحدة؛ فاتفقوا أن يفصلوا ببياض بين السورتين، ولايكتبوا: «بسم الله الرحمن الرحيم».

والقول الثالث: ما حكى عن سفيان بن عيينة من المتقدمين، والمبّرد من المتأخرين: أن السورة سورة نقض العهد والبراءة من المشركين؛ والتسمية أمان وافتتاح خير؛ فلهذا لم يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم».

قوله تعالى: ﴿ برآءة من الله ورسوله ﴾ قوله: ﴿ براءة ﴾ هذه براءة، والبراءة: نقض العصمة، ومعنى الآية: تبرؤ من الله ورسوله.

﴿ إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ وقال بعضهم: برئ الله ورسوله من المشركين.

قوله تعالى: ﴿ فسيحوا فى الأرض ﴾ معناه: أقبلوا وأدبروا واذهبوا وجيئوا ﴿ أربعة أشهر ﴾ اختلفوا فى الأشهر الأربعة:

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ابتداؤه من يوم النحر، وآخره العاشر من شهر ربيع الآخر. وقال الزهرى: هو شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

والقول الأول هو الصواب.

قوله تعالى: ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ أى: غير فائتى الله، ومعناه: أنه

---

(١) قلت: ليس هو فى الصحيح، ولم يورده مسلم فى صحيحه، وإنما رواه أبو داود (١/ ٢٠٨ - ٢٠٩/ رقم ٧٨٦، ٧٨٧)، والترمذى (٥/ ٢٧٢ - ٢٧٣/ رقم ٣٠٨٦) وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى (٥/ ١٠/رقم ٨٠٠٧)، وأحمد فى المسند (١/ ٥٧، ٦٩)، والحاكم (٢/ ٢٢١) وقال: صحيح على شرط الشيخين و (٢/ ٣٣٠)، وقال: صحيح الإسناد، وابن حبان - الإحسان - (١/ ٢٣٠ - ٢٣١/ رقم ٤٣)، والبيهقى فى الكبرى (٢/ ٤٢). وذهب الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - (٢/ ٣٢٩ - ٣٣١) إلى الحكم على هذا الحديث بأنه موضوع لا أصل له. وانظر كلامه.

وإن أجّلكم هذه المدة فلا يعجز عن عذابكم ،كما يعجز من يفوته الشيء ﴿ وأن الله مخزى الكافرين ﴾ أى: مذل الكافرين.

وسبب نزول الآية: «أنه كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين عهود ومدد، فلما غزا غزوة تبوك أرجف المنافقون بالنبى ﷺ، فجعل المشركون ينقضون العهود- وقيل: إن هذا كان قبل غزوة تبوك - فلما كانت سنة تسع من الهجرة بعث أبا بكر- رضى الله عنه - للحج بالناس، وبعث عليًا- رضى الله عنه - ليقرأ على الناس هذه الآيات من أول هذه السورة. ويروى أنه بعث أبا بكر أولا، ثم إنه بعث عليًا فى إثره، وقال: «لايبلغ هذه الآيات إلا رجل منى»[1] يعنى: من رهطى فكان أبو بكر أميرا على الموسم، وكان علىّ ينادى فى الناس بهذه الآيات.

وروى أن عليًا سئل: بم بعثك رسول الله ﷺ؟ فقال: بعثنى بأربعة أشياء: أولها: من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فمدته إلى أربعة أشهر، والثانى: لايحجّن بعد هذا العام مشرك، والثالث: لايطوفن بالبيت عريان، والرابع: لايدخل الجنة إلا نفس مسلمة»[2].

فإن قال قائل: كيف بعث أبا بكر بهذه الآيات ثم عزله و بعث عليا، وقال: «لايبلغ عنى إلا رجل منى»، فإن كان لايبلغ هذا إلا رجل من رهطه، فكذلك سائر الأشياء؟

والجواب عنه: ذكر العلماء أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر عن الموسم ،وكان هو الأمير، وإنما بعث عليًا لينادى بهذه الآيات؛ لأن العرب كانوا تعارفوا أنه لايعقد على القوم إلا سيدهم، ولاينقض إلا سيدهم أو رجل من أهله، فبعث عليا على ماتعارفوا؛ ليزيح العلل بالكلية، فلا تبقى لهم علة، فكان المعنى هذا، والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١/ ٣) عن أبى بكر، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده فى تحقيق المسند (١/ ١٥٦) وروى عن أنس، رواه الترمذى (٥/ ٢٥٦/ رقم ٣٠٩٠)، وقال: حسن غريب، والنسائى فى الكبرى (٥/ ١٢٨/ رقم ٨٤٦٠). ورواه ابن حبان - الإحسان - (١٥/ ١٦ - ١٧/ رقم ٦٦٤٤) على الشك فى الصحابى هل هو أبو هريرة أم أبو سعيد؟ وروى عن على، رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (١/ ١٥١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٢): وفيه محمد بن جابر السحيمى، وهو ضعيف وقد وثق. وروى عن غير واحد من الصحابة.

(٢) رواه الترمذى (٥/ ٢٥٧/رقم ٣٠٩٢) وحسنه، وأحمد (١/ ٧٩) وصححه الشيخ شاكر فى تحقيق المسند (٢/ ٣٢).

مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ

قوله تعالى: ﴿ وأذان من الله ورسوله ﴾ معناه: إعلام من الله ورسوله، قال الحارث بن حلزة:

آذنتنا بينهما أسماء رب ثاوٍ يملُّ منه الثواء

معناه: أعلمتنا.

قوله تعالى: ﴿ إلى الناس يوم الحج الأكبر ﴾ اختلفوا في يوم الحج الأكبر على أقوال:

روى يحيى بن (الجزار)(1) أن عليًا - رضى الله عنه - خرج يوم العيد على دابة، فأخذ رجل بلجام دابته، وقال: ما يوم الحج الأكبر؟ فقال: هو اليوم الذى أنت فيه، خلّ عنها.

وروى مثل هذا عن ابن عمر، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن أبى أوفى.

والقول الثانى: قول ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: هو يوم عرفة. وهو قول مجاهد والشعبى والنخعى وجماعة.

وقال ابن سيرين - وهو القول الثالث -: يوم الحج الأكبر هو اليوم الذى حج فيه رسول الله ﷺ، اتفق فيه حج أهل الملل كلها.

والصحيح هو أحد القولين الأولين.

واختلفوا فى الحج الأكبر:

فأحد القولين: أن الحج الأكبر هو القران، والحج الأصغر هو الإفراد.

والقول الثانى: أن الحج الأكبر: هو الحج، والأصغر هو العمرة.

قوله: ﴿ أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ معناه: ورسوله برىء

(1) فى «ك»: الجوزاء وهو سبق قلم. وهو العَرَنى الكوفى من رجال التهذيب.

كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

أيضا. ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ وقع الاستثناء على قوم من بنى ضمرة أمر الله رسوله أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر؛ والسبب فى الإتمام: أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثم لم ينقصوكم شيئا﴾، وقرأ عطاء بن يسار: «ثم لم ينقضوكم شيئا» بالضاد المعجمة.

قوله تعالى: ﴿ولم يظاهروا عليكم أحدا﴾ ومعناه: ولم يعاونوا عليكم أحدا ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ يعنى: المتقين عن نقض العهد. وروى عن الحسن البصرى - رحمه الله - أنه قال: المتقى: من يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس.

قوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ روى فى التفاسير «أن النبى ﷺ أجّل المشركين الذين كان بينهم وبين النبى ﷺ عهد أربعة أشهر، وأجّل الذين لم يكن بين رسول الله ﷺ وبينهم عهد باقى ذى الحجة والمحرم وهو خمسون ليلة»[1]، فهذا معنى الآية.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ وما ذكرتم بعض الأشهر الحرم.

قلنا: هذا القدر كان متصلا بما مضى؛ فأطلق عليه اسم الجميع، ومعناه: هو مضى المدة المعروفة التى تقع بعد انسلاخ الأشهر الحرم.

قوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ معناه معلوم.

قوله ﴿وخذوهم﴾ ظاهر. أى: خذوهم أسرا؛ والعرب تسمى الأسير أخيذاً، وفى المثل: أكذب من أخيذ.

قوله تعالى: ﴿واحصروهم﴾ يعنى: واحبسوهم، يعنى: حولوا بينهم وبين

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٢٨) لابن المنذر، وابن أبى حاتم.

وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا

المسجد الحرام، هذا هو معنى الحبس هاهنا.

وقوله: ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ قال أبو عبيدة: المراصد: الطرق. يعنى اقعدوا لهم بطرق مكة حتى لايصلوا إلى المسجد الحرام قال الشاعر:

ولقد علمت [ولا أخالك ناسيًا][1] أن المنيـــة للفتـــى بالمرصـــد

قوله: ﴿فإن تابوا﴾ يعنى: آمنوا ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ يعنى: خلّوا سبيلهم ليصلوا إلى المسجد الحرام ﴿إن الله غفور رحيم﴾ معلوم.

قوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره﴾ الاستجارة: طلب الأمان. ومعنى الآية: وإن أحد من المشركين طلب منك الأمان فأجره، أى: أمنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ يعنى: فيما له وعليه من العقاب والثواب والوعد والوعيد ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ يعنى: الموضع الذى يأمن فيه ﴿ذلك بأنهم قوم لايعلمون﴾ ومعناه: أنهم يحتاجون إلى أن يسمعوا كلام الله تعالى لجهلهم.

قوله تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾ قال الفراء: كلمة «كيف» هاهنا كلمة استفهام بمعنى الجحد، ومعناه: لايكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، يعنى: ولا عند رسوله.

قوله تعالى: ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ هؤلاء قوم من بنى ضمرة على ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ يعنى: إذا وفوا بعهدكم وفوا

(١) فى «الأصل، وك»: ولا أخاك سواه وما أثبته من تفسير القرطبى، وعزاه لعامر بن الطفيل.

اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

بعهدهم ﴿إن الله يحب المتقين﴾ قيل معناه: إن الله يحب المؤمنين، وقيل: يحب المتقين نقض العهد.

قوله تعالى: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾ يعنى: كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة؟ اختلفت الأقوال فى «إلاً»:

روى عن مجاهد أن «إلا» هو الله تعالى. وفى الشاذ قرئ: «لايرقبوا فيكم إيلا ولا ذمة»، وإيل: هو الله.

وروى عن أبى بكر - رضى الله عنه - أنه قال فى كلمات مسيلمة الكذاب - لعنه الله - حين سمع أنه يقول: ياضفدع نقى نقى، كم تنقين، لا الماء تكدّرين ولا الشراب تمنعين. فقال أبو بكر: إن هذا كلام لم يخرج من إلٍّ يعنى: من الله.

والقول الثانى قول أبى عبيدة: الإل هو العهد، والذمة: التذم.

والثالث: قول الضحاك - وهو أولى الأقاويل وأحسنها - قال: إن الإل هو القرابة، والذمة: العهد، قال حسان بن ثابت:

لعمـرك إن إلَّك مـن قريش ... كإلِّ السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعَامِ

قوله تعالى: ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ يعنى: يعدون الوفاء بالقول، وتأبى قلوبهم إلا الغدر ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ فإن قال قائل: هذا فى المشركين وهم كلهم فاسقون، فكيف قال: ﴿وأكثرهم﴾؟

قلنا: الفسق ها هنا: نقض العهد، وكان فى المشركين من وفى بعهده؛ فلهذا قال ﴿وأكثرهم فاسقون﴾.

قوله تعالى: ﴿اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا﴾ الآية. قال الحسن البصرى: الدنيا

يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ

بحذافيرها ثمن قليل. ومعنى الآية: أنهم اختاروا الدنيا على رضا الله وعلى الإيمان بآيات الله ﴿ فصدوا عن سبيله ﴾ يعني: منعوا الناس عن سبيله ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ لايرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ﴾ المراقبة: الحفظ، والإلّ والذمة قد ذكرنا معناهما ﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾ المجاوزون للحدود.

وقوله تعالى: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ﴾ هذا فى العهد الذى كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فنقضوا العهد، وكان نقضهم: أنهم عاونوا بنى بكر على خزاعة، وكانت بنو بكر حلفاء قريش، وخزاعة حلفاء النبى ﷺ، فجاء رجل من خزاعة إلى النبى ﷺ بالمدينة، وأنشده:

لاهـم إنى ناشـد محمـدا ... حلـف أبينـا وأبيـه الأتلدا

وإن قريشا نقضوك الموعدا ... وبيّتونا بالوثير هجـدا

وقتلـونا ركعـا وسجـدا

فى أبيات كثيرة، فقال رسول الله ﷺ: «لانُصِرتُ إن لم أَنْصُركم(١)».

(١) رواه الطبرانى فى الصغير (٢/١٦٧ – ١٦٩/ رقم ٩٦٨)، وفى الكبير (٢٣/٤٣٣ – ٤٣٥/ رقم ١٠٥٢) عن ميمونة أم المؤمنين – رضى الله عنها – وقال فى الصغير: لم يروه عن جعفر إلا محمد بن نضلة، تفرد به يحيى ابن سليمان، ولايروى عن ميمونة إلا بهذا الإسناد.
وقال الهيثمى فى المجمع (٦/١٦٧): تفرد به يحيى بن نضلة، وهو ضعيف.
ورواه البيهقى فى الدلائل (٥/ ٥ – ٧) عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة. ورواه الواقدى فى المغازى عن ابن عباس، انظر تخريج الكشاف للزيلعى (٢/ ٥٥ – ٥٦).

إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ

وروى أنه رأى سحابة تبرق، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر خزاعة»[١]، وكان هذا ابتداء القصد لفتح مكة.

قوله تعالى: ﴿ وطعنوا فى دينكم ﴾ هذا دليل على أن الذمى إذا طعن فى دين الإسلام ظاهرا لايبقى له عهد، ويجوز قتله.

قوله: ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ يعنى: رءوس الكفر، ورءوس الكفر هم: أبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وأمية بن صفوان، وعكرمة بن أبى جهل ﴿إنهم لا أيمان لهم ﴾ يعنى: لاعهود لهم. وقرأ الحسن البصرى: «إنهم لا إيمان لهم» وهو اختيار ابن عامر[٢]، ويجوز أن تكون الأيمان هاهنا بمعنى الإيمان، تقول العرب: أمنته إيمانا، فذكر المصدر وأراد به الاسم ﴿ لعلهم ينتهون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ﴾ معناه معلوم.

قوله ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ معلوم ﴿ وهم بدءوكم أول مرة ﴾ أراد به أنهم بدءوا بالقتال فى حرب بدر. قال أبو جهل - لعنه الله -: لانرجع حتى نستأصل محمدا وأصحابه ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ معناه: ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ﴾ معنى الآية ظاهر.

وقوله: ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ يعنى: خزاعة.

﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ أى: خزاعة ﴿ ويتوب الله على من يشاء والله عليم

---

(١) هو فى الحديث الذى قبله.

(٢) انظر النشر (٢/ ٢٧٨).

صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ

حكيم ﴾ روى عن النبى ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السيف إلا خزاعة عن بنى بكر إلى العصر»(١).

قوله تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ الآية، قال أهل التفسير: لما أمر الله تعالى نبيّه بالقتال ظهر المنافقون، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ والمراد من العلم ها هنا: العلم الذى يقع الجزاء عليه، وهو العلم بعد الوجود لاعلم الغيب الذى لايقع الجزاء عليه ﴿ ولما يعلم الله ﴾ يعنى: ولم يعلم الله ﴿ ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ قال الفراء: الوليجة: البطانة، وهو خاصة الإنسان الذى يفشى سره إليه، فصار معنى الآية ﴿ ولما يعلم الله ﴾ ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم، ولم يعلم الذين امتنعوا أن يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ﴾ معنى الآية: نفى أهلية عمارة المسجد الحرام عن المشركين.

قوله ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ و«شاهدين» نصب على الحال، وأما شهادتهم على أنفسهم بالكفر: هى سجودهم للأصنام، وقولهم فى التلبية: لبيك اللهم لبيك، لاشريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملكك.

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ١٧٩، ٢٠٧، ٢١٣)، وابن أبى شيبة (١٤/ ٤٨٧/ رقم ١٨٧٥٠)، وأبو عبيد فى الأموال (ص ١٤٥/رقم ٣٠٠) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وقصر الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٨٠ - ١٨١) فعزاه للطبرانى فقط، وقال: ورجاله ثقات. وصحح إسناده الشيخ شاكر فى تحقيقه للمسند (١٠/ ١٥٨رقم ٦٦٨١).

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وفيه قول آخر: أن معنى قوله: ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ هو أنك تقول لليهودى: ما أنت؟ فيقول: يهودى، وتقول للنصرانى: ما أنت؟ فيقول: نصرانى، وكذلك المجوسى والمشرك.

قوله تعالى: ﴿ أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ﴾ الحبوط: هو البطلان، وخالدون: دائمون.

قوله تعالى: ﴿ إنما يعمر مساجد الله ﴾ سبب نزول الآية: أن العباس – رضى الله عنه – لما أسر يوم بدر عيّره أصحاب رسول الله ﷺ بترك الإسلام والهجرة، فقال: نحن عمار المسجد الحرام وسقاة الحجيج.

وفى رواية: أنه لما أسلم قال للمسلمين: لئن سبقتمونا بالإسلام فقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقى الحجيج، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ معناه: لم يترك الإيمان بالله من خشية أحد ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ وعسى من الله واجب. فإن قال قائل: أتقولون: إن كل مَن عمر مسجدا يكون هكذا على ما قال الله تعالى؟

قلنا: معنى الآية – والله أعلم –: أن من كان بهذه الأوصاف كان أهل عمارة المسجد الحرام، ولايعمر المسجد الحرام إلا من استجمع هذه الأوصاف، وعمارة المسجد الحرام بذكر الله، والرغبة إليه، والدعاء، والصلاة وغيره.

قوله تعالى: ﴿ أجعلتم سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله ﴾ أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى على والعباس – رضى الله عنهما – وكان الذى عيّر العباس بترك الإسلام

والهجرة هو على - رضى الله عنه - فقال العباس: نحن عمار المسجد الحرام، وسقاة الحجيج، فقال الله تعالى ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ ومعناه: أجعلتم أهل سقاة الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله. وقرئ: «أجعلتم سُقَاة الحاج وعَمَرة المسجد الحرام»[1] وعلى هذه القراءة لايحتاج إلى تقدير الأهل ﴿لايستوون عند الله﴾ معناه: لايستوى من عبد الله وهو مؤمن، ومن عمر المسجد وهو مشرك ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ وقد وردت أخبار فى الترغيب فى عمارة المساجد:

روى أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «من رأيتموه يعتاد المساجد؛ فاشهدوا له بالإيمان، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله﴾»[2].

وروى أبو هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «من غدا أو راح إلى المسجد أعد الله له نزلا كلما غدا أو راح»[3].

وروى جابر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «المسجد سوق من أسواق الجنة، من دخله كان ضيف الله، قراه: المغفرة، وتحيته: الكرامة؛ فإذا دخلتم فارتعوا. قيل: يارسول الله، وما الرتاع؟ قال: الابتهال إلى الله والرغبة»[4].

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «من بنى لله مسجدا بنى الله له مثله فى الجنة»[5].

---

(١) انظر النشر (٢/ ٢٧٨).

(٢) رواه الترمذى (٥٠/١٤/ رقم ٢٦١٧) وقال: غريب حسن، و(٥/٢٥٨/ رقم ٣٠٩٣) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (١/٢٦٣/ رقم ٨٠٢)، وأحمد (٣/٦٨، ٧٦)، والدارمى (١/٣٠٢/ رقم ١٢٢٣)، وابن خزيمة (٢/٣٧٩/رقم ١٥٠٢)، وابن حبان (٥/٦/رقم١٧٢١)، والحاكم (١/٢١٢ - ٢١٣) وقال: هذه ترجمة للمصريين لم يختلفوا فى صحتها، وصدق رواتها، وتعقبه الذهبى فقال: دراج صاحب مناكير.
ورواه (٢/٣٣٢) وقال: صحيح الإسناد، وكلهم رووه من طريق دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد.
ورواه البيهقى (٣/٦٦).

(٣) متفق عليه. رواه البخارى (٢/١٧٣ رقم ٦٦٢)، ومسلم (٥/٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٦٦٩).

(٤) رواه الخطيب فى تاريخه (٩/٢٠٨) عن جابر بنحوه، وعزاه فى الكنز (٧/٥٨١/ رقم ٢٠٣٤٨) للحرقى فى فوائده، والحاكم فى تاريخه، والخطيب.

(٥) متفق عليه من حديث جابر، رواه البخارى (١/٦٤٨/ رقم ٤٥٠)، ومسلم (٥/٢٠/رقم ٥٣٣).

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ

وفى رواية عائشة – رضى الله عنها – أن النبى ﷺ قال «من بنى مسجدا ولو كمفحص قطاة؛ بنى الله له بيتا فى الجنة»[1].

قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾ فإن قال قائل: كيف يستقيم قوله: ﴿أعظم درجة عند الله﴾ وليس للمشركين درجة أصلا؟ الجواب من وجهين:

أحدهما: أعظم درجة من درجتهم على تقديرهم فى أنفسهم؛ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾[2] ومعناه: على تقديرهم فى أنفسهم.

والثانى: أن هؤلاء الصنف من المؤمنين أعظم درجة عند الله من غيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ الفائز: الذى ظفر بأمنيته.

ثم قال تعالى: ﴿يبشرهم ربهم برحمة﴾ الآية. والبشارة: خبر سار صدق؛ يسمى بشارة لأنه تتغير به بشرة الوجه.

---

(١) رواه أبو عبيد فى غريب الحديث (٢/٥٦٦/ رقم ٢٩٦) بإسناده عن عائشة.

وروى من حديث أبى ذر، رواه ابن أبى شيبة (١/٣٠٩ – ٣١٠ ٢)، والطيالسى وأوقفه (ص٦٢/رقم ٤٦١)، والبزار (١/٢٠٩/ ٢١٠)، والطحاوى فى مشكل الآثار (١/٤٨٥)، والطبرانى فى الصغير (٢/٢٤٦/رقم ١١٠٥)، وابن حبان (٤/٤٩٠/رقم ١٦١٠) والقضاعى فى مسند الشهاب (١/٢٩١/ رقم ٤٧٩)، والبيهقى (٢/٤٣٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/٤٩٠/رقم ١٦١٠).

وقال الهيثمى فى المجمع (٢/١٠): رواه البزار والطبرانى فى الصغير، ورجاله ثقات. وروى من حديث جابر أيضًا، رواه ابن ماجة (١/٢٤٤/رقم ٧٣٨) وقال البوصيرى: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

وابن خزيمة فى صحيحه (٢/٢٦٩/رقم ١٢٩٢) وقال المنذرى فى الترغيب (١/١٩٤): بإسناد صحيح.

(٢) الفرقان: ٢٤.

وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ

قوله ﴿ برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ النعيم هو العيش اللذيذ، والمقيم: الدائم، وهو من لايظعن أبدا ﴿ خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ﴾ الآية. نزلت الآية فى قوم أسلموا بمكة، فلما هاجر المسلمون لم يهاجروا. قال ابن عباس: كان الرجل إذا أراد أن يهاجر تعلّق به أهله وولده، وقالوا: أتضيعنا وتتركنا، فيقيم شفقة عليهم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ معناه: أى: اختاروا الكفرعلى الإيمان.

قوله: ﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ وكان فى ذلك الوقت لايقبل الإيمان إلا من مهاجر؛ فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم ﴾ روى أن الآية الأولى لما نزلت قال أولئك الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وخربت دورنا، وقطعنا أرحامنا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ وعشيرتكم ﴾ قرئت بقراءتين: «عشيرتكم» و «عشيراتكم»[1] والأصح: «عشيرتكم» فإن جمع العشيرة هو عشائر، والعشيرات قالوا: ضعيف فى اللغة.

قوله تعالى: ﴿ وأموال اقترفتموها ﴾ أى: اكتسبتموها، ومثله قوله تعالى: ﴿ ومن

(١) قرأ أبو بكر بالألف على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألف انظر النشر (٢/ ٢٧٨ - ٢٧٩).

تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

يقترف حسنة ﴾[١] يعنى: يكتسب.

قوله: ﴿ وتجارة تخشون كسادها ﴾ معناه ظاهر.

وروى عن عبد الله بن المبارك أنه قال فى قوله: ﴿ وتجارة تخشون كسادها ﴾ قال: هى الأخوات والبنات إذا لم يوجد لهن خاطب. حكاه النقاش فى تفسيره.

قوله: ﴿ ومساكن ترضونها ﴾ يعنى: تستطيبونها.

قوله: ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا ﴾ معناه: فانتظروا.

قوله ﴿ حتى يأتى الله بأمره ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد منه: فتح مكة، وهذا أمر تهديد وليس بأمر حتم ولا ندب ولا إباحة.

قوله: ﴿ والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ الآية. حنين واد بين مكة والطائف ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ روى أن النبى ﷺ كان فى اثنى عشر ألفا، والمشركون أربعة آلاف، عليهم مالك بن عوف النصرى[٢]، فقال رجل من الأنصار يقال له: سلمة بن سلامة وقش: لن نغلب اليوم عن قلة، فلم يرض الله تعالى قوله، ووكلهم إلى أنفسهم، فحمل المشركون حملة انهزم المسلمون كلهم سوى نفر يسير بقوا مع رسول الله ﷺ فيهم العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب»[٣].

وذكر البخارى فى «الصحيح» برواية البراء بن عازب: «أن أبا سفيان بن الحارث

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) فى «ك»: النضرى، بالضاء المعجمة، وهو تصحيف، وصوابه بالصاد المهملة، كذا ضبطه ابن ماكولا فى الإكمال (١ / ٣٩٠). (٣) رواه الطبرى فى التفسير بمعناه (١٠ / ٧٠) عن قتادة، و(١٠ / ٧١) عن السدى.

فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

كان آخذا برأس بغلة النبى ﷺ يوم حنين، والنبى ﷺ يقول: أنا النبى لاكذب، أنا ابن عبد الله بن عبد المطلب»، ثم إن العباس - رضى الله عنه - نادى المسلمين بأمر رسول الله - وكان رجلا صيتًا - فجعل ينادى يا أصحاب سورة البقرة، يا أنصار الله وأنصار رسول الله، يا أصحاب الشجرة، هذا رسول الله، فرجعوا وقاتلوا ووقعت الهزيمة على الكفار... القصة إلى آخرها»[1] فهذا معنى قوله: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا﴾ يعنى: أن الظفر ليس بالكثرة، بل بنصرة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ قال الفراء: الباء ها هنا بمعنى «فى» معناه: فى رحبها وسعتها. وقيل المعنى: برحبها وسعتها.

قوله تعالى: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أى: متفرقين، أى: منهزمين.

قوله تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ الآية. السكينة: الرحمة. وقيل: السكينة: الأمنة؛ وهى فعيلة من السكون، وهاهنا هى بمعنى النصر، قال الشاعر:

لله قبر بالبسيطة غالها ماذا أجن سكينة ووقارا[2]

قوله تعالى: ﴿وأنزل جنودا لم تروها﴾ يعنى: الملائكة، ونزلت لا للقتال، ولكن لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين؛ فإن المروى أن الملائكة لم تقاتل إلا فى يوم بدر.

---

(١) رواه البخارى (٦/ ٨١/ رقم ٢٨٦٤)، ومسلم (١٢/ ١٦٥ - ١٧٠/ رقم ١٧٧٦) بدون ذكر نداء العباس، وأما قصة النداء فرواها مسلم (١٢/ ١٦٠ - ١٦٥/ رقم ١٧٧٥) عن العباس.

(٢) كذا «بالأصل، وك» والبيت لأبى عريف الكليبى، أورده ابن منظور فى لسان العرب (مادة: سكن) ولفظه:

لله قبر غالهـا ماذا يجـ ـن لقد أجَنَّ سكينةً ووقارًا

﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ

قوله تعالى: ﴿وعذب الذين كفروا﴾ يعنى: بالقتل والأسر، ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ معناه ظاهر وهذا فى الذين كفوا عن القتل.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ معنى قوله ﴿نجس﴾ قذر، فإذا ضم إلى غيره قيل: رِجْسٌ نِجْسٌ، وإذا أفرد قيل: نَجَسٌ.

روى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: نجاستهم كنجاسة الكلب والخنزير.

وعن الحسن البصرى قال: إذا صافح مسلم كافرا يجب عليه غسل يده.

والصحيح أن المراد من الآية: أنه يجب الاجتناب منهم كما يجب الاجتناب من النجاسات. وقيل: إن معنى قوله ﴿نجس﴾: أنهم يجنبون فلا يغتسلون، ويحدثون فلا يتوضئون.

قوله تعالى: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ هذا خبر بمعنى أمر، ومعناه: لاتخلوهم أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا.

ومذهب المدنيين: أن المسجد الحرام هو جميع الحرم، ولايترك كافر يدخله، وإن كان معاهدا أو عبدا، وهذا قول عمر بن عبد العزيز وجماعة.

ومذهب الكوفيين: أنه يجوز أن يدخله المعاهد والعبد، وهذا مروى عن جابر.

وقوله: ﴿وإن خفتم عيلة﴾ يعنى: فقرا. وفى مصحف عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه -: «وإن خفتم عائلة» يعنى: أمرا شاقا، يقال: عالنى الأمر، أى: شق علىّ.

وسبب نزول الآية: أن أهل مكة إنما كانت معايشهم من التجارات والأرباح، فلما أمر الله تعالى المسلمين أن لايخلوا الكفار أن يدخلوا المسجد الحرام، قالوا: فكيف

خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

أمر معايشنا؟ وخافوا الفقر وضيق العيش، فقال الله تعالى لهم: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ فروى أنه أسلم أهل جُرَش - بالجيم معجمة - وصنعاء، وسائر نواحى اليمن، وجلبوا الميرَة الكثيرة إلى أهل مكة، ووسع الله عليهم ﴿إن الله عليم حكيم﴾ ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ فإن قال قائل: إن أهل الكتابين يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكيف معنى الآية؟

الجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لايؤمنون بالله واليوم الآخر كإيمان المؤمنين؛ فإنهم قالوا: عزير ابن الله، وقالوا: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: لا أكل ولاشرب فى الجنة.

والجواب الثانى: أن كفرهم ككفر من لايؤمن بالله واليوم الآخر فى عظم الجرم.

قوله تعالى: ﴿ولايدينون دين الحق﴾ قال أبو عبيدة: ولايطيعون الله كطاعة أهل الحق.

قوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب حتى يطعوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ قال قتادة: «عن يد»: عن قهر وذل. وقال غيره: «عن يد» أى: يعطى بيده. وفيه قول ثالث: «عن يد» أى: عن إقرار بإنعام أهل الإسلام عليهم ﴿وهم صاغرون﴾ روى عن سلمان الفارسى - رضى الله عنه - قال: معناه: وهم مذمومون. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: يؤخذ ويوجأ فى عنقه، فهذا معنى الصغار. وقال غيره: يؤخذ منه وهو قائم، والآخذ جالس. وقيل: إنه يلبّب ويجر إلى موضع الإعطاء بعنف. وعند الشافعى - رضى الله عنه - معنى الصغار: هو جريان أحكام الإسلام

عليهم. وهذا معنى حسن.

قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ هذا فى قوم بأعيانهم كانوا بالمدينة أفناهم السيف، منهم: سلام بن مِشْكَم، ومالك بن (الضَيف)[1]، وفنحاص اليهودى، وأما الآن فلا يقول منهم أحد هذا. ويقال: إن القائلين لهذه المقالة قوم من سلفهم ومتقدميهم.

وكان السبب فى ذلك أن اليهود لما بدّلوا وخالفوا شريعة التوراة نسخ الله تعالى التوراة من صدورهم، فخرج عزير يسيح فى الأرض يطلب العلم، فلقيه جبريل - عليه السلام - فعلمه التوراة. وروى أنه نزل نور فدخل جوفه فقرأ التوراة عن ظهر قلبه، فرجع وأملى التوراة على اليهود، فقال جماعة منهم هذه المقالة يعنى: عزير ابن الله.

﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ هم على ذلك الآن.

قوله: ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ فإن قال قائل: الإنسان لايقول قولا إلا بفمه، فكيف يكون معنى هذا الكلام؟

الجواب: أن معناه: أنهم قالوا هذا القول بلا حجة ولا بيان ولابرهان، وإنما كان مجرد قول بلا أصل.

قوله تعالى: ﴿ يضاهئون ﴾ قرئ بقراءتين، و﴿ يضاهئون ﴾ يعنى: يشابهون، والمضاهاة: المشابهة والمماثلة، تقول العرب: امرأة ضهياء إذا كانت لاتحيض، فهى تشبه الرجال.

قوله تعالى: ﴿ قول الذين كفروا من قبل ﴾ فيه معنيان:

أحدهما: قول الذين أشركوا من قبل؛ فإن المشركين كانوا يقولون: مناة واللات والعزى بنات الله.

---

(١) فى «ك»: الصيف.

ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُون ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا

والقول الثاني: أن النصارى قالوا فى المسيح ماقالت اليهود فى عزير، فهذا معنى قوله: ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾.

﴿ قاتلهم الله ﴾. قال أبو عبيدة: لعنهم الله، وقيل: قتلهم الله، كما تقول العرب: عافاه الله، أى: أعفاه الله.

وفيه قول ثالث: أن هذه كلمة تعجب، قال الشاعر:

فيا قاتل الله ليلى كيف تعجبنى وأخـــبر الناس أنى لا أباليــــها

وليس المعنى تحقيق المقاتلة؛ ولكنه كلمة تعجب.

قوله تعالى: ﴿ أنى يؤفكون ﴾ معناه: أنى يصرفون، يقال: أرض مأفوكة إذا صرف عنها المطر، وقول مأفوك إذا كان مصروفا عن الحق.

قوله تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ يقال: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وقد بيّنا فيها أقوالا من قبل. فإن قال قائل:إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان، فأيش معنى قوله ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾؟

قلنا: معناه: أنهم استحلوا ما أحلّوا، وحرموا ما حرموا؛ فهذا معنى عباداتهم لهم. وقد صح هذا المعنى برواية عدى بن حاتم، عن النبى ﷺ [١].

---

(١) رواه الترمذى (٥/ ٢٥٩ - ٢٦٠/ رقم ٣٠٩٥)، والطبرى (١٠/ ٨٠-٨١)، والطبرانى فى الكبير (١٧/ ٩٢/ رقم ٢١٨-٢١٩)، والسهمى فى تاريخ جرجان (ص٥٤١/رقم١١٦٢).

وقال الترمذى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث. وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٢٥٠) لابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى.

وقد روى هذا المعنى من حديث حذيفة، وابن عباس رضى الله عنهما.

إلاَّ ليَعْبُدُوا إلَهًا وَاحدًا لاَّ إلَه إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أن يُطْفئُوا نُورَ اللَّه بأَفْوَاههمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إلاَّ أَن يُتمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَىٰ وَدين الْحَقّ ليُظْهرَهُ عَلَى الدّين كُلّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إنَّ كَثيرًا مّنَ الأَحْبَار وَالرُّهْبَان لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاس بالْبَاطل وَيَصُدُّونَ عَن سَبيل اللَّه وَالَّذينَ يَكْنزُونَ الذَّهَبَ وَالْفضَّةَ وَلا يُنفقُونَهَا في

قوله: ﴿والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ معناه: يريدون أن يخمدوا نور الله، والمراد من النور: القرآن، وقيل: هو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿بأفواههم﴾ معناه: بتكذيبهم.

قوله: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ قال المفسرون: هذا عند نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - لايبقى فى الأرض أحد إلا أسلم.

وفى قوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ قول آخر: وهو أنه الإظهار بالحجة؛ فدين الإسلام ظاهر على كل الأديان بالدليل والحجة.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ الآية، وقد بينا معنى الأحبار والرهبان من قبل وقوله: ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ قال أهل التفسير: إن المراد منه أخذ الرشاء فى الأحكام والمآكل التى كانت لعلمائهم على سفلتهم ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ معناه: أنهم يمنعون الناس عن الإسلام، وقوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله﴾ الكنز هو المال المجموع، قال الشاعر:

سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

لادرَّ دَرِّى إن أطعمتُ نازلهم[1] قِرْف الحَتِىِّ وعندى البُرُّ مكنوزُ

والحَتِىّ قالوا: هو المُقْل.

واختلف أهل العلم فى مَنْ نزلت هذه الآية، قال بعضهم: نزلت فى أهل الكتاب، والأكثرون أنها نزلت فى الكل.

واختلفوا فى الكنز، روى عن ابن عمر، وجماعة: أن الكنز كل مال لم تؤدّ زكاته، وأما الذى أديت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونا. وعن على - رضى الله عنه - أنه قال: أربعة آلاف درهم نفقة وما فوقها كنز. وقال بعضهم: ما فضل عن الحاجة فهو كنز.

وقوله: ﴿ ولاينفقونها فى سبيل الله ﴾ فإن سأل سائل وقال: إنه تقدم ذكر الذهب والفضة جميعا، فكيف قال: ولاينفقونها، ولم يقل: ولاينفقونهما؟

الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أن المعنى: ولاينفقون الكنوز فى سبيل الله.

والثانى: أن معنى الآية: يكنزون الذهب ولاينفقونه، ويكنزون الفضة ولاينفقونها، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

معناه: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض. وفى مثل هذا قول الشاعر:

إن شرخَ الشباب والشعرَ الأسـ ـوَدَ مالم يعاضَ كان جُنُونَا

يعنى: مالم يعاضيا.

قوله: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ معناه: ضع هذا الوعيد موضع البشارة، وإلا فالوعيد لايكون بشارة حقيقة.

(١) كذا «بالأصل، وك» وفى لسان العرب (مادة: كنز): نازلَكُم. وفى تفسير القرطبى: جائعهم.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿يوم يحمى عليها فى نار جهنم﴾ أى: يوقد عليها حتى تصير نارا.

قوله تعالى: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ قال أهل التفسير: لايوضع درهم مكان درهم، ولادينار مكان دينار؛ ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم فى موضعه. وفى حديث أبى أمامة الباهلى (رضى عنه): «أن رجلا من أهل الصفة مات وترك دينارا، فقال النبى ﷺ: كيّة. ومات آخر وترك دينارين فقال ﷺ: كيتان[1]».[2]

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «يجعل الذهب والفضة صفائح، فيكوى بها فى كل يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[3].

وروى ثوبان: «أن الله تعالى لما أنزل هذه الآية شق على المسلمين مشقة شديدة فقالوا: يارسول الله، أى المال نتخذ، وقد أنزل فى المال ما أنزل؟! فقال ﷺ: ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة تعينه على دينه»[4].

---

(١) فى «ك»: كيتين.

(٢) رواه أحمد (٥/٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٨)، والطبرى (١٠/٨٤)، والطبرانى فى الكبير (٨/١٢٦/ رقم ٧٥٧٣، ٧٥٧٤). وقال الهيثمى فى المجمع (٣/١٢٥): رواه الطبرانى فى الكبير، وبعض طرقه رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب، وهو ثقة وفيه كلام. وقال فى (١٠/٢٤٣): رواه أحمد بأسانيد بعضها رجال الصحيح غير شهر بن حوشب وقد وثق.

(٣) رواه مسلم (٧/٨٩-٩٧ رقم ٩٨٧)، وأبو داود (٢/١٢٤-١٢٥/ رقم ١٦٥٨، ١٦٥٩)، والنسائى (٥/١٢-١٤رقم٢٤٤٢)، وأحمد (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة.

(٤) رواه الترمذى (٥/٢٥٩/رقم ٣٠٩٤) وقال: هذا حديث حسن، سألت محمد بن إسماعيل فقلت له: سالم ابن أبى الجعد سمع من ثوبان؟ فقال: لا. وابن ماجة (١/٥٩٦/ رقم ١٨٥٦)، وأحمد (٥/٢٨٢)، والطبرى (١٠/٨٤)، والطبرانى فى الصغير (٢/١٢١-١٢٢/ رقم ٨٩٠)، والواحدى فى أسباب النزول (ص١٨٤) وقال الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/٧١): الحاصل أنه حديث ضعيف لما فيه من الاضطراب.

وفى الأخبار - أيضا - عن النبى ﷺ : «أن الكنز يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها، ثم يتبع سائر جسده»(١).

وقد روى عن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه قال: الآية منسوخة بآية الزكاة. وقال سائر العلماء: ليست بمنسوخة. وعن أبى بكر الورّاق - رحمه الله - أنه قال: إنما ذكر الجبهة والجنب والظهر؛ لأن الغنى إذا رأى الفقير قبض جبهته، وزوى ما بين عينيه، وولاّه ظهره، وأعرض عنه كشحه.

قوله تعالى: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ وعيد وتهديد.

قوله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله﴾ قال أهل التفسير: معنى الآية: هو أن الشهور التى تعبّد بها المسلمون فى صيامهم وحجّهم وأعيادهم وسائر أمورهم ،هى الشهور بالأهلة، وقد كان أهل الجاهلية يحسبون السنة بالشهور الشمسية، ويجعلون السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم. وأما فى الشريعة فالسنة ما بيّنا، ولهذا يكون الصوم تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف.

قوله: ﴿فى كتاب الله﴾ أى: فى حكم الله، وقيل: فى اللوح المحفوظ. ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ ظاهر المعنى.

قوله: ﴿منها أربعة حرم﴾ هى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. واحد فَرْد وثلاثة سَرْدٌ.

---

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه (٤/ ١١/ رقم ٢٢٥٥)، والطبرانى فى الكبير (٢/ ٩١/رقم١٤٠٧)، والبزار (١/ ٣٧٠ - ٣٧١/ رقم ٦٠٥ المختصر) وحسن إسناده، وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (٨/ ٤٩/رقم٣٢٥٧)، والحاكم (١/ ٣٨٨-٣٨٩) وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبى: على شرطهما. وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٨١) من حديث ثوبان.

وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٦٧): رواه البزار، وقال: إسناده حسن. قلت ورجاله ثقات، ورواه الطبرانى فى الكبير.

كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ

وقد صح عن النبى ﷺ برواية أبى بكرة أنه قال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، السَّنَةُ اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم...» الخبر[١].

قوله: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أى: ذلك الحساب الصحيح.

قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ اختلفوا فى هذا على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ ينصرف إلى الأشهر الأربعة.

والثانى أنه منصرف إلى جميع أشهر السنة، وهذا محكى عن ابن عباس.

وأما الظلم فى هذا الموضع: فهو ترك الطاعة وفعل المعصية.

وقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أى: قاتلوا جميع المشركين كافة كما قاتلوا جميعكم.

قوله: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ من الظلم بالنصرة والظفر.

قوله تعالى: ﴿إنما النسىء زيادة فى الكفر﴾ قرئ بغير الهمز، والمشهور بالهمزة. قال أهل العربية: وهو الأصح، والنسىء: هو التأخير، يقال: نسأ الله فى أجلك أى: أخر.

وسبب نزول الآية: أن أهل الجاهلية كانوا يجعلون المحرّم مرة حلالا ومرة حراما، فإذا أحلّوا المحرّم أبدلوا الصفر بالتحريم، وكان السبب فى ذلك أن عامة معايشهم كانت بالغارات والقتال والسيوف، فكان يشق عليهم أن يكفوا عن القتال ثلاثة أشهر متوالية، وكان الذى يتولى التحليل والتحريم رجل من بنى كنانة يقال له: أبو ثمامة، ورثه عن آبائه، وكان يقوم على ناقة ويقول: أيها الناس، أنا لا أعاب ولا أحاب ولايرد قضاء قضيته، أما إنى قد أحللت المحرم وحرّمت الصفر العام، قال رجل منهم: ألسنا الناسئين على معد شهور الحلّ يجعلها حراما. فهذا هو معنى النسىء المذكور فى الآية.

---

(١) تقدم تخريجه فى سورة البقرة.

يُضَلُّ به الَّذين كَفَرُوا يُحلُّونَهُ عامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عامًا لِّيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم

وقوله تعالى: ﴿ زيادة فى الكفر﴾ معناه: زيادة كفر على كفرهم.

قوله تعالى: ﴿ يُضَل به الذين كفروا ﴾ أى: يضل الله به الذين كفروا، وقرئ «يضل به الذين كفروا» على مالم يسمّ فاعله، وقرئ «يَضِل به الذين كفروا» وهو الأشهر[1]، وهو ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ يحلونه عاما ويحرمونه عاما﴾ قد ذكرنا المعنى. قوله: ﴿ ليواطئوا ﴾ ليوافقوا، والمواطأة: الموافقة، ومعناه: ليوافقوا ﴿ عدة ما حرم الله ﴾ يعنى: عدد ما حرّم الله ﴿ فيحلوا ما حرم الله ﴾ فيقولوا: أربعة وأربعة. قوله: ﴿ زين لهم سوء أعمالهم والله لايهدى القوم الكافرين ﴾ ظاهر المعنى.

وفى الآية قول آخر: وهو أن النسىء: تأخير الحج كل عام شهرا. قالوا: وحج أبو بكر سنة تسع فى ذى القعدة، وحج رسول الله ﷺ سنة عشر فى ذى الحجة، وهو معنى قوله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته»[2] الخبر الذى ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ نزلت الآية فى غزوة تبوك، وكانت الغزوة فى حارَّة القَيْظ حين أينعت الثمار وطابت الظلال فشق على المسلمين مشقة شديدة وتخلف بعضهم بالعذر، وتخلف بعضهم بلا عذر، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقوله: ﴿ اثاقلتم إلى الأرض ﴾ أى: تثاقلتم؛ وحقيقة المعنى: قعدتم عن الغزو وكرهتم الخروج.

---

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف، وحفص بضم الياء، وفتح الضاد، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد، وقرأ الباقون بفتح الياء، وكسر الضاد. انظر النشر (٢ / ٢٧٩).

(٢) تقدم فى سورة البقرة كما بينا.

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ

وقوله: ﴿إلى الأرض﴾ أى: إلى الدنيا، وسمّى الدنيا أرضا؛ لأنها فى الأرض.

قوله: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أى: بنعيم الدنيا من نعيم الآخرة.

قوله ﴿فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل﴾. روى عن سعيد بن جبير أنه قال: جميع الدنيا جمعة من جمع الآخرة. وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بما يرجع»[1].

قوله تعالى: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما﴾ هذا تهديد ووعيد لمن ترك النفر فى سبيل الله، والنفر ضد الهدوء والسكون.

قوله: ﴿ويستبدل قوما غيركم ولاتضروه شيئا﴾ معناه: إن ضرّه راجع إليكم لا إليه ﴿والله على كل شىء قدير﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ معناه: إن لم تنصروه فقد نصره الله ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ قد بيّنا قصة إخراجهم فى قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾[2] الآية. قوله: ﴿ثانى اثنين﴾ معناه: أحد اثنين، تقول العرب: خامس خمسة أى: أحد الخمسة، ورابع أربعة أى: أحد الأربعة.

قال المفسرون: عاتب الله جميع الناس بترك نصرة الرسول ﷺ سوى أبى بكر - رضى الله عنه - وقيل: نصرته عن خلقى إلا عن أبى بكر - رضى الله عنه - فإنه قد نصره.

قوله تعالى: ﴿إذ هما فى الغار﴾ الغار: ثقب فى الجبل، وهذا الجبل هو جبل ثَوْر، جبل قريب من مكة.

---

(١) رواه مسلم (١٧ / ٢٧٩-٢٨٠ / رقم٢٨٥٨)، والترمذى (٤ / ٤٨٦ / رقم ٢٣٢٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢ / ١٣٧٦ / رقم ٤١٠٨)، وأحمد (٤ / ٢٢٨ - ٢٢٩)، عن المستورد بن شداد.

(٢) الأنفال: ٣٠.

هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

قوله: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ أى: لأبى بكر - رضى الله عنه - باتفاق أهل العلم.

وروى أن النبى ﷺ قال: «أبو بكر صاحبى فى الغار، وصاحبى على الحوض»[1].

وعن الحسين بن الفضل البجلى أنه قال: من قال: إن أبا بكر ليس بصاحب رسول الله ﷺ فهو كافر، لإنكاره نصّ القرآن، وفى سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعا ولا يكون كافرا.

قوله: ﴿لاتحزن إن الله معنا﴾ روى «أن النبى ﷺ لما خرج مع أبى بكر - رضى الله عنه - أمر عليا حتى اضطجع على فراشه، وذكر له أنه لايصيبه سوء، وخرج مع أبى بكر قبل الغار، وجاء المشركون يقصدون النبى ﷺ فقام على - رضى الله عنه - من مضجعه فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدرى، فخرجوا فى طلبه يقتفون أثره حتى وصلوا إلى الغار، فلما أحسّ أبو بكر - رضى الله عنه - بهم خاف خوفا شديدا، وقال: يارسول الله، إن أُقْتَل يهلك واحد، وإن تقتل تهلك هذه الأمة، فقال له النبى ﷺ: لاتحزن إن الله معنا». وقد ثبت أن النبى ﷺ قال له: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[2]. وفى القصة: أن الله تعالى أنبت ثُمَامة على فمّ الغار، وهى شجرة صغيرة، وألهم حمامة حتى فرّخت، وألهم عنكبوتا حتى نسجت.

قوله تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ فيه قولان: أحدهما: على النبى ﷺ. وهو اختيار الزجاج.

والآخر: أنه على أبى بكر، وهو قول الأكثرين؛ لأن السكينة هاهنا ما يسكن به

---

(١) رواه ابن عساكر فى تاريخه (٣٠/ ٨٩) من طريق ابن شاهين والدارقطنى عن ابن عمر (٣٠/ ٨٩-٩٠) من طريق ابن شاهين عن ابن عباس. وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٢٦١) لابن شاهين، والدارقطنى، وابن مردويه، وابن عساكر، عن ابن عمر. وأشار محقق تاريخ ابن عساكر إلى أنه وقع فى أحد النسخ (وهى النسخة اليوسفية) رواية لابن عساكر لهذا الحديث عن أبى هريرة، وساق إسنادها.

(٢) متفق عليه من حديث أبى بكر، رواه البخارى (٧/ ٣٠٢/ رقم ٣٩٢٢)، ومسلم (١٥/ ٢١٤/ رقم ٢٣٨١).

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ

القلب؛ وأبو بكر – رضى الله عنه – كان هو الخائف والحزين دون رسول الله ﷺ.

وفى الآية قول ثالث: أن السكينة نزلت عليهما؛ ونقل فى مصحف حفصة – رضى الله عنها – «فأنزل الله سكينته عليهما وأيدهما[1] بجنود لم تروها» قوله: ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ الجنود ها هنا: الملائكة، نزلوا فألقوا الرعب فى قلوب الكفار حتى رجعوا. قوله: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ كلمتهم: الشرك؛ وهى السفلى إلى يوم القيامة ﴿وكلمة الله هى العليا﴾ يعنى: لا إله إلا الله؛ وهى العليا إلى يوم القيامة. قوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ قد بيّنا معنى العزيز الحكيم.

قوله تعالى: ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ يقال: إن هذه الآية أول آية أنزلت من سورة التوبة.

قوله: ﴿خفافا وثقالا﴾ فيه أقوال: روى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: نشاطا وغير نشاط. قال الأزهرى: النشاط جمع النشيط.

والقول الثانى: قول الحسن البصرى: انفروا فى اليسر والعسر. وهذا قول حسن. وعن الحكم بن عتيبة[2]: مشاغيل وغير مشاغيل. وعن أبى طلحة صاحب النبى ﷺ:

شيوخا وشبابا. وفيه قول خامس: رجالة وركبانا. ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله....﴾ إلى آخر الآية، معناه ظاهر، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وماكان المؤمنون لينفروا كافة﴾[3] الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك﴾ أى: لو كانت غنيمة قريبة المتناول ﴿وسفرا قاصدا﴾ أى: سفرا قصيرا سهلا [قريبا][4] ﴿لاتبعوك﴾ أى:

---

(١) فى «ك»: وأيده.

(٢) فى «ك»: عيينة، وهو خطأ.

(٣) التوبة: ١٢٢.

(٤) من «ك».

وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ

لخرجوا معك ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أى: بعد عليهم السفر، والشقة فى اللغة: هى الغاية التى يقصد إليها.

قوله ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ هذا فى المنافقين.

قوله تعالى: ﴿يهلكون أنفسهم﴾ يعنى: باليمين الكاذبة. قوله: ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ روى عن عمرو بن ميمون الأودى أنه قال: فعل رسول الله ﷺ شيئين بغير إذن من الله: فداء أسارى بدر، وأذن للمتخلفين فى غزوة تبوك، فعاتبه الله تعالى فيهما جميعا. وفى تقديم قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ معنى لطيف فى حفظ قلب النبى ﷺ.

قوله: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ معناه: لايستأذنك فى التخلف.

قوله ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ الآية، معلوم، ثم قال: ﴿إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أى: شكت قلوبهم ﴿فهم فى ريبهم يترددون﴾ يتحيرون.

ثم قال: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ يعنى: لو قصدوا الخروج لأعدوا له

اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَد

عدة أى :أهبة السفر من الزاد والراحلة و غيرهما ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ معناه : خروجهم ﴿ فثبطهم ﴾ معناه : فكسلهم وكفهم عن الخروج ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ قال مقاتل بن سليمان : وحياً إلى قلوبهم . وقال غيره : قال بعضهم لبعض : اقعدوا مع القاعدين .

قوله تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ﴾ هذه الآية نزلت فى شأن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ومعنى قوله : ﴿ خبالا ﴾ أى : فسادا وشرّا، ومعنى الفساد : هو إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين .

وقوله ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ الإيضاع : هو سرعة السير . قال الراجز شعر[1] :

ياليتنى فيها جذع أَخبُّ فيــها وأَضَعْ

قال الزجاج : معنى الآية : أسرعوا فيما يخل بكم . وقال غيره : أسرعوا بينكم بإيقاع البغضاء والعدواة بالنميمة، ونقل الحديث من بعض إلى بعض، وعلى هذا قوله : ﴿ خلالكم ﴾ : وسطكم ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ يطلبون لكم الفتنة، وفى الفتنة معنيان :

أحدهما : أنها الشرك، والآخر : أنها تفريق الكلمة .

﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن فيكم جواسيس لهم ينقلون الحديث إليهم، وسئل ابن عيينة : هل فى القرآن ذكر للجواسيس؟ قال : نعم . وذكر هذه الآية .

والقول الثانى : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ قائلون لهم أى : يقبل ما يقولون، ومنه ما ورد فى الصلاة : « سمع الله لمن حمده » قَبِلَ الله لمن حمده . وعن أبى عبيدة : وفيكم سماعون لهم : مطيعون لهم . والمعنى قريب من القول الثانى .

(١) كذا « بالأصل، وك »، وفى لسان العرب (مادة : وضع) عزاه لدريد بن الصمة فى يوم هوازن . وزاد فيه .

ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا

﴿والله عليم بالظالمين﴾ معناه معلوم. فإن قال قائل: قد قال فى أول الآية: ﴿مازادوكم إلا خبالا﴾ وكان النبى ﷺ وأصحابه فى خبال حتى يزيدوا؟

الجواب: إن معنى الآية: مازادوكم قوة؛ بل طلبوا لكم الخبال.

قوله تعالى: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ الآية، الابتغاء: الطلب، والفتنة: إيقاع الاختلاف المؤدى إلى تفريق الكلمة. وقوله ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ ومعناه: صرفوا لك الأمور وأرادوها ظهرا لبطن وبطنا لظهر، وحقيقة المعنى: أنهم طلبوا بكل حيلة إفساد أمرك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى﴾ أكثر المفسرين أن هذه الآية نزلت فى رجل من المنافقين يقال له: الجدّ بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هل لك فى جلاد بنى الأصفر – يعنى الروم – لعلك تصيب منهم سرارى. قاله رسول الله ﷺ حثّا له على الخروج، فقال: يارسول الله، ائذن لى – يعنى: فى التخلف – ولا تفتنى – يعنى: بنساء الروم – قال: قومى علموا أنى بالنساء مغرم، يعنى: معجّب»[1].

وهذا أحد القولين فى قوله: ﴿ولاتفتنى﴾.

والقول الثانى: إن معناه: لاتؤثمنى، قاله قتادة، ومعناه: لاتسمنى للخروج، والخروج عسير علىّ فأتخلف فأقع فى الإثم.

(١) رواه الطبرى (١٠/١٠٤) من طرق عن ابن عباس، ومجاهد، والزهرى، ويزيد بن رومان وغيره. وحديث ابن عباس رواه الطبرانى فى الكبير (٢/٢٧٥/ رقم ٢١٥٤)، و(١٢/١٢٢/رقم ١٢٦٥٤)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٣٣): رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه يحيى الحمانى، وهو ضعيف. وقال عن الطريق الآخر: رواه الطبرانى، وفيه أبو شيبة إبراهيم بن عثمان، وهو ضعيف.

وعزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٦٨) لابن المنذر، والطبرانى، وابن مردويه، وأبى نعيم فى المعرفة.

أَمْرَنَا من قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ

قوله: ﴿ألا فى الفتنة سقطوا﴾ فيه معنيان:

أحدهما: ألا فى جهنم سقطوا، والآخر: ألا فى الشرك سقطوا.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ محدقة[1] بالكافرين.

قوله تعالى: ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ الحسنة هاهنا هى النعمة التى تطيب بها نفس الإنسان، وتلذ عيشه. وفى غير هذا الموضع الحسنة بمعنى الطاعة..

﴿وإن تصبك مصيبة﴾ المصيبة ها هنا هى البلية فى القتال بإصابة الكافرين من المسلمين، يقال: إن الحسنة المذكورة كانت يوم بدر، والمصيبة المذكورة كانت يوم أحد.

وقوله: ﴿يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ يعنى: حذرنا من قبل، ومعناه: احترزنا من الوقوع فى المصيبة ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بأن يجيبوهم بهذا.

وقوله: ﴿إلا ما كتب الله لنا﴾ أى: علينا، وقيل: معناه: ما أخبر الله لنا ﴿هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وهو حافظنا وناصرنا وعليه يعتمد المؤمنون، وفى الخبر المعروف برواية أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: «لايبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[2].

قوله تعالى: ﴿قل هل تربصون بنا﴾ هل تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسنيين﴾

---

(١) حدق به الشىء، وأحدق: أى استدار، وكل شىء استدار بشىء وأحاط به، فقد أحدق به. انظر اللسان (مادة حدق).

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٤٤١ - ٤٤٢)، وابن عساكر فى تاريخه (١٤/ ٤٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٠٠): رواه أحمد، والطبرانى، ورجاله ثقات. ورواه البزار فى مسنده، وحسن إسناده كما فى مختصر الزوائد (١/ ٧٦/ رقم ٢٤) وقال الحافظ: إسناده حسن.

وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ

تثنية الحسنى: الحسنيان، أحدهما: الظفر، والأخرى: الشهادة.

وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «ضمن الله لمن خرج فى سبيله إيمانا واحتسابا أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»(١).

وقوله: ﴿ونحن نتربص بكم﴾ أى: ننتظر بكم ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ العذاب من عنده هو القارعة تنزل من السماء، والعذاب بأيدى المؤمنين هو العذاب بالسيف ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ فانتظروا إنا معكم منتظرون.

قوله تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعا أو كرها﴾ هذا أمر بمعنى الشرط، ومعناه: إن أنفقتم طوعا أو كرها ﴿لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين﴾ لأنكم كنتم قوما فاسقين، والفسق هاهنا هو الكفر.

قوله تعالى: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ معناه: أن المانع من قبول نفقاتهم كفرهم بالله وبرسوله.

وقوله: ﴿ولايأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أى: متثاقلين. فإن قيل: كيف ذكر الكسل فى الصلاة ولا صلاة أصلا؟

قلنا: الذم واقع على الكفر الذى يبعث على الكسل؛ فإن الكفر مكسل والإيمان منشط، ويقال: أصل كل كفر الكسل، وفى المثل: الكسل أحلى من العسل ﴿ولاينفقون إلا وهم كارهون﴾ معلوم المعنى. وحقيقة المعنى فى الكل: أنهم لايصلون ولاينفقون إلا خوفا، فأمّا تقربا إلى الله فلا.

(١) متفق عليه، رواه البخارى (٦/ ٩/ رقم ٢٧٨٧)، ومسلم (١٣/ ٣٠ - ٣٤/ رقم ١٨٧٦).

الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ

قوله تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ الإعجاب بالشيء هو السرور به.

وقوله: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا﴾ فيه سؤال، وهو أنه يقال: كيف يكون التعذيب بالمال والولد وهم يتنعمون بالأموال والأولاد؟

الجواب من وجو ه:

أحدها: أن فى الآية تقديما وتأخيرا، كأنه تعالى قال: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة.

والقول الثانى: أن التعذيب بالمصائب الواقعة فى المال والولد.

الثالث: أن معنى التعذيب هو التعب فى الجمع، وشغل القلب بالحفظ، وكراهة الإنفاق مع الإنفاق، وتحليفه عند من لايحمده، وقدومه على من لايعدله.

وقوله ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ تخرج أنفسهم وهم كافرون.

وفى الآية رد على القدرية، وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ يعنى: من جملتكم ﴿وما هم منكم﴾ يعنى: ليسوا من جملتكم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أى: يخافون.

وفى الحكايات: أن بعض الملحدين رئى يصلى صلاة حسنة، فسئل عن ذلك فقال: عادة أهل البلد، وصيانة المال والولد.

قوله تعالى: ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا﴾ قال قتادة: والملجأ: الحصون، والمغارات: الغيران، والمدخل: الأسراب. وهذا قول حسن. فمعنى الآية: لو يجدون مخلصا منكم ومهربا لفارقوكم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لولوا إليه وهم يجمحون﴾ يعنى: يسرعون، يقال: فرس جموح إذا لم يكن ردّه عن وجهه بشىء.

﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قال الشاعر:

لقــد جمحت جمــاحا فى دمــائهم حتى رأيت ذوى الأشراف قد خمــدوا

وروى عن أنس أنه قرأ: «وهم يجمزون» و المعنى قريب فى الأول.

قوله تعالى: ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ يعنى: يعيبك فى إعطاء الصدقات، ويقال: الهُمَزة واللُّمَزة بمعنى واحد، ويقال: اللمزة الذى يعيب الناس بقوله، والهمزة: الذى يشير بطرفه [هزاء](1).

سبب نزول الآية: «أن ذا الخُويصرة التميمى - واسمه: حرقوش بن زهير - أتى رسول الله ﷺ وهو يُقسم، فقال: يارسول الله، اعدل، فقال: فمن يعدل إن لم أعدل. ثم قال: يخرج من ضئضئ هذا أقوام تحقرون صلاتكم عند صلاتهم، وصيامكم عند صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»(2) الخبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ هذا فى ثعلبة بن حاطب وأصحابه، كانوا يرضون إن أعطوا كثيرا، وإن أعطوا القليل سخطوا وعابوا.

قوله تعالى: ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله ﴾ كافينا الله ﴿ سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ يعنى: لو رضوا بما فعلت

(١) فى «ك»: هزوا.

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد، رواه البخارى (٦/ ٤٣٣ - ٤٣٤/ رقم ٣٣٤٤)، ومسلم (٧/ ٢٢٦ - ٢٣٣/ رقم ١٠٦٤).

ورغبوا فى الزيادة كان خيرا لهم من سخطهم وعيبهم.

قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ الآية، الفقير فى اللغة: هو المحتاج الذى كسرت الحاجة فقار ظهره، والمسكين: الذى ضعفت نفسه عن الحركة فى طلب القوة فسكنت، وأما الكلام ففى الفقير والمسكين نفى الآية أقوال كثيرة.

أحدها: روى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والزهرى أنهم قالوا: الفقير: الذى لايسأل، وقال بعضهم على خلاف ذلك.

والثانى: قول قتادة، وهو أن الفقير الذى به زمانة ولاشىء له، والمسكين: الذى لاشىء له وليس به زمانة، وقال بعضهم على ماقاله قتادة.

والثالث: أن الفقراء هم المهاجرون، والمساكين هم الأعراب، وهذا قول إبراهيم النخعى.

والرابع: أن الفقراء هم المسلمون المحتاجون، والمساكين هم أهل الحاجة من أهل الذمة.

وفيه قول خامس: أن الفقير والمسكين واحد. واختلفوا أيهما أحوج، فمذهب الشافعى – رحمه الله – أن الفقير أحوج من المسكين، واستدل بقوله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين﴾[١] فسماهم مساكين مع أن لهم سفينة. وزعم الأصمعى وجماعة من أهل اللغة أن المسكين أحوج من الفقير، وأنشدوا:

أما الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم تترك له [سَبَدُ][٢]

قال يونس النحوى: قلت لأعرابى: أفقير أنت؟ قال: بل مسكين – يعنى: أدون من الفقير.

(١) الكهف: ٧٩.

(٢) فى «الأصل» و«ك»: سبل، والسَّبَد: هو الوبر أو الشعر. انظر لسان العرب (٣/ ٢٠٢) وتفسير القرطبى (٨/ ١٦٨).

﴿ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والعاملين عليها ﴾ يعنى: السعاة، ولهم سهم من الصدقات معلوم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن لهم بقدر أجر المثل.

وقوله: ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ قال أهل العلم: المؤلفة قلوبهم صنفان: مسلمون، ومشركون، وكل صنف على صنفين: أما المسلمون قوم كان إيمانهم ضعيفا مثل: أبى سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن الفزارى، والأقرع بن حابس، وعباس بن مرداس وأمثالهم، كان رسول الله ﷺ يعطيهم ليتألفوا على الإيمان فيقوى إيمانهم، وصنف كان إيمانهم قويًا مثل: عدى بن حاتم، والزبرقان بن بدر وغيرهما، كان يعطيهم ليتألف عشيرتهم[١].

وأما المشركون فصنفان: صنف كان يدفعهم ليدفع أذاهم عن المسلمين، مثل عامر ابن الطفيل وغيره، وصنف كان يعطيهم ليؤمنوا ويميلوا إليه مثل صفوان بن أمية بن خلف، ومالك بن عوف النصرى[٢] وغيرهما.

واختلفوا أن سهم المؤلفة قلوبهم هل بقى بعد النبى ﷺ؟

قال الشعبى وجماعة: قد سقط. وهو قول أكثر أهل العلم. وقال الزهرى: هو باق.

وقد حكى عن الشافعى كلا القولين، والصحيح هو الأول.

وقوله: ﴿ وفى الرقاب ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم المكاتبون. وهذا قول الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما.

وقال مالك: يشترى بذلك السهم رقاب فيعتقون. الصحيح هو الأول.

قوله: ﴿ والغارمين ﴾ قال مجاهد: هؤلاء قوم أحرقت النار دورهم، وأذهب السيل أموالهم فادّانوا لنفقاتهم. وقال غيره: هو كل من لحقه غرم بسبب لا معصية فيه.

---

(١) تقدم فى حديث أبى سعيد الخدرى السابق، وانظر مسلم (٧/٢١٨-٢٢٠/رقم١٠٦٠).

(٢) في «ك»: النضرى، بالضاد المعجمة، وهو تصحيف، وقد سبق التنبيه عليه.

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ

وقوله: ﴿ وفى سبيل الله ﴾ هؤلاء الغزاة والحجّاج، وقوله: ﴿ فى سبيل الله ﴾: فى طاعة الله ﴿ وابن السبيل ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه الذى قطع عليه الطريق فبقى فقيرا لامال له. والذى عليه الفقهاء أنه الذى بعد عن ماله؛ فيصرف إليه سهم من الصدقات وإن صار غنيًا فى بلده.

وحكى ابن الأنبارى قولا ثالثا: أن ابن السبيل هو الضيف.

قوله تعالى: ﴿ فريضة من الله ﴾ أى: افترض الله ذلك فريضة ﴿ والله عليم حكيم ﴾ عليم بما يصلح خلقه، حكيم فيما دبّره.

قوله تعالى: ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ﴾ الأذن هاهنا: هو من يسمع كل ما قيل له. قال الشاعر:

أيها القلب تعلل بدَدَنْ   إن هَمِّى فى سَماعٍ وأَذَنْ

وسبب نزول الآية: أن المناقين قالوا: قولوا ما تريدون ثم أنكروا واحلفوا؛ فإن محمدا أُذُنُ يسمع كل ما قيل له ويقبله.

﴿ قل أذن خير لكم ﴾ يعنى: هذه الخلة خير لكم، فكأنه قال: مستمع خيرٍ خيرٌ لكم، ومستمع شرّ شرٌّ لكم ﴿ يؤمن بالله ﴾ يصدق بالله ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ ويصدق المؤمنين ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ معناه ظاهر. وقرئ: «أذن خير لكم» أى: أصلح لكم.

قوله تعالى: ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ معناه ظاهر.

وقوله: ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ قيل: يعنى: ماكانوا مؤمنين.

﴿٦٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا

قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ يحادد الله: يعنى: من يكون فى حدّ وجانب من الله ورسوله ﴿فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم﴾ الفضيحة العظيمة والنكال العظيم.

قوله تعالى: ﴿يحذر المنافقون﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه خبر بمعنى الأمر، ومعناه: ليحذر المنافقون.

والآخر: أنه بمعنى الإخبار عنهم؛ إذ كانوا يستهزئون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن فى شأنهم.

قوله تعالى: ﴿أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم﴾ وقد بيّنا أن هذه السورة تسمى المبعثرة والفاضحة؛ فهذه الآية تشير إلى ما قدمنا.

وقد روى عن عبد الله بن عباس قال: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرهم، ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة ورأفة على المؤمنين؛ لأن أولادهم كانوا مؤمنين، فنسخ ذلك لئلا يعيّر بعضهم بعضا.

قوله تعالى: ﴿قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾.

سبب نزول الآية: «أن النبى ﷺ كان يسير فى غزوة تبوك وقدّامه ثلاثة من المنافقين، اثنان يستهزئان، والثالث يضحك»[(١)] وقيل: إن استهزاءهم: أنهم كانوا يقولون: إن محمدا يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم، ما أبعده عن ذلك[(٢)]. وقيل: إنهم كانوا يقولون: إن محمدا يزعم أنه نزل القرآن فى شأن أصحابنا المقيمين

(١) عزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٢٧٦) لعبد الرزاق، وابن المنذر، وأبى الشيخ، عن الكلبى بنحوه.
(٢) عزاه فى الدر (٣/ ٢٧٥) لابن أبى حاتم، وابن المنذر، وأبى الشيخ، عن قتادة بنحوه.

نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

بالمدينة، وإنما هو قوله وكلامه. فهذا معنى الآية؛ فإنه روى أن النبى ﷺ أرسل إليهم: ماذا كنتم تقولون؟ فقالوا: إنا كنا نخوض فيما يخوض فيه الركب، فقال الله تعالى: ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾.

وروى عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال: «رأيت عبد الله بن أبى ابن سلول يشتد قدّام النبى ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب؛ ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ فإن قال قائل: قد كفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين.

الجواب عنه: أن معناه: أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ قرئ: «نعف» ومعناهما واحد، والطائفة ها هنا رجل واحد كان يسمى مَخْشىّ بن حُمَيِّر، وكان هو الذى يضحك ولايخوض معهم، وروى أنه جانبهم فقال: ﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ يعنى: هذا الواحد ﴿ نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ الآية، قوله: ﴿ بعضهم من بعض ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن بعضهم على دين البعض.

---

(١) رواه الواحدى فى أسباب النزول (ص١٨٨)، والعقيلى فى الضعفاء (١/ ٩٤) من طريق إسماعيل بن داود المهرجانى، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٢٧٥) لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والخطيب فى «رواة مالك». وقال العقيلى: ليس له أصل من حديث مالك. وزاد الحافظ فى اللسان (١/ ٤٣٠): وإنما يعرف من رواية هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن ابن عمر. قلت: وهى عند الطبرى فى التفسير (١٠/ ١١٩).

والآخر: أن أمرهم واحد، وهذا كالرجل يقول لغيره: أنا منك، يعنى: أمرى وأمرك واحد.

﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المنكر: هو الشرك، والمعروف: هو الإيمان بالله.

وعن أبى العالية الرياحى أنه قال: كل ما ذكر من المنكر فى القرآن فهو عبادة الأوثان والشرك بالله.

والقول الثانى: أن المنكر: هو معصية الله تعالى، والمعروف: هو طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ القول المعروف أن معنى قوله: ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ يمسكون عن الإنفاق فى سبيل الله.

والقول الثانى: يقبضون أيديهم أى: عن الجهاد فى سبيل الله.

وقال بعض المتأخرين: يعنى: لايبسطونها للدعاء والرغبة إلى الله.

قوله تعالى: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ أى: تركوا أمر الله فتركهم من رحمته. وروى عن قتادة أنه قال: نُسوا من الخير ولم ينسوا من الشر.

قوله تعالى: ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ يعنى: هم الخارجون عن طاعة الله.

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «علامة المنافق ثلاثة: إذا قال كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد (خلف)[(١)]»[(٢)]. وفى بعض الروايات: «إذا عاهد غدر»[(٣)]. وفى بعض الأخبار: «لايأتون الصلاة إلا دبرا ولايقرءون القرآن إلا هجرا»[(٤)]. وفى بعض الروايات عن ابن عباس: أن عدد المنافقين من الرجال فى زمان رسول الله ﷺ كان ثلثمائة، وعدد النساء مائة وسبعون.

---

(١) فى «ك»: أخلف.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (١/ ١١١/رقم٣٣)، ومسلم (٢/ ٦٢-٦٣/رقم٥٩).

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو، رواه البخارى (١/ ١١١/رقم٣٤)، ومسلم (٢/ ٦١-٦٢/رقم٥٨).

(٤) تقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام تحت الآية رقم: ٤٥.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

قوله تعالى: ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ﴾ معلوم. وقوله: ﴿ هى حسبهم ﴾ أى: كافيتهم ﴿ ولعنهم الله ﴾ أى:أبعدهم الله من رحمته ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أى: دائم.

قوله تعالى: ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ معناه: أنتم يامعشر المنافقين كالذين من قبلكم. قوله: ﴿ كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ الخلاق: النصيب، وقيل: الحظ الوافر. ومعنى الآية: استمتعوا باتباعهم الشهوات ﴿ كما استمتعتم بخلاقكم ﴾ باتباعكم الشهوات، وقيل: معنى الآية: رضوا بنصيبهم من الدنيا عن نصيبهم من الآخرة. وقوله تعالى: ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ يعنى: لعبوا واستهزءوا كما فعلتم. قوله تعالى: ﴿ أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ معناه: كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطت أعمالكم وخسرتم. وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لتتبعن سنن من قبلكم حتى لو دخل أحدهم فى جحر ضبّ ليدخلنه أحدكم»[(١)]. وعن عمر - رضى الله عنه - قال: ما أشبه الليلة بالبارحة فى الدنيا والآخرة[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ أى: خبر الذين من قبلهم ﴿ قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين ﴾ ومدين اسم قرية شعيب. قوله: ﴿ والمؤتفكات ﴾ هى: قريات لوط؛ سميت مؤتفكة؛ لأن الله تعالى قلبها بهم. قوله:

(١) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى، رواه البخارى (٦/٥٧١/ رقم ٣٤٥٦)، ومسلم (١٦/٣٣٥ - ٣٣٦/رقم ٢٦٦٩).

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٧٦) لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ عن عبد الله بن عباس، وليس عمر.

وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي

﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ بالحجج ﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ معناه: مانقص الله حظهم؛ ولكن نقصوا هم حظهم، وضرّوا بأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ هذه الولاية هي ولاية الدين واتفاق الكلمة. ويقال في تفسير الآية: المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض.

قوله تعالى: ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ إلى آخر الآية معناه معلوم. وقوله: ﴿ ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ﴾ قال عطاء بن أبي رباح: هو اتباع الكتاب والسنة. وقوله: ﴿ إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ أي: عزيز في نصره، حكيم في تدبيره.

قوله تعالى: ﴿ وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ الجنات: البساتين ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ هذه الأنهار هي الأنهار التي ذكر الله تعالى في سورة محمد ﷺ.

قوله: ﴿ ومساكن طيبة ﴾ روى عن عبد الله بن عباس أنه قال: ﴿ ومساكن طيبة ﴾ هي قصر من لؤلؤ فيها سبعون داراً من الزبرجد، في كل دار سبعون بيتا من الياقوت، في كل بيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون، على كل فراش زوجة من الحور العين. وفي الآثار - أيضا - أن قوله: ﴿ في جنات عدن ﴾ قال: إن جنة عدن هي مأوى الأنبياء والصديقين والشهداء، وسائر الجنان حواليها. وقيل: إن جنة عدن في السماء السابعة لايدخلها إلا نبي أو صديق أو إمام عَدْل أو رجل محكم في نفسه. ومعنى قوله «محكم في نفسه» يعني: خُيّر بين الكفر والقتل فاختار

جَنَّات عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ

القتل. وأما جنة المأوى فهى فى السماء الدنيا. وقوله: ﴿عدن﴾ أى: موضع الإقامة، يقال: عَدَن بالمكان إذا أقام به، قال الشاعر:

فإن تستضيفوا إلى حلمه تضيفوا إلى راجح قد عدن

وقوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ معناه: رضا الله أكبر من هذه التحف. وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم عنى؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا أفضل ما تعطى أحدا من خلقك؟! فيقول: وأنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحل - أى: أنزل - عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا». خرجه البخارى ومسلم فى كتابيهما[1].

قوله ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ معناه ظاهر.

﴿يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ قال أهل التفسير: معناه: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان. وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لاتلق المنافق إلا بوجه مكفهر. وروى عنه أنه قال: يجاهد بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وقوله تعالى: ﴿واغلظ عليهم﴾ الغلظة ها هنا: هو الانتهار الشديد. قوله: ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ الآية نزلت فى المنافقين أيضًا. واختلف القول فى كلمة الكفر.

قال بعضهم: كلمة الكفر: هى سب محمد ﷺ. وقال بعضهم: كلمة الكفر: هى قول الجلاس بن سويد؛ فإنه قال: لئن كان ما يقول محمد حق فنحن شرٌّ من الحمير.

(١) رواه البخارى (١٣/ ٤٩٦/ رقم ٧٥١٨)، ومسلم (٦/ ٥٧١/ رقم ٢٨٢٩).

وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا

وفيه قول ثالث: أن كلمة الكفر هى قولهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وعنوا بالأعز: عبد الله بن أبى بن سلول، وقالوا: نتوجه بالتاج خلافا على محمد.

وقوله تعالى: ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ معناه: وأظهروا الكفر بعد إظهارهم الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ يعنى: قصدوا ما لم يدركوه؛ فإنه روى أن اثنى عشر نفراً من المنافقين اجتمعوا فى غزوة تبوك ليغتالوا النبى ﷺ. وروى أنهم قصدوا أن يوقعوه من العقبة فى الوادى، فدفع الله شرهم عن النبى ﷺ[1]؛ فهذا معنى قوله: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾. وقوله تعالى: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ نقموا أى: كرهوا، قال الشاعر فى مدح بنى أمية شعراً:

ما نقمـــوا مـــن بنى أميـــة إلا أنهم (يحلمون)[2] إن غضبوا

وأنهـــم ســـادة الملـــوك ولايصلـــح إلا عليـــهم العـــرب

وقوله تعالى: ﴿إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ يعنى: بالغنائم. وروى: «أن الجلاس بن سُويد كان تحمل بحمالة فأدّاها عنه رسول الله ﷺ»[3]. وروى أن عبد الله بن أبى بن سلول كانت له دية على قوم فأمر النبى ﷺ أن يوفر عليه[4]. فهذا كله معنى قوله تعالى: ﴿إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾.

قوله تعالى: ﴿فإن يتوبوا يك خيرا لهم﴾ روى أنه لما نزلت هذه الآية قال الجلاس بن سويد: إنى أرى الله يعرض علىّ التوبة، وإنى قد تبت إلى الله مما كنت فيه؛ فروى

(١) رواه أحمد فى مسنده (٥/٤٥٣-٤٥٤) عن أبى الطفيل، والبيهقى فى الدلائل (٥/٢٦٠-٢٦١) عن حذيفة.

(٢) فى «ك»: يحكمون.

(٣) رواه الطبرى (١٠/١٢٩) عن عروة بن الزبير، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٨٠) لعبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٤) رواه الطبرى فى التفسير (١٠/١٢٩) عن قتادة.، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٨٢) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا

أنه صحّ إيمانه واستشهد يوم اليمامة.

قوله تعالى: ﴿ وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير﴾ إلى آخر الآية، معناه ظاهر.

ويقال فى قوله تعالى: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله﴾ يعنى: ليست لهم كراهة ولا نقمة، وهذا مثل قول الشاعر:

ولاعيب فينا غير أن سيوفنا ... بهن فلول من قراع الكتائب

يعنى: لاعيب فينا أصلا.

قوله تعالى: ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ أى: لنتصدقن، وأدغمت التاء فى الصاد وشددت، أى:لنصَّدقن فى وجوه الخير من الجهاد وغيره، ولنكونن من الصالحين. قيل: مثل عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وغيرهما فى البذل والعطاء.

فى الآية قولان: أحدهما: أنها نزلت فى رجل من الأنصار كان له مال غائب، فقال: إن ردّ الله علىّ مالى لأفعلن كذا وكذا، فرد الله عليه ماله فلم يفعل شيئا، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.

والقول الثانى: أنها نزلت فى ثعلبة بن حاطب. روى أبو أمامة الباهلى: «أن ثعلبة ابن حاطب جاء إلى النبى ﷺ وقال: يارسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا، فقال: قليل يكفيك خير من كثير لاتقوم بحقه فقال: يارسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا، فقال: أما ترضى أن تكون مثل رسول الله، فوالله لو أردت أن تسير معى ا لجبال ذهبا وفضة لسارت، فقال: يارسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا، فوالله لأؤدين إلى كل ذى حق حقه، فدعا رسول الله ﷺ وقال: اللهم ارزق ثعلبة مالا، قال: فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها أزقة المدينة، فخرج بها إلى الصحراء

بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ

وجعل يحضر الصلوات الخمس، ثم نمت حتى ضاقت بها مراعى المدينة، فقال: فبعد بها وجعل لايحضر إلا الجمعة، ثم ترك حضور الصلوات والجمعة جميعا. قال: فبعث رسول الله ﷺ مصدقه ليأخذ الزكاة، فمر عليه وطالبه بالزكاة، فقال: ما أرى هذا إلا أخت الجزية، اذهب حتى تعود إلىّ، فلما عاد إليه لم يعط شيئا، وقال: حتى ألقى رسول الله ﷺ، فرجع المصدق وأخبر النبى ﷺ بأمره، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فروى أنه ذكر له أنه نزلت فيه هذه الآية فحضر المدينة وقال: يارسول الله، خذ منى الزكاة، فأبى أن يأخذ، فلما توفى رسول الله ﷺ جاء إلى أبى بكر وطلب أن يأخذ منه الزكاة، فقال: ما أخذ رسول الله؛ فلا آخذ أنا، وهكذا فى زمان عمر وزمان عثمان، وتوفى فى زمان عثمان»[1].

وقوله تعالى: ﴿فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم﴾ فيه معنيان:

أحدهما: فعاقبهم نفاقا فى قلوبهم، يقال: أعقبه وعاقبه بمعنى واحد.

والمعنى الثانى: أخلفهم نفاقا فى قلوبهم.

﴿إلى يوم يلقونه﴾ يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

ثم قال: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ يعنى: ما أضمروا فى قلوبهم

(١) رواه الطبرى (١٠/ ١٣٠ - ١٣١)، والطبرانى فى الكبير (٨/ ٢١٨-٢١٩/رقم ٧٨٧٣)، والبيهقى فى الدلائل (٥/ ٢٨٩-٢٩٢)، والبغوى فى تفسيره (٢/ ٣١٢-٣١٣)، والواحدى فى أسباب النزول (ص١٨٩-١٩١)، وابن عبد البر فى الاستيعاب (١/ ٢٠١) بهامش الإصابة، وابن الأثير فى أسد الغابة (١/ ٢٨٣-٢٨٤) وغيرهم، وانظر الدر المنثور (٣/ ٢٨٢)، وتخريج الكشاف للزيلعى (٢/ ٨٥-٨٦).

وقال البيهقى: هذا حديث مشهور فيما بين أهل التفسير، وإنما يروى موصولاً بأسانيد ضعاف. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٥): رواه الطبرانى، وفيه على بن يزيد الألهانى، وهو متروك. وقال الحافظ فى تلخيص تخريج الكشاف (٢/ ٨٦): وهذا إسناد ضعيف جداً، وقال الذهبى فى تجريد أسماء الصحابة (١/ ٦٦): منكر بمرة.

وَنجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن

وما تناجوا به بينهم ﴿ وأن الله علام الغيوب ﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ﴾ يلمزون: يعيبون.

وسبب نزول الآية: «أن النبى ﷺ حث الناس على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار – وكان ذلك نصف ماله – وجاء عاصم بن عدى بثلثمائة وسق من تمر – والوسق حمل بعير – وجاء أبو عقيل – رجل من الأنصار – بصاع من تمر، وقال: كان لى صاعان من تمر فجئت بأحدهما، فقال المنافقون: أما عبد ا لرحمن ابن عوف وعاصم بن عدى: فأعطيا ما أعطيا رياء، وأما أبو عقيل: فما كان أغنى الله من صاع أبى عقيل، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية»[1]. ﴿ والمطّوعين ﴾ المتطوعين من المؤمنين، هو عبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدى ﴿ والذين لايجدون إلا جهدهم ﴾ هو أبو عقيل. والجهد: الطاقة ﴿ فيسخرون منهم ﴾ يستهزئون منهم ﴿ سخر الله منهم ﴾ جازاهم جزاء السخرية ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ الآية. أراد به إثبات اليأس عن طمع المغفرة لهم.

وروى عن الحسن البصرى أنه روى عن النبى ﷺ مرسلا أنه ﷺ قال: «والله لأزيدن على السبعين»[2] فأنزل الله عز وجل: ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾[3] وذكر عدد السبعين للمبالغة فى إثبات اليأس ﴿ إن الله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ معناه معلوم.

(١) متفق عليه من حديث أبى مسعود، فرواه البخارى (٣/ ٣٣٢/ رقم ١٤١٥)، ومسلم (٧/ ١٤٦-١٤٧/ رقم ١٠١٨).

(٢) رواه الطبرى فى التفسير (١٠/ ١٣٨) عن ابن عباس، وعن عروة، ومجاهد، والشعبى، وقتادة بنحوه، وانظر الدر (٣/ ٢٨٦). ولم أجده عن الحسن.

(٣) المنافقون: ٦.

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن

قوله تعالى: ﴿فرح المخلفون﴾ الفرح: لذّة فى القلب بنيل المشتهى، والغم: ضيق فى القلب بفوات المشتهى. وأما المخلفون فهم الذين قعدوا عن الغزو، وتركوا الخروج مع رسول الله ﷺ. والمخلّف: المتروك. وقوله: ﴿بمقعدهم﴾ يعنى: بقعودهم. وقوله: ﴿خلاف رسول الله﴾ فيه معنيان: أحدهما: مخالفة لرسول الله ﷺ. والثانى: بمقعدهم خلاف رسول الله أى: بعد رسول الله، قاله أبو عبيدة ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ المجاهدة بالمال: هى الإنفاق، والمجاهدة بالنفس: هى مباشرة القتال، وقوله: ﴿وكرهوا﴾ يعنى: لم يحبوا ﴿وقالوا لاتنفروا فى الحر﴾ الحر: هو وهج الشمس، والبرد ضده. ﴿قل نار جهنم أشد حرا﴾ يعنى: أشد وهجا ﴿لو كانوا يفقهون﴾ قرأ ابن مسعود: «لو كانوا يعلمون». والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا﴾ الضحك: حالة تكون فى الإنسان من التعجب والفرح، والبكاء حالة تعترى الإنسان من الهم وضيق القلب مع جريان الدمع على الخدّ، ويقال: إن الضحك فى بنى آدم كالصهيل فى الخيل.

وفى الآية قولان: أحدهما: أن معنى قوله: ﴿فليضحكوا قليلا﴾ أى: فى الدنيا ﴿وليبكوا كثيرا﴾ فى الآخرة ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ قاله أبو رزين، والحسن وجماعة.

والقول الثانى: أن هذا أمر بمعنى الخبر، فكأنه قال: يضحكون قليلا، ويبكون كثيرا، يعنى: فى الآخرة.

فإن قال قائل: كيف قال: يضحكون قليلا وهم لايضحكون أصلا فى الآخرة؟

الجواب: قلنا: معنى قوله: يضحكون قليلا يعنى: لايضحكون أصلا، وهذا مثل

رَّجعك اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا

قوله تعالى: ﴿ فقليلا ما يؤمنون ﴾[1] أى: لايؤمنون شيئا.

وروى عن الحسن البصرى أنه قال: إن أهل النار ليبكون لايرقأ لهم دمع حتى إن السفن لو أجريت فى دموعهم جرت.

قوله تعالى: ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ يعنى: لو ردّك الله إلى طائفة منهم ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ ليخرجوا معك فى القتال ﴿ فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا ﴾ قال أهل التفسير: العدو ها هنا: أهل الكتاب؛ فإنه لم يكن بقى بجزيرة العرب مشرك فى ذلك الوقت. قوله: ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ والخالفون هاهنا هم النساء والصبيان، وقيل: هم أهل الزمانة والضعف.

قوله تعالى: ﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ﴾ الآية. نزلت الآية فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول؛ فإنه روى: «أنه لما حضره الموت جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ برسالته يطلب منه قميصه ليكفنه فيه، فأعطاه رسول الله ﷺ قميصه. وفى بعض الروايات: أنه أعطاه قميصه الذى فوق قميصه وهو الأعلى، فرد وطلب قميصه الذى يلى جلده، فلما توفى قدم ليصلى عليه رسول الله ﷺ بطلب ابنه ذلك ووصيته، فلما تقدم رسول الله ﷺ ليصلى عليه أخذ عمر بثوبه وقال: يارسول الله، أتصلى على هذا المنافق؟ فقال رسول الله ﷺ: إن ربى خيرنى. وقرأ قوله تعالى: ﴿ استغفر لهم أو لاتستغفر لهم ﴾[2] وقد اخترت أن أصلى عليه قال: فصلى عليه، فأنزل الله تعالى قوله ﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ﴾»[3].

وفى رواية أنس: «أن النبى ﷺ لما وقف ليصلى عليه أخذ جبريل - عليه السلام

---

(١) البقرة: ٨٨.
(٢) التوبة: ٨٠.
(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر، رواه البخارى (٣/١٦٥/رقم١٢٦٩)، ومسلم (١٧/١٧٨/رقم٢٧٧٤).

وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ

- بطرف ثوبه ومنعه من الصلاة، فترك الصلاة»[١].

والرواية الأولى هي في «الصحيحين».

وقوله: ﴿ولاتقم على قبره﴾ وفي رواية: «أن النبي ﷺ كان إذا صلى على ميت وقف على قبره ودعا»[٢] فمنعه الله تعالى عن ذلك في حق المنافقين.

فإن قيل: كيف يجوز أن يصلي النبي ﷺ على المنافق وهو يعلم أنه كافر بالله؟

الجواب عنه: أنه رأى ذلك مصلحة؛ وقد قيل حين صلى عليه: «إن صلاتي عليه لاتغني عنه من عذاب الله شيئا».

وفي بعض الروايات: «أن عبد الله بن أبيّ بن سلول لما طلب منه قميصه ليتبرك به ويكفن فيه، أسلم ألف رجل من قومه لم يكونوا أسلموا من قبل لمَا رأوا من تبركه بالنبي ﷺ. [﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾][٣] وباقي الآية معلوم.

قوله تعالى: ﴿ولاتعجبك أموالهم وأولادهم﴾ قد بيّنا معناها فيما سبق؛ فإن قيل: أيش معنى التكرار؟

وفي هذه الآية الجواب من وجهين: أحدهما: أنه للتأكيد.

والثاني: أن الآيتين نزلتا في طائفتين من المنافقين دون طائفة واحدة.

(١) رواه الطبري في التفسير (١٠/١٤٢)، وأبو يعلى في مسنده (٧/١٤٤-١٤٥/رقم ٤١١٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/٤٥): رواه أبو يعلى، وفيه يزيد الرقاشي، وفيه كلام وقد وثقه. وقال الحافظ ابن حجر في المطالب (٣/٣٣٩) بعد أن عزاه لأبي يعلى: هذا حديث ضعيف، وقد خالف يزيد فيه - مع ضعفه - ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر، أنه صلى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك.

(٢) روى أبو داود (٣/٢١٥/رقم ٣٢٢١)، والبيهقي (٤/٥٦) من حديث عثمان: «أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم...».

(٣) من «ك». وقوله: باقي الآية معلوم، ليس في «ك».

وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ

قوله تعالى: ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾ معنى الآية ظاهر.

وقوله: ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ الطول: هو السعة والغنا بإجماع المفسرين، وقيل: إنه إنما سميت السعة طولا؛ لأن الإنسان يتطاول بها الناس.

وقوله: ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ يعنى: مع القاعدين عن الجهاد.

ثم قال: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ قال قتادة: الخوالف: هم النساء. وقال غيره: هم أدنياء الناس وسفلتهم، يقال: فلان خالفه قومه إذا كان دونهم. قوله: ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون﴾ طبع: ختم، ويقال: الطبائع نكت سوداء تقع على القلب، يعرف بها المَلَك المنافق من المؤمن.

قوله تعالى: ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ معناه معلوم.

وقوله: ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن الخيرات: هى الغنائم، والآخر: أن الخيرات: هى الحور فى الجنة، وواحدتها: خيرة؛ قال الله تعالى: ﴿فيهن خيرات حسان﴾(١) يعنى: الحور.

والقول الثالث: أن الخيرات لايعلم معناها إلا الله. حكى هذا عن ابن عباس، ومثل هذا: قوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾(٢).

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ قد بينا المعنى.

---

(١) الرحمن: ٧٠.

(٢) السجدة: ١٧.

فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا

ثم قال: ﴿أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ ومعناها ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ قرئ بقراءتين «المعذّرون» و«والمُعْذِرون»؛ وفى المعذرين قولان: أحدهما: أن المعذرين هم المعتذرون، أدغمت التاء فى الذال.

والقول الثانى: أن المعذرين:هم المقصرون، والتعذير فى اللغة: هو التقصير. وأمّا المعذّرون: فهم الذين بالغوا فى العُذر، يقال فى المثل: لقد أعذر من أنذر. يعنى: بالغ فى إظهار العذر من قدّم فى النذارة، قال لبيد شعراً:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

يعنى: بالغ فى العذر.

واعلم أن هذه الآية نزلت فى المنافقين، وقد اعتذروا ولم يكن لهم عذر. وأما الأعراب: هم الذين يسكنون البادية، والعربى: اسم لمن له نسب من العرب.

وقوله: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ هذا فى المنافقين؛ ومعنى ﴿كذبوا الله ورسوله﴾ يعنى: لم يأتوا بعذر صادق، ثم قال: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ومعناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ اختلفوا فى الضعفاء، قال بعضهم: هم المجانين، والضعف: نقصان عقولهم. وقال بعضهم: هم الصبيان. وقال بعضهم: هم النسوان. وأما المرضى: فمعلوم. وقوله: ﴿ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج﴾ الذين لايجدون: هم الفقراء، والحرج: الضيق. وقوله: ﴿إذا نصحوا

لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴿٩١﴾ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ﴿٩٢﴾ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴿٩٣﴾

لله ورسوله ﴾ يعنى: أخلصوا العمل لله ولرسوله، وإخلاص العمل لله بالعبادة، وللرسول بالمتابعة. قوله تعالى: ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ معناه: ليس على من أحسن بالإخلاص سبيل، والسبيل: هو العقوبة ﴿ والله غفور رحيم ﴾. وروى عن ابن عباس أنه قرأ: «والله لأهل الإساءة غفور رحيم».

قوله تعالى: ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ معناه: لاسبيل على الأولين ولا على هؤلاء، قال محمد بن إسحاق: نزلت الآية فى سبعة نفر، منهم عبد الله بن المغفل المزنى، والعرباض بن سارية، وأبو (ليلى)[1] عبد الرحمن بن كعب، سموا البكائين. وروى عن الحسن البصرى أنه قال هذا فى أبى موسى الأشعرى وأصحابه.

واختلف القول فى قوله: ﴿ لتحملهم ﴾ أحد القولين - وهو المعروف - : أنهم طلبوا الإبل ليركبوها. والقول الثانى: أنهم طلبوا النعال. هذا قول الحسن بن صالح.

وقوله: ﴿ قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ معناه ظاهر. وفى بعض الأخبار: أن النبى ﷺ قال: «لايزال أحدكم راكبا مادام متنعلا»[2].

ثم قال ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ الخوالف: النساء والصبيان؛ يقال: خالف وخوالف، كما يقال: فارس وفوارس، وهالك وهوالك. ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ﴾ ظاهر المعنى.

---

(١) ليست فى «ك». والصواب إثباتها.

(٢) رواه مسلم (١٤/١٠٣/رقم٢٠٩٦)، وأبو داود (٤/٦٩/٤١٣٣)، وأحمد (٣/٣٣٧)، وابن حبان - الإحسان - (١٢/٢٧٢، ٢٧٣/رقم ٥٤٥٧، ٥٤٥٨).

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

قوله تعالى: ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ روى أن المنافقين الذين تخلفوا كانوا بضعة وثمانين نفرا، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك جاءوا يعتذرون، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ﴿ قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ يعنى: فيما سلف ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ يعنى: فى المستأنف ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾.

ثم قال فى شأنهم: ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ﴾ الانقلاب: هو الرجوع إلى المكان الذى خرجوا منه ﴿ فأعرضوا عنهم إنهم رجس ﴾ الرجس: هو النتن والقذر ﴿ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ فإن قيل: كيف قال فى الآية: ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقبلتم إليهم لتعرضوا عنهم ﴾ إذا كان المؤمنون مقبلين عليهم حتى يقول: ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾؟

والجواب عنه: ذكر الأزهرى فى كتابه «التقريب» معنى الآية: سيحلفون بالله لكم لإعراضكم عنهم لتقبلوا عليهم؛ فأعرضوا عنهم.

ثم قال: ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ الرضا ضد الكراهة ﴿ فإن ترضوا عنهم فإن الله لايرضى عن القوم الفاسقين ﴾.

وفى القصة: «أن أباخيثمة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ كان قد تخلف، وكانت له امرأتان، فذهب إليهما وقد هيأت كل واحدة منهما طعاما، وبرّدت شرابا وبسطت له فى الظل، فنظر إلى ذلك وقال: رسول الله فى الضِّح والذبح، وأبو خيثمة فى الظل! ماهذا بِنِصْفٍ، ثم ركب ناقته واتبع رسول الله، فأدرك النبى ﷺ وقد نزل

﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ

بتبوك، فقال الناس: يارسول الله، هذا راكب قد أقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة فقال الناس: هو أبو خيثمة»[1].

قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾ معنى أجدر: أخلق وأحرى أن لايعلموا حدود ما أنزل الله ﴿على رسوله﴾ وهذا لبعدهم من سماع القرآن ومعرفة السنن. وفى بعض الأخبار: «أهل الكفور هم أهل القبور»[2]. وفى آثار التابعين عن إبراهيم النخعى: أن أعرابيا جلس عند زيد بن صوحان – وكانت شماله أصيبت يوم نهاوند فى حرب العجم – فجعل يكلمه ويذكر له العلم، فقال له الأعرابى: إنه ليؤنسنى علمك وتريبنى يدك، فقال له زيد: وما يريبك منى وإنها الشمال؟ فقال الأعرابى: إنى ما أدرى الشمال تقطع أم اليمين؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا﴾.

وزيد بن صوحان من كبار التابعين، وهو الذى ذكر رسول الله ﷺ فى شأنه أن يده تسبقه إلى الجنة[3]. ﴿والله سميع عليم﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما﴾ المغرم: التزام ما لايلزم، قال الشاعر:

فمالك مسلوب العدا كأنما ترى ... هجــر ليــلى مغرما أنت غارمه

قوله: ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أى: ينتظر بكم الدوائر، والدوائر: جمع الدائرة،

---

(١) هو ضمن حديث كعب بن مالك، وهو متفق عليه، رواه البخارى (٧/٧١٧-٧١٩/رقم٤٤١٨)، ومسلم (١٧/١٣٦-١٥١/رقم٢٧٦٩)، وهو حديث طويل جدًا، وسيأتى.

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (ص١٧٠/رقم٥٧٩) من حديث ثوبان بنحوه، وانظر اللآلىء (١/٤٧٨-٤٨١)، وتنزيه الشريعة (٢/٥٣).

(٣) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (١/٣٩٥/ رقم ٥١١)، والبيهقى فى الدلائل (٦/٤١٦)، وابن عدى فى الكامل (٧/١٢٣)، والخطيب فى تاريخه (٨/٤٤٠)، وابن عساكر فى تاريخه (١٩/٤٣٤-٤٣٥)، وقال الهيثمى فى المجمع: (٩/٤٠١): رواه أبو يعلى، وفيه من لم أعرفهم.

الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ

والدائرة: انتقال المحبوب إلى المكروه، وقيل: الدوائر: صروف الدهر.

ثم قال: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ وقرئ: «دائرة السُّوء»(١) ومعناه: أن المكروه العظيم ما يلحقهم. وقوله: ﴿والله سميع عليم﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ معناه معلوم ﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾ القربات جمع القربة، والصلوات جمع الصلاة؛ ومعنى القربات: أنه يطلب القربة إلى الله تعالى، ومعنى الصلوات: أنه يطلب الدعاء من رسول الله.

واعلم أن الصلاة من الله الرحمة، ومن المؤمنين الدعاء، ومن الملائكة الاستغفار، قال الأعشى:

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا ... يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى ... عينا فإن لجنب المرء مضطجعا

ثم قال: ﴿ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته﴾ أى: فى جنته ﴿إن الله غفور رحيم﴾ معلوم.

قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ هذه الآية فى السابقين الأولين، وفيهم أقوال:

أحدها: قول سعيد بن المسيب وابن سيرين وجماعة، أنهم قالوا: هم الذين صلوا إلى القبلتين.

(١) هى قراءة ابن كثير، وأبو عمرو، بضم السين. انظر النشر (٢ / ٢٨٠).

وقال عطاء: هم أهل بدر.

وقال الشعبى: هم أهل بيعة الرضوان، وبيعة الرضوان كانت بالحديبية.

والقول الرابع: السابقون الأولون من المهاجرين: هم الذين أسلموا قبل الهجرة، والسابقون: الأولون من الأنصار: هم الذين بايعوا مع رسول الله ليلة العقبة.

وروى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قرأ: «والأنصارُ» بالرفع[1]. وفى هذه القراءة السابقون الأولون من المهاجرين خاصة. والمعروف «والأنصار» ومعناه: ومن الأنصار: والمهاجرين هم الذين هاجروا من أوطانهم وقدموا المدينة مع رسول الله ﷺ، والأنصار هم أهل المدينة الذين أنزلوا رسول الله والمهاجرين فى دورهم.

وأما قوله: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين منهم.

والقول الثانى: أنهم المؤمنون إلى قيام الساعة.

وعن أبى صخر حميد بن زياد قال: أتيت محمد بن كعب القرظى فقلت له: ما قولك فى أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ فى الجنة، مسيئهم ومحسنهم، فقلت له: من أين تقول هذا؟ فقال: اقرأ قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ إلى أن قال: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات﴾ ثم قال: شرط للتابعين شريطة، وهو قوله: ﴿اتبعوهم بإحسان﴾ ومعناه: أنهم اتبعوهم فى أفعالهم الحسنة دون السيئة. قال أبو صخر: وكأنى لم أقرأ هذه الآية قط.

وفى الخبر المعروف برواية أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «لاتسبوا أصحابى؛ فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهبا لم يدرك مد أحدهم

(١) وهى قراءة يعقوب. انظر النشر (٢ / ٢٨٠).

لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا

ولانصيفه»[١].

قوله: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ أى: رضى الله عنهم بطاعتهم ﴿ورضوا عنه﴾ بثوابه، وباقى الآية معلوم ﴿وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك هوالفوز العظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ قال أهل التفسير: هم مُزَينة وجُهَينة وأَشْجع وغِفَار وأَسْلَم ﴿ومن أهل المدينة﴾ قوم من الأوس والخزرج ﴿مردوا على النفاق﴾ قال الفراء: مرنوا على النفاق. وقال ثعلب: استمروا على النفاق. وفى الآية تقديم وتأخير، كأنه قال: وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق ومن أهل المدينة، هكذا قاله أهل المعانى ﴿لاتعلمهم نحن نعلمهم﴾ هذا دليل على أن الرسول ﷺ لم يعلم جميع المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ فيه أقوال:

أحدها[٢]: أنها الفضيحة فى الدنيا، و العذاب فى الآخرة.

وفى الخبر «أن النبى ﷺ قام خطيبا على المنبر، وقال: اخرج يافلان، فإنك منافق، اخرج يافلان، فإنك منافق»[٤] هكذا حتى أخرجهم جميعا من المسجد.

---

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (٧/٢٥/رقم٣٦٧٣)، ومسلم (١٦/١٣٩-١٤٠/٢٥٤١).

(٢) فى «ك»: أحدهما.

(٣) رواه الطبرى فى التفسير (١١/٨)، والطبرانى فى الأوسط، كما فى مجمع البحرين (٦/٣٣/رقم٣٣٣٤) من حديث ابن عباس. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٣٧): رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه الحسين بن عمرو العنقزى، وهو ضعيف وزاد السيوطى فى الدر (٣/٢٩٣ - ٢٩٤) فعزاه لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

والقول الثانى: قول مجاهد، وهو الخوف فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة.

والقول الثالث: أن العذاب الأول: هو القتل، والعذاب الثانى: هو عذاب القبر.

والرابع: قال ابن قتيبة: العذاب الأول: هو السبى، والعذاب الثانى: هو القتل.

﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ يعنى: إلى جهنم.

قوله تعالى: ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ الآية نزلت فى قوم من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بغير عذر، فيهم أبو لبابة بن عبد المنذر وغيره، فلما قفل رسول الله ﷺ من الغزو، وقرب من المدينة جاءوا فربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وقالوا: لانحل أنفسنا حتى يتوب الله علينا، فدخل رسول الله ﷺ المسجد، وكان من عادته أنه كان إذا خرج إلى سفر صلى ركعتين فى المسجد، ثم يخرج، وإذا رجع بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يدخل منزله، فلما دخل المسجد ورأى هؤلاء النفر قد ربطوا أنفسهم بالسوارى سأل وقال: «ما شأنهم؟ فقيل: إنهم حلفوا ألا يحلوا أنفسهم حتى يتوب الله عليهم، فقال رسول الله ﷺ :وإنى أحلف أن لا أحلهم حتى يقضى الله فيهم بأمره، فأنزل الله تعالى هذه الآية»(١).

وقوله تعالى: ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ العمل السيء هو التخلف عن الغزو بلا إشكال، وأما العمل الصالح ففيه معنيان:

أحدهما: ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسوارى.

والثانى: العمل الصالح: هو غزواتهم مع رسول الله ﷺ من قبل.

وفى الأخبار، عن سمرة بن جندب أن النبى ﷺ قال: «أتانى الليلة آتيان فانطلقا بى إلى مدينة مبنية لبنة من الذهب ولبنة من الفضة، فتلقانى رجال شَطْرُ خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشَطْرُ خلقهم كأقبح ما أنت راءٍ، فقيل لهم: قعوا فى ذلك

(١) رواه الطبرى (١١ / ١٠)، والبيهقى فى الدلائل (٥ / ٢٧١-٢٧٢) عن ابن عباس، وزاد السيوطى فى الدر (٣ / ٢٩٤) فعزاه لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه.

رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

النهر، فوقعوا فى النهر، فخرجوا وقد ذهب عنهم السوء، فسألت عن أولئك القوم، فقيل لى: أما المدينة فهى الجنة، [وهذاك][(١)] منزلك، وهؤلاء القوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا؛ فتجاوز الله عنهم»[(٢)].

وأما قوله تعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ قال الحسن البصرى وغيره: عسى من الله واجب. فلما نزلت هذه الآية أمر رسول الله ﷺ أن يحل أولئك القوم من السوارى.

وروى عن أبى عثمان النهدى أنه قال: أرجى آية فى القرآن هذه الآية.

﴿إن الله غفور رحيم﴾.

قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ قال أهل التفسير: لما تاب الله على أولئك القوم جاءوا بأموالهم إلى النبى ﷺ وقالوا: خذها صدقة لله، فأبى أن يأخذها، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿خذ من أموالهم﴾. وقوله: ﴿تطهرهم﴾ أى: من الذنوب. وقوله: ﴿وتزكيهم بها﴾ أى: وترفعهم بها من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين ﴿وصل عليهم﴾ وادع لهم ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ أى: دعاؤك سكن لهم، أى: سكون لهم، أى: دعاؤك سكن لهم وطمأنينة وتثبيت.

وقد قال بعض أهل العلم: إنه يجب على الإمام أن يدعو للذى جاء بالصدقة. وقال بعضهم: يستحب، ولايجب. وقال بعضهم: يجب فى الفرض ويستحب فى النفل. وقال بعضهم: يجب على الإمام أن يدعو للمعطى، ويستحب للفقير أن يدعو. ومنهم من قال: إن التمس المعطى أن يدعو له يجب؛ وإلا فلا يجب.

---

(١) فى الأصل: وهاذاك، وفى «ك»: وهذا.

(٢) رواه البخارى (٨/١٩٢/رقم ٤٦٧٤)، والنسائى فى الكبرى (٦/٣٥٨/ رقم ١١٢٢٦)، وأحمد (٥/٨-٩).

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

وقد ثبت الخبر برواية عبد الله بن أبى أوفى قال: «كان الرجل إذا جاء بصدقته إلى النبى ﷺ دعا له؛ فجاء أبى بصدقته فقال النبى ﷺ: اللهم صل على آل أبى أوفى[1].

﴿والله سميع عليم﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ هذا ظاهر. وقوله: ﴿ويأخذ الصدقات﴾ معناه: يقبل الصدقات. وقال بعض أهل المعانى قوله: ﴿ألم يعلموا﴾ هو بمعنى الأمر؛ كأنه قال: اعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده.

وفى الخبر المشهور المعروف عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب - ولايقبل الله إلا طيبا - إلا أخذها الله بيمينه فَيُربيها كما يُربى أحدكم فَلُوَّه، حتى إن اللقمة تجىء يوم القيامة مثل أُحُد، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾»[2]. والخبر صحيح.

وروى عن ابن مسعود أنه قال: إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير. وروى فى بعض الروايات مرفوعا إلى النبى ﷺ.[3]

قوله: ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ فى الآية

---

(١) متفق عليه، رواه البخارى (٣/٤٢٣/١٤٩٧)، ومسلم (٧/٢٥٨-٢٥٩/رقم١٠٧٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخارى (٣/٣٢٦/رقم١٤١٠)، ومسلم (٧/١٣٧-١٣٩/رقم١٠١٤) دون ذكر أن النبى ﷺ قرأ الآية، ورواه الطبرى (١١/١٥) وغيره، وذكروا فيه أنه قرأ الآية. انظر الدر المنثور (٣/٢٩٨).

(٣) روى من حديث أبى هريرة، وابن عباس، عزاه السيوطى فى الدر (٣/٢٩٨) لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه، عن أبى هريرة بنحوه، وعزاه للدارقطنى فى الأفراد عن ابن عباس بنحوه أيضًا.

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ

معنى التهديد . فإن قال قائل : ما معنى رؤية الرسول والمؤمنين؟

قلنا : رؤية الرسول : هى بإعلام الله إياه عملهم، ورؤية المؤمنين : بإيقاع المحبة فى قلوبهم لأهل الصلاح، وإيقاع البغضة فى قلوبهم لأهل الفساد.

وفى بعض الأخبار : «لو عمل المؤمن فى صخرة ليس لها باب [لأظهره][1] الله إذا عمله»[2].

قوله تعالى : ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة. . . .﴾ الآية، معناه معلوم.

قوله تعالى : ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ الإرجاء : التأخير، ومعناه : مؤخرون لأمر الله، وأمر الله تعالى هنا : حكم الله.

والآية نزلت فى كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع؛ وهؤلاء الثلاثة الذين تأتى قصتهم من بعد.

وقوله ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى : ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا﴾ نزلت الآية فى قوم من المنافقين منهم : وديعة بن ثابت، وثعلبة بن حاطب، (وجارية بن يزيد)[3]، وابنه

---

(١) كلمة غير واضحة فى «الأصل، ك» ورسمها : لردآه. والمثبت من مصادر التخريج. وانظر لسان العرب (مادة : ردى).

(٢) رواه أحمد (٣/٢٨)، وأبو يعلى (٢/٥١٢/رقم١٣٧٨)، وابن حبان - الإحسان - (١٢/٤٩١-٤٩٢/رقم٥٦٧٨)، والحاكم (٤/٣١٤) وصحح إسناده. كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٢٨) : رواه أحمد، وأبو يعلى، وإسنادهما حسن. وزاد السيوطى فى الدر (٣/٢٩٨) فعزاه للبيهقى فى الشعب، وابن أبى الدنيا فى الإخلاص، وللضياء فى المختارة.

(٣) في «ك» : حارثة بن يزيد، ومثله فى تفسير ابن كثير (٢/٣٨٨) إلا أنه سمى أباه : عامراً، وفى الدر المنثور (٣/٢٩٩، ٣٠٠) : جارية بن عامر وهو الصواب.

وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى

مجمع بن جارية، وحزام بن مالك، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعباد بن حنيث، ورجل يقال له: يخرج[(١)] إلى تمام اثنى عشر نفرا، بنوا هذا المسجد بقصد ما ذكره الله فى كتابه، وهو قوله: ﴿ ضرارا ﴾ يعنى: مضارة بالرسول ﴿ وكفرا ﴾ بالله ﴿ وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله ﴾ والإرصاد: الإعداد، والذى حارب الله ورسوله هاهنا هو أبو عامر الراهب، وكان ممن يطلب الدين فى الابتداء، ثم تنصر وتحزب الأحزاب على رسول الله ﷺ، ثم لحق بقيصر يستنجده على رسول الله ﷺ وأصحابه، فهؤلاء بنوا هذا المسجد وقالوا: نبنى هذا المسجد فنخلوا بأمرنا، ونتحدث بما نريد، وننتظر رجوع أبى عامر الراهب. وكان هذا المسجد بنى قريبا من مسجد قباء. وقوله: ﴿ من قبل ﴾ راجع إلى أبى عامر ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ معناه: إلا الرفق بالمسلمين ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ معناه معلوم.

ثم قال: ﴿ لاتقم فيه أبدا ﴾ روى أنهم طلبوا من النبى ﷺ أن يأتى فيصلى فيه، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ لاتقم فيه أبدا ﴾ معناه: لاتصل فيه أبدا ﴿ لمسجد أسس على التقوى ﴾ اختلفوا فى هذا المسجد؛ قال ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدرى: هو مسجد النبى ﷺ بالمدينة. وروى أبو سعيد الخدرى: «أن رجلين تماريا فى المسجد الذى أسس على التقوى، فسألا رسول الله ﷺ فقال - عليه السلام -: هو مسجدى هذا». وأورده أبو عيسى الترمذى فى «جامعه»[(٢)].

---

(١) ومثله فى تفسير ابن كثير، وفى الدر: يخدج.

(٢) الترمذى (٥/٢٦١ - ٢٦٢/رقم٣٠٩٩)، وقال: حسن صحيح. والحديث فى صحيح مسلم (٩/٢٣٩-٢٤٠/رقم١٣٩٨)، والنسائى (٢/٣٦/رقم٦٩٧) بمعناه عن أبى سعيد أيضًا، وفيه أنه هو الذى سأل النبى ﷺ.

التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ

والقول الثانى: أنه مسجد قباء. هذا قول سعيد بن جبير، وقتادة، وجماعة من التابعين.

والقول الثالث: أنه جميع مساجد المدينة والأولى هو القول الأول.

وقوله: ﴿أسس على التقوى﴾ أى: ليتقى فيه من الشرك. وقوله: ﴿من أول يوم﴾ معناه: من ابتداء أيام الإسلام ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أى: أولى أن تقوم فيه، أى: تصلى فيه، قوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ معناه معلوم.

وقد روى أن النبى ﷺ قال لأهل قباء: «إن الله تعالى قد أحسن الثناء عليكم، فماذا تعملون؟ فقالوا: نتوضأ من الحدث ونغتسل من الجنابة. فقال – عليه السلام –: فهل شىء غير هذا؟ فقالوا: إن أحدنا إذا استنجى أحب أن يتبع أثر الاستنجاء بالماء، فقال عليه السلام: هو ذاك، فعليكم به»(١).

ثم قال: ﴿أفمن أَسَّسَ﴾ وقرئ: «أفمن أُسِّسَ»(٢) ﴿بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير﴾ أى: على طلب التقوى وطلب الرضا من الله خير ﴿أم من أسس بنيانه على

---

(١) رواه ابن ماجة (١/١٢٧/رقم٣٥٥)، والدارقطنى فى سننه (١/٦٢) وقال: عتبة بن أبى حكيم ليس بالقوى، والحاكم (١/١٥٥) وقال: حديث كبير صحيح فى كتاب الطهارة. والبيهقى فى الكبرى (١/١٠٥)، وابن الجارود فى المنتقى (ص٢٩–٣٠/رقم٤٠)، كلهم من طريق طلحة بن نافع، قال حدثنى أبو أيوب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك. وانظر نصب الراية (١/٢١٩).

(٢) هى قراءة نافع، وابن عامر. انظر النشر (٢/٢٨١).

بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

شفا جرف ﴾ الشفا: هو الحرف والحد، والجُرُفُ: هو ما تجرّف من السيل، أى: تقطع من السيل، فصار لرخاوته لايثبت عليه بناء. قوله: ﴿ هارٍ ﴾ معناه: هائر، والهائر: الساقط ﴿ فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ معناه معلوم.

واعلم أن المراد من الآية: هو التمثيل والتشبيه فى قلة الثبات والقرار وسوء العاقبة. واختلفوا فى الذى كانت عاقبة مسجد الضرار؛ فالأكثرون على أن النبى ﷺ دعا مالك بن الدخشم، وعاصم بن عدى، وأمرهما أن يهدما ذلك المسجد ويحرقاه ففعلا ذلك.

والقول الآخر: أن ذلك المسجد انهار بنفسه من غير أن يمسه أحد. وفى بعض التفاسير أنه خسف به. وروى أنه لما خسف به سطع منه دخان فى السماء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ﴾ يعنى: شكًّا واضطرابا فى قلوبهم. وقال السدى: حزازة فى قلوبهم. وقوله: ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ فيه قولان:

أحدهما: حتى يموتوا. وقرئ فى الشاذ: «إلى أن تقطع قلوبهم»[١].

والقول الثانى: حتى يتوبوا، فجعل الندامة فى القلب بمنزلة تقطع فى القلب.

﴿ والله عليم حكيم ﴾ عليم بخلقه، حكيم فى تدبيره.

قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ معنى الآية: أن الله تعالى أمر (المسلمين)[٢] بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، وجعل لهم الجنة ثوابا عليه، فجعل هذا بمنزلة الشراء والبيع.

قوله: ﴿ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا ﴾ معناه: أن ثواب الجنة وعد حق. ثم قال: ﴿ فى التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ وهذا دليل على أن أهل

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) في «ك»: المؤمنين.

حكيم ﴿١١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الملل كلهم أمروا بالجهاد وجعل ثوابهم الجنة، وقد بيّنا معنى التوراة والإنجيل والقرآن.

وقوله: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ معناه معلوم ﴿فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به﴾ معناه: فافرحوا ببيعكم الذى بايعتم به ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾.

روى فى الأخبار أن هذه الآية. لما نزلت قال أصحاب رسول الله ﷺ: ربح البيع، لا نُقيل ولا نستقيل. وعن عمر - رضى الله عنه - قال: إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك. وعن بعض التابعين أنه قال: ثامن فأغلى فى الثمن، وبايع فأغلى فى العوض. وعن الحسن البصرى أنه قال: إن الله تعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها من الله.

قوله تعالى: ﴿التائبون العابدون﴾ الآية التائبون: هم الذين تابوا من الشرك. وقيل: هم الذين تابوا من جميع المعاصى. والعابدون: هم الذين عبدوا الله بالتوحيد، وقيل: بسائر الطاعات. و ﴿الحامدون﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم [هم][1] الذين يحمدون الله على كل حال فى السراء والضراء.

والقول الثانى: أنهم الذين يحمدون الله على الإسلام.

وقوله: ﴿السائحون﴾ فيه أقوال:

(أحدها)[2]: أنهم الصائمون. هكذا روى عن ابن مسعود، وابن عباس. وفى بعض الأخبار أن النبى ﷺ قال: «سياحة أمتى: الصيام»[3]. (وقال)[4] سفيان بن عيينة: سمّى الصائم سائحا؛ لأنه ترك المطعم والمشرب والمنكح.

والقول الثانى: أن السائحين: هم المجاهدون فى سبيل الله. وفى بعض الأخبار أن

(١) من «ك».
(٢) فى «ك»: أحدهم.
(٣) تقدم.
(٤) فى «ك»: وعن.

﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا

النبى ﷺ قال: «سياحة أمتى: الجهاد»[١].

والقول الثالث: أن السائحين: هم طلبة العلم، روى عن بعض التابعين.

وقوله ﴿الراكعون الساجدون﴾ يعنى: المصلين. وقوله: ﴿الآمرون بالمعروف﴾ أى: الآمرون بالإيمان ﴿والناهون عن المنكر﴾ يعنى: عن الشرك. وقوله: ﴿والحافظون لحدود الله﴾ معناه: القائمون بأوامر الله ﴿وبشر المؤمنين﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال:

الأول: ما رواه سعيد بن المسيب، عن أبيه: «أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال له النبى ﷺ: أى عمِّ! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال له أبو جهل وعبد الله بن [أبى][٢] أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فما زالا يكلمانه حتى كان آخر كلمة قالها: على ملة عبد المطلب، فقال النبى ﷺ: لأستغفرن لك مالم أُنه عنه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ماكان للنبى....﴾ إلى آخر الآية»[٣].

والثانى: روى مسروق، عن عبد الله بن مسعود: «أن النبى ﷺ خرج إلى المقابر فاتبعناه، فأتى قبرا وقعد عنده، وناجاه طويلا، ثم بكى وبكينا لبكائه، فقلنا له: يارسول الله من صاحب هذا القبر؟ فقال: هذه أمى آمنة بنت وهب، استأذنت ربى

(١) رواه أبو داود (٣/٥/رقم ٢٤٨٦)، والطبرانى فى الكبير (٨/١٨٣/رقم٧٧٦٠)، والحاكم (٢/٧٣) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقى فى الكبرى (٩/١٦١) من حديث أبى أمامة.

(٢) سقطت من «الأصل، ك» والصواب اثباتها، والحديث متفق عليه لما سيأتى.

(٣) متفق عليه، فرواه البخارى (٨/١٩٢/رقم٤٦٧٥)، ومسلم (١/٢٩٥-٢٩٨/رقم٢٤).

تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ

فى زيارتها فأذن لى، ثم استأذنته فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى، قال: فأخذنى عليها الشفقة ما يأخذ الولد للوالدة فبكيت، وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ما كان للنبى... ﴾ إلى آخر الآية»[1].

والقول الثالث: روى عن على - رضى الله عنه -: «أنه سمع رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقال له علىّ: أتستغفر للمشركين؟ فقال ذلك الرجل: قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فأتى النبى ﷺ وأخبره بذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها»[2].

قوله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ وفى هذه الآية قولان:

أحدهما: أن إبراهيم - عليه السلام - قال لأبيه: لأستغفرن لك، قال هذا رجاء أن ينقله الله تعالى من الكفر إلى الإسلام ببركة دعائه واستغفاره.

والقول الثانى: أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم وقال: لأسلمن، فاستغفر لى، فاستغفر له إبراهيم لهذا المعنى.

﴿فلما تبين له أنه عدو لله﴾ بموته على الكفر ﴿تبرأ منه﴾ فإن قال قائل: كيف يجوز أن يستغفر إبراهيم للمشرك؟

(١) رواه الحاكم (٢ / ٣٣٦) والبيهقى فى الدلائل (١ / ١٨٩)، والواحدى فى أسباب النزول (ص١٩٨-١٩٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما؛ وتعقبه الذهبى فقال: أيوب بن هانئ ضعفه ابن معين. ورواه ابن ماجه مختصراً (١ / ٥٠١ / رقم١٥٧١). والحديث رواه مسلم فى صحيحه بنحوه (٧ / ٦٤-٦٥ / رقم٩٧٦) والحاكم (١ / ٣٧٥-٣٧٦) وابن ماجه مختصراً أيضاً (١ / ٥٠١ / رقم١٥٧٢) من حديث أبى هريرة. وانظر تلخيص الحبير (٢ / ٢٧٢).

(٢) رواه الترمذى (٥ / ٢٦٢-٢٦٣ / رقم ٣١٠١) وحسنه، والنسائى (٤ / ٩١ / رقم ٢٠٣٦)، وأحمد (١ / ٩٩)، والطبرى فى التفسير (١١ / ٣٢)، وأبو يعلى فى مسنده (١ / ٢٨٠رقم٣٣٥)، والحاكم (٢ / ٣٣٥) وصحح إسناده.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

الجواب عنه: قال بعض أهل المعانى: يحتمل أن أبا إبراهيم كان أظهر الإسلام وهو يبطن الكفر، فاستغفر له إبراهيم لإظهاره الإسلام ﴿فلما تبين له أنه عدو لله﴾ مصرّ على الكفر فى الباطن ﴿تبرأ منه﴾ هكذا قاله بعض أهل المعانى.

والذى عليه عامة المفسرين ما بيّنا من قبل.

وقد قرأ الحسن البصرى: «إلا عن موعدة وعدها إياه» وهذا صريح فى أن الوعد كان من إبراهيم، والدليل على أن إبراهيم استغفر له وهو مشرك: أن الله تعالى قال فى سورة الممتحنة: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه..﴾ إلى أن قال: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾[1] فقد صرح أن إبراهيم ليس بقدوة فى هذا الاستغفار؛ وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد؛ رجاء أن يسلم.

وقوله: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ اختلفوا فى «الأوّاه» على أقاويل.

روى عن عبد الله بن مسعود. وعبد الله بن عباس: أن الأواه: هو الدعَّاء. وعن ابن مسعود فى رواية أخرى: أنه الرحيم، وعن ابن عباس فى رواية أخرى: أنه المؤمن التواب، وعن مجاهد أنه الفقيه، وعن كعب الأحبار: أنه الذى يتأوه من الذنوب، فيقول: أوه أوه. وروى أبو ذر «أن رجلا كان يطوف ويقول: أوه أوه، فقلت للنبى ﷺ: إن هذا الرجل ليؤذينا، فقال: لاتقل هذا؛ فإنه أوّاه»[2]. قال الشاعر:

إذا ما قمتُ أَرْحَلُها بليل ... تَأَوَّهُ آهةَ الرجلِ الحـــزينِ

وعن سعيد بن جبير قال الأوّاه: المسبّح. وقيل: إنه الموقف. وقيل: إنه الموقن.

وأما الحليم: فهو: الصفوح عن الذنوب.

قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم﴾ معناه: ما كان الله ليحكم بالضلالة بترك الأوامر ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فيتركوا.

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) رواه الطبرى (١١ / ٣٧) بمعناه، وعزاه الشيوطى فى الدر (٣ / ٣٠٨) لابن أبى حاتم، وابن مردويه.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ

وعن أبى عمرو بن العلاء قال: معناه: حتى يحتج عليهم بالأمر.

سبب نزول الآية: أن قوما كانوا أتوا النبى ﷺ فأسلموا، ولم تكن الخمر حرّمت ولا القبلة صرفت، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك، ثم حرّمت الخمر (و)[1] صرفت القبلة ولم يكن لهم علم بذلك، فلما قدموا بعد ذلك للمدينة وجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت، فقالوا للنبى ﷺ: قد كنت على دين ونحن على (غيره)[2] فنحن ضلال؟ فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾.

وفى الآية قول آخر؛ وهو: أن الآية فى الاستغفار للمشركين؛ فإن جماعة من الصحابة كانوا استغفروا لآبائهم ولم يعلموا أن ذلك لايجوز، فلما أنزل النهى عنه خافوا على أنفسهم خوفا شديدا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿إن الله بكل شىء عليم﴾، وكذا الآية التى تليها معلوم المعنى إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار﴾ معنى قوله: ﴿لقد تاب الله﴾ لقد تجاوز الله. وقيل: لقد صفح الله. وقوله ﴿ الذين اتبعوه فى ساعة العسرة﴾ معناه: فى وقت العسرة، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة، وكذلك ذلك الجيش يسمى جيش العسرة؛ والعسرة: الشدة، وكانت عليهم عسرة فى الظّهر و الزاد والماء، فروى أن الاثنين والثلاثة فما زاد كانوا يعتقبون البعير الواحد. وروى أنهم كانوا فنى زادهم حتى كان الرجلان يقتسمان التمرة بينهما. هكذا حكى عن

(١) فى «ك»: ثم.

(٢) في «ك» دين.

اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ

ابن عباس. وروى: «أنهم عطشوا عطشا شديدا حتى نحروا الإبل وعصروا كرشها وشربوا ما فيها، ثم إن النبى ﷺ استسقى الله تعالى فسقوا. هكذا رواه عمر - رضى الله عنه - فهذا هو معنى العسرة.

وقوله: ﴿من بعد ما كاد يزيغ﴾ قرئ: «تزيغ ويزيغ»[(١)] فقوله: «تزيغ» منصرف إلى القلوب، وقوله: يزيغ منصرف إلى الفعل؛ كأنه قال: يزيغ الفعل ﴿قلوب فريق منهم﴾.

وأما الزيغ فى اللغة: هو الميل، وليس المراد من الميل هنا هو الميل عن الدين، إنما المراد من الميل هو الميل عن متابعة رسول الله ﷺ ونصرته فى الغزو، واختيار التخلف من شدة العسرة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ فإن قال قائل: ما هذا التكرار، فقد قال فى أول الآية: ﴿لقد تاب الله على النبى﴾؟.

الجواب عنه: أنه ذكر التوبة فى أول الآية قبل ذكر الذنب - وهو محض [تفضل][(٢)] من الله، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه: القبول.

﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ قرأ عكرمة بن عمار: «وعلى الثلاثة الذين خَلَفوا» مخفف، وفى بعض القراءات: «وعلى الثلاثة الذين خالفوا».

واعلم أن هؤلاء الثلاثة هم الذين أنزل الله فى شأنهم قوله تعالى: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾[(٣)] وأما أسماؤهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن

(١) قرأ حمزة، وحفص بالياء، وقرأ الباقون بالتاء. انظر النشر (٢ / ٢٨١).

(٢) من «ك».

(٣) التوبة: ١٠٦.

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

الربيع، وكانوا مؤمنين مخلصين تخلفوا بغير عذر، فلما قدم النبى ﷺ المدينة قافلا من غزوة تبوك، حضروا وأقروا عنده بالذنب، وأنه لم يكن لهم عذر، فأخّر أمرهم ولم يستغفر لهم، ونهى المسلمين عن مخالطتهم ومكالمتهم.

وفى الآية قصة طويلة مذكورة فى «الصحيحين»[١]؛ فروى أنهم مكثوا على ذلك أربعين ليلة، ثم إن رسول الله ﷺ أمرهم أن يعتزلوا نساءهم إلى تتمة خمسين ليلة، وكانوا يسلّمون على أصحاب رسول الله ﷺ فلا يردّون عليهم السلام. قال كعب بن مالك: فكنت أدخل المسجد وأصلى وأنظر هل ينظر إلىّ رسول الله ﷺ فكنت إذا نظرت إليه صرف عنى بصره، قال: فاقتحمت يوما على أبى قتادة حائطه - وكان ابن عمى - فسلمت عليه فلم يردّ علىّ الجواب، فقلت له: يا ابن عمى، أتعلم أنى أحب الله ورسوله؟ فسكت عنى، فرددت الكلام ثلاثاً، فقال فى الثالثة: الله ورسوله أعلم، قال: فبكيت بكاء شديدا وخرجت، قال: فلما كان تتمة خمسين ليلة من يوم نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، كنت على ظهر بيتى وقد صليت الصبح، وأنا كما ذكر الله تعالى: ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ أى: برحبها وسعتها ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أى: من جفوة القوم وغلظة رسول الله ﷺ عليهم، إذ سمعت مناديا ينادى على ذروة سَلْع - والسَّلْع: الجبل -: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت لله ساجدا، وجاء البشير فأعطيته ثوبىّ ولبست ثوبين غيرهما، وأتيت رسول الله ﷺ وجلست بين يديه ووجهه يستنير كاستنارة القمر، فقال: أبشر ياكعب بن مالك بخير يوم مرّ عليك منذ أسلمت فقلت: يارسول الله، أمن عندك أم من عند الله؟ فقال: لا، بل من عند الله وقرأ علىّ الآية، فقلت: يارسول الله، إن من توبتى أن أخلع من (جميع)[٢] مالى صدقة لله ولرسوله، فقال: أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك» القصة إلى آخرها.

---

(١) تقدم من حديث كعب بن مالك الطويل.

(٢) ليست فى «ك».

وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ

وقوله تعالى: ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ معناه: وظنوا: تيقنوا أن لامفزع ولا منجا من الله إلا إليه. وقوله تعالى: ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ يعنى: ليستقيموا على التوبة ويثبتوا عليها، فإن توبتهم قد سبقت ﴿ إن الله هو التواب الرحيم ﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال الضحاك: مع محمد وأصحابه.

وروى عن بعضهم أنه قال: مع الصادقين أى: مع أبى بكر وعمر. وعن بعضهم: مع الخلفاء الأربعة. وقال بعضهم: إن الصادقين هاهنا الثلاثة الذين سبق ذكرهم؛ فإنهم صدقوا النبى ﷺ بالاعتراف بالذنب، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة مثل المنافقين. فروى عن كعب بن مالك قال: ما أبلانى الله ببلاء أعظم عندى من صدقى رسول الله ﷺ؛ فإنه من شكرى عليها أن لاأكذب أبدا. وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لايصلح الكذب فى جدّ ولا هزل، وقرأ هذه الآية. ويقال: إن فى قراءته: «وكونوا من الصادقين».

قوله تعالى: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ الآية، معناها: هو النهى عن التخلف. وقوله: ﴿ ولايرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ معناه: ما كان لهم أن يختاروا الخفض والدَّعة، ويتركوا رسول الله ﷺ فى شدة السفر ومقساة التعب. ثم قال: ﴿ ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ﴾ الظمأ: العطش ﴿ ولا نصب ﴾ النصب: التعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ وهى المجاعة ﴿ فى سبيل الله ﴾ فى الجهاد. وقوله: ﴿ ولايطئون موطئا ﴾ يعنى: لايضعن قدما ﴿ يغيظ الكفار ﴾ أى: يغضبهم ﴿ ولاينالون من عدو نيلا ﴾ يعنى:: لايصيبون منهم شيئا فى نفس أو مال ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ معلوم المعنى.

عَن نَّفْسه ذَلكَ بأَنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ

ثم قال: ﴿ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ يعنى: قليلا ولا كثيرا، قيل فى التفسير: حتى التمرة ﴿ ولايقطعون واديا﴾ أى: لايعبرون واديا مقبلين ومدبرين ﴿إلا كتب لهم﴾ أى: أثيبوا على ذلك ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ معناه معلوم

قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية، وفيها قولان:

أحدهما: «أن النبى ﷺ كان يبعث بالسرايا بعد غزوة تبوك، فكان الناس يخرجون جميعهم لعظم ما أصابهم من التعيير والملامة فى التخلف، فأنزل الله تعالى هذه الآية»(١) . قال قتادة: هذا فى السرايا، فأما إذا خرج الرسول ﷺ بنفسه فعليهم أن يخرجوا جميعا معه.

والقول الثانى: أن النبى ﷺ كما دعا على مضر، وقال: «اللهم اجعل سنيهم كسنى يوسف، قال: فأصابهم قحط شديد وجدب، فجعلت القبيلة تقبل إلى المدينة بأجمعهم ويقولون: أسلمنا، فكانوا يضيقون على أهل المدينة منازلهم ويلوثون الطرقات، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فردهم رسول الله ﷺ إلى قبائلهم»(٢) . وقوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ معناه: هلاّ نفر من كل فرقة منهم طائفة، فعلى الأول معنى الآية: هو النهى عن ترك رسول الله ﷺ وحده. وقوله: ﴿ليتفقهوا فى الدين﴾ يعنى: ليحضروا نزول القرآن وبيان السنن ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ معناه: ليعلّموا السرية إذا رجعوا إليهم ما نزل من القرآن والسنن.

وعلى القول الثانى معنى الآية: ما كان لأهل القبائل أن ينفروا جميعا إلى المدينة

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص١٩٩) من رواية الكلبى عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبرى (١١/ ٥٠) عن ابن عباس، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٣١٧) لابن أبى حاتم أيضًا.

لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

ويتركوا مواضعهم؛ ولكن لينفر من كل فرقة طائفة أى: من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴿لعلهم يحذرون﴾.

وأما الطائفة: فهو اسم لثلاثة فما زاد، وقد ورد فى القرآن ذكر الطائفة، والمراد منه: الواحد، وقد ذكرناه فى قوله تعالى: ﴿إن نعف عن طائفة منهم﴾[١] من قبل.

واستدل أهل الأصول بهذه على وجوب قبول خبر الواحد، والمسألة فى الأصول (كبيرة)[٢].

وأما الفقه فهو فى اللغة: عبارة عن الفهم، وفى الشرع: عبارة عن علم مخصوص وهو علم الأحكام.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين»[٣]. وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «الناس معادن، فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[٤]. وفى بعض الأخبار: «أفضل العبادة: الفقه، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[٥]. وعن الشافعى - رضى الله عنه - أنه قال: طلب

(١) التوبة: ٦٦. (٢) فى «ك»: كثيرة.

(٣) متفق عليه من حديث معاوية بن أبى سفيان، رواه البخارى (١/١٩٧/رقم٧١)، ومسلم (٧/١٧٩-١٨٠/رقم١٠٣٧)، وقد تقدم.

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (٦/٦٠٨/رقم٣٤٩٣،٣٤٩٤)، ومسلم (١٥/١١٧-١١٨/رقم٢٥٢٦).

(٥) رواه الطبرانى فى الصغير (٢/٢٥١/رقم ١١١٤)، والأوسط كما فى مجمع البحرين (١/١٩٢/رقم ١٩٥) عن ابن عمر وقال الهيثمى فى المجمع (١/١٢٥): رواه الطبرانى فى الثلاثة، وفيه محمد بن أبى ليلى، ضعفوه لسوء حفظه. وقال العراقى فى تخريج الإحياء (١/٧): عند الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف. قلت: والشطر الثانى منه رواه البخارى فى تاريخه الكبير (٣/٣٠٨)، والترمذى (٥/٤٦-٤٧/رقم٢٦٨١)، وابن ماجة (١/٨١/رقم٢٢٢) والخطيب فى الفقيه والمتفقه (١/٢٤)، والآجرى فى أخلاق العلماء (ص٢٤-٢٥) وابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١/١٢٥) وابن الجوزى فى العلل (١/١٣٤) من حديث ابن عباس. وروى أيضاً من حديث أبى هريرة وغيره، انظر جامع بيان العلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي

العلم أفضل من صلاة النافلة .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ يعنى : يقربون منكم . وعن عمر : هم الديلم، وعن غيره : هم الروم ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ قال ابن عباس : شجاعة . وقال الحسن : صبرا على الحرب ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ﴾ هذا فى المنافقين الذين كانوا يقولون هذا القول استهزاء، فقال الله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ وهم يفرحون .

ثم قال : ﴿ وأما الذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى : شك ونفاق ﴿ فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتو ا وهم كافرون ﴾ أى : كفر إلى كفرهم . فإن قال قائل : كيف يزيد إنزال السورة لهم كفرا؟

الجواب : أنهم كانوا يكفرون بكل سورة أنزلها الله تعالى، فلما كفروا عند إنزال السورة نسب كفرهم إليها، وهذا كما تقول العرب : كفى بالسلامة داء؛ لأن الداء يكون عند طول السلامة، قال الشاعر :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقوله تعالى : ﴿ أو لايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ﴾ معناه : يبتلون فى كل عام بالأمراض والشدائد، وقيل : بالجهاد مع الأعداء ﴿ ثم لايتوبون ﴾ لايرجعون إلى الله ﴿ ولاهم يذكرون ﴾ ولاهم يتعظون .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾ الآية، كان المنافقون إذا نزلت السورة أو شيء من القرآن يومئ بعضهم إلى بعض، ويخافون مع ذلك أن

﴿كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ﴾

يراهم المؤمنون، فهذا معنى قوله: ﴿هل يراكم من أحد﴾ ثم قال: ﴿ثم انصرفوا﴾ فيه معنيان: أحدهما: انصرفوا عن مواضعهم، والآخر: انصرفوا عن الإيمان، أى: لم يؤمنوا ولم يقبلوا.

وقوله: ﴿صرف الله قلوبهم﴾ قال أبو إسحاق الزجّاج: أضلهم الله مجازاة على كفرهم ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أَنْفُسِكُم﴾ قرئ فى الشاذ: من أَنْفَسِكُم، ويقال: إن هذه القراءة قراءة فاطمة - رضى الله عنها - قال يعقوب الحضرمى: طلبت هذا الحرف خمسين سنة فلم أجد له راويا. ومعنى هذا: أشرفكم وأفضلكم.

والقراءة المعروفة: ﴿من أَنْفُسِكُم﴾ قال قتادة: ومعناه: إنَّ نَسَبَهُ معروف بينكم.

والقول الثانى: حكى عن جعفر بن محمد - رضى الله عنه - أنه قال: ﴿من أنفسكم﴾ معناه: أنه لم يولد إلا من نكاح صحيح إلى زمان آدم.

والقول الثالث: حكى عن ابن عباس أنه قال: معناه: أنه ليس بطن من بطون العرب إلا وقد ولدت النبى ﷺ.

والقول الرابع: أن معنى هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾[1] وإذا كان الرسول بشرا مثل القوم؛ فيكون أقرب للألفة وأدنى لفهم الحجة.

وقوله: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أى: شديد عليه عنتكم، والعنت: هو المكروه ولقاء الشدة، كأنه قال: شديد عليه ما يضركم ويهلككم، وهو الكفر الذى أنتم عليه.

وقوله تعالى: ﴿حريص عليكم﴾ الحرص: شدة طلب الشىء، ومعناه: حريص

(١) الكهف: ١١٠

عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

على إيمانكم ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ عطوف رفيق.

وقد أعطاه الله تعالى فى هذه الآية اسمين من أسمائه، وهو فى نهاية الكرامة.

قوله تعالى: ﴿ فإن تولوا ﴾ معناه: فإن أعرضوا عن الإيمان أو عنك ﴿ فقل حسبى الله ﴾ كافىَّ الله أى: يكفينى الله ﴿ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ عليه اعتمدت وبه وثقت ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ قرأ ابن محيصن: «ربُّ العرش العظيمُ» بالرفع، فرجع إلى الله تعالى، والقراءة المعروفة بالكسر، وهو يرجع إلى العرش. وعن بعض التابعين: لايعرف أحد قدر العرش سوى الله تعالى. وفى بعض الأخبار عن النبى ﷺ أنه قال: «العرش من ياقوتة حمراء»(١). وعن وهب بن منبه: أن الله تعالى خلق العرش من نوره. وعن كعب الأحبار: أن السموات فى العرش كقنديل معلق من السماء. وعن مجاهد: أن السموات فى العرش كحلقة. وحكى عن أبىّ بن كعب أنه قال فى هاتين الآيتين: هما أحدث الآيات بالله عهدا. فعلى قوله: هاتان الآيتان آخر ما أنزل من القرآن. وهو رواية أيضًا عن ابن عباس وقد ذكرنا غير هذا برواية البراء بن عازب، والله أعلم بالصواب.

---

(١) رواه أبو الشيخ فى العظمة (ص٩٦ – ٩٧ رقم ٢٤٩) عن الشعبى مرسلاً. ورواه أيضًا فى (ص٨٥/رقم ٢١٧) عن سعد الطائى من قوله.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا

تفسير سورة يونس

وهى مكية إلا ثلاث آيات، وهو قوله تعالى: ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ﴾(١) إلى آخر الآيات الثلاث.

وحكى عن محمد بن سيرين أنه قال: هذه السورة كانت بعد السورة السابقة.

قوله تعالى: ﴿ الٓر ﴾ روى أبو الضحى عن ابن عباس قال: ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى. وروى عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الر، وحم، ونون هو تمام اسم الرحمن.

وفى الحروف المهجيَّات أقوال ذكرناها فى أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: هذه آيات الكتاب. قال الشاعر:

تلكَ خَيْلى منه وتلكَ ركابى   هـنّ صفـرٌ أولادهـا كالزبيـب

وقال الزجاج: معنى الآية: وهو أن الآيات التى أنزلتها عليك من قبل ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ والكتاب: هو القرآن، والحكيم: هو المُحْكَم، على قول أكثر المفسرين، فعيل بمعنى مُفْعَل، مثل قوله: ﴿ هذا ما لدى عتيد ﴾(٢) أى: مُعْتَد. وقال بعضهم: الحكيم على وضعه، وسمى القرآن حكيما؛ لأنه كالناطق بالحكمة.

قوله تعالى: ﴿ أكان للناس عجبا ﴾ العجب: حالة تعترى الإنسان من رؤية شىء على خلاف العادة.

وسبب نزول هذه الآية: أن الله تعالى لما بعث محمدا ﷺ قال المشركون: أما وجد

(١) يونس: ٩٤.

(٢) ق: ٢٣.

أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

الله نبيًا سوى يتيم أبى طالب، فأنزل الله تعالى هذه الآية وهى قوله: ﴿أكان للناس عجبا﴾ ومعناه: أعجب الناس، يعنى: المشركين[1] ﴿أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ والرجل ها هنا: النبى ﷺ، وقوله: ﴿منهم﴾ قالوا: معناه: إنه رجل يعرفونه باسمه ونسبه، لايكتب، ولايشعر، ولايتكهن، ولايكذب.

وقوله: ﴿أن أنذر الناس﴾ الإنذار: هو الإعلام مع التخويف. وقوله: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ قد بيّنا معنى البشارة. وقوله: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ فيه أربعة أقوال:

القول الأول – وهذا قول الأكثرين – أن القدم الصدق: هو الأعمال الصالحة، يقال: لفلان قدم فى الشجاعة، وقدم فى العلم، ويقال: فلان وضع قدمه فى كذا، إذا شرع فيه بعمله.

والقول الثانى: أن القدم الصدق: هو الثواب.

والقول الثالث: حكى عن ابن عباس أنه قال: القدم الصدق: هو السعادة فى الذكر الأول.

والقول الرابع: أن المراد منه: هو الرسول ﷺ، وقدم صدق: شفيع صدق، قاله مقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ وقرئ بقراءتين: «لساحر مبين»، و«إن هذا لسحر مبين»[2]؛ فالساحر ينصرف إلى الرسول، والسحر ينصرف إلى القرآن.

(١) فى «ك»: المشركون، وهو خلاف الجادة.

(٢) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف، وابن كثير وعاصم. بألف بعد السين وكسر الحاء، وقرأ الباقون بكسر السين وإسكان الحاء من غير ألف. انظر النشر (٢ / ٢٥٦).

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

قوله تعالى: ﴿إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام﴾ فى الأيام قولان:

أحدهما: أنها كأيام الآخرة، كل يوم ألف سنة. والآخر: أنها كأيام الدنيا.

قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾ قد بيّنا مذهب أهل السنة فى الاستواء؛ وهو أنه نؤمن به ونكل علمه إلى الله تعالى من غير تأويل ولا تفسير.

وأما المعتزلة: فإنهم أولوا الاستواء بالاستيلاء، وهو باطل عند أهل العربية.

حكى عن أحمد بن أبى داود - وكان من رؤساء المعتزلة - أنه قال لابن الأعرابى: أتعرف العرب الاستواء بمعنى الاستيلاء؟ فقال: لا. ويحكى أن هذه المسألة جرت فى مجلس المأمون، فقال بشر المريسى: الاستواء بمعنى الاستيلاء، فقال له أبو السمراء - وهو رجل من أهل اللغة - أخطأت ياشيخ؛ فإن العرب لاتعرف الاستيلاء إلا بعد عجز سابق.

قوله تعالى: ﴿يدبر الأمر﴾ قال مجاهد: يقضى الأمر ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ معناه: أن الشفعاء لايشفعون إلابإذنه، وهذا ردّ على النضر بن الحارث، فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة يشفعنى اللات و العزى. قوله تعالى ﴿ذلكم الله ربكم﴾ يعنى: ذلك الذى فعله هذا ربكم ﴿فاعبدوه أفلا تذكرون﴾ أفلا تتعظون.

قوله تعالى: ﴿إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا﴾ نصب وعد الله حقا يعنى: وعد الله وعداً حقاً ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ معناه معلوم ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ قال ابن عباس: بالعدل ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم﴾ الحميم هو الماء الذى انتهى حره. وفى القصص: أن النار أوقدت عليه منذ يوم خلقها إلى أن يدخل الكفار [فى][1] النار. قوله: ﴿وعذاب أليم بما كانوا

(١) من «ك».

الصَّالِحَات بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ

يكفرون ﴾ أى: عذاب موجع بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ﴾ الآية، الشمس والقمر جسمان نيِّران، أحدهما أضوأ من الآخر، وقوله: ﴿ جعل الشمس ضياء ﴾ أى: ذات ضياء ﴿ والقمر نورا ﴾ أى: ذا نور. وقوله: ﴿ وقدره منازل ﴾ منهم من قال: هذا ينصرف إلى القمر خاصة، ومنهم من قال: ينصرف إليهما، إلا أنه اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر.

ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا، أساميها معلومة عند العرب، تكون أربعة عشر منها ظاهرة أبدا، وأربعة عشر منها غائبة أبدا، وكلما طلع واحد غاب واحد، والقمر ينزل كل ليلة منزلا منها.

وقوله تعالى: ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ يعنى: قدره منازل لتعلموا عدد السنين وحساب الشهور والأيام. وقوله: ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أى: للحق.

قوله: ﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار ﴾ معناه معلوم إلى آخر الآية، وقد ذكرنا من قبل.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين لايرجون لقاءنا ﴾ قوله: «لايرجون» فيه قولان:

أحدهما: لايخافون، والآخر: لايطمعون.

وقوله: ﴿ لقاءنا ﴾ قد بينا من قبل. وقوله تعالى: ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ قال قتادة: لها يطلبون وبها يفرحون. وقوله تعالى: ﴿ واطمأنوا بها ﴾ سكنوا إليها. قوله تعالى: ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ الغفلة سهو يعترى القلب يصرفه عن وجد

﴿٧﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ

العلم.

ثم قال: ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ قال مجاهد: هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ نورا يمشى به ﴾[١]. وقال غيره: يهديهم ربهم: يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ أى: من تحت الأشجار. قوله: ﴿ فى جنات النعيم ﴾.

ثم قال: ﴿ دعواهم فيها ﴾ معناه: دعاؤهم فيها ﴿ سبحانك اللهم ﴾ هذا كلمة تنزيه وتبرئة الرب عن السوء. وفى الأخبار: «أن قوله: ﴿ سبحانك اللهم ﴾ علامة بين أهل الجنة والخدم، وإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم، فيدخل الخدم بالموائد، كل مائدة ميل فى ميل، قوائمها من اللؤلؤ، على كل مائدة سبعون ألف صحفة، فى كل صحفة لون من الطعام لايشبه بعضه بعضا، ثم تجيء الطير كأمثال البخت، قوائمها لون، وأجنحتها لون، وبطونها وظهورها لون، فيقع بين أيدى أهل الجنة فيأكلون منها مايشاءون، ثم تطير كما كانت»[٢].

وقوله تعالى: ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ يعنى: تحية بعضهم بعضا يكون بالسلام، ويقال معناه: إن تحية الملائكة لهم بالسلام، ويقال: إن تحية الله لهم بالسلام.

قوله تعالى: ﴿ وآخر دعواهم ﴾ معناه: وآخر قولهم: ﴿ أن الحمد لله رب العالمين ﴾ فيكون ابتداء أمرهم بالتسبيح، وانتهاء أمرهم بالحمد والشكر.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) أخرجه ابن مردويه فى التفسير من حديث أبى بن كعب مرفوعًا كما فى الدر (٣/ ٣٢٦) ولفظه: «إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم». ورواه بنحوه أبو نعيم فى صفة الجنة (ص١٠٤-١٠٥/رقم ٢٧٨) من طريق أيوب بن سويد عن سفيان قوله. وأيوب تالف.

يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ

قوله تعالى: ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ﴾ قال ابن عباس: هذا فى قول الرجل يقول عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله، لابارك الله فيكم، ومعناه: ولو يعجل الله للناس الشر - يعنى: المكروه - استعجالهم بالخير أى: كما يحبّون استعجالهم بالخير ﴿ لقضى إليهم أجلهم ﴾ فهلكوا جميعا وماتوا. وقوله: ﴿ فنذر الذين لايرجون لقاءنا ﴾ أى: لايخافون لقاءنا ﴿ فى طغيانهم ﴾ أى: فى ضلالتهم. قوله ﴿ يعمهون ﴾ يترددون، وقيل: يتمادون، وقد ثبت الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «اللهم إنى بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما [رجل][1] سببته أو لعنته فاجعلها له طهرة ورحمة»[2]. وفى الباب روايات كثيرة كلها صحيحة.

قوله تعالى: ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ أى: المكروه ﴿ دعانا لجنبه أو قاعدا أوقائما ﴾ قال أهل التفسير: هذا يحتمل معنيين:

أحدهما: إذا مس الإنسان الضر لجنبه أو قاعدا أو قائما دعانا.

والآخر: يحتمل إذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما، يعنى: على هذه الأحوال كلها.

قوله تعالى: ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر ﴾ فيه معنيان:

أحدهما: مرّ طاغيا كما كان من قبل، والآخر: استمر على ما كان من قبل. قال بعضهم فى هذا المعنى:

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ولم تكُ صعلوكـا إذا مـا تمولا

قوله تعالى: ﴿ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ معناه: كأن لم يطلب منا كشف ضرّ مسه. قوله ﴿ كذلك زيّن للمسرفين ﴾ قال ابن جريج: كذلك زيّن للمسرفين ﴿ ما

(١) من «ك»، وفى الأصل: رجلا.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (١١/ ١٧٥ رقم ٦٣٦١)، ومسلم (١٦/ ٢٣٠ - ٢٣١ رقم ٢٦٠١)، ورواه مسلم عن جابر (١٦/ ٢٣١ رقم ٢٦٠٢)، وعن عائشة (١٦/ ٢٢٧ - ٢٢٨ رقم ٢٦٠٠)، وعن أنس (١٦/ ٢٣٢ - ٢٣٣ رقم ٢٦٠٣).

قائمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن

كانوا يعملون ﴾ من الدعاء عند البلاء، وترك الشكر عند الرخاء. وفيه معنى آخر: وهو أنه كما زيّن لكم أعمالكم، كذلك زيّن للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لماظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ معناه معلوم. وقوله: ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ قال الزجاج: هذا فى قوم علم الله أنهم لايؤمنون. وقال ابن الأنبارى: منعهم الله من الإيمان جزاء على كفرهم. قوله: ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ وهذا دليل على أن قول ابن الأنبارى أصح.

قوله تعالى: ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ﴾ يعنى: خلفاء فى الأرض من بعدهم ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ ومعناه: ليختبركم فينظر كيف تعملون.

روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: يا ابن أم عمر، لقد استخلفت، فانظر كيف تعمل.

وروى أنه قال فى موعظته: أيها المؤمنون، إن الله استخلفكم لينظر كيف تعملون، فأروا الله أعمالكم الحسنة، وكفوا عن الأعمال القبيحة.

قوله تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ روى فى التفاسير أن المشركين قالوا للنبى ﷺ: يامحمد، إن كنت تريد أن نؤمن لك فأت بقرآن ليس فيه سبّ آلهتنا، وليس فيه ذكر البعث والنشور، وإن لم ينزله الله هكذا، فقله من عند نفسك، فأنزل الله تعالى هذه الآية. فإن قال قائل: أيش الفرق بين قوله: ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ [وقوله][1] : ﴿ أو بدله ﴾ أليس معناهما واحد؟

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

الجواب: أن معناهما مختلف، وقوله: ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ يجوز أن يأتى بغيره معه، وقوله: ﴿أو بدله﴾ لايكون إلا أن يترك هذا ويأتى بغيره.

قوله تعالى: ﴿قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾ معلوم المعنى، وكأنه قال: لم أقل هذا من تلقاء نفسى حتى أقول غيره من تلقاء نفسى.

ثم قال: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ يعنى: لو شاء الله ما أنزل القرآن علىَّ، ﴿ولا أدراكم به﴾ أى: ولا أعلمكم الله به ﴿فقد لبثت فيكم عمرا من قبله﴾ العُمْر والعُمُر بمعنى واحد، قال الشاعر:

بانَ الشبابُ وأخلفَ العُمْرُ[1] وتنكــرَ الإخـــوانُ والدَّهْــرُ

وقدر العمر الذى لبث فيهم من قبله: هو أربعون سنة باتفاق أهل العلم؛ فإن النبى ﷺ بعث إليهم وهو ابن أربعين سنة، ولبث بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشرا، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة. وفى رواية عن أنس «أن النبى ﷺ مكث بمكة عشراً، وبالمدينة عشراً وتوفاه الله على رأس ستين سنة. والرواية الأولى أظهر وأشهر.

قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ معناه: أفلا تفقهون.

قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لايفلح المجرمون﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم﴾ فإن قال قائل:

(١) فى لسان العرب (مادة: عمر): لحم من اللثة سائل بن كل سنَّين وقال ابن الأثير: وقد يضم، وعزا البيت لابن أحمر. وفيه أيضاً: وتبدل الإخوان بدل وتنكر.

افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ

كيف قال: ﴿ ولايضرهم ﴾ ولاشك أنه ضرّهم؟

الجواب عنه معناه: لايضرهم إن تركوا عبادته، ولاينفعهم إن عبدوه. وقوله: ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ فإن قال قائل: كيف قالوا: هولاء شفعاؤنا عند الله وهم لايؤمنون بالبعث؟.

الجواب: أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله فى مصالح معايشنا فى الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ قل أتنبئون الله ﴾ أى: أتخبرون الله؟ ﴿ بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ معلوم المعنى.

وحقيقة الآية: الردّ أو الإنكار عليهم.

قوله تعالى: ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ﴾ فيه قولان:

أحدهما: قول مجاهد وهو: أن الناس كانوا على الإسلام فى زمان آدم إلى أن قتل أحد ابنيه الآخر ﴿ فاختلفوا ﴾.

والقول الثانى: أن العرب كانوا على دين إبراهيم حتى اختلفوا. ومن المعروف أن أول من غيّر دين إبراهيم من العرب هو عمرو بن لحى. وثبت أن النبى ﷺ قال: «رأيت [عمرو][(١)] بن لحى يجر قصبه فى النار»[(٢)].

ويقال فى الآية: إن المراد من «الأمة» أهل سفينة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعنى: فى التأجيل والإمهال ﴿ لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ أى: لحكم بينهم فيما فيه يختلفون.

(١) فى الأصل: «عمر» وهو سبق قلم.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، وقد تقدم فى سورة المائدة.

إلاَّ أُمَّةً وَاحدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلمَةٌ سَبَقَتْ من رَّبّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فيمَا فيه يَخْتَلفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْه آيَةٌ مّن رَّبّه فَقُلْ إنَّمَا الْغَيْبُ للَّه فَانتَظرُوا إنّي مَعَكُم مّنَ الْمُنتَظرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مّنْ بَعْد ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتنَا قُلِ

قوله تعالى: ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ فإن قال قائل: أليس الرسول قد أتى بالآيات على زعمكم؟

الجواب عنه: بلى، ومعنى الآية: هلاَّ أنزل عليه آية من ربه على ما نقترحه.

﴿ فقل إنما الغيب لله ﴾ يعنى: علم الغيب لله، إن شاء أتى بالآية التى تسألونها وإن شاء لم يأت ﴿ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ يعنى: انتظروا الغيب إنى معكم من المنتظرين.

قوله تعالى: ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ﴾ الذوق: تناول ماله طعم بفمه ليجد طعمه، فأما الرحمة هاهنا فيها قولان:

أحدهما: أنها العافية، والآخر: أنها الخصب والنعمة.

والضراء فيها قولان:

أحدهما: أنها الشدة، والآخر: أنها الجدب والقحط.

﴿ مستهم ﴾ أى: أصابتهم. وقوله تعالى: ﴿ إذا لهم مكر فى آياتنا ﴾ المكر: صرف الشىء عن وجهه بطريق الحيلة. قال مجاهد: ﴿ إذا لهم مكر فى آياتنا ﴾ أى: تكذيب واستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿ قل الله أسرع مكرا ﴾ يعنى: أشد أخذا. ويقال: معناه: إن ما يأتى من العذاب من قبله أسرع فى إهلاككم مما يأتى منكم فى دفع الحق وتكذيبه. وقوله: ﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ معناه معلوم.

قوله تعالى: ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ﴾ قرئت بقراءتين: « يسيركم » و« يَنْشُركم »[1]، والمعروف: « يسيركم » ومعناه: تسهيل طريق السير عليكم فى البر والبحر. وأما من قرأ: « ينشركم » معناه: يبثكم. وروى عن الضحاك أنه قال: البحر هو الأمصار، والبَرّ هو البوادى. وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك ﴾ قال أهل

[1] وهى قراءة أبى جعفر، وابن عامر. انظر النشر (٢ / ٢٨٢).

اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

اللغة: الفلك تؤنث وتذكر. قال الله تعالى: ﴿في الفلك المشحون﴾ وقال هاهنا: ﴿وجرين بهم﴾ وقالوا أيضا: إن الفلك يكون بمعنى الواحد وبمعنى الجمع. وقوله: ﴿بريح طيبة﴾ أى: هينة لينة.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «الريح من روح الله، فسألوا الله من خيرها، وتعوذوا بالله من شرها»(١).

فإن قال قائل: كيف قال: ﴿حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم﴾ فهذا تغيير الكلام عن وجهه؟

والجواب عنه: أن العرب تقيم المعاينة مقام المخاطبة، والمخاطبة مقام المعاينة، قال الشاعر:

وشَطَّتْ مَزَارَ العاشقين فأصبحت ... عَسِيرًا عـلىَّ طِلاَبُكِ ابنةَ مَخْرَمِ(٢)

ومنهم من قال: معنى الآية: حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة يامحمد. وقوله: ﴿وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف﴾ وهى الشديدة المهلكة، قال الشاعر:

فى فيلق شهباء ملمومـة ... تعصف بالحاسر والدارع

وقوله: ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ الموج: ما يظهر على البحر من الريح.

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد (ص٢١١-٢١٢)، وأبو داود (٤/٣٢٦/رقم٥٠٩٧)، والنسائى فى الكبرى (٦/٢٣٠، ٢٣١/رقم ١٠٧٦٥، ١٠٧٦٦، ١٠٧٦٧)، وابن ماجة (٢/١٢٤٨/رقم٣٧٢٧)، وأحمد(٢/٢٥٠، ٤٣٦، ٤٣٧)، وابن أبى شيبة (١٠/٢١٧)، وابن حبان - الإحسان - (٣/٢٨٧/رقم١٠٠٧)، والحاكم (٤/٢٨٥) وصححه على شرط الشيخين، كلهم من حديث أبى هريرة.

(٢) كذا فى الأصل، وفى لسان العرب (مادة شطط):
عَسِرًا علىَّ طلابُها ابنةُ مخرم.
وقال محققه: وهو فى معلقة عنترة:
حَلَّتْ بأرض الزائرين فأصبحت ... عسراً علىَّ طلابك ابنة مخـرم

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾

وقوله: ﴿وظنوا﴾ وتيقنوا ﴿أنهم أحيط بهم﴾ يقال لمن كان فى بلاء وشدة: إنه قد أحيط به. وقوله: ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ معناه: أنهم أخلصوا فى الدعاء، ولم يدعوا أحدا سوى الله. وقوله: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ معناه معلوم.

ثم قال تعالى: ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق﴾ البغى: هو قصد الاستعلاء على الغير بالظلم، والبغى ها هنا بمعنى الفساد، ويقال: بغى الجرح إذا أدّى إلى الفساد، وبغت المرأة إذا فجرت.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لايؤخر الله صاحب بغى»[١] أى: لايمهله. وفى الأخبار - أيضًا -: «البغى مصراعة»[٢].

ثم قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أى: وبال بغيكم عليكم. قوله ﴿متاعَ الحياة الدنيا﴾ وقرئ: «متاعُ الحياة الدنيا»[٣]؛ فمن قرأ بالرفع معناه: هو متاع الحياة الدنيا، ومن قرأ بالنصب معناه: يمتعون متاع الحياة الدنيا. وعن الأعمش قال: المتاع: زاد الراكب. وقال أهل المعانى: حقيقة معنى الآية: أن البغى متاع الحياة الدنيا.

---

(١) رواه ابن أبى حاتم فى التفسير كما فى الدر (٣/٣٢٩) عن زيد بن أسلم مرفوعًا، ولفظه: «لايؤخر الله عقوبة البغى» ورواه البخارى فى الأدب (ص١٢/رقم٢٩)، وأبو داود فى سننه (٤/٢٧٦/رقم٤٩٠٢)، والترمذى (٤/٥٧٣/رقم٢٥١١)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٢/١٤٠٨/رقم٤٢١١)، وأحمد (٥/٣٦،٣٨) وابن المبارك فى الزهد (ص٢٥٢/رقم٧٢٥)وابن حبان - الإحسان - (٢/٢٠٠، ٢٠١/رقم٤٥٥،٤٥٦)، والحاكم (٢/٣٥٦)، (٤/١٦٢-١٦٣) عن أبى بكرة، عن النبى ﷺ قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدنيا - مع ما يدخر له فى الآخرة - من البغى، وقطيعة الرحم».

(٢) ذكر ابن أبى الدنيا فى «ذم البغى» (ص٧٩/رقم٢٦) وهو أن دهقانًا قال لأسد بن عبد الله القسرى البجلى. أخو خالد بن عبد الله وهو أمير على خرسان: «يا أسد، إن البغى يصرع أهله، والبغى مصرعه وخيم...» إلخ.

(٣) قرأ حفص بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها. انظر النشر (٢/٢٨٣).

فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

قوله تعالى: ﴿ ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أى: نخبركم بما كنتم تعملون.

قوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ معناه: إنما صفة الحياة الدنيا ﴿ كماء أنزلناه من السماء﴾ أى: من السحاب ﴿ فاختلط به نبات الأرض﴾ يعنى: اختلط المطر بالنبات، والنبات بالمطر ﴿ مما يأكل الناس والأنعام﴾ ظاهر المعنى، وقوله: ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ الزخرف: كمال الحسن، والذهب زخرف؛ لكماله فى الحسن، ومعنى الزخرف هاهنا: البهجة والنضرة. وقوله: ﴿وازينت﴾ أى: تزينت، وقالوا معناه: أنبتت وأثمرت وأينعت.

وقوله: ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ معناه: وظن أهلها أنهم قادرون على جذاذها وقطافها وحصادها. وقوله: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ أى: عذابنا ليلاً أو نهاراً. وقوله: ﴿ فجعلناها حصيدا﴾ الحصيد: المحصود، والمعنى ها هنا: هو الاستئصال بالعذاب. وقوله: ﴿ كأن لم تغن بالأمس﴾ قال مجاهد: معناه: كأن لم تعمر بالأمس. وقال غيره: كأن لم يكن قائماً بالأمس، يقال: غنى فلان بالمكان إذا قام فيه، والمغانى هى المنازل، قال لبيد:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد
وغنيتُ سَبْتًا قبل مَجْرَى دَاحسٍ ... لو كان للنفسِ اللَّجُوجِ خلودُ

ومعنى غنيت: أقمت، والسبت: الدهر هاهنا.

قال قتادة: معنى الآية: هو أن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون وأعجبه بها.

وقوله ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ فى الأخبار أن النبى ﷺ قال: «ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبتيها ملكان يسمعان الخلائق إلا الثقلين: ألا هلموا إلى ربكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾»[1]. وفى الآثار - أيضا -: «أنه ما من يوم ولا ليل إلا وينادى مناد: يا طالب الخير هلم، ويا طالب الشر أقصر[2].

وأما دار السلام: فالدار هى الجنة، وفى السلام قولان:

أحدهما: أنه هو الله. والآخر: أن السلام بمعنى السلامة؛ كأنه قال: يدعو إلى دار السلام من الآفات.

وروى أبو جعفر محمد بن على الباقر، عن جابر بن عبد الله الأنصارى - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «رأيت فى منامى كأن على رأسى جبريل، وكأن

---

(١) رواه الطبري (١١/ ٧٣)، وأحمد (٥/ ١٩٧)، وابن حبان (٨/ ١٢١/ رقم ٣٣٢٩)، والحاكم (٢/ ٤٤٥) وصحح إسناده، والطبراني في الأوسط - كما في مجمع البحرين (٨/ ٢٣٨ - ٢٣٩/ رقم ٥٠٣٥) عن أبي الدرداء.

وعزاه السيوطي في الدر (٣/ ٣٣٠) لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب. وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢٥): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. وأعاده في (١٠/ ٢٥٨) وزاد في عزوه للطبراني في الكبير والأوسط، وقال: ورجال أحمد وبعض رجال الطبراني في الكبير رجال الصحيح.

(٢) روى أبو سعيد الخدري بنحوه عن النبي ﷺ وفيه زيادات، رواه البزار كما في مختصر الزوائد (٢/ ٤٦٩/ رقم ٢٢٣١) وقال: لا نعلم رواه إلا خارجة، وهو صالح. والحاكم (٤/ ٥٥٩) وقال: تفرد به خارجة بن مصعب عن زيد بن أسلم، وقال الذهبي في تلخيصه: خارجة ضعيف.

وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٤): روى ابن ماجة طرفًا منه، وفيه خارجة بن مصعب الخرساني، وهو ضعيف جداً، وقال يحيى بن يحيى: مستقيم الحديث، وبقية رجاله ثقات.

وله شاهد عن ابن مسعود مرفوعًا، عزاه الحافظ ابن حجر في المطالب (١/ ٢٥٩/ رقم٨٨٤) لأبي يعلى في مسنده.

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

على رجلى ميكائيل، فقال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، فقال الآخر: مثلك يا محمد مثل مَلك بنى داراً ثم بنى فى دارٍ بيتًا، ثم وضع فى البيت مأدبةً، ثم دعا إليها الناس، فمنهم التارك ومنهم المجيب، فالملك: هو الله تعالى، والدار: هو الإسلام، والبيت: الجنة، والداعى: أنت، فمن أجاب دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها»[1].

وقوله: ﴿ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ الصراط المستقيم: هو الإسلام، وفيه أقوال أخر، ذكرناها من قبل.

قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ الإحسان هاهنا: الإسلام، والإحسان: هو قول لا إله إلا الله. واختلفوا فى الحسنى وزيادة، فرُوى عن أبى بكر الصديق وأبى موسى الأشعرى، وابن عباس، وحذيفة، وقتادة، وجماعة من التابعين أنهم قالوا: الحسنى: هى الجنة، والزيادة: هى النظر إلى الله عز وعلا. وروى أبو القاسم بن بنت منيع، عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن صهيب - رضى الله عنهم - أن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله - تعالى -: يا أهل الجنة، إن لكم عندى موعدا وأنا منجزكموه، فقالوا: وما ذلك؟ ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تُثقل موازيننا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُخلصنا من النار؟ قال: فيتجلى لهم فينظرون إلى وجهه، فما أُعْطُوا شيئا هو أحب (إليهم)[2] من النظر إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾».

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٢٣٨ - ٢٣٩) وقال: صحيح الإسناد، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (١/٣٧٠) والحديث رواه البخاري في صحيحه (١٣/٢٦٣/رقم ٧٢٨١) من طريق سعيد بن مينا عن جابر: ورواه الترمذي (٥/ ١٣٤/ رقم ٢٨٦٠)، والطبري في التفسير (١١/٧٣) من طريق سعيد بن أبي هلال عن جابر. وفي الباب عن ابن مسعود.

(٢) في «ك»: لهم.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ

قال الإمام أبو المظفر: أخبرنا بهذا الحديث أبو الحسين أحمد بن محمد بن النقور – بالتخفيف – ببغداد قال: أخبرنا أبو القاسم بن حبابة قال: أخبرنا أبو القاسم بن بنت منيع ... الخبر خرجه مسلم فى «الصحيح»[1].

وفى الآية أقوال آخر.

ورُوِىَ عن على – رضى الله عنه – أنه قال: الزيادة: غرفة من اللؤلؤ لها أربعة آلاف باب.

ورُوِىَ عن الحسن البصرى أنه قال: الحسنى: هى المثل من الثواب، والزيادة: هى الزيادة على المثل إلى سبعمائة ضعف. وقال مجاهد: الحسنى: هى المثل، والزيادة: رضوان الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ القتر: سواد الوجه، وأصل (القتَار)[2]: هو الدخان.

قوله: ﴿ولا ذلة﴾ أى: هوان.

قوله: ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ الآية، هذا هو معنى قوله تعالى ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾[3]. وقوله: ﴿[و][4] ترهقهم ذلة﴾ أى: تغشاهم ذلة، أى: ذل. ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أى: مانع. وقوله: ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا﴾ قرئت بقراءتين: «قِطَعًا» و«قِطْعًا»[5]، فالقِطَع –

(١) قرأ ابن كثير، ويعقوب، والكسائى بإسكان الطاء وقرأ الباقون بفتحها. انظر النشر (٢ / ٢٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٣ / ٢١ – ٢٢ / رقم ١٨١)، والترمذي (٥ / ٢٦٧ / رقم ٣١٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦ / ٣٦١ / رقم ١١٢٣٤) وابن ماجه (١ / ٦٧ / رقم ١٨٧).

(٣) في «ك»: القتر.

(٤) الأنعام: ١٦٠.

(٥) من «ك».

وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ

بتحريك الطاء – جمع القطعة، والقطْع – بسكون الطاء – واحد.

فإن قيل: كيف لم يقل: « قطعًا من الليل مظلمة »؟

قلنا: تقدير الآية: قِطعًا من الليل فى حال ظلمته، هكذا قاله أهل اللغة.

﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ الآية. معنى الآية: ثم نقول للذين أشركوا: الزموا أنتم وشركاؤكم مكانكم.

قوله: ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ معناه: ميزنا بينهم يعنى: فرقنا بين المشركين والأصنام؛ وهو من قوله: زلت، لا من قوله: ذلت ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ الشركاء: هى الأصنام التى جعلوها شركاء لله تعالى على زعمهم. وقوله: ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ معناه: كنتم إيانا تعبدون بطلبنا ودعوتنا.

قوله تعالى: ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿ هنالك تبلو ﴾ الآية، قرئت بقراءتين: « تتلو » و« تبلو »[١] فقوله: « تبلو » قال مجاهد: تختبر، معناه: تجده وتقف عليه، وقوله « تتلو » قال الأخفش: يقرأ، فيكون فى معنى قوله: ﴿ يخرج له يوم القيامة ﴾ إلى قوله: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[٢].

---

(١) قرأ حمزة، والكسائى، وخلف بتاءين من التلاوة. وقرأ الباقون بتاء، وباء من البلوى. انظر النشر (٢ / ٢٨٣).
(٢) الإسراء: ١٣ – ١٤.

شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ

والقول الثاني: أن معنى «تتلو»: تتبع، قال الشاعر:

أرى المُريبَ يتبــع المُــريبَا كما رأيت الذيب يتلوا الذيبا

قوله تعالى: ﴿كل نفس ما أسلفت﴾ أى: ما قدمت. قوله تعالى: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ فإن قال قائل: قد قال فى موضع آخر: ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[1] وقال هاهنا: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ فكيف وجه الآيتين؟.

الجواب عنه: أن المولى هناك بمعنى الناصر والحافظ، والمولى هاهنا بمعنى المالك، فلم يكن بين الآيتين اختلاف.

وقوله [تعالى][2] ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أى: فات عنهم ما كانوا يكذبون.

قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ الرزق من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات. وقوله: ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ معناه: ومن أعطاكم الأسماع والأبصار. وقوله ﴿ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى﴾ معناه: ومن يخرج النطفة من الحى، والحى من النطفة، والسنبلة من الحب، والحب من السنبلة، والبيض من الطير والطير من البيض، والشجر من النواة، والنواة من الشجر، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله ﴿ومن يدبر الأمر﴾ ومن يقضى الأمر. وقوله: ﴿فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ معناه: أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار.

قوله تعالى: ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ معناه: فذلكم الذى صفته هذا هو ربكم الحق. وقوله: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ معناه: فماذا بعد الحق إلا الباطل.

(١) محمد: ١١.

(٢) من «ك».

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

ورُوِىَ عن حرملة أنه قال: سألت (مالك بن أنس)[1] عن الغناء، فقرأ هذه الآية: ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾

وروى عن القاسم بن محمد من التابعين نحواً من هذا فى هذا المعنى. وقوله ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أى: كيف يُعدل بكم عن وجه الحق؟.

قوله تعالى: ﴿ كذلك حقت ﴾ أى: وجبت ﴿ كلمة ربك ﴾ أى: حكمة ربك ﴿ على الذين فسقوا ﴾ أى: كفروا ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ قال أهل التفسير: هذا فى أقوام بأعيانهم علم الله أنهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ معناه: ينشئ الخلق ثم يعيده. وقوله: ﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ معناه: ينشئ الخلق ثم يعيده، ومعنى الإعادة: هى الإحياء للبعث يوم القيامة. وقوله ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ معناه: فكيف تصرفون؟.

قوله تعالى: ﴿ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق ﴾ معناه ظاهر. وقوله: ﴿ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى ﴾ قرئت بقراءات كثيرة قال أهل العربية: أصحها: «أمن لا يَهْدى» أو «يَهِدِّى»[2] على وجه الإدغام؛ لأن معناه: يهتدى. ثم قال: ﴿ إلا أن يُهدى ﴾ فإن قيل: كيف قال: ﴿ إلا أن يُهدى ﴾ والأصنام لا يتصور فيها أن تُهدى ولا أن تهتدى؟

الجواب من وجهين:

أحدهما: أن معنى الهداية هاهنا هى النقل، يعنى: لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا أن ينقل.

(١) في «ك»: أنس بن مالك، وهو قلب.

(٢) انظر النشر (٢/ ٢٨٣).

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن

والوجه الثانى: أن هذا مذكور على وجه المجاز؛ فإن المشركين كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تسمع وتعقل وتهدى، فذكر ذلك فى الأصنام على وفق ما يعتقدون، وجعلها بمنزلة من يعقل فى هذا الخطاب، وأثبت عجزها عن الهداية. وقوله: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ معناه ظاهر.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنا﴾ الآية، الظن: حالة بين الشك واليقين. وقوله: ﴿وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا﴾ معناه: إن الظن لا يقوم مقام الحق بحال. وقوله: ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ الآية، وفيه وجهان من المعنى:

أحدهما: وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله.

والوجه الثانى: وما ينبغى لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله لقوله تعالى: ﴿وما كان لنبى أن يغل﴾[1] معناه: وما ينبغى لمثل النبى أن يغل.

وقوله: ﴿ولكن تصديق الذى بين يديه﴾ فيه قولان:

أحدهما: تصديق الذى بين يديه من التوراة والإنجيل.

والثانى: تصديق الشىء الذى القرآن بين يديه من القيامة والبعث.

وقوله: ﴿وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ التفصيل: التبيين،

(١) آل عمران: ١٦١.

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ

ومعنى باقى الآية معلوم.

قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾ معنى الآية: هو الاحتجاج على الكفار بمعجزة القرآن؛ فإنهم كانوا يقولون: إن محمداً قد افتراه، فقال لهم: إن كان افتراه وأتى به من عند نفسه فأتوا أنتم بمثله.

فإن قيل: قال: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ فللقرآن مثل يؤتى بسورة منه؟

الجواب: أن معناه: فأتوا بسورة من مثْله فى البلاغة والنظم وصحة المعنى. وقيل: إن معناه: فأتوا بسورة مثل سورة القرآن.

وقوله: ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ معناه: واستعينوا بمن استطعتم من دون الله ﴿إن كنتم صادقين﴾.

قوله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ الإحاطة بعلم الشيء هى: المعرفة به من جميع وجوهه، ومعنى الآية: بل كذبوا بالقرآن ولم يحيطوا بعلمه، يعنى: لم يعلموه.

وقوله: ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أى: ولم يأتهم تأويله، ومعناه: ولم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم. ثم قال تعالى: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾ معناه: ومنهم من يؤمن به - بالقرآن - كأصحاب النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار، ومنهم من لا يؤمن به كأبى جهل ومن (تابعه)[1]، ومنهم من قال: ومنهم من يؤمن

(١) في «ك»: تبعه.

أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ

به سرًّا وعلانية كالمؤمنين المخلصين، ومنهم من لا يؤمن به سرًّا كالمنافقين.

﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ﴾ الآية، معناه: لى عملى وجزاؤه ولكم عملكم وجزاؤه. قوله: ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ هذا مثل قوله: ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ الآية، الاستماع: طلب السمع، وقد كانوا يطلبون سماع القرآن للرد والتكذيب به، لا للتفهم والإيمان به. وقوله: ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ الصمم: آفة تمنع من السماع، والمراد من الصمم هاهنا: صمم القلب؛ فإنهم لما لم يسمعوا القرآن للإيمان به وقبوله كأنهم لم يسمعوا، وجعلهم بمنزلة الصم، والصم: جمع الأصم. وقال الزجاج: قد كانوا يسمعون حقيقة؛ ولكن لشدة بغضهم وعداوتهم للنبى ﷺ لم يستمعوا ليفهموا، فجعلهم كأن لم يسمعوا. قوله: ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ معناه: ولو كانوا جهّالا.

قوله تعالى: ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ النظر: طلب الرؤية بتقليب البصر، وأما نظر القلب: هو طلب العلم بالفكرة. وقوله: ﴿ أفأنت تهدى العمى ﴾ جعلهم بمنزلة العمى؛ لأنهم لم ينظروا لطلب الحق، والمراد من العمى هاهنا: عمى القلب. ومنهم من قال: جعلهم بمنزلة العمى كما جعلهم بمنزلة الصم حيث لم ينتفعوا لا بأسماعهم ولا بأبصارهم.

وذكر ابن الأنبارى حاكيا عن ابن قتيبة أنه استدل بهذه الآية على أن السمع أفضل

(١) الكافرون: ٦.

(٢) البقرة: ١٣٩، القصص: ٥٥، الشورى: ١٥.

كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

من البصر، فإن الله تعالى قال فى الصمم: ﴿لو كانوا لا يعقلون﴾، وقال فى العمى: ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾.

قال ابن الأنبارى: وهذا غلط؛ لأن المراد من الآية عمى القلب لا عمى العين، وكذلك صمم القلب لا صمم الأذن؛ فعلى هذا لا يقع التفضيل.

قال ابن الأنبارى: ولأن حاسة البصر أفضل من حاسة السمع، ألا ترى أن الجمال فيها أكثر، والنقصان بفوتها أعظم، وسماها الرسول ﷺ كريمتى الإنسان؛ فإنه قال: «يقول الله تعالى: من أخذت كريمتيه فصبر واحتسب، لم يكن له جزاء إلا الجنة»(١).

وإذا كان الرجل أعمى فإنه لا يبصر إقباله من إدباره، ولا طريق غيِّه من طريق رشده، ويكون أسيرا فى نفسه، (ويتعطل)(٢) عليه منافع عامّة جوارحه.

قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾ معنى الآية: تقريب وقت مماتهم من وقت بعثهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾(٣). وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعنى: يعرف بعضهم بعضا. وفى بعض

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه (١٠ / ١٢٠ / رقم ٥٦٥٣)، والترمذى (٤ / ٥٢١ / رقم ٢٤٠٠)، وأحمد (٣ / ٢٨٣)، والبيهقى فى الكبرى (٣ / ٣٧٥) من حديث أنس بن مالك.
وفى الباب عن ابن عباس، وأبى هريرة، والعرباض بن سارية، وأبى سعيد الخدرى، وعائشة بنت قدامة، وأبى أمامة.

(٢) فى «ك»: وتبطل.

(٣) كذا فى «الأصل، وك»، ولعله يشير للآية التى فى سورة الأحقاف: ٣٥ ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ الآية.

كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا

الآثار: أن الإنسان يوم القيامة يعرف مَن بجنبه، ولا يكلمه هيبة وخشية. وقوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ الخسران هاهنا: خسران النفس، ولا شيء أعظم من خسران النفس. وفى بعض الآثار: يا ابن آدم، أنت فى دار التجارة فاربح فيها نفسك.

قوله تعالى: ﴿وإما نرينك بعض الذى نعدهم﴾ قال مجاهد: بعض الذى نعدهم هو: القتل يوم بدر. وقال غيره: معنى الآية: إما نعذبهم فى حياتك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل تعذيبهم ﴿فإلينا مرجعهم﴾ ومرجعهم إلينا. وقوله: ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ ظاهر المعنى، و«ثم» هاهنا بمعنى الواو.

وقوله تعالى: ﴿ولكل أمة رسول﴾ الأمة: هى الجماعة إذا كانوا على منهج واحد ومقصد واحد. والرسول: كل من حمل رسالة ليؤديها على الحق. وقوله تعالى: ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ قال مجاهد: فإذا جاء رسولهم شاهدا عليهم يوم القيامة ﴿قضى بينهم بالقسط﴾ أى: بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعنى: لا ينقص من حقهم.

وفى الآية معنى آخر: وهو أن معنى قوله: ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ يعنى: إذا جاء رسولهم بالإعذار والإنذار قضى بينهم بالقسط أى: بالحق، ومعناه: أنه قبل مجيء الرسل لا يتوجه ثواب ولا عقاب.

قوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ يعنى: وعد الساعة.

ثم قال تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله﴾ الآية. الملك: قوة يتصرف بها فى الشيء، وقوله: ﴿ضرا ولا نفعا﴾ يعنى: دفع ضر ولا جلب نفع لم يقدره الله تعالى. وقوله: ﴿لكل أمة أجل﴾ الأجل: مدة مضروبة لحلول أمرٍ.

يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ

وقوله: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً﴾ والبيات: ما يحصل ليلا.

وقوله: ﴿ماذا يستجعل منه المجرمون﴾ معناه: ماذا يستعجل من الله المجرمون؟ وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون؟ وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب، مثل قول النضر بن الحارث، فإنه قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فقال الله تعالى فى هذه الآية: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ يعنى: وأيش يعلم المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون؟ كالرجل يقول لغيره: ماذا جنيت على نفسك؟ إذا فعل فعلاً قبيحًا.

قوله تعالى: ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ قيل فى التفسير: معنى قوله: ﴿أثم﴾: هنالك إذا ما وقع – أى: العذاب ﴿آمنتم به﴾ يعنى: آمنتم بالله؟ من وَقَعَ العذاب؟ أى: نزل. ثم قال: ﴿الآن﴾ وفيه حذف ومعناه: الآن آمنتم به ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ تكذيبًا واستهزاء.

قوله تعالى: ﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾ معناه: ويستخبرونك أحق هو؟ والحق ضد الباطل، ويقال: الحق ما قام عليه الدليل. وقوله: ﴿قل إى وربى﴾ معناه: قل نعم وربى ﴿إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ معناه: وما أنتم بفائتين من العذاب؛ لأن من عجز عن الشيء فقد فاته.

قوله تعالى: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به﴾ الافتداء

لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا

هاهنا: بذل ما ينجو به عن العذاب. وقوله: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ فيه قولان:

أحدهما: قول أبى عبيدة، وهو: أن معناه: وأظهروا الندامة.

والقول الثانى: وأسروا الرؤساء منهم الندامة من الضعفاء خوفا من مذامتهم وتعييرهم.

وقوله: ﴿وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ قد بيّنا المعنى.

قوله تعالى: ﴿ألا إن لله ما فى السموات والأرض﴾ فإن قال قائل: أليس أن عندكم السموات سبع، والأرضون سبع، فكيف ذكر السموات بلفظ الجمع والأرض بلفظ (الوحدان)[1]؟

الجواب: أن الواحد هاهنا بمعنى الجمع، والعرب قد تذكر الواحد بلفظ الجمع، والجمع بلفظ الواحد، وقيل: إن الأرضين وإن كانت سبعا ولكن لما لم تظهر سوى هذه الواحدة وكانت الباقون مخفية، ذكر بلفظ الوحدان.

وقوله: ﴿ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿هو يحيى ويميت وإليه ترجعون﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ الآية، الموعظة: قول على طريق العلم يؤدى إلى صلاح العباد. وقوله: ﴿وشفاء لما فى الصدور﴾ الشفاء هاهنا هو الدواء لذى الجهل. وقال أهل العلم: لا داء أعظم من الجهل، ولا دواء أعز من دواء الجهل، ولا طبيب أقل من طبيب الجهل، ولا شفاء أبعد من شفاء الجهل.

---

(١) فى «ك»: الواحد.

النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ

وأما قوله ﴿لما فى الصدور﴾ الصدر موضع القلب، وهو أعز موضع فى الإنسان؛ لجوار القلب. وقوله: ﴿وهدى﴾ يعنى: وهدى من الضلالة. وقوله: ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ الرحمة: هى النعمة على المحتاج، فإنه لو أهدى ملك إلى ملك شيئا لا يقال: قد رحمه، وإن كان هذا نعمة على الحقيقة؛ لأنه لم يضعها فى محتاج.

قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ قال الحسن البصرى: فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام. وعن بعضهم: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن. وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلنا من أهله. وهذا مروى أيضا عن عكرمة.

وقوله: ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ وقرأ الحسن: «فبذلك فلتفرحوا» معناه: فبذلك فلتعجبوا.

وقوله: ﴿هو خير مما يجمعون﴾ أى: مما يجمع الكفار من الدراهم والدنانير.

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا﴾ قال أهل التفسير: معنى هذا هى السوائب والحوامى التى جعلها أهل الشرك حراما عليهم، وقد ذكرنا هذا فى تفسير سورة الأنعام، وما أحلوا من ذلك وما حرموا فى تفسير قوله: ﴿وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾[1] فإن قيل: كيف يستقيم هذا المعنى، وقد قال فى آخر الآية: ﴿قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾؟

وليس المراد من الآية الاستفهام؛ وإنما المراد منها الرد والإنكار عليهم.

قوله تعالى: ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ قالوا: معناه:

(١) الأنعام: ١٣٩.

﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي

وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة، أيلقاهم الخير أم يلقاهم الشر؟ وحقيقة المعنى: أن الشر يلقاهم؛ لأنه الذى يليق بافترائهم.

وقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فى التفاسير: من ألف واحد شاكر.

قوله تعالى: ﴿وما تكون فى شأن﴾ الشأن: اسم مبهم، وهو مثل قول القائل لغيره: ما حملك وما بالك؟ وما شأنك؟ وقوله: ﴿فى شأن﴾ يعنى: فى شأن من الشؤون.

وقوله: ﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ فإن قيل: [أيش معنى][1] قوله: ﴿وما تتلو منه﴾ ولم يسبق ذكر القرآن؟

الجواب عنه من وجهين:

أحدهما أن معناه: وما تتلو من الشأن، من قرآن، والآخر: أنه راجع إلى القرآن أيضا، فأبطن فى قوله: ﴿منه﴾ وأظهر فى قوله ﴿من قرآن﴾ تفخيما له.

وقوله: ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً﴾ الشهود هاهنا: جمع شاهد.

وقوله: ﴿إذ تفيضون فيه﴾ قال ابن الأنبارى: إذ تندفعون فيه، والإفاضة هى الدفع بالكثرة. وقوله: ﴿وما يعزب عن ربك﴾ معناه: وما يغيب عن ربك ﴿من مثقال ذرة﴾ من وزن ذرة؛ والذرة: هى النملة الصغيرة، وقيل: الذرة: ما يظهر فى شعاع الشمس. والأول هو المعروف.

(١) فى «الأصل، وك»: أليس معه. وهو تحريف.

الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلا إِنَّ

وقوله: ﴿ فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ﴾ يعنى: أصغر من الذرة. ﴿ ولا أكبر ﴾ معناه: ولا أكبر من الذرة إلى ما لا يعلم قدره إلا الله تعالى. وقوله: ﴿ إلا فى كتاب مبين ﴾ معناه: إلا هو مبيَّن فى الكتاب، يعنى: اللوح المحفوظ.

وفى الأخبار المشهورة: «أن الله تعالى لما خلق القلم قال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»(١). وقد ثبت برواية عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ قال: «إن الله قدر المقادير قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة». خرجه مسلم فى «صحيحه»(٢).

قوله تعالى: ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ اختلفوا فى أولياء الله على أقوال:

أحدها: أنهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، والآخر: أنهم الذين يرضون بالقضاء، ويشكرون عند الرخاء، ويصبرون على البلاء، والثالث: هم المتحابون فى الله تعالى.

وقد روى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال: «إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء، يغبطهم النبيون والشهداء لمكانهم عند الله. فقال رجل: يا رسول الله، ومن هم؟ فقال رسول الله ﷺ: قوم تحابوا بروح الله من غير أرحام يصلونها، ولا أموال يتعاطونها، وإن على وجوههم لنوراً، وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ﴾». ذكره أبو داود فى «سننه»(٣) قريبًا من هذا.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٥ – ٢٢٦/ رقم ٤٧٠٠)، والترمذي (٤/ ٣٩٨/ رقم ٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم في السنة (ص٤٨ – ٥٠/ رقم ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧) من حديث عبادة الصامت.
وروى من حديث ابن عباس، رواه أبو يعلى في مسنده (٤/ ٢١٧/ رقم ٢٣٢٩)، والطبري (٢٩/ ١٤)، وابن أبي عاصم في السنة (ص٥٠/ رقم ١٠٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٦٨ – ٦٩/ رقم ١٢٥٠٠)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣)، وفي الأسماء والصفات (ص٣٧٨).
وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٣): ورجاله ثقات، وعزاه للبزار أيضًا، وقال: رجاله ثقات.

(٢) مسلم في صحيحه (١٦/ ٣١٠ – ٣١١/ رقم ٢٦٥٣)، والترمذي (٤/ ٢٩٨ – ٢٩٩/ رقم ٢١٥٦)، وأحمد (٢/ ١٦٩)، وابن حبان – الإحسان – (١٤/ ٥/ رقم ٦١٣٨).

(٣) أبو داود في سننه (٣/ ٢٨٨/ رقم ٣٥٢٧)، والطبري في التفسير (١١/ ٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥).

أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ

والرابع : هو أن أولياء الله من إذا رؤوا [ذُكِرَ](١) الله.

وفى بعض الأخبار المرفوعة إلى النبى ﷺ : « سئل من أولياء الله؟ فقال : الذين إذا رؤوا [ذُكِرَ] (١) الله». وفى رواية : «الذين [يذكر](٢) الله برؤيتهم »(٣).

وقوله : ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الخوف : انزعاج فى النفس من توقع مكروه، والحزن : هَمٌّ يقع فى القلب لنوع عارض.

قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ظاهر المعنى.

ثم قال تعالى : ﴿ لهم البشرى ﴾ اختلفوا فى هذه البشرى على أقوال :

الأول : روى (أبو الدرداء)(٤) – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ أنه قال : « هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له »(٥).

ورواه –أيضا– عبادة بن الصامت أبو الوليد – رضى الله عنه – (٦).

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من

---

(١) فى « الأصل، وك » : ذكروا . وهو خطأ.

(٢) فى « الأصل، وك » : يذكرون . وهو خطأ أيضًا.

(٣) رواه النسائى فى الكبرى (٦/ ٣٦٢/ رقم ١١٢٣٥)، وابن صاعد فى زوائده على زهد ابن المبارك (١/ ٧٢/ رقم ٢١٨)، والطبرانى فى الكبير (١٢/ ١٣/ رقم ١٢٣٢٥)، والبزار (٢/ ٣٩٤ – ٣٩٥/ رقم ٢٠٨٣)، وأبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١/ ٢٣١) عن ابن عباس، وله شواهد انظر الدر المنثور (٣/ ٣٣٥ – ٣٣٦).

(٤) فى « ك » : أبو داود، وهو خطأ.

(٥) رواه الترمذي (٤/ ٤٦٢ – ٤٦٣/ رقم ٢٢٧٣)، و(٥/ ٢٦٧/ رقم ٣١٠٦) وحسنه، وأحمد (٦/ ٤٤٥، ٤٥٢)، والطبري (١١/ ٩٣، ٩٤ – ٩٥) والحاكم (٤/ ٣٩١).

(٦) رواه الترمذي (٤/ ٤٦٣/ رقم ٢٢٧٥) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ رقم ٣٨٩٨)، وأحمد (٥/ ٣١٥)، والحاكم (٢/ ٣٤٠) وقال : صحيح الإسناد، و(٤/ ٣٩١) وقال صحيح على شرط الشيخين. والطبري (١١/ ٩٣، ٩٤).

الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ

النبوة»[1].

والقول الثانى: روى أبو ذر - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ: «إن البشرى فى الحياة الدنيا: هو الثناء الحسن، وفى الآخرة: الجنة»[2].

والثالث: البشرى: هى نزول ملائكة الرحمة بالبشارة من الله تعالى عند الموت.

والرابع: البشرى: هى علم المؤمن بمكانه من الجنة قبل أن يموت. قاله قوم من التابعين.

وقوله تعالى: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ معناه: لا خُلف لوعد الله. وقوله: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أى: النجاة العظيمة.

قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ وقف تام. ثم قال: ﴿إن العزة لله جميعا﴾ يعنى: إن الغلبة لله جميعا ﴿هو السميع العليم﴾ معلوم المعنى.

قوله تعالى: ﴿ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض﴾ معناه معلوم.

وقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ معناه: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء على الحقيقة؛ لأنه ليس لله شريك. وقيل: معناه: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء علمًا ويقينا؛ بل يتبعون على الظن كما قال: ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ ومعنى قوله: ﴿يخرصون﴾: يكذبون؛ لقوله: ﴿قتل الخراصون﴾[3] أى: الكذابون.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (١٢/ ٣٩٠/ رقم ٦٩٨٨)، ومسلم (١٥/٣٣ - ٣٤/ رقم ٢٢٦٤) وروى من حديث أبي سعيد أيضاً.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ٢٩٠ - ٢٩١/ رقم ٢٤٤٢)، وأحمد (٥/١٥٦) بنحوه.

(٣) الذاريات: ١٠.

الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا

قوله تعالى: ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ معناه معلوم. قوله: ﴿والنهار مبصراً﴾ أى: مبصراً فيه. وقيل: معناه: والنهار ذا إبصار، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فى عيشة راضية﴾[1] يعنى: ذات رضا. وقوله: ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه﴾ فإن قال قائل: أيش الفرق بين اتخاذ الولد واتخاذ الخليل؟

الجواب عنه: أن حقيقة الخلة مقصورة على الله تعالى؛ لأن الخلة: تصفية الود، وهذا يجوز على الله تعالى. وأما حقيقة الولد: لا يجوز على الله تعالى؛ فاتخاذه لا يجوز، ولأنه إنما يتخذ الولد ليرثه مُلكه أو ليسَّر به، أو ليعينه على أمرٍ، أو ليخلفه فى أموره، والله تعالى منزه عن هذا كله، ولا يجوز عليه، فلم يجز اتخاذ الولد له.

وقوله تعالى: ﴿هو الغنى﴾ إشارة إلى ما قلنا من عدم الحاجة. وقوله: ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أى: من حجة بهذا؟.

وقوله: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أى: لا ينجون.

وقوله ﴿متاع فى الدنيا﴾ معناه: إن الذين يفترون على الله حاصلهم متاع فى الدنيا.

وقوله: ﴿ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ معناه معلوم.

(١) الحاقة: ٢١.

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ

قوله تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ معناه: واتل عليهم خبر نوح ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى ﴾ معناه: إن كان ثقل عليكم مقامى أى: طول مكثى فيكم وتذكيرى ﴿ بآيات الله ﴾ وتحذيرى إياكم بآيات الله ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ قالوا هذا اعتراض فى الكلام وفى المعنى . قوله: ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ هو متصل بما سبق كأنه قال: إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فأجمعوا أمركم. وفى الشاذ: « فاجْمَعوا أمركم » قرأه عاصم الجحدرى.

قوله: ﴿ فاجمعوا ﴾ قال الفراء: فاعزموا على أمركم وادعوا ﴿ شركاءكم ﴾ وقال الزجاج: فاجمعوا أمركم مع شركائكم، إلا أنه لما ترك كلمة « مع » فانتصب، قال الشاعر:

يا ليت شعرى والمُنَى لا تنفع   حتى أرى امرى وأمرى مجمع(1)

أى: معزم عليه. وقوله: ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾أى: ملتبسًا، ومنه الغمام، والغمّ. وقوله تعالى: ﴿ ثم اقضوا إلىَّ ﴾ قرئ فى الشاذ: « ثم أفضوا إلىَّ » بالفاء، والمعروف بالقاف. قال مجاهد معناه: ثم اعلموا ما فى أنفسكم. وقيل معناه: توجهوا إلىَّ بالقتل والمكروه، وهذا على طريق التعجيز، فإنه قال هذه المقالة وعجزوا عن إيصال مكروه إليه، فهذا كان (نوع)(2) معجزة له، ومنهم من قال: قوله: ﴿ اقضوا إلىَّ ﴾ أى: ثم اقضوا ما أنتم قاضون، واعملوا ما أنتم عاملون، وهذا مثل قول السحرة: ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾(3)، معناه: فاعمل ما أنت عامل. وحقيقة

(1) كذا « بالأصل، وك » وجاء الشطر الأخير من البيت فى لسان العرب (مادة: جمع) كما يلى:

هل أغدُوَنْ يومًا وأمرى مُجْمَعُ

(2) ليست فى « ك ».

(3) طه: ٧٢.

﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ

القضاء: هو إحكام الأمر والفراغ عنه، ومنه يقال للرجل إذا مات: قد قضى فلان، أى: فرغ من أمره.

قوله تعالى: ﴿ولا تنظرون﴾ أى: لا تمهلون.

قوله تعالى: ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر﴾ معناه: فإن أعرضتم فما سألتكم من ثواب على تبليغ الرسالة. قوله: ﴿إن أجرى إلا على الله﴾ أى: إنْ ثوابى إلا على الله ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أى: من الموحدين. ومنهم من قال: معنى قوله: ﴿من المسلمين﴾ أى: من المستسلمين لأمر الله.

قوله تعالى: ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك﴾ قال أهل التفسير: كان معه فى الفلك ثمانون رجلاً، وكان أول من حمله: الذرة، وآخر من حمله: الحمار، وتعلق الشيطان بذَنَب الحمار، وجعل يقول: نوح للحمار، ادخل فلا يدخل حتى قال: ادخل يا شيطان فدخل وإبليس معه.

وقوله تعالى: ﴿وجعلناهم خلائف﴾ أى: وجعلنا الذين معه فى الفلك خلفاء القوم الذين أغرقناهم فى دورهم ومساكنهم ومنازلهم. وقوله تعالى: ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ الغرق: هلاك بالماء والغامر. ويقال: إن مدة الإغراق كانت أربعين يومًا،وكان من وقت إرسال الماء من السماء إلى أن (نضب)[1] الماء ستة أشهر وعدّة أيام.

وقوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾ يعنى: من بعد نوح رسلا إلى قومهم ﴿فجاءهم بالبينات﴾ أى: بالدلالات الواضحات ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ أى: فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من

(١) نضب الماء: إذا ذهب في الأرض، أو غار وبعد.

الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ

قبل ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب المعتدين ﴾ يعني : يختم على قلوب المعتدين.

قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ معناه ظاهر. والآية التي تليها كذا معلوم المعنى.

قوله تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ معناه : لتصرفنا. وقال قتادة : لتلفتنا : لِتَلْوِينا، وقاله ثعلب من المتأخرين. وقوله : ﴿ وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ﴾ قال مجاهد : الكبرياء : الملك؛ وإنما سُمِّيَ الملك الكبرياء؛ لأنه أكبر ما يطلب فى الدنيا. وقيل : معنى الكبرياء : هو العظمة. وقيل : معناه : الغلبة.

قوله : ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أى : بمصدقين.

قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾ فى القصص : أنه جمع سبعين ألف ساحر.

وقوله : ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ أى : اطرحوا ما أنتم طارحون.

وقوله : ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ﴾ وقد بيّنا معنى السحر من قبل. ﴿ إن الله سيبطله ﴾ أى : سيذهبه ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ معناه معلوم. وفى القصص أنهم كانوا سبعين ألفا، مع كل واحد منهم حبل وعصًا، فألقوا تلك الحبال والعصى، فجعلت تخيل فى أعين الناس كأنها ثعابين وحيات.

اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ

وقوله تعالى: ﴿ويحق الله الحق بكلماته﴾ معناه: يعلى الله الحق بآياته ﴿ولو كره المجرمون﴾.

قوله تعالى ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ معناه: فما آمن لموسى إلا قليل فى قومه، واختلفوا فى الذرية هاهنا، قال بعضهم: إنهم قوم كانت آباؤهم فى القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل. وقال بعضهم: إنهم قوم نجوا من قتل فرعون، فإن فرعون لما أمر بقتل أبناء بنى إسرائيل كانت المرأة من بنى إسرائيل إذا وُلد لها ابنٌ سلمته إلى امرأة قبطيّة، وتقول: وهبته لك خوفا عليه من القتل، فنشأ أولئك الأولاد عند القبط، وأسلموا فى ذلك اليوم، يعنى: يوم السحرة الذين غلبوا. وقوله: ﴿على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ قال بعض أهل المعانى: فى الآية حذف؛ كأنه قال: على خوف من آل فرعون وملئهم، وهذا مثل (قوله)[1]: ﴿واسأل القرية﴾[2] أى: أهل القرية.

ومنهم من قال: لما ذكر فرعون دخل قومه معه كالرجل يقول: قدم الخليفة أو الأمير بكذا كذا، فضاقت المنازل على الناس، معناه: قدم الخليفة ومن معه.

ثم قال: ﴿أن يفتنهم﴾ معناه: أن يعذبهم. وقوله: ﴿وإن فرعون لعالٍ فى الأرض﴾ أى: لطاغٍ فى الأرض ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ معلوم.

قوله تعالى: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ التوكل: هو الثقة بالله والاعتماد عليه فى الأمور. وقوله: ﴿إن كنتم

(١) فى «ك»: قولهم.

(٢) يوسف: ٨٢.

الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن

مسلمين ﴾ أى: إذا كنتم مسلمين.

قوله تعالى: ﴿ فقالوا على الله توكلنا ﴾ أى: على الله اعتمدنا. وقوله: ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ فيه قولان:

أحدهما: لا تهلكنا بأيدى الظالمين فيفتتنوا أو يظنوا أنا لم نكن على الحق، قاله أبو مجلز.

والثانى: لا تعذبنا بعذاب من عندك فيظنوا أنهم خير منا، فيصير ذلك فتنة لهم.

وقوله تعالى: ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا ﴾ معنى قوله: ﴿ تبوءا ﴾ اتخذا.

قال الشاعر:

نحن بنو عدنان ليس شك تبوأ المجد بنا والملك

وقوله ﴿ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة ﴾ ذكر أهل التفسير أن فرعون أمر بتخريب كنائس بنى إسرائيل وبيعهم لما جاء موسى ودعاه إلى الله، فأمرهم الله تعالى أن يأمرا بنى إسرائيل أن يتخذوا فى بيوتهم المساجد، فهذا معنى قوله: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ يعنى: مسجداً.

وحُكى عن ابن عباس أنه قال: أمرهم الله تعالى أن يتوجهوا إلى الكعبة. ومنهم من قال: إنهم خافوا من إظهار الصلاة، فأمرهم الله تعالى أن يقيموا الصلاة فى البيوت. وقوله تعالى: ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه ﴾ الآية. قوله: ﴿ زينة

سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

وأموالاً فى الحياة الدنيا ﴾ قيل فى التفسير: إنه كان من فسطاط مصر إلى العريش إلى قريب من الحبشة معادن الذهب والفضة والياقوت والزبرجد، فهذا معنى قوله: ﴿ زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ قال أهل التفسير: هذه «اللام» لام الصيرورة، ويقال: هى لام العاقبة، وهذا كما قال الشاعر:

وللموت ما تلد الوالدة

فلما كانت عاقبة أمرهم الضلال والكفر قال: ليضلوا عن سبيلك ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ الطمس: تغيير صورة الشيء، وقيل: هو الإنمحاء، ودُروس الأثر. قال قتادة: صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة كلها. وفى بعض الروايات: إن عبيدهم وإماءهم صاروا حجارة.

وقوله: ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ قال مجاهد: بالضلالة. وقال السدى: أمتهم على الكفر.

وقوله: ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ قيل: هذا بمعنى الدعاء (كأنه)[1] قال: فلا آمنوا حتى يروا العذاب الأليم. وقيل: معناه معنى الخبر.

قوله تعالى: ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾ فى القصص: أنه كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة، وكذلك كان بين دعاء يعقوب وإجابته أربعون سنة. فإن قال قائل: إن الداعى كان موسى، وقال: ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾.

الجواب المروى: أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن، والتأمين: دعاء؛ فإن معنى التأمين: اللهم استجب.

قوله: ﴿ فاستقيما ﴾ يعنى: على الطاعة والدين. قوله: ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ معلوم المعنى.

(١) فى «ك»: فكأنه.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلآنَ وَقَدْ

قوله تعالى: ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر﴾ الآية، معناه: عبرنا ببنى إسرائيل البحر. وقوله: ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده﴾ قال الأصمعى: يقال: اتّبعه إذا سار فى أثره، وأَتْبَعه إذا أدركه ولحقه. وقوله: ﴿بغيا وعدوا﴾ ظلما واعتداء، قرئ: «عَدْواً» و«عُدُوًّا» والمعنى واحد.

وقوله: ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ يعنى: حتى إذا غمره الماء وقُرب هلاكه ﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل﴾ ومعناه: آمنت بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ﴿وأنا من المسلمين﴾.

وقوله: ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ فى القصص: أن جبريل كان واقفا حين قال هذا القول، فقال له: آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، وقال له هذا القول بأمر الله تعالى، آلآن وقد عصيت.

وروى يوسف بن مهران، عن ابن عباس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ «أن جبريل - عليه السلام - قال: يا محمد، لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر، وأدسه فى فم فرعون خشية أن تدركه الرحمة»[1]. وفى رواية أخرى: «أن جبريل قال: يا محمد، ما أبغضت أحداً من خلق الله مثل ما أبغضت فرعون لما قال لقومه: ما علمت لكم من إله غيرى، فلما قال ما قال حين غرق فجعلت أدس الطين فى فمه لئلا يقول

(١) رواه الترمذى (٥/٢٨٦/رقم ٣١٠٧) وحسنه، وأحمد (١/٢٤٥، ٣٠٩)، والطبرى (١١/١١٢)، والحاكم (٤/٢٤٩)، والخطيب فى تاريخه (٥/٢٧٦). وفى إسناده على بن زيد بن جدعان وروى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، رواه الترمذى (٥/٢٦٨/ رقم ٣٠٨) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأحمد (١/ ٢٤٠، ٣٤٠)، والطيالسى (ص٣٤١/ رقم ٢٦١٨)، والطبرى (١١/١١٢)، والحاكم (٢/٣٤٠)، (٤/٢٤٩) وصححه على شرط الشيخين، وقال فى الموضع الأول: إلا [أن] أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس. وابن حبان - الإحسان - (١٤/ ٩٧ - ٩٨/ رقم ٦٢١٥)، والخطيب فى تاريخه (٥/٢٧٦)، وأخرجه ابن مردويه عن أبى صالح عن ابن عباس، كما فى الدر المنثور (٣/٣٤٢)، وروى من حديث أبى هريرة، وابن عمر، وأبى أمامة كما فى الدر (٣/٣٤٢).

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ

لا إله إلا الله»[1]» . وفى رواية : «لئلا يثنى مخافة أن يغفر الله له» .

قال أبو عيسى : والحديث صحيح فى الجملة .

وقوله تعالى : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ فى البر، قرئ: «ننحيك ببدنك» بالحاء [من التنحية][2]، والمعروف بالجيم أى : نلقيك على نَجْوة من الأرض . والنجوة : المكان المرتفع . فى القصص : أن فرعون لما غرق قالت بنو إسرائيل : هو أجلّ من أن يغرق، فلم يصدقوا موسى أنه قد غرق، فأمر الله تعالى الماء حتى ألقاه على وجهه؛ وهذا معنى قوله : ﴿ ننجيك ببدنك ﴾ وقوله : ﴿ ببدنك ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بدرعك، وكان له درع مشهور من اللؤلؤ مرصع من الجواهر، فرأوه فى درعه فصدقوا .

والقول الثانى : ببدنك يعنى : بجسد لا روح فيه .

قوله : ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ أى : عبرة . وقوله : ﴿ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ ظاهر المعنى .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ﴾ أى : أنزلنا بنى إسرائيل مبوأ صدق أى : أنزلنا بنى إسرائيل منازل صدق . وقيل : إن تلك المنازل هى مصر . وقيل : إنها الشام . وقوله : ﴿ مبوأ صدق ﴾ يعنى : بصدقهم وإيمانهم . وقوله : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ معلوم . وقوله : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ يعنى : التوراة، فإنهم اختلفوا بعد نزول التوراة وذهاب موسى اختلافا شديداً . ثم قال : ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ظاهر المعنى .

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط، كما فى مجمع البحرين (٦ / ٣٤ / رقم ٣٣٣٦) من حديث أبى هريرة بنحوه.

(٢) فى «الأصل» : بالتجية، وفى «ك» : بالتحتية، والتصويب من تفسير القرطبى (٨ / ٣٧٩)، وفيه : وقرأ اليزيدى وابن السَّمَيْفَع : «ننحيك» بالحاء من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود.

وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ

قوله تعالى: ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك﴾ فى الآية سؤال معروف، وهو: أنه قال: ﴿فإن كنت فى شك﴾ كيف يجوز أن يكون الرسول فى الشك حتى يقول له: فإن كنت فى شك؟.

الجواب من وجوه: أحدها: أن الخطاب معه والمراد منه قومه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها النبى إذا طلقتم النساء﴾(١) وأمثالها كثيرة.

وقال بعضهم: تقديره: فإن كنت فى شك أيها الشاك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك.

والوجه الثاني: أن معنى الآية: ما كنت فى شك.

وقوله: ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ زيادة تثبيت؛ والذين يقرءون الكتاب: هم الذين أسلموا من اليهود، مثل عبد الله بن سلام، وابن يامين وغيرهما.

والوجه الثالث: هذا على عادة كلام العربى، فإن الرجل يقول لابنه: افعل كذا إن كنت ابنى، ولا يكون هذا على الشك، وكذا يقول لغلامه: أطعمنى إن كنت عبدى، ولا يكون على الشك.

وقوله: ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ فقال: مُرهم ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ من الشاكين، ومعناه: دُمْ على اليقين الذى أنت عليه.

الوجه الأول اختيار الزجاج وغيره من أهل المعانى.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ إلى آخر الآية ظاهر

(١) الطلاق: ١.

مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ

المعنى.

قوله تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ معناه: وجب عليهم عذاب ربك.

ويقال: معنى الكلمة: هو قوله تعالى: «هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء فى النار ولا أبالى» كما رُوِىَ فى الأخبار[1].

وقوله: ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ يعنى: الإيمان عند البأس.

قوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس﴾ معناه: فلم تكن قرية آمنت- أى: أهل قرية آمنت - فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس، وهذا الإيمان هو عند نزول العذاب. والمنقول فى القصص: أن يونس - صلوات الله عليه - أنذر قومه بالعذاب وخرج من بينهم، فلما رأوا العذاب شبه النيران فى السماء خرجوا من بلدهم إلى الصحراء، وفرقوا بين الأولاد والأمهات والبهائم والأجنّة، وضجوا إلى الله تعالى ضجة واحدة، فكشف الله عنهم العذاب بعد أن رأوه عيانًا، ولم يفعل هذا بأحد غيرهم، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ أى: إلى أجل معلوم.

وفى بعض التفاسير: أن الدعاء الذى دعا به قوم يونس هو: يا حى حين لا حى، يا حى يا محيى الموتى، يا حى لا إله إلا أنت.

(١) رواه أحمد في المسند (٤/١٨٦)، وابن حبان - الإحسان - (٢/٥٠/ رقم ٣٣٨)، والحاكم (١/٣١) وصححه، وابن سعد في الطبقات (١/٣٠)، و(٧/٤١٧) عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي. وقال الهيثمي في المجمع (٧/١٨٩): رواه أحمد، ورجاله ثقات. وله شواهد كثيرة. انظر الصحيحة رقم [٤٦ -٥٠].

الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ

واختلف القول فى أنهم هل رأوا العذاب عيانا أو رأوا دليل العذاب؟ فالأكثرون على أنهم رأوا العذاب عيانا. قال قتادة: تدنى عليهم العذاب حتى صار بينهم وبين العذاب قدر ميل. وقال بعضهم: رأوا دليل العذاب، ولم يروا عين العذاب.

والقول الأول أصح؛ بدليل قوله: ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا﴾ والكشف إنما يكون بعد وقوع العذاب أو قرب العذاب. فإن قال قائل: كيف قبل إيمانهم عند المعاينة، ولم يقبل إيمان غيرهم، وقد قال فى موضع آخر: ﴿يؤمنون بالغيب﴾(١) دلّ أن الإيمان المقبول هو الإيمان بالغيب؟

الجواب: أن قوم يونس استثنوا من هذا الأصل بنصّ القرآن، والله تعالى يفعل ما يشاء ولا سؤال عليه فيما يفعل. وزعم الخليل وسيبويه: أن الاستثناء هاهنا منقطع، ومعنى الآية: لكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا.

وعن على - رضى الله عنه - قال: الحذر لا يرد القدر، والدعاء يرد القدر؛ فإن الله تعالى كشف العذاب عن قوم يونس بالدعاء. وعن على - أيضًا- أنه قال: كان كشف العذاب يوم عاشوراء.

وقيل فى تقدير ابتداء الآية: (فهلّا)(٢) كانت قرية آمنت حين ينفعها إيمانها؛ لكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب، ومعنى قرية: أهل قرية. وقيل: اسم تلك القرية كان نينوى، من بلاد الجزيرة.

قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا﴾ فى الآية ردٌّ على القدرية؛ فإنه تعالى أخبر أنه لم يشأ إيمان جميع الناس، وعندهم أنه شاء إيمان جميع الناس. وقوله: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ هذا تسلية للنبى

(١) البقرة: ٣.

(٢) فى «ك»: فهل.

الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا

ﷺ أنى لو أردت لأكرهتهم على الإيمان، ولم أُرِد، فلا تُرِد أنت -أيضا- أن تكرههم على الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ قال عطاء: إلا بتوفيق الله. وقال غيره: إلا بعلم الله. وقيل: إلا بإطلاق الله ذلك بدفع الموانع، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾[1] منهم من قال: «بإذن الله» أى: بقضائه وتقديره وحكمه، والمعانى كلها صحيحة. وقوله تعالى: ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ قال الفراء: الرجس بمعنى الرجز، والرجز هو العذاب. وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - إن الرجس هو السخط. وقيل: إنه الإثم. وقيل: إنه الهلاك. وأما قوله: ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ معناه: لا يؤمنون. وقيل: معنى قوله: ﴿ لا يعقلون ﴾ أى: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

قوله: ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ معناه: قل انظروا ماذا فى السموات والأرض من الدلائل والعبر والحجج. وقوله: ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ هذا فى قوم بأعيانهم علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون وإن نظروا فى الآيات.

قوله تعالى: ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ الانتظار هو الثبات لتوقع أمرٍ. وقوله: ﴿ إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ يعنى: مثل أيام الهلاك فى الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة. قوله: ﴿ قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ﴾ قوله: «ننجى» مستقبل بمعنى

(١) آل عمران: ١٤٥.

عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ

الماضى، ومعناه: أنجينا رسلنا والذين آمنوا. قوله ﴿ كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾ يعنى: محمداً وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى ﴾ فإن قال قائل: كيف قال: إن كنتم فى شك من دينى، وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به على بصيرة؟

الجواب: أنه قد كان فيهم قوم شاكون، فالمراد من الآية أولئك القوم.

والثانى: أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا فى أمرهم وأمر النبى ﷺ.

قوله: ﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ﴾ ظاهر المعنى. فإن قال قائل: ما معنى قوله: ﴿ إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ وهو لا يعبد الذين من دون الله شكوا أو لم يشكوا؟ وما معنى قوله: ﴿ ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ﴾ ولأى شىء خص الوفاة بالذكر؟

الجواب: أما الأول معناه: إن كنتم فى شك فلست فى شك، ولا أعبد إلا الله على يقين وبصيرة. وأما ذكر الوفاة فى قوله: «يتوفاكم» بمعنى التهديد، فإن العذاب يقع على الكافر حتى تدركه الوفاة.

﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ أى: من المخلصين.

قوله تعالى: ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ﴾ معناه: وأمرت أن أستقيم لله على الدين مخلصاً. ويقال معناه: واستقم على الدين الذى أمرت به بوجهك. قوله تعالى: ﴿ حنيفا ﴾ قد بينا من قبل، ويقال: إن الآية فى التوجه إلى القبلة، وهى الكعبة؛ وهى فى معنى قوله تعالى: ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾(١). وقوله: ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ ظاهر المعنى.

(١) البقرة: ١٤٤.

اللَّه ما لا ينفعُكَ ولا يضرُّكَ فَإن فَعلْتَ فَإنَّكَ إذًا مِّنَ الظَّالمينَ ﴿١٠٦﴾ وَإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كَاشفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإن يُردْكَ بخَيْرٍ فَلا رَادَّ لفَضْله يُصيبُ به مَن يَشَاءُ منْ عبَاده وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإنَّمَا يَهْتَدي لنَفْسه وَمَن ضَلَّ فَإنَّمَا يَضلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بوَكيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبعْ مَا يُوحَىٰ

قوله تعالى: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ الدعاء يكون بمعنيين:

أحدهما: بمعنى النداء، كقولك: يا زيد، ويا عمرو، والآخر: بمعنى الطلب.

وقوله: ﴿ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ معناه: لا ينفعك إن دعوته، ولا يضرك إن تركت دعاءه. وقوله: ﴿فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ يعنى: ممن وضع الدعاء فى غير موضعه.

قوله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ معناه: إن يصبك الله بضر، والضر: هو الخوف والمرض والجوع ونحوه.

وقوله: ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ أى: لا كاشف لذلك الضر إلا الله.

وقوله: ﴿وإن يردك بخير﴾ أى: يصبك بخير، والخير: هو الخصب والسعة والعافية ونحوه.

وقوله: ﴿فلا راد لفضله﴾ أى: لا مانع لفضله.

قوله : ﴿يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ الحق هاهنا: هو ما ينجو به الإنسان، وضده: الباطل، وهو الذى يهلك به الإنسان. وقيل: معناه: الإسلام. وقيل: معناه: القرآن. وقوله: ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه﴾ (يعنى)[1] : يحتاط لنفسه. ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ يعنى: من كفر وترك الإيمان؛ فإنما وباله وضلاله عليه.

قوله: ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ أى: بُمسَلّط، ومعناه: أنكم تُسألون عن

---

(١) فى «ك»: أى.

إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

أعمالكم ولا أُسأل أنا عن أعمالكم، كما يُسأل من وكل بالشيء.

قوله تعالى: ﴿واتبع ما يُوحى إليك﴾ الوحى: إلقاء الشيء فى قلب الإنسان على الخفية. وقوله: ﴿واصبر﴾ الصبر: تجرع المرارة بالامتناع عن الشيء المشتهى لتوقع المحبوب فى العاقبة، ومما يعين الإنسان على الصبر علمه بحقيقة الأمر، وما ينال من الثواب، والثقة بموعود الله تعالى. وقوله: ﴿حتى يحكم الله﴾ أى: حتى يقضى الله ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أى: خير القاضين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ

تفسير سورة هود

سورة هود مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل﴾[1] إلى آخر الآية؛ فإنها مدنية.

قوله تعالى: ﴿الر﴾ معناه: أنا الله أرى. وقوله: ﴿كتاب﴾ أى: هذا كتاب. وقوله: ﴿أحكمت آياته﴾ فيه أقوال:

قال قتادة: معناه: أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا تناقض.

والثانى: أن معنى قوله: ﴿أحكمت آياته﴾ يعنى: هى محكمة غير منسوخة.

والثالث: ﴿أحكمت آياته﴾ يعنى: بالأمر والنهى، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿ثم فصلت﴾ فيه أقوال: أحدها: ثم فصلت بالوعد والوعيد. وقال مجاهد: فُصِّلت أى: فسِّرت وبينت. والثالث: ثم فصلت أى: أنزلها الله شيئًا فشيئًا. وقيل: أحكمت آياته للمعتبرين، ثم فصلت أحكامه للمتقين.

وقيل: أحكمت آياته للقلوب، ثم فصِّلت أحكامه على الأبدان.

وقرئ فى الشاذ: «ثم فصلت» ومعناه: أنها جاءت.

﴿من لدن حكيم خبير﴾ أى: من عند حكيم خبير.

قوله تعالى: ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ فيه قولان:

أحدهما: بأن لا تعبدوا إلا الله.

والقول الثانى: أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

وقوله: ﴿إننى لكم منه نذير وبشير﴾ معناه: نذير للعاصين، وبشير للمطيعين.

(١) هود: ١١٤.

إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا

قوله تعالى: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ قال أهل المعانى: إنما قدم المغفرة على التوبة؛ لأنها هى المطلوبة بالتوبة.

وفى بعض الأخبار: «ما أصرّ من استغفر وإن عاد سبعين مرة»[1]. وفى بعض الأخبار: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»[2].

وفى الآية قول آخر: أن معنى قوله: ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ يعنى: فى الماضى ﴿ثم توبوا إليه﴾ يعنى: فى المستأنف.

قوله: ﴿يمتعكم متاعًا حسنًا﴾ معناه: يعيشكم عيشًا حسنًا. وقيل: يعمركم عمراً حسنًا. وأما العيش الحسن: قال بعضهم: هو الرضا بالميسور، والصبر على (المقدّر)[3]. وقيل: العيش الحسن: هو طيب النفس وسعة الرزق. ويقال: العيش الحسن: هو الكفاية بالحلال. وقوله: ﴿إلى أجل مسمى﴾ أى: إلى حين الموت. وقوله: ﴿ويؤت كل ذى فضل فضله﴾ فيه قولان:

---

(١) رواه أبو داود (٢/٨٤/رقم ١٥١٤)، والترمذى (٥/٥٢١/رقم٣٥٥٩) وقال: غريب، إنما نعرفه من حديث أبى نصيرة وليس إسناده بالقوى. وأبو يعلى (١/١٢٤ - ١٢٥/رقم ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩)، والبزار فى مسنده (١/٢٥٠/رقم ٩٣)، والمروزى فى مسند أبى بكر (ص١٥٥ - ١٥٦/رقم ١٢١، ١٢٢)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/١٨٨)، والبغوى فى التفسير (١/٣٥٣). وقال البزار: هذا الحديث لانحفظه عن النبى ﷺ إلا عن أبى بكر بهذا الطريق، وعثمان بن واقد مشهور، حدث عنه أبو معاوية وأبو يحيى الحمانى وغيرهما، وأبو نصيرة ومولى أبى بكر فلا يعرفان، ولكن لما كان هذا الحديث لايعرف إلا من هذا الوجه لم نجد بداً من كتابته وتبيين علته.

(٢) روى من حديث ابن عباس، رواه القضاعى فى الشهاب (٢/٤٤-٤٥/رقم ٨٥٣)، والديلمى فى الفردوس (٥/١٩٩/رقم ٧٩٤٤)، وعزاه السخاوى فى المقاصد (ص٧٢٥ - ٧٢٦) لأبى الشيخ ومن طريقه الديلمى، وضعف إسناده.

ومن حديث عائشة، عزاه السخاوى فى المقاصد (ص٧٢٦) لإسحاق بن بشر فى المبتدأ، ومن طريقه رواه ابن عساكر فى تاريخه (٦/٢٩٤) قال السخاوى: وإسحاق حديثه منكر.

وفى الباب عن أنس، وأبى هريرة أيضاً.

(٣) فى «ك»: المقدور.

إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ

أحدهما: أن معناه يؤت كل ذى عمل حسن فى الدنيا ثوابه فى الآخرة.

والقول الثانى: أن قوله: ﴿يؤت كل ذى فضل فضله﴾ يعنى: من عمل لله تعالى وفقه الله تعالى فيما يستقبل على طاعته ويهديه إليها.

ورُوِىَ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: كل ما يحتسب الإنسان فيه من قول أو عمل هو داخل فيها، حتى الكلمة الواحدة يقولها.

قوله: ﴿وإن تولوا﴾ أى: فإن أعرضوا. قوله: ﴿فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ أى: يوم القيامة.

ثم قال الله تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾ الآية، قال عبد الله بن شداد: كان الرجل الكافر يمرُّ بالنبى ﷺ فيثنى صدره، ويستغشى بثوبه بُغضًا للنبى ﷺ حتى لا يراه النبى ﷺ ولا يرى هو النبى ﷺ. وعن بعضهم: أن الرجل من الكفار كان يدخل بيته ويرخى ستره، ويتغشى بثوبه ويحنى ظهره ويقول: هل يعلم الله ما فى قلبى؟ وعن أبى رزين قريبًا من القول الأول، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومعنى قوله: ﴿يثنون صدورهم﴾ أى: يعطفون ويطوون، ومنه ثنى الثوب، قال الشاعر فى التغشى:

أرعى النجوم ولم أؤمر برعيتها وتارةً أتغشَّى فضل أطمار

وقوله: ﴿ليستخفوا منه﴾ أى: ليستخفوا من الله تعالى. وقيل: ليستخفوا من النبى ﷺ. وفى الشاذ أن ابن عباس - رضى الله عنهما - قرأ: «ألا إنهم يثنونى صدورهم» على وزن يفعوعل، وكما يقال: يحلولى.

﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ يعنى: يتغشون بثيابهم. قوله تعالى: ﴿يعلم ما

لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ

يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ قال الأزهرى وغيره: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمروا عداوة النبى ﷺ لا يخفى علينا حالهم. وفى بعض التفاسير: أن رجلاً كان يبطن عداوة النبى ﷺ وكان يختلف إليه ويظهر المحبة له، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية. الدابة: كل ما يدب على الأرض من الحيوانات. وقوله: ﴿ إلا على الله رزقها ﴾ أى: إن الله يسبب ويسهل رزقها.

قال أهل المعانى: هذا على المشيئة؛ لأنه قد يرزق وقد لا يرزق. وقوله: ﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ فى الآية أقوال:

روى مقسم عن ابن عباس أنه قال: المستقر: هو المكان الذى يأوى إليه، والمستودع: هو المكان الذى يدفن فيه.

وعن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أنه قال: المستقر: هو أرحام الأمهات، والمستودع: هو الموضع الذى يدفن فيه.

وقال بعضهم: المستقر: هو الذى يستقر عليه عمله، والمستودع: هو الذى يصير إليه أمره فى العاقبة.

ويقال: المستقر: أرحام الأمهات، والمستودع: هو أصلاب الآباء. وهذا مروى عن ابن عباس أيضًا.

وقوله: ﴿ كلٌّ فى كتاب مبين ﴾ فى اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ قد بيّنا من قبل.

عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

وقوله: ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قال ابن عباس: كان العرش على الماء، والماء على متن الريح، أى: صلب الريح. وروى يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن وكيع ابن حدس، عن أبى رزين العقيلى أنه قال: «يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، وكان عرشه على الماء»[1]. قال يزيد بن هارون: معنى قوله: «فى عماء» أى: ليس معه غيره. أورده أبو عيسى فى كتابه على هذا الوجه.

قوله: ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ معناه: ليختبركم أيكم أعمل بطاعة الله تعالى، وأسرع إلى طلب مرضات الله، وأورع عن محارم الله، ومعناه: الابتلاء من الله وقد بيّنا من قبل.

وقوله: ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أى: إلا خدع ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ معناه: إلى أجل معدودة. قوله: ﴿ ليقولن ما يحبسه ﴾ معناه: ليقولن الذين كفروا: أىُّ شىء يحبسه؟ يعنى: العذاب. وقوله: ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم ﴾ معناه: ألا يوم يأتيهم العذاب لا يكون العذاب مصروفًا عنهم.

وقوله ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ معناه: ونزل بهم جزاء استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ الرحمة هاهنا: هى سعة الرزق.

---

(١) رواه الترمذى (٥/٢٦٩/رقم٣١٠٩) وحسنه، وابن ماجة (١/٦٤-٦٥ رقم ١٨٢)، وأحمد (٤/١١،١٢)، والطيالسى (ص١٤٧/رقم١٠٩٣)، والطبرى (١٢/٤)، والطبرانى فى الكبير (١٩/٢٠٧/رقم٤٦٨)، وابن حبان فى صحيحه - الإحسان - (١٤/٨-٩/رقم٦١٤١).

﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ

وقوله: ﴿ثم نزعناها منه﴾ يعنى: أخذناها منه. قوله: ﴿إنه ليئوس كفور﴾ أى: قنوط من رحمة الله تعالى، كفور بنعمة الله.

قوله تعالى: ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى﴾ يعنى: يقول الإنسان: ذهب السيئات عنى باستحقاقى لذلك، ولا يراه من الله تعالى. وقوله: ﴿إنه لفرح فخور﴾ الفرح: لذة فى القلب بنيل المشتهى، والفخر: هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وهو منهى عنه فى القرآن فى مواضع كثيرة.

وقوله: ﴿إلا الذين صبروا﴾ قال الفرّاء والزجّاج: هذا استثناء منقطع، ومعناه: ولكن الذين صبروا ﴿وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ قال أهل التفسير: سبب نزول الآية: أن الكفار لما قالوا: يا محمد، ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله، يعنـون: ائت بقـرآن ليس فيه سـب آلهتنا - على ما ذكرنا فى سورة يونس - هَمَّ النبى ﷺ أن يدع سبّ آلهتهم ظاهراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿فلعلك تارك بعض ما يُوحى إليك﴾ يعنى: سبّ الآلهة ظاهراً ﴿وضائق به صدرك﴾ يعنى: ولعلك يضيق صدرك ﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ أى: هلاَّ أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك. وقوله: ﴿إنما أنت نذير﴾ معناه: إن عليك الإنذار والإبلاغ، وليس عليك أن تأتى بالآيات التى يقترحونها.

وقوله ﴿والله على كل شىء وكيل﴾ أى: حافظ.

قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ معناه: بل يقولون: افتراه، وافتراه: اختلقه ﴿قل

نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا

فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ ومعنى مثله: أى: مثله فى البلاغة.

قال على بن عيسى النحوى: البلاغة على ثلاث مراتب: المرتبة العليا: معجزة، والوسطى والأدنى ممكنة. والقرآن فى المرتبة العليا من البلاغة.

فإن قيل: قد قال فى سورة يونس: ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾[1] وقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة، فكيف يصح أن يقول لهم ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾،وما هذا إلا كرجل يقول لغيره: أعطنى درهمًا، فيعجز عنه فيقول: أعطنى عشرة دراهم، وأيضًا فإنه قال: ﴿ مفتريات ﴾ وهل يجوز أن يأمر الله تعالى أن يأتوا بالافتراء؟

الجواب عنه: منهم من قال: إن سورة هود نزلت أولاً وإن كانت فى الترتيب آخرًا، وأنكر المبرد هذا، وقال: لا، بل نزلت سورة يونس أولاً. وأجاب عن السؤال وقال: معنى قوله: ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾[1] فى سورة يونس يعنى مثله فى الخبر عن الغيب والأحكام. والوعد والوعيد، فعجزوا، فقال لهم فى سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثل القرآن فى أخباره وأحكامه ووعده ووعيده، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات يعنى: مختلقات من غير خبر عن غيب ولا حكم ولا وعد ولا وعيد، وإنما هى مجرد البلاغة. وهذا جواب صحيح.

وأما السؤال الثانى فالجواب: قلنا: الله سبحانه وتعالى لم يأمرهم بالافتراء، وإنما تحدَّى، ومعناه: أنَّ إصراركم فى تكذيب محمد وزعمكم أنه افترى القرآن يوجب عليكم أن تأتوا بمثله افتراء، ليظهر كذب محمد كما زعمتموه، فلما عجزتم دل أنه صادق.

وقوله: ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ معناه: واستعينوا بمن استطعتم من دون الله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾.

(١) يونس: ٣٨.

لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ

قوله تعالى: ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ يجوز أن يكون قوله: ﴿ فاعلموا ﴾ خطاب للمؤمنين، ويجوز أن يكون خطابًا للمشركين. وقوله ﴿ بعلم الله ﴾ بمعنى أنزله وفيه علمه، وهذا ردّ على المعتزلة حيث قالوا: لا علم لله. وقوله: ﴿ وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ يعنى: فاعلموا أن لا إله إلا هو، فهل أنتم مسلمون؟ أى: مخلصون.

قوله تعالى: ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها ﴾ قال الضحاك: نزلت الآية فى المشركين. وقال مجاهد وجماعة: نزلت الآية فى كل من عَمِل عملاً وأراد به غير الله. وقوله: ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ يعنى: نجازيهم على أعمالهم فى الدنيا، وذلك بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبه ذلك. وقوله: ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ فيها أى: فى الدنيا، لا يبخسون يعنى: لا ينقص حظهم.

ثم قال: ﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ﴾ وبطل ما صنعوا فيها. وقوله: ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ أى: ومَا حِقٌّ ما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿ أفمن كان على بينةٍ من ربه ﴾ فى الآية حذف، ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه كمن يُريد الحياة الدنيا وزينتها. وعامة أهل التفسير على أن المراد به النبى ﷺ، وقيل: إن المراد منه: النبى ﷺ وكل مؤمن فى العالم. والأول هو الصحيح.

وقوله: ﴿ على بينة من ربه ﴾ أى: على بيان من ربه. وقوله ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ فيه أقوال:

الأول: عليه أكثر أهل التفسير: أن المراد منه: جبريل – عليه السلام – وهذا قول

ابن عباس، ومجاهد، ومنصور بن المعتمر تلميذ النخعي، والنخعي، وغيرهم.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ يعني: لسان محمد ﷺ. حُكيَ هذا عن الحسن البصري، ورواه بعضهم عن [الحسين](1) بن علي رضي الله عنهما.

والثالث: أن قوله ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ هو علي – رضي الله عنه – رُويَ عن علي – رضي الله عنه – أنه قال: ما من قرشي إلا ونزلت فيه آية من القرآن، فقيل له: وهل نزل فيك شيء؟ فقال: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾.

والرابع: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ ملك من الملائكة نزل يحفظه ويسدده ويشهد له. وقيل: إن قوله: ﴿شاهد منه﴾ هو الإنجيل، ومعناه: يتبعه مصدقًا له، يعني: وهو مصدقه. وقوله: ﴿ومن قبله كتاب موسى إمامًا﴾ أراد به: التوراة، وقوله ﴿إماما ورحمة﴾ يعني: كانت التوراة إماما ورحمة لمن اتبعها، وهي مصدقة للقرآن، شاهدة للنبي ﷺ. وقوله: ﴿أولئك يؤمنون به﴾ قال بعضهم: أراد به المهاجرين والأنصار. وقال بعضهم: أراد به الذين أسلموا من أهل الكتاب. وقوله: ﴿ومن يكفر به﴾ يعني: بالرسول ﴿من الأحزاب﴾ وهم تحزبوا على النبي ﷺ أي: تفرقوا من قبائلهم واجتمعوا عليه من قريش وغيرهم. وفي بعض التفاسير: أنهم بنو أمية وبنو المغيرة وبنو أبي طلحة بن عبد العزى، والمراد هو: الكفار منهم دون المسلمين.

والقول الثاني في الآية: أن الأحزاب أهل الملل كلها. روى أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يسمع بي فلا يؤمن إلا أدخله الله النار»(2). قال سعيد بن جبير: طلبت مصداق هذا من القرآن فوجدته في قوله تعالى ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾.

---

(1) في «ك»: الحسن، والصواب الحسين؛ كما عند ابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهما راجع الدر المنثور (٣/٣٥٢).

(2) رواه النسائي في الكبرى (٦/٣٦٣-٣٦٤/رقم١١٢٤١)، وأحمد (٤/٣٩٦، ٣٩٨)، والطبري في التفسير (١٢/١٣). وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٦٥): رواه الطبراني واللفظ له، وأحمد بنحوه في الروايتين، ورجال أحمد رجال الصحيح، والبزار مختصراً. وروى من حديث أبي هريرة كما عند مسلم (٢/٢٤٥/رقم ١٥٣)، ومن حديث ابن عباس كما عند الحاكم (٢/٣٤٢).

يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ

وقوله: ﴿فلا تك فى مرية منه﴾ يعنى: فلا تك فى شك منه. وقيل معناه: فلا تك فى شىء منه أيها الشاك. قوله: ﴿إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته﴾ معناه: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا. ثم قال: ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ العرض: هو إظهار الشىء ليُرى ويُوقف على حاله، ومنه قولهم: عرض السلطان الجند. وقوله: ﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ اختلف القول فى الأشهاد، رُوىَ عن ابن عباس أنه قال: هم الأنبياء والمرسلون. وقال مجاهد: هم الملائكة. وقال بعضهم: الخلائق كلهم. وقوله: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ ظاهر المعنى.

وروى ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «يُدنى المؤمنَ ربُّه يوم القيامة حتى يضع كَنَفَه عليه، فيقرره بذنوبه ويقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: أعرف. هل تعرف كذا؟ فيقول: أعرف. فيسأله ما سأله، ثم يقول: سترته عليك فى الدنيا، وأنا أغفره لك اليوم، ثم يعطى كتابه بيمينه، وأما الكفار فيُنادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين».

وهذا الحديث هو حديث النجوى، اتفقوا على صحته عن النبى ﷺ (١).

قوله تعالى: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ معناه: الذين يمنعون عن دين الله.

وقوله: ﴿ويبغونها عوجًا﴾ يعنى: ويطلبون الاعوجاج فى دين الله. وقوله ﴿وهم

(١) رواه البخارى (٨/٢٠٤-٢٠٥/رقم٤٦٨٥)، ومسلم (١٧/١٣٥/رقم٢٧٦٨).

﴿١٩﴾ أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ

بالآخرة هم كافرون ﴾ قال ثعلب: تكرير «هم» على طريق التأكيد لدخول الآخرة بينهما.

قوله تعالى: ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ﴾ معناه: أولئك لم يكونوا فائتين، وقيل: أولئك لم يكونوا هاربين من عذابنا؛ فإن من هرب عن الشىء وقع العجز عنه. وقوله: ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ يعنى: من ناصرين وحافظين عن عذابنا. وقوله: ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ فإن قيل: ما معنى تضعيف العذاب وقد قال فى موضع آخر: ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾؟[١]

الجواب من وجهين:

أحدهما: أن مضاعفة العذاب بمضاعفة الجرم.

والآخر: أن الآية فى رؤساء أهل الشرك، وتضعيف العذاب عليهم بتضليل الاتباع ودعائهم إياهم إلى شركهم.

وقوله: ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ قال ابن عباس: حال الله بينهم وبين الإيمان. وذكر الفراء عن بعض أهل المعانى: أن معنى الآية: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يستمعون.

وسائر النحاة أنكروا تقدير «الباء» هاهنا. والاستطاعة: قوة تنطاع بها الجوارح للعمل.

وفى الآية قول ثالث: وهو أنهم لما لم يسمعوا استماع (التفهم)[٢] والانتفاع به، ولم يبصروا بصر الحقيقة؛ جعلهم كمن لا يستطيع السمع والبصر.

قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ معناه: غبنوا أنفسهم. وقيل: إن

(١) الأنعام: ١٦٠.

(٢) فى «ك» الفهم.

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ

أعظم الخسران، خسران النفس، وأعظم الربح: ربح النفس. وقوله: ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعنى: فات عنهم ما كانوا يزعمون من شفاعة الملائكة والأصنام.

قوله تعالى: ﴿لا جرم﴾ فيه قولان:

أحدهما: لا جرم يعنى: حقًا ﴿أنهم فى الآخرة هم الأخسرون﴾

والقول الثاني: أن قوله: ﴿لا﴾ ردٌّ لما قالوا، وقوله: ﴿جرم﴾ ابتداء كلام، وجرم بمعنى: كسب، قال الشاعر:

ولقد طعنتُ أبا عيينةَ طعنةً جَرَمَتْ فَزارةُ بعدها أن يغضَبُوا

يعنى: كسبتهم الغضب. وقال آخر:

نصبنا رأسه فى رأس جذع بما جرمت يداه وما اعتدينا.

فمعنى الآية: جرم أى: كسب لهم كفرهم التباب والخسران.

قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ قال مجاهد: يعنى: خشعوا. وقال بعضهم: اطمأنوا. ورُوىَ عن ابن عباس: خافوا. وقوله: ﴿إلى ربهم﴾ أى: لربهم، مثل قوله تعالى ﴿بأن ربك أوحى لها﴾[1] أى: إليها، فكذلك هاهنا: إلى ربهم.

وقوله: ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ الآية، الفريقان هاهنا: فريق الكفار، وفريق المؤمنين. وقوله: ﴿كالأعمى والأصم﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن «الواو» صلة، ومعناه: كالأعمى الأصم، كما يقول القائل: رأيت العاقل والظريف أى: رأيت العاقل الظريف.

(١) الزلزلة: ٥.

يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا

والقول الثانى: أن «الواو» لتعميم التشبيه، ومعناه: حال الكافر كحال الأعمى، وحاله كحال الأصم، وحاله كحال الأعمى والأصم.

وقوله: ﴿ والبصير والسميع ﴾ الكلام فيه مثل هذا، والمراد منه: حالة المؤمن. وقوله ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ رُوىَ أن الكفار لما سمعوا هذا قالوا: لا يستويان، فأنزل الله تعالى: ﴿ أفلا تذكرون ﴾ يعنى: أفلا تتعظون؟!

قوله: ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ﴾ قرئ بقراءتين؛ بالنصب والخفض؛ فمعنى النصب: بأنى لكم نذير مبين.

قوله تعالى: ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ معناه: آمُركم ألا تعبدوا إلا الله، والعبادة: التوحيد، وإنما بدأ بالتوحيد لأنه من أهم الأمور.

وقوله: ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أى: مؤلم، والمؤلم : المُوجع.

قوله تعالى: ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ الملأ هم الأشراف والرؤساء. وقوله: ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ ظاهر المعنى. وقوله: ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ والأراذل: جمع الرَّذْل، والرذل: الخسيس الدُّون. وقيل: الأراذل: الأسافل، والرذل: السفلة، وفى السفلة أقوال كثيرة لأهل العلم.

قال مالك بن أنس: السفلة : هو الذى يسب أصحاب النبى ﷺ. ورُوىَ عن الحسن بن زياد اللؤلؤى أنه قال: السفلة: الذى لا دين له.

وعن الأصمعى أنه قال: السفلة: الذى لا يبالى ما قال وما قيل له.

وعن ابن المبارك قال: هم الذين يتقلسون ويأتون أبواب القضاة يطلبون الشهادات. وروى ثعلب عن ابن الأعرابى قال: السفلة: هو الذى يأكل بدينه، وسفلة السفلة هو

نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا

الذى يسوى دنيا غيره بدينه. وفى بعض الآثار: أشقى الأشقياء من باع دينه بدنيا غيره. وقيل: إن السفلة هم أصحاب الصناعات الدنيّة مثل: الكناسين، والدباغين، والسماكين، والحجامين، والحاكة، وغيرهم. ورُوىَ أن بعض العلماء ببغداد سئل عن امرأة قالت لزوجها: يا سَفلَة، فقال: إن كنت سَفلَة فأنت طالق، فقال له ذلك العالم: ما صناعتك؟ فقال: سماك، فقال: سفلة والله سفلةٌ.

ورُوىَ عن على - رضى الله عنه - أنه قال: هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا.

وقوله: ﴿ بادى الرأى ﴾ قرئ بقراءتين: بالهمز، وترك الهمز فأما بالهمز فمعناه: أول الرأى؛ كأنهم قالوا: إنهم اتبعوك فى أول الرأى ولم يتفكروا ولو تفكروا، لم يتبعوك. وأما بادى الرأى بترك الهمز فمعناه: ظاهر الرأى. قال الزجاج: يعنى: اتبعوك ظاهرًا لا باطنًا.

وقوله: ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ﴾ يعنى: على بيان من ربى. وقوله: ﴿ وآتانى رحمة من عنده ﴾ الرحمة هاهنا هى النبوة والهدى. قوله ﴿ فَعَميَت عليكم ﴾ أى: فخفيت عليكم؛ لأن من عمى عن الشىء فقد خفى ذلك الشىء عليه. وقرئ: «فَعُمِّيَتْ عليكم» معناه: فأخفيت عليكم. وقوله: ﴿ أنلزمكموها ﴾ معناه: أنلزمكم الدعوة ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ قال قتادة: لو قدر الأنبياء أن يلزموا قومهم لألزموا [قومهم][1]؛ ولكن لم يقدروا.

قوله تعالى: ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله ﴾ معناه: ما

(١) من «ك».

رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ

ثوابى إلا على الله . وقوله : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ فيه دليل أنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين . وقوله : ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ يعنى : إنهم صائرون إلى ربهم فيجزى من طردهم . وقوله : ﴿ ولكنى أراكم قومًا تجهلون ﴾ ظاهر المعنى .

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ﴾ معناه : من يمنعنى من عذاب الله إن طردتهم ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى : أفلا تتعظون؟ .

قوله تعالى : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ معناه : ليس عندى خزائن الله فآتى ما تطلبون . وقوله : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ يعنى : لا أعلم الغيب فأخبركم بما تريدون . وقوله : ﴿ ولا أقول إنى ملك ﴾ هذا جواب لقولهم : ﴿ ما نراك إلا بشرًا مثلنا ﴾ . وقوله : ﴿ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم ﴾ تزدرى أى : تحتقر وتستخس، هذا جواب لقولهم : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ .

وقوله ﴿ لن يؤتيهم الله خيرًا ﴾ أى : لن يؤتيهم أجرًا ﴿ الله أعلم بما فى أنفسهم ﴾ . [يعنى : فى صدورهم، فى أن يأتيهم الله خيرًا][(1)]

وقوله : ﴿ إنى إذًا لمن الظالمين ﴾ يعنى : إنى إذًا لمن الظالمين لو قلت هذا أو طردتهم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ رُوىَ عن ابن عباس أنه قرأ : « فأكثرت جَدالنا » بالفتح؛ والمجادلة خصومة على وجه المبالغة، وأصل الجدل : هو الفتل، والعرب تسمى الصقر : الأجدل؛ لشدته فى الجوارح .

والفرق بين الحجاج والمجادلة : أن المطلوب من الحجاج ظهور الحق فى المطلوب، ومن المجادلة هو رجوع الخصم إلى قوله .

---

(١) من « ك » .

الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

والفرق بين المراء والمجادلة: أن المراء مذموم؛ لأنه خصومة بعد ظهور الحق، والجدال غير مذموم، اللهم إلا أن يُبالغ فيه من غير قصد طلب الحق.

وقوله تعالى: ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ هذا دليل على أنه كان وعدهم العذاب إن لم يؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ يعنى: بالعذاب. وقوله: ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى: بفائتين ولا هاربين.

قوله تعالى: ﴿ ولا ينفعكم نصحى ﴾ والنصح: إخلاص العمل عن الفساد. وقيل: إنه بيان موضع الغى ليُجْتَنب، وبيان موضع الرُّشد ليُطلَبَ. وقوله: ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ أراد موافقة لأمر الله. وقوله: ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ أكثر المفسرين على أن معناه: يضلكم. وقيل: يخلق الغى فى قلوبكم، والغى ضد الرشد. وذكر محمد بن جرير الطبرى أن معنى قوله: ﴿ يغويكم ﴾: يهلككم. ولم يرض ابن الأنبارى هذا من حيث اللغة، وقال: لا يستقيم فى اللغة أن يذكر الإغواء بمعنى الإهلاك. وقال بعضهم: يخيبكم من رحمته.

وقوله: ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ ظاهر المعنى، وفى الآية ردٌّ على القدرية.

قوله تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ بل يقولون: افتراه أى: اختلقه. وقوله: ﴿ قل إن افتريته فعلىَّ إجرامى ﴾ قرئ فى الشاذ: «فعلىَّ أَجرامى» بالفتح، والأجرام: جمع الجُرُم، والإجرام: هو كسب الذنب، ومعنى الآية: فعلىَّ وبال ذنبى وجرمى. وقوله: ﴿ وأنا برىء مما تجرمون ﴾ يعنى: أنا برىء مما تكتسبون من الذنب.

قوله تعالى: ﴿ وأُوحى إلى نوح ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح كانوا يضربون نوحًا حتى [يسقط][1]، فيلقونه فى لبدٍ ويلقونه فى بيته ويظنون أنه قد

(١) فى «الأصل»: سقط.

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

مات، فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم إلى الله؛ فرُوىَ أن شيخًا جاء يتوكأ على عصا ومعه ابنه فقال: يا بُنىَّ لا يغُرنك هذا الشيخ المجنون، فقال: يا أبة، أمكنى من العصا، فدفع إليه العصا، فضرب نوحًا على رأسه وشجَّه شجةً منكرة حتى سالت الدماء منه، وهو يدعوهم إلى الإيمان، فأنزل الله تعالى: ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ فحينئذ استجار بالدعاء وقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيّاراً﴾(١). وقوله: ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ قال مجاهد وقتادة: فلا تحزن. قال أهل اللغة: الابتئاس: حزن مع استكانة، قال الشاعر:

ما يَقسِمُ اللهُ فاقبل غيرَ مبتئسٍ　　منه واقعد كريمًا ناعم البالى

قوله تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ عن ابن عباس قال: بمرأى منا.

وعن الضحاك: بمنظر منا. وقيل: برؤيتنا وحفظنا. وفى القصة: أن جبريل - عليه السلام - أتى نوحا - عليه السلام - فقال: إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك. قال: كيف أصنع ولست بنجار؟! فقال: إن ربك يقول: اصنع الفلك فأنت بعينى. فأخذ القدوم وجعل يصنع الفلك فلا يخطئ موضعًا.

وقوله: ﴿ووحينا﴾ أى: وأمرنا. وقوله: ﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ فيه قولان:

أحدهما: ولا تخاطبنى فى إمهال الكفار، فإنى قد حكمت بإغراقهم.

والثانى: لا تخاطبنى فى ابنك؛ فإنه هالك مع القوم.

قوله تعالى: ﴿ويصنع الفلك﴾ رُوى عن زيد بن أسلم أنه قال: مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطع، ومكث مائة سنة يعمل الفلك. وعن كعب الأحبار أنه قال: إن نوحًا عمل السفينة فى ثلاثين سنة. ورُوىَ عن سلمان الفارسى: أن نوحًا

(١) نوح: ٢٦.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

عمل السفينة فى أربعمائة سنة. ذكر فى بعض التفاسير، والمعروف الأول.

وقوله: ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ قال أهل التفسير: كانوا إذا مروا عليه قالوا: إنَّ هذا الذى كان يزعم أنه نبى قد صار نجاراً.

ورُوىَ أنهم كانوا يقولون له: يا نوح، ما تصنع؟ فيقول: أصنع بيتا يمشى على الماء، فيضحكون ويتعجبون منه.

وفى بعض التفاسير عن ابن عباس: أنهم لم يكونوا رأوا بحراً قط ولا سفينةً، وإنما البحار الآن من بقايا الطوفان.

وقوله: ﴿ قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فإن قيل: كيف يجوز أن يسخر نبى من الأنبياء من قومه؟

الجواب: إن هذا على وجه ازدواج الكلام، ومعناه: إن تستجهلونى فإنى أستجهلكم إذا نزل العذاب. وقيل معناه: إن تسخروا منى فسترون عاقبة سخريتكم.

قوله تعالى ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ومعناه: فسوف تعلمون أينا ﴿ يأتيه عذاب يخزيه ﴾ وقيل: فسوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يخزيه، هذا ومعنى قوله: «يخزيه»: يهلكه، وقيل: يذله. وقوله: ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ معناه: ينزل عليه عذاب دائم، وهو الغرق.

قوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ اختلفوا فى التنور على أقوال: الأكثرون على أنه تنور الخابزة، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وجماعة.

وعن عكرمة قال: هو وجه الأرض. وحُكىَ هذا عن ابن عباس أيضًا. وقالوا: كأن الله تعالى جعل بينه وبين نوح علامةً، وقال: إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض فاركب السفينة.

مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ

والقول الثالث: ما رُوِىَ عن على - رضى الله عنه - أنه قال: « وفار التنور » يعنى: انفجر الصبح؛ وهو من قولهم: نوّر الصبح تنويراً. وقال بعضهم: التنور هاهنا: تنور من حجارة كانت حواء تخبز فيه فورثه نوح، وقال الله تعالى لنوح: إذا فار الماء من آخر موضع فى دارك فهو العلامة، واسم التنور اسم وافقت العربية فيه العجمية.

واختلفوا فى موضع التنور:

رُوِىَ عن على - رضى الله عنه - أنه قال: كان بالكوفة، وأشار إلى باب كندة للمسجد، ومثله عن الشعبى أن التنور فار من ناحية الجانب الأيمن من مسجد الكوفة. وحكى أن رجلاً جاء إلى على - رضى الله عنه - وقال: يا أمير المؤمنين، إنى اشتريت راحلة وأعددت زاداً لأذهب وأصلى فى مسجد بيت المقدس، فقال: بع راحلتك، وكُلْ زادك، وصلِّ فى هذا المسجد - يعنى: مسجد الكوفة -؛ فإنه صلى فيه سبعون نبيّاً، ومنه فار التنور.

وقال بعضهم: كان التنور بالشام. وقال بعضهم: كان بأرض الهند.

وقال بعضهم: التنور عين بالجزيرة تسمى عين الوردة.

وقوله: ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ « فيها » ينصرف إلى الفلك، واختلفوا فى قدر الفلك:

رُوِىَ عن الحسن البصرى أنه قال: كان طول السفينة ألفا ومائتين ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. والمعروف أن طولها كان ثلثمائة ذراع، وعرضها كان (خمسين)[1] ذراعاً، وارتفاعها إلى السماء كان ثلاثين ذراعًا، وقد قيل غير هذا، والله أعلم.

قال قتادة: وكان بابها فى عرضها. قالوا: وكانت ثلاث طبقات: الطبقة العليا للطير، والطبقة السفلى للسباع والوحش، والوسطى للنساء والرجال، والحاجز بين النساء والرجال جسد آدم؛ فإنه كان حمله مع نفسه فى السفينة.

(١) فى « ك »: خمسون، وهو خلاف الجادة.

إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ

وقوله: ﴿من كل زوجين اثنين﴾ الزوج كل واحد لا يستغنى عن مثله، يقال: زوج خف، وزوج نعلٍ، والمراد من الزوجين هاهنا: الذكر والأنثى، ومعناه: من كل ذكر وأنثى اثنين.

وفى القصة: أن نوحًا - عليه السلام - قال: يارب، كيف أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله تعالى السباع والطير إليه، فجعل يضرب بيديه فى كل جنس، فيقع الذكر فى يده اليمنى والأنثى فى يده اليسرى فيحملها فى السفينة. وذكر وهب بن منبّه أن الناس شكوا الفأر إلى نوح فى السفينة، فأمره الله تعالى أن يمسح جبهة الأسد، فخرج من منخريه سنّوران فأكلا الفأر، وشكوا إليه أيضا كثرة العذرة فأمره أن يمسح على مؤخر الفيل، فخرج منه خنزيران فأكلا العذرة.

وقوله تعالى: ﴿وأهلك﴾ معناه: واحمل أهلك ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ يعنى: ابنه وامرأته. وقوله: ﴿ومن آمن﴾ معناه: وأحمل من آمن.

وقوله: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ اختلفوا فى عددهم، رُوىَ عن ابن عباس أنه قال: كانوا ثمانين نفرًا. وعن بعضهم: كانوا اثنين وسبعين نفرًا. وعن الأعمش قال: كانوا سبعة نفرٍ: ثلاثة بنين لنوح وهم: سام، وحام، ويافث وثلاث كنائنهم - يعنى: نساؤهم- ، ونوح. وقال قتادة: كانوا ثمانية نفرٍ.

قوله تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مَجْريها ومَرْسيها﴾ بفتح الميمين، وقرأ أبو رجاء العطاردى: «مُجْرِيها ومُرْسِيها»(١) بالرفع.

أما معنى قوله: ﴿مجريها ومرسيها﴾ يعنى: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، ومعنى مَجرّيها ومَرسيها بالنصب يعنى: بسم الله جريها ورسوها. وقال بعضهم: كان إذا قال نوح: بسم الله وأراد الجرى جرت، وإذا قال: بسم الله وأراد الرسو رست.

وأما مدة لبث نوح فى السفينة: قالوا: استقلت السفينة على وجه الماء لعشر خلون من رجب، وجرت مائة وخمسين يومًا، وأرست لعشر خلون من ذى الحجة، وهبطوا

(١) قرأ حمزة، والكسائى وخلف، وحفص بفتح الميم وقرأ الباقون بضم الميم. انظر النشر (٢/٢٨٨ - ٢٨٩).

مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

يوم عاشوراء إلى الأرض، فصام ذلك اليوم وأمر القوم بصومه.

وفى القصص: أن السفينة طافت جميع الدنيا، وحين وصلت إلى الكعبة طافت بها أسبوعًا، وكانت الكعبة قد رُفعت وبقى الموضع.

وقوله: ﴿إن ربى لغفور رحيم﴾ معناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وهى تجرى بهم فى موج كالجبال﴾ معنى الموج: قطعة من البحر ترتفع عند شدة الريح.

وقوله: ﴿ونادى نوح ابنه وكان فى معزل﴾ قيل: فى معزل من السفينة، وقيل: فى معزل من قومه.

وقوله: ﴿يا بنى اركب معنا﴾ قرئ بقراءتين: «يا بُنَىَّ» و«يا بُنَىً»[1]، ومعناهما واحد. وقوله: ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ أى: من الكافرين، معناه ظاهر.

واختلفوا فى أنه هل كان ابنه من صلبه أو لا؟

فرُوِىَ عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وجماعة أنهم قالوا: كان ابنه من صلبه. قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما بغت امرأة نبى قط. وكان عكرمة يحلف أنه كان ابن نوح لصُلبه. وأما الحسن ومجاهد: فإنهما قالا: كان ابن امرأته، ولم يكن ابنه، واستدلا بقوله سبحانه وتعالى ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾[2]، قالا: كان يظن أنه ابنه ولم يكن ابنه. والأول هو الأصح. وقيل: إن اسمه كان كنعان. وقيل: إن اسمه كان «يام».

قوله تعالى: ﴿قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء﴾ يعنى: ألتجئ إلى الجبل يمنعنى من الغرق. فـ﴿قال﴾ له نوح: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾

(١) انظر النشر (٢/٢٨٩).
(٢) هود: ٤٦.

فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ

ففيه قولان:

أحدهما: أن العاصم بمعنى المعصوم، ومعناه: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

والقول الثاني: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿إلا من رحم﴾ هو الله تعالى . وقوله ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ أى: صار من المغرقين.

وفى القصة: أن الماء علا على رءوس الجبال بقدر أربعين ذراعًا. وقيل: دونه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعى ماءك﴾ معناه: اشربى ماءك، ويقال: ابلعى أى: غَيِّبى ماءك فى جوفك. وقوله: ﴿ويا سماء أقلعى﴾ أى: أمسكى. وقوله: ﴿وغيض الماء وقضى الأمر﴾ معناه: ونقص الماء ونضب. وقوله: ﴿وقضى الأمر﴾ أى: فرغ من الأمر، وهو هلاك القوم. وقوله: ﴿واستوت على الجودىِّ﴾ معناه: واستقرت على الجودى، قيل: إنه جبل بناحية آمد. وقال الفراء: جبل بناحية نصيبين. وقوله: ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أى: هلاكا للقوم الظالمين.

وفى مصحف ابن مسعود - رضى الله عنه -: «وغيض الماء واستوت على الجودى وقضى الأمر».

ورُوِىَ أن نوحًا - صلوات الله عليه - بعث بالغراب ليأتيه بخبر الأرض، فوقع على جيفة ولم يرجع، فبعث بالحمامة فجاءت بورق زيتونة فى منقارها ولطخت رجليها بالطين؛ ليعلم نوح أن الماء قد نضب، فأعطيت الطوق [وخضاب][1] الرجلين من ذلك الوقت.

وهذه الآية تُعدُّ من فصيحات القرآن، وحُكىَ أنها قرئت عند أعرابى فقال: هذا

(١) فى «الأصل، وك»: وخطاب..

إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ

كلام قادر.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ يعنى: أنت وعدتنى أن تنجى أهلى وأنت أحكم الحاكمين يعنى: وأنت أحكم الحاكمين بالعدل.

قال الله تعالى: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ معناه: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم. وعلى قول الحسن، ومجاهد يعنى: ليس بابنك.

وقوله: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ معناه: إنه ذو عمل غير صالح.

والقول الثانى: أن سؤالك إياى إنجاءه؛ عمل غير صالح.

وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه - «إنه عَمِلَ غَيْرَ صالح».

﴿فلا تسألن ماليس لك به علم﴾ وهذا يؤيد المعنى الثانى. وقرئ: «إنه عمِل غيرَ صالح»[1] ومعناه: إن ابنك عَمِل غيرَ صالح.

وقوله تعالى: ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن نوحًا كان يظن أنه مسلم وهو يبطن الكفر من أبيه، فهذا معنى قوله: ﴿لا تسألن ما ليس لك به علم﴾

والثانى: معناه: أنه ليس بابنٍ لك على ما ذكرنا.

وقوله: ﴿إنى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ معناه: إنى أحذرك أن تكون من الآثمين، وذنب المؤمن جهل، وذنب الكافر كفر.

والقول الثانى: ﴿إنى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ - يعنى: أن تدعو بهلاك الكفار ثم تطلب نجاة كافر.

---

(١) انظر النشر (٢ / ٢٨٩).

الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا

قوله تعالى: ﴿قال﴾ أى: قال نوح: ﴿رب إنى أعوذ بك أن أسألك﴾ ...(١)

غير أنى أمتنع بك أن أسألك ﴿ما ليس لى به علم﴾ ومعناه: سؤال العصمة.

وقوله: ﴿وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قيل يانوح اهبط بسلام منا﴾ معناه: انزل بسلامةٍ لك من قبلنا.

وقوله: ﴿وبركات عليك﴾ البركة: ثبوت الخير، ومنه بروك البعير. وقيل: إن البركة ها هنا هو أن الله سبحانه وتعالى جعله آدم الأصغر، فأهلك سائر من معه من غير نسل، وجعل النسل من ذريته إلى قيام الساعة. وقوله: ﴿وعلى أمم ممن معك﴾ معناه: على ذرية أمم ممن معك. قال محمد بن كعب القرظى: دخل فيه كل مؤمن إلى قيام الساعة كان فى صلب نوح. وقوله ﴿وأمم سنمتعهم﴾ ابتداء كلام، ومعناه: وأمم سنمتعهم وهم الكفار. وقوله ﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾ أى: نلقيها إليك. قوله: ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ يعنى: من قبل إنزال القرآن. قوله: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ عادٌ قوم كانوا بالأحقاف، وهى رمال بين اليمن والشام. وقيل: إنهم كانوا بنفس اليمن، وكانوا أعطوا زيادة فى الجسم والقوة على سائر الخلق. وقوله: ﴿أخاهم﴾ يعنى: أخاهم فى النسب لا فى الدين، ومعنى الآية: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

(١) كلمة غير مقروءة فى الأصلين.

قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

قوله: ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ﴾ أى: وحِّدوا الله. قوله: ﴿ مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ والافتراء: الكذب، وكان كذبهم على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أى: ثوابًا؛ يعنى: لا أسألكم على الإبلاغ أجراً. وقوله: ﴿ إن أجرى إلا على الذى فطرنى ﴾ معناه: إنْ ثوابى إلا على الذى فطرنى، أى: خلقنى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ظاهر [المعنى][1].

قوله تعالى: ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ قدم الاستغفار على التوبة لما بيّنّا من المعنى. وقوله: ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ معناه: يرسل السماء عليكم مدراراً بالمطر مرةً بعد أخرى فى أوقات الحاجة، والمدرار على طريق المبالغة، يقال: امرأة معطار مذكار. وقوله: ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ رُوىَ أن الله تعالى حبس عنهم المطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام الأمهات فلم يلدن، فمعنى قوله: ﴿ يزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ يعنى: يرسل عليكم المطر فتزدادون مالاً، ونعيد أرحام الأمهات إلى ما كان فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: «ويزدكم قوة إلى قوتكم» أى: شدة إلى شدتكم. وقيل: يزدكم قوة فى دينكم إلى قوتكم فى أبدانكم. وقوله: ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ أى: ولا تعرضوا.

قوله تعالى: ﴿ قالوا ياهود ما جئتنا ببينة ﴾ أى: بحجة واضحة. وقوله: ﴿ وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ﴾ أى: بسبب قولك: ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أى: بمصدقين.

قوله تعالى: ﴿ إن نقول إلا اعتراك ﴾ معناه: إلا أصابك، قال الشاعر:

أَتَيْتُكَ عـاريًا خلقـا ثيابى على خوفٍ تَظُنُّ بِى الظنـونا

---

(١) من «ك».

﴿٥٣﴾ إن نَّقُولُ إلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإن

والعارى ها هنا هو السائل؛ سمى عاريًا لأنه يطلب الإصابة.

وقوله: ﴿بعض آلهتنا بسوء﴾ أى: بلمم وخبل، كأنهم قالوا: إنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل واللمم. وقوله: ﴿قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه﴾ فإن قيل: كيف قال للمشركين: ﴿واشهدوا﴾ ولا شهادة لهم؟ قلنا: هذا مذكور على طريق المبالغة فى الحجة، لا على طريق إثبات الشهادة لهم.

وقوله: ﴿فكيدونى جميعًا ثم لاتنظرون﴾ الكيد: احتيالٌ بِشَرٍّ. وهذا القول معجزة لهود - صلوات الله عليه - فإنه أمرهم أن يحتالوا بكل حيلة لإيصال مكروهٍ إليه، ومنعهم الله تعالى عن ذلك فلم يقدروا عليه، وهذا مثل قول نوح فى سورة يونس: ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىَّ ولا تنظرون﴾[1] وقد بيّنّا تفسيره.

قوله تعالى: ﴿إنى توكلت على الله ربى وربكم﴾ معناه: اعتمدت على الله ربى وربكم. وقوله: ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ معناه: ما من دابة إلا وهى فى قبضته وتنالها قدرته، وخصّ الناصية بالذكر؛ لأن الإذلال والإقماء فى أخذ الناصية.

وقوله: ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن معناه: إن ربى يَعمل بالعدل، وإن كان قادراً على كل شىء، فلا يعمل إلا بالإحسان والعدل.

والثانى: ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ معناه: إن دين ربى على صراط مستقيم.

والثالث: قوله ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ هو فى معنى قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾[2] يعنى: إنه على طريق الخَلْقِ أجمع.

(١) يونس: ٧١.
(٢) الفجر: ١٤.

تولَّوْا فقدْ أبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسلْتُ به إلَيْكُمْ ويَسْتَخْلفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا

قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ معناه: فإن أعرضوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم. قوله: ﴿ويستخلف ربى قوماً غيركم﴾ معناه: إن أعرضتم يهلككم ويستخلف قوماً غيركم هم أطوع لله منكم. وقوله ﴿ولا تضرونه شيئا﴾ يعنى: ولا تنقصونه شيئًا. وقوله: ﴿إن ربى على كل شيء حفيظ﴾ أى: حافظ لأمور خلقه على ما دَبَّر وقَدَّر.

قوله تعالى ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه﴾ الآية. قوله: ﴿أمرنا﴾ أى: عذابنا، ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أى: بما هديناهم وبيّناهم طريق الهُدى حتى آمنوا. وقوله: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ العذاب الغليظ: هو العذاب الذى أهلك به عاداً وقومه وهو الريح العقيم، فكانت الريح تدخل فى مناخرهم وأفواههم، وتخرج من أدبارهم فتقطعهم تقطيعاً أى: قطعة قطعة.

وقوله تعالى: ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ معناه: أنكروا آيات ربهم. وقوله: ﴿وعصوا رسله﴾ أى: بالتكذيب. وقوله: ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ قيل: الجبار هو الذى يقتل على الغضب، والعنيد هو المعاند. قال الشاعر:

إنى لشيخ لا أطيقُ العُنَّـــدَا ولا أطيق البكرات الشـــردا

قوله تعالى: ﴿وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة﴾ اللعنة: هى الإبعاد عن الرحمة. قال أهل العلم: ولايجوز لعن البهائم؛ لأنها غير مستحقة للبُعد من رحمة الله. وقد ثبت «أن رجلاً لعن بعيره فى سفر فأمره النبى ﷺ أن ينزل عنه ويخليه وقال: لايصحبنا ملعون»[1]. وهذا على طريق الزجر والردع للاعن. وقوله: ﴿ويوم القيامة ألا إن عاداً

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده (٦/٣٠٥ - ٣٠٦/رقم٣٦٢٢)، والطبرانى فى الأوسط، كما فى مجمع البحرين (٥/٣٢٢/رقم٣١٤٨) من حديث أنس. =

كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا

كفروا ربهم﴾ أى: كفروا بربهم. وقوله: ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ معناه: ألا سحقًا وخزيًا وهلاكًا لعادٍ قوم هود.

قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ معناه: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، وقوله: ﴿أخاهم﴾ على ما قدمنا، وثمود قوم كانوا بحجر بين الحجاز والشام.

وقوله: ﴿قال ياقوم اعبدوا الله﴾ أى: وحّدوا الله ﴿ما لكم من إله غيره﴾ أى: ما لكم من معبود غيره.

وقوله: ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنشأكم فى الأرض، والآخر وهو: أنه أنشأكم من الأرض؛ لأنه خلقهم من آدم، وخلق آدم من الأرض.

وقوله ﴿ واستعمركم فيها﴾ [فيه][(١)] قولان:

أحدهما: أطال عمركم فيها وكان الواحد منهم يعيش من ثلثمائة سنة إلى ألف سنة، وهكذا قوم عاد.

والقول الثانى: جعلكم عُمَّاراً فيها، ببناء المساكن وغرس الأشجار. ذكره الفراء والزجاج.

وقوله: ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ قد بينا المعنى. وقوله: ﴿إن ربى قريب

= وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٠): ورجاله رجال الصحيح. ورواه أحمد (٢/ ٤٢٨) عن أبى هريرة، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٠): ورجاله رجال الصحيح.

ورواه مسلم (١٦/ ٢٢٢ - ٢٢٣/رقم٢٥٩٥)، وأبو داود (٣/ ٢٦/رقم ٢٥٦١) من حديث عمران بن حصين ولكن فيه: أن الذى لعن الناقة امرأة.

وكذا عند مسلم (١٦/ ٢٢٣-٢٢٤/رقم٢٥٩٦). وعند أحمد (٦/ ٧٢،٢٥٧-٢٥٨) من حديث عائشة أنها هى التى لعنت الناقة.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا

مجيب ﴾ قريب من المؤمنين، مجيب لدعائهم.

قوله تعالى: ﴿ قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أى: قد كنا نرجوا فيك الخير، والآن قد يئسنا من خيرك وفلاحك. وقوله: ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ ظاهر المعنى. وقوله: ﴿ وإننا لفى شكٍّ ﴾ لفى ريب ﴿ مما تدعونا إليه مريب ﴾ أى: مرتاب. وهذا على طريق التأكيد.

قوله تعالى: ﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ﴾ أى: على حجة من ربى. وقوله تعالى: ﴿ وآتانى منه رحمة ﴾ الرحمة هاهنا: بمعنى النبوة.

وقوله: ﴿ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ﴾ أى: فمن يمنع منى عذاب الله إن عصيته.

وقوله: ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إن اتبعتكم ما كنت إلا كمن يزداد خساراً وهلاكًا.

والقول الثانى: فما تزيدوننى غير تخسير لكم، وحقيقته: أنى أطلب منكم الرشد، وأنتم تعطوننى الخسار والهلاك، يعنى: لأنفسكم.

هذا كله جواب عن سؤال من سأل فى هذه الآية: كيف قال ﴿ فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ ولم يك صالح فى خسار؟

وقوله تعالى: ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ روى أن قومه طلبوا منه أن يخرج ناقة عشراء من هذه الصخرة الصماء، وأشاروا إلى صخرة أمامهم، قال: فدعا صالح ربه فتمخضت الصخرة وسُمع لها أنين كأنين الناقة، ثم خرجت منها ناقة كأعظم ما

تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ

يكون من النوق، وولدت فى الحال ولداً مثالها، فهذا معنى قوله: ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾.

وقوله: ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ﴾ أى: فدعوها تأكل فى أرض الله. وقوله: ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أى: بإهلاك. وقوله ﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾ معناه: قريب من إهلاك الناقة.

قوله تعالى: ﴿ فعقروها ﴾ العقر ها هنا: جراحة تؤدى إلى الهلاك.

وقوله ﴿ فقال تمتعوا فى داركم ﴾ معناه: عيشوا فى داركم، والدار بمعنى الديار.

وقوله: ﴿ ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ فرُوِىَ أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام، فتصبحون اليوم الأول ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون اليوم الثانى ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون اليوم الثالث ووجوهكم مسودة؛ فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

قوله تعالى: ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ فى بعض التفاسير: أنه آمن معه أربعة آلاف نفر. وقوله: ﴿ ومن خزى يومئذ ﴾ معناه: ومن هلاك يومئذ. وقوله: ﴿ إن ربك هو القوى العزيز ﴾ قد بيَّنَّا معنى القوى والعزيز من قبل.

قوله تعالى: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ المعروف أنه صاح بهم جبريل صيحة واحدة فهلكوا عن آخرهم، وقال بعضهم: خلق الله تعالى صياحًا فى جوف بعض الحيوانات فأهلكهم، فإن قيل: الصيحة مؤنثة، وقد قال: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾؟

والجواب عنه: أن الصيحة ها هنا بمعنى الصياح، وهو جائز فى اللغة.

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن

وقوله: ﴿ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ أى: ميتين. ويقال: إنهم سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم، ومنه جثم الطائر. ومنه الخبر المروى: «نهى عن المجثمة»[1].

وقوله تعالى: ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ معناه: كأن لم يقيموا فيها منعمين مسرورين.

وقوله: ﴿ ألا إن ثمودا كفروا ربهم ﴾ أى: بربهم. وقوله: ﴿ ألا بعدا لثمود ﴾ معناه كما قدمنا من قبل.

قوله تعالى: ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ قال السدى: كانوا اثنى عشر مَلَكًا. وقال غيره: كانوا تسعة من الأملاك.

ويقال: إنهم ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. وقيل: جاءوا على صورة البشر.

وفى القصة: أن إبراهيم - صلوات الله عليه - كان لايأكل إلا مع الضيف، ومكث خمس عشرة ليلة ولم يأته ضيف، ثم جاءه هؤلاء الملائكة. وقوله: ﴿ بالبشرى ﴾ فيه قولان:

أحدهما: بالبشرى بإسحاق، والآخر: بالبشرى بإهلاك قوم لوط.

وقوله: ﴿ قالوا سلامًا ﴾ معناه: قالوا سلمنا سلامًا ﴿ قال سلام ﴾ قرئ بقراءتين: إحداهما: «سلام» وهو المعروف، والآخر: «سِلْمٌ» قراءه حمزة والكسائى[2]. أما قوله: ﴿ سلام ﴾ معناه: جوابى سلام، أو قولى سلام. أما قوله: «سِلْمٌ» قيل: إن السلم والسلام بمعنى واحد، كالحِلِّ، والحلال، والحرم والحرام. ويقال: إن «السلم» بمعنى

---

(١) رواه الترمذى (٤/٢٣٨/رقم ١٨٢٥)، وقال: حسن صحيح، والنسائى (٧/٢٤٠/رقم ٤٤٤٨)، وأحمد (١/٢٢٦، ٢٤١)، والحاكم (٢/٣٢) وصححه على شرط البخارى، كلهم من حديث ابن عباس، وقد روى عن غير واحد من الصحابة، انظر تخريج الكشاف للزيلعى (١/٤٦٦ - ٤٦٩).

(٢) انظر النشر (٢/٢٩٠).

جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن

الصُّلح، فمعناه: أنا أطلب السلامة منكم.

وقوله: ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ فهذا دليل على أن الضيف ينبغى أن يُعجل له [بشىء][(1)] يأكله، وهو سنة إبراهيم – صلوات الله عليه – وقوله: ﴿ أن جاء بعجل حنيذ ﴾ العجل: ولد البقرة، والحنيذ: هو المحنوذ، وهو المشوى على الحجارة المحماة يُخَدُّ له فى الأرض خَدًّا فيشوى فيه. ورُوىَ أنه كان سمينًا يسيل دسمًا.

قوله تعالى: ﴿ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ﴾ أى: لما رآهم لايأكلون؛ فإن الملائكة لا تأكل. قوله: ﴿ نكرهم ﴾ أى: أنكرهم، قال الشاعر:

فأنْكَرَتْنِى وما كان الذى نَكِرَتْ ... من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعا

وقوله: ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ كان إبراهيم – صلوات الله عليه – نازلا على طرف من الناس، فلما دخل عليه هؤلاء القوم ولم يأكلوا خاف أنهم جاءوا لبلية وقصد مكروه، وعادة العرب أن القوم إذا أكلوا من الطعام أمنوا منهم، وإذا لم يأكلوا استشعروا خوفا، فهذا معنى قوله: ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ وقوله: ﴿ وأوجس ﴾ أى: فأضمر منهم خوفا. وقوله: ﴿ قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ معناه: إنا ملائكة أرسلنا ربنا إلى قوم لوط.

وقوله: ﴿ وامرأته قائمة ﴾ فى مصحف ابن مسعود: «وامرأته قائمة وهو قاعد» وهى سارة بنت هاران ، فيقال: إن سارة كانت تخدمهم وإبراهيم يتحدث معهم. ويقال: إن سارة كانت قائمة وراء الستر.

قوله: ﴿ فضحكت ﴾ الأكثرون على أن الضحك هاهنا هو الضحك المعروف، وقال مجاهد وعكرمة: فضحكت، أى: حاضت. يقال: ضحكت الأرنب، إذا حاضت.

(1) فى «الأصل»: شىء.

وأما الضحك المعروف فاختلف القول فى أنها لِمَ ضحكت؟

فالأكثرون على أنها ضحكت سروراً بما زال من الخوف عنها وعن إبراهيم. وقيل: ببشارة إسحاق. وعلى هذا القول: الآية على التقديم والتأخير، فكأنه قال: وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت.

والقول الثالث: ضحكت تعجبا من غفلة قوم لوط، وقد نزلت الملائكة بعذابهم.

وقوله ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ ظاهر المعنى. وقوله ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أى: من بعد إسحاق يعقوب. قال أبو عبيدة: الوراء: ولد الولد.

وقوله ﴿ يعقوب ﴾ قرئ بقراءتين: «يعقوبُ» و«يعقوبَ» بالرفع والنصب[1] أما الرفع معناه: ويحدث يعقوب من بعد إسحاق. وأما النصب فمعناه: بشرناها بإسحاق وبشرناها بيعقوب. وأنشد الشاعر فى الوراء:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء اللـه للمـرء مذهب

وهذا شعر الأعشى.

قوله تعالى: ﴿ قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا ﴾ قالوا: أصل قوله: ﴿ ياويلتى ﴾: ياويلتى؛ إلا أن ها هنا أبدل الألف عن الياء. ومعنى قوله: ﴿ ياويلتى ﴾ هاهنا: ياعجبًا؛ وهذه كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، وليس على حقيقة الدعاء بالويل.

وقوله تعالى: ﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ اختلفوا فى سن إبراهيم وسارة فى ذلك الوقت.

قال محمد بن إسحاق: كان سن إبراهيم مائة وعشرين سنة، وسن سارة تسعين سنة. وقال بعضهم: كان سن إبراهيم مائة سنة، وسن سارة تسعة وتسعين سنة. وقيل غير هذا، والله أعلم.

(١) قرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع.

لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ

قوله تعالى ﴿وهذا بعلى﴾ يعنى: هذا زوجى ﴿شيخا﴾ نصب على القطع، وقيل: على الحال.

وفى قراءة ابن مسعود: «وهذا بعلى شيخ» على الخبر. قوله تعالى ﴿إن هذا لشىء عجيب﴾. يعنى: إن هذا لشىء مستعجب بخلاف العادة.

قوله: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ معناه: لا تعجبى من أمر الله؛ فإن الله إذا أراد شيئًا كان.

وقوله تعالى: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ فيه معنيان:

أحدهما: أن هذا على معنى الدعاء من الملائكة.

والآخر: أنه على معنى الخبر، و﴿رحمة الله﴾ أى: نعمة الله ﴿وبركاته﴾ والبركات: جمع البركة، والبركة: ثبوت الخير. وقيل: وبركاته: سعاداته.

وقوله: ﴿عليكم أهل البيت﴾ هذا دليل على أن الأزواج يجوز أن يسمين أهل البيت.

وزعمت الشيعة فى قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾[1] أن الأزواج لايدخلن فى هذا. وهذه الآية دليل على أنهن يدخلن فيها.

قوله: ﴿إنه حميد مجيد﴾ الحميد: هو المحمود فى أفعاله، والمجيد: هو الكريم، وأصل المجد هو الرفعة والشرف.

قوله تعالى: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ قال قتادة: الروع: الفزع؛ وأما الرُّوع بالرفع هو النفس، ومنه قوله ﷺ: «ألقى روح القدس فى رُوعى: (أن لن)[2] تموت

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) فى «ك»: ألا.

نفسٌ حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[1]. وقوله: ﴿وجاءته البشرى﴾ قيل: إن البشرى بإسحاق ويعقوب. وقيل: إنها بإهلاك قوم لوط. وقوله: ﴿يجادلنا﴾ معناه: جعل إبراهيم يجادلنا، والمجادلة هاهنا كما قال فى سورة الذاريات والحجر: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾[2] فإن قيل: كيف يجوز أن يجادل إبراهيم ربه فى شىء قضاه وأمر به؟

الجواب: أن هذه المجادلة كانت مع الملائكة لا مع الرب، وإنما قال: ﴿يجادلنا﴾ على توسع الكلام. وفى التفسير: أن مجادلته كانت أنه قال للملائكة: أرأيتم لو كان فى مدائن قوم لوط خمسون[3] من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون أتهلكونهم؟ قالوا: لا، فما زال ينقص عشرة عشرة حتى بلغ خمسة نفر وكان عند إبراهيم أن امرأة لوط مؤمنة. وكانت هى الخامسة، ولم يعلم أنها كافرة، فما بلغ عدد المؤمنين خمسة ﴿فى قوم لوط﴾.

وقوله تعالى ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ قد بيّنّا من قبل. ورُوىَ عن بكر بن عبد الله المزنى قال: المنيب هو الذى يكون قلبه مع الله تعالى. وحقيقة الإنابة: هى الرجوع، يقال: ناب وآب وأناب، إذا رجع.

قوله تعالى ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ معنى الآية: أن الملائكة قالوا: يا إبراهيم أعرض عن المجادلة.

قوله: ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ أى: قضاء ربك وحكم ربك. وقوله: ﴿وإنهم

---

(١) رواه ابن ماجة (٢/٧٢٥/رقم ٢١٤٤)، والحاكم (٢/٤)، وابن حبان - الإحسان - (٨/٣٢/رقم ٣٢٣٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٣/١٥٦-١٥٧)، و(٧/١٥٨)، والبيهقى (٥/٢٦٤-٢٦٥)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢/١٨٦/رقم١١٥٢) من حديث جابر بن عبد الله. رواه الحاكم من طريق ابن المنكدر عنه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ومن طريق أبى الزبير عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم. وفى الباب عن أبى أمامة، وابن مسعود، وحذيفة.

(٢) الحجر: ٥٧، الذاريات: ٣١.

(٣) فى «ك»: خمسين.

أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا

آتيهم عذاب غير مردود ﴾ أى: غير مصروف عنهم.

قوله: ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً ﴾ هؤلاء الرسل هم الذين كانوا عند إبراهيم جاءوا لوطاً على صورة غلمان مردٍ، حسنٌ وجوههم، نظيف ثيابهم، طيب [روائحهم](١).

وفى القصة: أنهم لقوا لوطًا وهو يحتطب واستضافوه، فحمل الحطب وتبعه الملائكة، فمر معهم على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط لهم: إن قومى شر خلق الله، ثم إنه مرَّ معهم على قوم آخرين منهم، فغمزوا - أيضًا - فيما بينهم، فقال لوط - ثانيًا - : إن قومى شر خلق الله تعالى، ثم إنه مر معهم على قوم آخرين، فتغامزوا فيما بينهم - أيضا - فقال لوط - ثالثا - : إن قومى شر خلق الله، وكان الله تعالى قال لجبريل: لا تهلكهم حتى يشهد لوط عليهم ثلاث مرات، فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة الذين معه: اشهدوا.

وقوله: ﴿ سيء بهم ﴾ معناه: ساءه مجيئهم. وقوله: ﴿ وضاق بهم ذرعًا ﴾ يقال: ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع فى مكروه لا يُطيق الخلاص عنه.

ومعنى الآية هاهنا: أنه ضاق ذرعاً فى حفظهم ومنع القول منهم.

قوله تعالى ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ أى: شديد، قال الشاعر:

فإنك إن لم تُرضِ بكر بن وائل ... يكن لك يومٌ بالعـراقِ عصِيبٌ

أى: شديد. وقال آخر:

يوم عصيب يَعْصِبُ الأبطالاَ ... عَصْـبَ القَوِىِّ السَّلَم الطِّوَالا

قوله تعالى: ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ الآية، يهرعون إليه معناه: يسرعون ويهرولون؛ وقد بيّنًا أن لوطا قد مر معهم بَهْم. وفى رواية أخرى: أن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط - عليه السلام - وكان لوط فى داره، فذهبت امرأته السوء الكافرة إلى قومه وأخبرتهم مجيء هؤلاء فلما سمعوا جاءوا لقصد الفاحشة.

(١) فى «الأصل، وك» أواحهم.

يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا

وقوله: ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ يعنى: الفواحش؛ وهى: إتيان الرجال.

وقوله: ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه عرض عليهم بنات نفسه تزويجًا ونكاحًا؛ فإن قال قائل: كيف يجوز للمشرك أن يتزوج بمسلمة؟

والجواب: أن ذلك كان جائزا فى شريعتهم. ومنهم من قال: عرض عليهم بشرط الإسلام.

والقول الثانى - وهو قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما -: أنه عرض عليهم نساءهم، وسماهن بنات نفسه؛ لأن النبيَّ للأُمَّة بمنزلة الأب؛ وفى قراءة أُبيٍّ بن كعب: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم». ومنهم من قال: إنما قال هذا على طريق الدفع، لا على طريق التحقيق، ولم يرضوا هذا القول؛ لأنه كان معصومًا من الكذب. وقوله: ﴿هن أطهر لكم﴾ معناه: أحل لكم.

قوله: ﴿فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى﴾ معناه: خافوا الله ولا تفضحونى فى أضيافى. ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ معناه: أليس منكم رجل يأمر بالمعروف ويدفع القوم عن أضيافى. ورُوِىَ عن عكرمة أنه قال: معنى قوله: ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ معناه: أليس فيكم رجل يقول: لا إله إلا الله.

قوله: ﴿قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق﴾ فيه معنيان:

أحدهما: ما لنا فى بناتك من حق، أى: حاجة وشهوة.

والثانى: مالنا فى بناتك من حق، أى: من نكاح. وقوله ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ معناه: إنا نريد أدبار الرجال.

نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ

قوله تعالى: ﴿ قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ القوة هاهنا: هى القوة فى البدن، أو القوة بالأتباع. والركن الشديد: المنعة بالعشيرة.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «رحم الله أخى لوطًا؛ لقد كان يأوى إلى ركن شديد»(١) أى: إلى الله. رواه أبو هريرة.

وعن أبى هريرة أنه قال: ما بعث الله بعد ذلك نبيًا إلا فى منعةٍ من قومه.

قوله تعالى: ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ . رُوىَ أنهم جاءوا وكسروا باب لوط وقصدوا الدخول. وفى رواية أخرى: أنهم كانوا ينازعون مع لوط على الباب، فقال جبريل: يا لوط، افتح الباب ودعهم يدخلوا، فلما دخلوا ضرب بجناحه وجوههم فعموا كلهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴾(٢) فقالوا: يا لوط، لقد جئتنا بقوم سحرة، سترى ما تلقى منا غدا، وكانوا جاءوا مساءً. وقوله: ﴿ لن يصلوا إليك ﴾ معناه معلوم. وقوله: ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ قُرئ: «فَسرْ»(٣) من السُّرى، و«فَأَسْرِ» من الإسراء؛ والسُّرى: هو السير بالليل. وقال الشاعر:

عند الصباح يحمدُ القومُ السُّرَى ... وتَنْجلِى عنى غيابات الكَرى

وقوله: ﴿ أسرِ ﴾ من الإسراء، والمعنيان واحد. وقوله: ﴿ بقطع من الليل ﴾ أى: بآخر الليل. وقيل: إنه السحر الأول. قال الشاعر:

ونائحةٍ تنوح بقِطْع ليلٍ ... على مَيت بقارعةِ الصعيدِ

---

(١) متفق عليه، فرواه البخارى (٦/٤٧٣/رقم٣٣٧٢)، ومسلم (١٥/١٧٩/رقم١٥٢،١٥٣).

(٢) القمر: ٣٧.

(٣) كذا «بالأصل، وك» والصواب: فَاسْرِ، وهى قراءة نافع، وأبى جعفر، وابن كثير، بوصل الهمزة، وقرأ الباقون بقطعها انظر النشر (٢/٢٩٠).

مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ

وقوله تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتُك﴾ بالرفع، وقرئ: «إلا امرأتَك» بالنصب(١)؛ فقوله بالنصب معناه: فأسر بأهلك إلا امرأتك. ومن قرأ بالرفع معناه: ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك؛ فإنها تلتفت؛ فرُوىَ أنها لما سمعت الهدة فى هلاك القوم التفتت وراءها فأصابها حجر فماتت، وقد كان الله أمر لوطاً وأهله أن لا يلتفتوا. وقوله: ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ ظاهر المعنى. قوله: ﴿إن موعدهم الصبح﴾ رُوىَ أن لوطاً - عليه السلام - لما سمع هذا من جبريل قال: يا جبريل، أريد أن تهلكهم الآن فقال له مجيبًا: ﴿أليس الصبح بقريب﴾؟

قوله تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أى: عذابنا. وقوله: ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ رُوىَ أن جبريل جعل جناحه تحت مدائن لوط، وهى خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف، وقيل: فيها أربعة آلاف ألفٍ - ثم رفع المدائن حتى قربت من السماء وسمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ورُوىَ أنه لم يُكفأ لهم إناء ولا انتبه لهم نائمٌ، ثم قلبها وأتبعهم الله تعالى بالحجارة، هذا معنى قوله تعالى: ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾.

وقوله: ﴿من سجيل﴾ قال ابن عباس: سنك وكل؛ وكلمة سجيل فارسيةٌ معربةٌ.

وقيل: إنه كان طينا مطبوخاً كالآجر.

والقول الثانى: أن السجيل هو السماء الدنيا.

والقول الثالث: أن السجيل هو السِّجِّين؛ أبدلت النون باللام. وقيل: إن السجيل: مأخوذ من السَّجْلِ؛ وهو سَجل الدلو. قال الشاعر:

وأنا الأخضر من يعرفنى ... أخضر الجلدة من بيت العرب

(١) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو برفع التاء، وقرأ الباقون بنصبها. انظر النشر (٢ / ٢٩٠).

مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ

من يساجلني يساجل ماجداً يملأ الدّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَب [١]

ومعنى السجيل فى الآية: هو الإرسال، يعنى: إرسال الحجارة.

وقوله: ﴿ منضود ﴾ معناه: يتبع بعضها بعضاً.

وقوله: ﴿ مسومة ﴾ أى: معلّمة. وفى القصة: أنه كان عليها خطوط حُمر فى سواد.

والقول الثانى: « مسوّمة » أى: عليها أسماء القوم. وعن الحسن البصرى: أنه كان عليها شبه الخواتيم.

قوله: ﴿ عند ربك ﴾ ظاهر المعنى.

وقوله: ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ يعنى: من ظالمى أهل مكة ببعيد.

وقد رُوِىَ فى بعض الآثار: أن على رأس كل ظالم حجراً معلقاً فى السماء ينتظر أمر الله تعالىٰ. وهذا من الغرائب، والله أعلم.

وفى بعض القصص: أنه كان منهم رجل فى الحرم، فبقى الحجر معلقاً فى السماء أربعين يوماً حتى خرج الرجل [وأصابه الحجر][٢]. ورُوِىَ أن الحجر اتبع شُرّادهم ومسافريهم أين كانوا فى البلاد حتى هلكوا.

وأورد بعضهم أن الله تعالى أهلك مدائن لوط سوى زعر، فإنه أبقاها للوطٍ وأهله.

قوله تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ قد بيّنّا أن الأخوّة هاهنا هى الأخوّة فى النسب لا فى الدين . وقال بعضهم: إنه لم يكن بين شعيب وأهل مدين أخوة فى النسب - أيضاً - وكان غريباً فيهم، وإنما أراد بالأخوّة المجانسة فى البشرية. والصحيح هو الأول.

---

(١) البيتان للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب. لسان العرب (١١ / ٣٢٦).

(٢) فى « الأصل »: وأصابته الحجارة.

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا

وقوله: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ظاهر المعنى. وقوله: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ معناه: ولا تبخسوا المكيال والميزان. وكانوا مع شركهم يطففون فى المكيال والميزان. ورُوىَ عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا مرّ بالسوق قال: أيها الباعة، أوفوا الكيل وأوفوا الوزن، وقد سمعتم ما فعل الله بقوم شعيب.

وعن ابن عباس قريبٌ من هذا.

وقوله: ﴿إنى أراكم بخير﴾ قال مجاهد: أى: بخصب وسعة.

وقوله: ﴿وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أى: محيط بكم فيهلككم.

قوله تعالى: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أى: بالعدل.

وقيل: بتقويم لسان الميزان. وقوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أى: لا تنقصوا الناس أشياءهم. وقوله: ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾.

قوله تعالى: ﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ معناه: ما أبقى الله لكم من الحلال خير مما تأخذون بالبخس فى المكيال والميزان. وقيل: بقية الله: طاعة الله.

وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أى: إن كنتم مؤمنين أنّ ما عندكم من رزق الله تعالى وعطائه.

قوله: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ قيل معناه: لم أؤمر بقتالكم . وقيل: ما أنا عليكم بحفيظ أى: بوكيل.

قوله تعالى: ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك﴾ فيه قولان:

أحدهما: أدينك يأمرك؟، والثانى: أقرآنك يأمرك أن نترك ﴿ما يعبد آباؤنا أو أن

يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ

نفعل فى أموالنا ما نشاء﴾ يعنى: من النقصان والزيادة. وقيل: من قرض الدراهم والدنانير، وكان قد نهاهم عن ذلك، وزعم أنه محرم عليهم.

وقوله: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ فيه قولان:

أحدهما: إنك لأنت الحليم الرشيد فى زعمك؛ قالوا ذلك استهزاء.

والثانى معناه: إنك لأنت السفيه الأحمق.

وقوله تعالى: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى﴾ معناه: على بيانٍ من ربى.

وقوله: ﴿ورزقنى منه رزقا حسنا﴾ معناه: رزقًا حلالاً. وفى القصة: أن شعيبًا كان كثير المال. وقيل: الرزق الحسن هاهنا: هو النبوة.

وقوله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ معناه: ما أريد أن آمركم بشىء وأعمل خلافه.

وقوله: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ ظاهر المعنى.

وقوله: ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾ دليل على أن الطاعة لا يُؤتى بها إلا بتوفيق الله، والتوفيق من الله: هو التسهيل والتيسير والمعونة.

قوله تعالى: ﴿عليه توكلت﴾ أى: عليه اعتمدت.

وقوله: ﴿وإليه أنيب﴾ معناه: إليه أرجع.

قوله: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى﴾ معناه: لا يكسبنكم ولا يحملنكم شقاقى أى: خلافى على فعل ﴿أن يصيبكم﴾ فيصيبكم ﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾ من

هُود أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا

الغرق ﴿أو قوم هود﴾ من الريح ﴿أو قوم صالح﴾ من الصيحة الصعقة. وقوله ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ قيل: إنهم كانوا جيران قوم لوط فى الديار، وكانت مدائنهم قريبًا بعضها من بعض.

قوله تعالى: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ قد بينا المعنى. وقوله: ﴿إن ربى رحيم ودود﴾ فى الودود معنيان:

أحدهما : أن الودود هو المحب لعباده.

والثانى : أن الودود بمعنى المودود أى: يحبّه العباد لفضله وإحسانه.

وفى الخبر المعروف أن النبى ﷺ قال: «أحبوا الله بما يغذوكم به من نعمه، وأحبونى بحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتى لحبى»(١).

وفى بعض الأخبار عن النبى ﷺ قال: «كان شعيب خطيب الأنبياء»(٢).

قوله تعالى: ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ معناه: ما نفهم كثيراً مما تقول. وقوله: ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفًا﴾ فى الضعيف أقوال، أكثر المفسرين أن الضعيف هاهنا: هو ضرير بالبصر. ويقال : إنه لغة حِمْير.

والقول الثانى: أن الضعيف هو الضعيف فى البدن.

والثالث : أنه قليل الأتباع.

(١) رواه البخارى فى التاريخ الكبير (١/ ١٨٣)، والترمذى (٥/ ٦٢٢/رقم٣٧٨٩)، وقال: حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه، والحاكم (٣/ ١٤٩-١٥٠) وصحح إسناده، والطبرانى فى الكبير (١٠/ ٢٨١/رقم١٠٦٦٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٢١١)، والخطيب فى تاريخه (٤/ ١٦٠)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٢٦٧) كلهم من حديث ابن عباس.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٦٨) عن ابن إسحاق معضلا، ونسبه السيوطى فى الدر (٣/ ١١١) إلى إسحاق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس مرفوعًا. وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١/ ١٨٥) من طريق إسحاق بن بشر.

وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ

وقوله: ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أى: ولولا عشيرتك لرجمناك، والرجم أقبح القتلات. وقوله: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ يعنى: ما أنت عندنا بعزيز، وإنما نتركك لمكان رهطك.

قوله تعالى: ﴿قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله﴾ معناه: أمكان رهطى عندكم أهيبُ وأمنع من الله تعالى؟ وحقيقة المعنى: أنكم تركتم قتلى بمكان رهطى فأولى أن تحفظونى فى الله تعالى.

وقوله: ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريا﴾ معناه: وألقيتم أمر الله تعالى وراء ظهوركم. يقال: فلان جعل كذا منه ظهريا أى: ألقاه وراء ظهره.

وقوله: ﴿إن ربى بما تعملون محيط﴾ ظاهر المعنى.

وذكر الأزهرى فى تقدير الآية ومعناها قال: إنكم تزعمون أنكم تتركون قتلى لكرامة رهطى، فأولى أن تكرموا أمر الله وتتبعوه؛ وحقيقة المعنى: هو الإنكار على من اتقى الناس ولم يتق الله. قال: وقوله: ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريا﴾ تقول العرب: فلان جعل كذا بظهر إذا تركه ولم يلتفت إليه. قال الشاعر:

تميم بن قيس لا تكُونَنَّ حاجَتِى　　　بظهر فلا يعيا علىَّ جَوَابُها

قوله تعالى: ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ قيل: المكانة: هى الحالة التى يتمكن فيها المرءُ من الفعل.

ومعنى الآية: اعملوا على تمكنكم ومنزلتكم ﴿إنى عامل﴾ على تمكنى ومنزلتى ﴿سوف تعلمون﴾ من ينجو ومن يهلك.

والآية فيها تهديد ووعيد شديد، وليس فى القرآن ﴿سوف تعلمون﴾ إلا فى هذه الآية.

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ

وقوله تعالى: ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ يذله ويفضحه ﴿ومن هو كاذب﴾ فيه حذف، وتقدير الآية: سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ومن هو كاذب يَخْزَى أيضًا.

وقوله: ﴿وارتقبوا إنى معكم رقيب﴾ يعنى: انتظروا إنى معكم منتظرٌ.

قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا﴾ معناه: لما جاء وقت عذابنا ﴿نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ والصيحة: الهلاك، تقول العرب: صاح فلان فى مال فلان أى: أهلكه، قال امرؤ القيس:

فدع عنكَ نهبا صِيحَ فى حَجَرَاتِه ... ولكنْ حديثًا ما حديثُ الرَّواحِلِ

رُوِىَ أن عليا - رضى الله عنه - تمثل بهذا البيت فى بعض أموره.

ويقال: إن الصيحة هاهنا صيحة جبريل - عليه السلام - صاح بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم، فهذا معنى قوله: ﴿فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾ أى: ميتين خامدين، لا يتحركون.

قوله: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ معناه: كأن لم يكونوا يقيمون فيها منعّمين مسرورين.

وقوله: ﴿ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ معناه: ألا خيبةً وهلاكًا لمدين كما خابت وهلكت ثمود.

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ معناه: بآياتنا التسع، وسلطان مبين أى: حُجَّة بينة، وكل سلطان ذُكر فى القرآن فهو بمعنى الحُجَّة. وقيل:

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا

ن السلطان مأخوذ من السليط، وهو الزيت الذى يُستضاء به.

قوله: ﴿إلى فرعون وملئه﴾ وملأه معلوم. قوله: ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ معناه: اتبعوا أمر فرعون فى اتخاذه إلها وترك الإيمان بموسى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أى: بمُرشد إلى خير وصلاح.

قوله تعالى: ﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾ معناه: يتقدم قومه يوم القيامة ﴿فأوردهم النار﴾ فأدخلهم النار. ﴿وبئس الورد المورود﴾ معناه: بئس الداخل وبئس المدخل.

وفى بعض المسانيد: عن أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الخلائق فى صعيد واحد، ثم يرفع لكل قوم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله، فيوردونهم النار، ويبقى المؤمنون، فيقول الله عز وعلا لهم: ماذا تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربّاً كنا نعبده بالغيب، فيقول لهم: هل تعرفونه؟ فيقولون: إن شاء عرفنا نفسه. قال: فيتجلى لهم، فيخرون له سجداً، فيقول الله سبحانه وتعالى: يا أهل التوحيد، ارفعوا رءوسكم؛ فقد أوجبت لكم الجنة، وجعلت مكان كل واحد منكم يهودياً أو نصرانياً»[1].

وقوله تعالى: ﴿وأتبعوا فى هذه لعنة﴾ معناه: فى الدنيا لعنة بعذاب التفريق ﴿ويوم القيامة﴾ لعنة بعذاب النار. وقوله: ﴿بئس الرفد المرفود﴾ يعنى: بئست اللعنة بعد اللعنة. وقال أبو عبيدة: أى: بئس العون (المعان)[2]، ومعناه هاهنا: أن اللعنة جعلت لهم فى موضع المعونة. وقيل: بئس العطاء المُعْطىَ.

قوله تعالى: ﴿ذلك من أنباءالقرى نقصه عليك﴾ معناه: من أخبار القرى نقصه

---

(١) رواه ابن أبى عاصم فى السنة (١ / ٢٨٠-٢٨١ / رقم٦٣٠)، والآجرى فى الشريعة (ص٢٦٢-٢٦٣) وأحمد (٤ / ٤٠٧-٤٠٨)، وابن خزيمة فى التوحيد (ص٢٣٦).

(٢) فى «ك»: المعاون.

ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ

عليك ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ أى: منها معمور وخراب. وقيل معناه: منها قائم أى: بقيت الحيطان، وسقطت السقوف. ومنها حصيد: أى: انمحى أثره.

قوله تعالى: ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ قد بيناه من قبل. وقوله: ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ﴾ يعنى: بالعذاب. وقوله: ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ أى: غير تخسير. وقيل: غير تدمير.

قوله تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ﴾ وجه التشبيه أن أخذه هؤلاء فى حال الظلم والشرك كأخذه أهل القرى حين كانوا فى مثل حالهم من الظلم والشرك. وقوله: ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ ظاهر المعنى.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله يمهل الظالم -أو يملى الظالم - حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ﴾. والخبر فى «الصحيحين» برواية أبى موسى الأشعرى[1].

قوله تعالى: ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ معناه: لعبرةً ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ ظاهر المعنى ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ يعنى: يوم القيامة يجمع الله فيه الأولين والآخرين ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ يعنى: يشهده جميع الخلق. وقيل: أهل السماء وأهل الأرض.

قوله تعالى: ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ يعنى: إلا لوقت معلوم عند الله لا

(١) رواه البخارى (٨/ ٢٠٥/ رقم٤٦٨٦)، ومسلم (١٦/ ٢٠٦/ رقم٢٥٨٣).

عند الناس.

ورُوِىَ عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، لا يدرى أحدكم ما مضى منها وكم بقى.

وقوله: ﴿يوم يأت﴾ وقرئ: «يوم يأتى» بالياء. وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول: لا أدرِ، أى: لا أدرى. وذكر الفراء أن العرب تجتزئ بالكسرة عن الياء بعدها. وقوله: ﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ فى الآية سؤال معروف وهو: أن الله تعالى قد قال فى (موضع)[1] آخر: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾[2] وقال هاهنا: ﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ فكيف وجه التوفيق بينهما؟

الجواب: قد ذكرنا أن فى القيامة مواقف؛ ففى موقف يتكلمون ويتساءلون، وفى موضع يسكتون ولا يتكلمون، وفى موقف يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم، وقيل غير هذا، وقد بينا.

وقوله: ﴿فمنهم شقى وسعيد﴾ الشقاوة: قوة أسباب البلاء، والسعادة: قوة أسباب النعمة. ومعنى الآية هاهنا عند أهل السنة: فمنهم شقى سبقت له الشقاوة، ومنهم سعيد سبقت له السعادة.

وفى الأخبار المسندة: أن عبد الرحمن بن عوف لما حضرته الوفاة أغمى عليه، فلما أفاق قال: أتانى ملكان فظّان غليظان وجرّانى وقالا: تعال نحاكمك إلى العزيز الأمين، قال: فلقيهما ملك وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال لهما: خليا عنه، فإنه ممن سبقت له السعادة فى الذكر الأول.

---

(١) فى «ك»: مواضع.

(٢) الصافات: ٢٧.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

وقد صحّ عن النبى ﷺ أنه قال فى خبر ملك الأرحام: «إنه إذا كتب أجله وعمله ورزقه يقول: يارب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله تعالى، ويكتب الملك». خرجه مسلم(١).

وروى ابن عمر عن عمر - رضى الله عنهما - «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ فمنهم شقى وسعيد ﴾ قال عمر: يا رسول الله: فيم العمل؟ أنعمل فى أمرٍ قد فرغ منه وجرت به الأقلام، أو فى أمرٍ لم يفرغ منه؟ فقال: بل فى أمر قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له». أورده أبو عيسى فى جامعه(٢).

وقال بعضهم: إن السعادة والشقاوة هاهنا فى الرزق والحرمان. وقال بعضهم: الشقاوة: بالعمل السيء، والسعادة: بالعمل الحسن. والمأثور الصحيح هو الأول.

قوله تعالى: ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ﴾ هذه الآية تُعَدُّ من مشكلات القرآن، وقد أكثر العلماء فيها الأقوال، ونذكر ما يعتمد عليه:

أما الزفير: قيل: إنه صوت فى الحلق، والشهيق: صوت فى الجوف. ويقال: إن الزفير: أول نهاق الحمير، والشهيق: آخر نهاق الحمير.

وقوله: ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ أما بالمعنى المأثور: روى الضحاك، عن ابن عباس: أن الآية نزلت فى قوم من المؤمنين يدخلهم الله تعالى النار، ثم يخرجهم منها إلى الجنة، ويسمّون الجهنميين. وقد ثبت برواية جابر أن النبى ﷺ

---

(١) مسلم (١٦/ ٢٩٢ - ٢٩٤ رقم ٢٦٤٣)، وهو عند البخارى أيضًا (٦/ ٥٩ رقم ٣٢٠٨) كلاهما من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه الترمذى (٥/ ٢٧٠ رقم ٣١١١)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، والطبرى (١٢/ ٧٠)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٧٤ رقم ١٧٠)، (١/ ٨٠ رقم ١٨١)، وعزاه السيوطى فى الدر (٣/ ٣٧٩) لأبى يعلى، وابن أبى حاتم، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

خَالدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ

قال: «يخرج الله قوماً من النار قد صاروا (حمماً)[1] فيدخلهم الجنة»[2].

وفى الباب أخبار كثيرة.

فعلى هذا القول معنى الآية: فأما الذين شقوا: هؤلاء الذين أدخلهم النار ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ ظاهر المعنى ﴿خالدين فيها﴾ مقيمين فيها ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ عبّر بهذا عن طول المكث.

وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾ الاستثناء وقع على ما بعد الإخراج من النار بشفاعة الأنبياء والمؤمنين.

وأما قوله: ﴿وأما الذين سعدوا ففى الجنة﴾ أراد به المؤمنين الذين أدخلهم الجنة من غير أن يدخلوا فى النار. وقوله: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ أى:مقيمين فيها ما دامت السموات والأرض، كنى بهذا عن طول المكث، والعرب تقول مثل هذا وتريد به الأبد، فإنهم يقولون : لا آتيك ما دامت السموات والأرض يعنى: لا آتيك أبدا، ولا آتيك ما كان لله فى البحر قطرة يعنى: لا آتيك أبداً. فخرج هذا الكلام على مخرج كلام العرب. وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ الاستثناء وقع على المدة التى كانوا فى النار قبل إدخالهم الجنة.

وفى الآية قولان آخران معروفان سوى هذا عند أهل المعانى:

أحدهما: أن معنى قوله: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ هو على ظاهره، أى: مدة بقاء السموات والأرض. وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ معناه: سوى ما شاء ربك من الزيادة على مدة بقائهما. وحكى الفراء عن العرب أنهم يقولون: لك علىَّ ألفٌ إلاَّ الألفين يعنى: سوى الألفين الذين تقدما.

(١) فى «ك»: فحماً.

(٢) متفق عليه، رواه البخارى (١١/٤٢٤/رقم٦٥٥٨)، ومسلم (٣/٥٨-٦٤/رقم١٩١).

مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا

والقول الثانى: أن معنى قوله: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ أى: ما دام سموات الجنة وأرضها. وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ الاستثناء واقف على زمان الوقوف فى القيامة ومدة المكث فى القبر.

وقيل فى الاستثناء قول ثالث وهو: أنه قال: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ معناه: ولو شاء لقطع التخليد عليهم، ولكن لا يشاء، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وما [يكون](١) لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾(٢) ولكن لا يشاء الله(٣). وقوله: ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ يعنى: لا يمتنع عليه شىء، وقال فى الآية الثانية: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ غير مقطوع.

وفى بعض التفاسير عن أبى هريرة أنه قال: يأتى على جهنم زمان لا يبقى فيها أحد. وعن الحسن البصرى قريباً من هذا.

ومعنى هذا عند أهل السنة - إن ثبت - أن المراد منه الموضع الذى فيه المؤمنون من النار، ثم يخرجون عنه فلا يبقى فيها أحد، وأما مواضع الكفار فهى ممتلئة بهم أبد الأبد على ما نطق به الكتاب والسنة، نعوذ بالله من النار.

قوله تعالى: ﴿فلا تك فى مرية﴾ فى شك ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ يقال: إن الخطاب معه والمراد منه الأمة. وقوله: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ ظاهر المعنى. وقوله: ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ قال ابن عباس معناه: لموفوهم نصيبهم من الخير والشر بلا نقصان.

(١) فى «الأصل، وك: كان.

(٢) الأعراف: ٨٩.

(٣) فى الكلام إضمار، وكان يجب إتمام الكلام لإيضاحه، ولقد قال المصنف - رحمه الله تعالى - عند تفسير هذه الآية فى سورة الأعراف: فإن قيل: وهل يشاء الله عودهم إلى الكفر؟ قيل: وما المانع منه، وإنما الآية على وفق قول أهل السنة، وكل ذلك جائز فى المشيئة .. إلى آخر كلامه.

مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ المراد من الآية: تسلية النبى ﷺ، كأنه قال: إن اختلفوا عليك ولم يؤمنوا بك فقد اختلفوا على موسى ولم يؤمنوا به. وقوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يعنى: لولا ما سبق من حكم الله بتأخير العذاب إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿لقضى بينهم﴾ أى: لعذبوا فى الحال وأهلكوا. وقوله: ﴿وإنهم لفى شك منه مريب﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وإن كلا﴾ قرئ: «وإنْ» «وإنَّ» - بالتخفيف والتشديد[1] -، أما «إنْ» و«إنَّ» قالوا: هما بمعنى واحد، قال الشاعر:

(ووجه)[2] حسن النحر كأنْ ثدييه حقان

معناه: كأنّ ثدييه حقان

وقوله: ﴿لمَا﴾ بالتخفيف قيل: «لما» بمعنى «لمن»، ويقال: إن اللام للقسم، كأن الله تعالى قال: وإن كلا لمن والله ليوفينهم ربك أعمالهم. وأما قوله: «لمّا» بالتشديد قيل: معنى «لمّا» بالتشديد هو معناها بالتخفيف. ذكره المازنى.

وقال الأزهرى: أصح المعانى أن «لمّا» بمعنى «إلا» أى: وإلا ليوفينهم ربك أعمالهم ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ ظاهر المعنى.

وقوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ معنى الاستقامة: هو المداومة على مُوجب الأمر والنهى. وقد رُوىَ عن النبى ﷺ برواية أبى مسلم الخولانى، عن عمر بن الخطاب- والصحيح عن أبى ذر- أنه قال ﷺ: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالحنائر[3]» - ومعناه: كالأوتاد- ثم كان الاثنان أحب إليكم

(١) قرأ نافع، وابن كثير، وأبو بكر بإسكان النون مخففة، وقرأ الباقون بتشديدها. انظر النشر (٢/ ٢٩٠ - ٢٩١).

(٢) كذا «بالأصل، وك»، ولعل الصواب: وصدر. والله أعلم.

(٣) الحنائر: جمع حنيرة، وهى القوس بلا وتر. النهاية (١/ ٤٥٠).

من الواحد لم تبلغوا حد الاستقامة»[1] . روى هذا الخبر جماعة من الزهاد؛ رواه حاتم الأصم، عن شقيق، عن إبراهيم بن أدهم، عن مالك بن دينار، عن أبى مسلم بهذا الإسناد.

وفى الخبر المعروف: أن النبى ﷺ قال: «استقيموا ولن تحصوا، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[2] . وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قال: الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى، ولا تروغ روغان الثعالب. وهذا أثر مشهور.

وقد رُوىَ غير هذا فى الاستقامة، يذكر فى موضعها.

وفى الخبر المعروف أيضًا : أن النبى ﷺ قال: «شيبتنى هود»[3] وفيه معنيان:

أحدهما: قال هذا لكثرة ما ذكر الله تعالى فى هذه السورة من إهلاك القرون الماضية (و)[4] الأمم السالفة.

والمعنى الثانى: أنه قال؛ لقوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾.

وقوله: ﴿ ومن تاب معك ﴾ معناه: ومن أسلم معك. وقوله: ﴿ ولا تطغوا ﴾ فيه معنيان:

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس (٣ / ٣٧٠ /رقم٥١٢٤)، وابن عساكر فى تاريخه (٢٣ / ١٣٢) وقال: مالك بن دينار لم يسمع من أبى مسلم.

وفى إسناده محمد بن فارس البلخى، ترجمه الذهبى فى الميزان (٤ / ١) وقال: لايعرف؛ وقد أتى بخبر باطل مسلسل بالزهاد. وأورده ابن عراق فى تنزيه الشريعة (٢ / ٣١١) ونقل كلام الذهبى.

(٢) رواه ابن ماجة (١ / ١٠١-١٠٢ /رقم٢٧٧)، وأحمد (٥ /٢٧٦-٢٧٧، ٢٨٠)، والطيالسى (ص١٣٤ /رقم٩٩٦)، والدارمى (١ /١٧٤-١٧٥ /رقم٦٥٥،٦٥٦)، والطبرانى فى الكبير (٢ / ١٠١ /رقم١٤٤٤)، وفى الصغير (٢ / ١٩١ /رقم١٠١١)، والحاكم (١ / ١٣٠) وصححه على شرط الشيخين، وابن حبان (٣ / ٣١١ /رقم١٠٣٧)، والبيهقى فى الكبرى (١ /٤٥٧)، والخطيب فى تاريخه (١ / ٢٩٣) من طرق عن ثوبان. وفى الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى أمامة.

(٣) رواه الترمذى (٥ /٣٧٦ /رقم٣٢٩٧)، وأبو يعلى (١ / ١٠٢ /رقم ١٠٧)، والحاكم (٢ /٣٤٣) و(٢ / ٤٧٦) وصححه على شرط البخارى، وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٥٠). وقد أعله ابن أبى حاتم فى العلل (٢ / ١١٠ /رقم١٨٢٦)، والدارقطنى فى العلل (١ /١٩٣-٢١١).

(٤) فى «ك» : فى.

وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

أحدهما: ولا تطغوا فى الاستقامة يعنى: لا تزيدوا على ما أَمرتُ ونهيتُ، فتحرموا ما أحل الله، وتكلفوا أنفسكم ما لم يشرعه الله ولم يفعله الرسول وأصحابه.

والمعنى الثانى: الطغيان هو البطر لزيادة النعمة. وقيل: الطغيان والبغى بمعنى واحد.

﴿إنه بما تعملون بصير﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ الركون: هو المحبة والمودة والميل بالقلب. وعن أبى العالية الرياحى قال: هو الرضا بأعمالهم. وعن السدى قال: هو المداهنة معهم. وعن عكرمة قال: هو طاعتهم. وقوله: ﴿فتمسكم النار﴾ أى: فتصيبكم النار.

وقوله: ﴿وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار﴾ قال الحسن البصرى: طرفى النهار: الصبح والعصر، ﴿وزلفا من الليل﴾: المغرب والعشاء.

وقال مجاهد: طرفى النهار: الصبح والظهر والعصر، وزلفا من الليل: المغرب والعشاء.

وعلى هذا القول: الآية جامعة للصلوات الخمس. وعن بعضهم: طرفا النهار: الصبح والمغرب، وزلفا من الليل: العتمة.

ومعنى قوله: ﴿زلفا من الليل﴾: ساعات الليل. وقيل: ساعة من الليل. وقرأ مجاهد: «وزُلْفَى من الليل» وقرأ ابن محيصن: «وَزُلْفًا من الليل». والمعروف: زُلَفاً من الليل. قال الشاعر:

طيّ الليالى زُلَفاً فزلفا ... سماوةَ الهلال حتى احْقَوْقَفا

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾

وسبب نزول الآية: ما روى عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – «أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى دخلت بستانا فأصبت امرأة، فنلت منها ما ينال الرجل من امرأته، إلا أنى لم أجامعها، وها أنا ذا بين يديك فاصنع ما شئت، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وأقم الصلاة﴾ إلى أن قال: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾. قال معاذ بن جبل: يا رسول الله– وفى رواية قال: جاء رجل من القوم فقال: يا رسول الله – هذا له خاصة أو للمسلمين عامة؟ فقال رسول الله ﷺ: بل للمسلمين عامة»(١).

وروى أبو أمامة الباهلى: «أن رجلا أتى رسول الله وقال: يا رسول الله: إنى أصبت حدا فأقمه علىَّ، فقال: هل شهدت معنا هذه الصلاة وقد تطهرت؟ فقال: نعم. قال عليه السلام: اذهب فقد غفر الله لك ما أصبت»(٢). وروت عائشة – رضى الله عنها – أن النبى ﷺ قال: «لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه خمس مرات فى اليوم، هل يُبْقِى من درنه شيئًا؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا»(٣). وهذا خبر صحيح.

وفى تكفير الخطايا بالصلوات الخمس خبر عثمان – رضى الله عنه – وذكر فيه: «أن كل صلاة تكفر ما بينها وبين الصلاة الأخرى»(٤). وعن سلمان – رضى الله عنه

---

(١) متفق عليه، رواه البخارى (٨/٢٠٦/رقم٤٦٨٧)، ومسلم (١٧/١٢٤–١٢٦/رقم٢٧٦٣).

(٢) رواه مسلم (١٧/١٢٧–١٢٨/رقم٢٧٦٥)، وأبو داود (٤/١٣٥/رقم٤٣٨١)، والنسائى فى الكبرى (٤/٣١٥/رقم ٧٣١٣–٧٣١٦).

(٣) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخارى (٢/١٤–١٥/رقم٥٢٨)، ومسلم (٥/٢٣٧–٢٣٨/رقم٦٦٧). وفى الباب عن أب سعيد وعثمان.

(٤) متفق عليه، رواه البخارى (١/٣١٤/رقم١٦٠)، ومسلم (٣/١٣٨–١٤٠/رقم٢٢٧).

– أنه كان قاعداً فى ظل شجرة فأخذ منها غصنًا يابسًا وهزّه فتحاتّ عنه الورق، ثم قال: هل تدرون لم فعلت هذا؟ قالوا: لا. فقال: من تطهر وصلى الصلوات الخمس تحاتت عنه الذنوب كما تحات هذا الورق من هذا الغصن. وعن أبى اليسر– رجل من الأنصار– «أن امرأة أتت إليه تطلب تمرًا تشتريه، فقال: فى الدكان تمر أجود مما ترينه، قال: فدخلت الدكان فقبلها والتزمها، وأصاب منها ما يصيب الرجل من امرأته إلا أنه لم يجامعها، ثم جاء إلى النبى – عليه السلام – وذكر له ذلك، وقال: افعل بى ما شئت، فسكت النبى ﷺ ساعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ إلى أن قال: ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾(١).

ورُوِىَ عن معاذ أنه قال: يا رسول الله، أوصنى، فقال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن(٢)».

فهذه الأخبار كلها دالة على معنى الآية.

وفى بعض التفاسير: أن رجلا جلس إلى سعيد بن المسيب، فسمعه ابن المسيب يقول: اللهم وفقنى للباقيات الصالحات، فقال له سعيد: وما الباقيات الصالحات؟ قال: الصلوات الخمس، فقال سعيد: لا، إنما الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وإنما الصلوات الخمس هى الحسنات.

وقوله: ﴿ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ يعنى: ذلك عظة للمتعظين.

---

(١) رواه الترمذى (٥/ ٢٧٢–٢٧٣/رقم٣١١٥) وقال: حسن صحيح، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٣٦٦/رقم ١١٢٤٨)، والطبرى (١٢/ ٨٢)، والبزار (٦/ ٢٧١/رقم ٢٣٠٠)، والطبرانى فى الكبير (١٩/ ١٦٥/رقم ٣٧١)، والهيثم بن كليب فى مسنده (٣/ ٤٠٦/ ١٥٣٠).

(٢) رواه الترمذى (٤/ ٣١٣/رقم١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ٢٢٨،٢٣٦)، والطبرانى فى الكبير (٢٠/ ١٤٤،١٤٥/رقم٢٩٥–٢٩٨)، وفى الصغير (٢/ ٣٢٠/رقم٥٣٠)، والهيثم بن كليب (٣/ ٢٦٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٧٨). وانظر كلام الدارقطنى عليه فى العلل (٦/ ٧٢/رقم ٩٨٧).

فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى: ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ظاهر المعنى، حث على الصبر على هذه الصلوات، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

قوله: ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم ﴾ الآية، قوله: «فلولا» معناه: فهلا، وقيل: فلم لا، والآية للتوبيخ والتعجيب. وقوله: ﴿ أولوا بقية ﴾ قيل: أولوا طاعة. وقيل: أولوا تمييز. وقيل: أولوا بقية من خير. ويقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على طاعة، أو مسكة من عقل، أو على خصلة محمودة. وقوله: ﴿ ينهون عن الفساد فى الأرض ﴾ يعنى: يقومون بالنهى عن الفساد. وقوله: ﴿ إلا قليلا ﴾ هذا استثناء منقطع، ومعناه: لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون (نهوا)[1] عن الفساد.

وقوله: ﴿ ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ المترف: هو المتنعم. وقيل: هو المعود بالسعة واللذة. وقيل: المترف: هو الذى أبطره الغنى والنعمة.

فمعنى الآية: واتبع الذين ظلموا ما عُوِّدُوا من ركوب الشهوات واللذات.

﴿ وكانوا مجرمين ﴾ ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ فى الآية قولان:

أحدهما: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك إذا تعاطوا الإنصاف فيما بينهم، ولم يظلم بعضهم بعضاً.

والثانى: هو أن الله لا يظلم أهل قرية فيهلكهم بلا جناية. والأول أشهر.

قوله تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ أى: ولو شاء ربك لجعل

(١) فى «ك»: ينهون.

إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي

الناس على دين واحد.

وقوله: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ المراد منه: أهل الباطل كاليهود والنصارى والمجوس وأهل الشرك، وكذلك من خالف السنة من أهل القبلة.

وقوله: ﴿إلا من رحم ربك﴾ أى: لكن من رحم ربك، وهم أهل الحق لا يختلفون. وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ فيه أقوال:

أحدها: ما رُوِىَ عن مجاهد أنه قال: وللرحمة خلقهم. وهو مروى عن ابن عباس. وقال الحسن البصرى: وللاختلاف خلقهم. وهو أيضًا مروى عن ابن عباس، وعن الحسن البصرى فى رواية أخرى: خلق أهل الجنة للجنة، وخلق أهل النار للنار، وخلق أهل الشقاء للشقاء، وخلق أهل السعادة للسعادة.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: إن الذى أختاره فى معنى الآية: أنه خلق فريقًا للرحمة وفريقًا للعذاب. قال: وعليه أهل السنة.

وذكر بعضهم: أن مقصود الآية هو أن أهل الباطل مختلفون، وأهل الحق متفقون، وخلق أهل الباطل للاختلاف، وخلق أهل الحق للاتفاق.

قال النحاس: وهذا أبين الأقوال وأسرحها.

واستدل أبو عبيد على ما زعم من المعنى بقوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ قال: ومعناه: وتم حكم ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين.

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال - حاكيًا عن الله محاجة الجنة والنار، فقال للجنة: «أنت رحمتى أرحم بك من شئت من عبادى، وقال للنار: أنت عذابى أعذب بك من شئت، ولكل واحدة منكما ملؤها[(١)]».

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة، رواه البخارى (١٣/ ٤٤٣-٤٤٤/ رقم٧٤٤٩)، ومسلم (١٧/ ٢٦٤-٢٦٦/ رقم٢٨٤٦).

هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ معناه: وكل الذى تحتاج إليه من أنباء الرسل نَقُصُّها عليك؛ لنثبت بها فؤادك. فإن قيل: قد كان فؤاده ثابتا فأيش معنى قوله: ﴿لنثبت به فؤادك﴾؟[١].

قلنا معناه: لتزداد ثباتا، وهذا مثل قوله تعالى فى قصة إبراهيم: ﴿ولكن ليطمئن قلبى﴾[٢].

وقوله: ﴿وجاءك فى هذه الحق﴾ الأكثرون أن معناه: وجاءك فى هذه السورة الحق. وقال بعضهم: وجاءك فى هذه الدنيا الحق.

فإن قيل: أى فائدة فى تخصيص هذه السورة وقد جاءه الحق فى كل سورة؟

قلنا: فائدته: تشريف السورة، وتشريفها بالتخصيص لا يدل على أنه لم يأته الحق فى غيرها، ألا ترى أن الإنسان يقول: فلان فى الحق إذا حضره الموت، وإن كان فى الحق قبله وبعده.

قوله: ﴿وموعظة﴾ معناه: وجاءتك موعظة ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ أى: وتذكير للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون﴾ معنى الآية: هو التهديد والوعيد على ما بيّنّا من قبل.

وقوله: ﴿وانتظروا إنا منتظرون﴾ فى معنى الآية.

قوله تعالى: ﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أى: ولله علم ما غاب فى السموات والأرض.

وقوله: ﴿وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه﴾ معناه: إليه يرجع أمر العباد فيجازيهم على الخير والشر ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ يعنى: أنه لا يغيب عنه شيء من أعمال العباد وإن صغر، والله أعلم.

---

(١) الفرقان: ٣٢ (٢) البقرة: ٢٦٠.

